أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها

من غرائب آي التنزيل

1236

سؤال وجواب

تأليف

محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

راجعه وأشرف على تحقيقه

فضيلة الشيخ / أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

تحقيق

أبي عبد الرحمن عادل شوشة

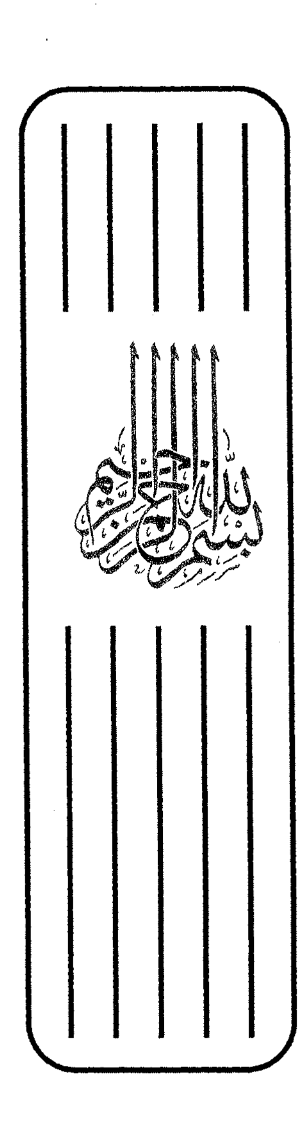




أسئلة القرآن المجيد
وأجوبتها

من غرائب آي التنزيل

1236 سؤال وجواب



الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم إيداع: ٢٠٠٧/١١٤٣٩

الناشر

مكتبة فياض

للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة - عزبة عقل - شارع الهادي

هاتف: ٠٥٠٢٢٦٧٣٩٨ - ٠٥٠٢٣٧٥٩٤٣



تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبعد:

فهذا كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» لمحمد بن أبي بكر الرازي - رحمه الله تعالى وغفر له - وأورد فيه أسئلة حول بعض الآيات لدفع الإشكالات التي قد يوردها البعض وأجاب عليها فشفى الله به صدورًا في كثير من المواطن فجزاه الله خيرًا.

هذا، وقد قام أخونا في الله / عادل شوشة - حفظه الله تعالى - بتخريج ما فيه من أحاديث، والحكم عليها بما تستحق صحةً أو ضعفًا، وقد راجعت صنيع أخي من أحكامه على الأحاديث والآثار فألفيته نافعًا وموفقًا ولله الحمد، فأسأل الله أن يجازيه خيرًا ويوفقه لمواصلة طلب العلم الشرعي.

هذا وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
والحمد لله رب العالمين.

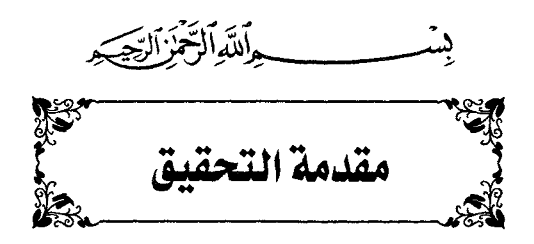
كتبه

أبو عبد الله/ **مصطفى بن العدوي**

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة التحقيق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد:

فبين أيدينا كتاب جليل - مَنَّ الله عليَّ بخدمته وتحقيقه - من كتب معاني القرآن وتفسير غوامضه وحل مشكلاته للإمام اللغوي الفقيه المفسر الأديب محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي الحنفي صاحب كتاب «مختار الصحاح»، عالج فيه المصنف العديد من المسائل المشكلة والغامضة - فمسائله تزيد على مائتي وألف سؤال - وهو يتميز بسهولة عبارته وإيجازه ووضوحه، اختصر المصنف فيه ما وجده في كتب العلماء الذين سبقوه بالكتابة في هذا الفن، وكمله بما فتح الله عليه به - بسبب الصحبة الصالحة للعلماء - بغرائب لم يسمعها من العلماء ولا رآها في كتبهم، وحصلت له بسبب مذاكرة أخ له من إخوان الصفاء في دين الله ومحبة كتابه فتح الله عليه في هذا الباب، وحرص المصنف - رحمه الله - على تسهيل الكتاب على القراء ليعم النفع به كما قال في مقدمته: قصدت اختصار هذا الأنموذج وتقريبه إلى الأفهام؛ ليكثر الانتفاع به، ولا يهجر لدقته وغموضه، وأما المسائل التي تتعلق بوجوه

الإعراب، وبالمعاني التي هي أدق على الأفهام وأخفى فإني وضعت لها أنموذجًا آخر. اهـ.

ولقد عرف هذا الكتاب عند أهل العلم بعدة عناوين هي[١]:

١ - أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل.

٢ - أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها.

٣- من غرائب آي التنزيل.

٤ - مسائل الرازي.

ومما سبق تتضح أهمية هذا الكتاب القيم الذي سدَّ فراغًا في فن الكتابة في معاني القرآن وتفسير غوامضه، فرحم الله مؤلفه رحمة واسعة، وأجزل مثوبته على ما قدمه للإسلام والمسلمين.

* * *

(١) انظر: كشف الظنون (١/ ٩٢)، والأعلام للزركلي (٦/ ٥٥)، وهدية العارفين (٢/ ١٢).

عملي في الكتاب

١- ضبط نص الكتاب ومراجعته.

٢- تخريج الآيات القرآنية.

٣- تخريج الأحاديث النبوية والنظر في أسانيدها والحكم عليها بما تستحقه صحة وضعفًا، مع بيان أقوال أهل العلم في الأحاديث وتوضيح علل الأحاديث المعلولة والمختلف في تصحيحها، وتوضيح الفوائد المتعلقة ببعضها ، وإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما، إلا أن تكون هناك فائدة في العزو إلى غيرهما من بيان لفظ ونحوه.

٤- مقارنة ألفاظ الأحاديث التي ذكرها المصنف مع الألفاظ الواردة في الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم، وبيان الاختلافات والفروق بين الألفاظ - إن وجدت - مع التوضيح والتبيين لمن خرج الحديث بلفظه ولمن خرجه بنحوه.

٥- تخريج الآثار الموقوفة وتصحيح نسبتها إلى قائليها في حالة وجود خطأ في ذلك.

٦- تخريج بعض الأشعار ونسبتها إلى قائليها على وفق ما تيسر.

٧- الترجمة الموجزة لبعض الأعلام - لا سيما من الشعراء والأدباء - الذين لا يعرفهم كثير من الناس أو الذين اشتهروا بألقابهم فقط.

٨- ضبط مشكل الكلمات وشرح غريب الألفاظ وتحرير بعض المسائل المختلف فيها لا سيما إذا كان الراجح في خلاف ماذهب إليه المصنف - رحمه الله.

٩- كتابة نبذة مختصرة عن الكتاب وموضوعه في المقدمة.

١٠- عمل ترجمة موجزة للإمام الرازي.

تلك عشرة كاملة حرصت على تطبيقها أثناء تحقيق هذا الكتاب فما كان من توفيق فالفضل لله وحده، وما كان من خطأ أو زلل أو سهو فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل، وسائر أعمالي حجة لي لا

عليّ وأن يجعلها في ميزان حسناتي يوم القيامة ، وأن يجعلها خالصة لوجهه سبحانه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، وأن يرزقنا العلم والعمل، وأن يجزل المثوبة لمؤلف الكتاب - رحمه الله - وسائر علماء المسلمين.

وكتبه أبو عبد الرحمن

عادل شوشة

مصر - المنصورة

❊ ❊ ❊

نبذة مختصر عن مؤلف الكتاب -رحمه الله تعالى

اسمه ونسبه:

هو زين الدين [1] أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي اللغوي، الفقيه، المفسر، الأديب أصله من الري، وزار مصر والشام، وأقام بقونية.

مكانته العلمية:

كان - رحمه الله - من فقهاء الحنفية، وله علم بالتفسير والأدب واللغة.

مما يوضح مكانته العلمية ما ذكره العلماء من الثناء على كتابه الشهير مختار الصحاح، قال مؤلف اكتفاء القنوع بما هو مطبوع: اختصره عن صحاح الجوهري واستعان أيضًا بكتاب التهذيب للأزهري الهروي المتوفى ٣٧٠هـ الوارد بين المعجمات غير المطبوعة فصار المختار أصح من الصحيح وهو بالحقيقة جوهرة من الجواهر .اهـ.

وقال صاحب كشف الظنون في أهمية اختصار الرازي للصحاح:

واقتصر فيه على ما لا بد منه في الاستعمال.

وضم إليه كثيرًا من «تهذيب الأزهري» وغيره.

وصدر فوائده بقلت، وكل ما أهمله الجوهري من الأوزان ذكره بالنص على حركاته أو برده إلى واحد من الأوزان العشرين التي ذكرها في أول كتابه، وهو مشهور متداول بين الناس.

من تصانيفه:

١ - مختار الصحاح.

---

(١) لقب بذلك كما في الأعلام (٦/ ٥٥)، ومعجم المؤلفين (٩/ ١٢٢)، ولقب بشمس الدين أيضًا كما في كشف الظنون (١/ ٩٢)، وهدية العارفين (٢/ ١٢).

٢- روضة الفصاحة في غريب القرآن.

٣- دقائق الحقائق في التصوف.

٤- حدائق الحقائق في المواعظ وهو مختصر جمعه من الأحاديث والآثار والمواعظ وجعله ستين باباً.

٥- كنوز البراعة في شرح المقامات للحريري.

٦- تحفة الملوك «في الفقه».

٧- هداية الاعتقاد في شرح بدء الأمالي.

٨- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وغيرها من المؤلفات التي تدل على تبحره في أنواع من العلوم.

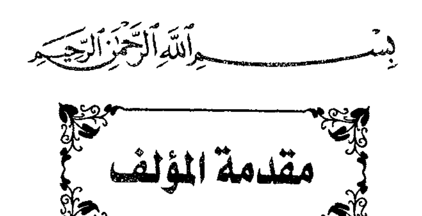
وأما عن وفاته - رحمه الله:

ففي كشف الظنون وهدية العارفين وإيضاح المكنون أنه توفي سنة ٦٦٠ هـ، وهذا وهم أو تصحيف؛ لأنه فرغ من تأليف مختار الصحاح سنة ٦٦٠هـ، وزار مصر والشام، وكان في قونية سنة ٦٦٦هـ كما في الأعلام للزركلي، وفي كشف الظنون ٢/ ١٢٠٧ بعد ذكر جماعة ممن أفردوا غريب القرآن بالتأليف قال: والإمام زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي صاحب «مختار الصحاح»، أوله: «الحمد لله بجميع محامده... إلخ».

ذكر فيه: أن طلبة العلم وحملة القرآن سألوه أن يجمع لهم تفسير غريب القرآن فأجاب، ورتب ترتيب (الجوهري)، ضم فيه شيئًا من الإعراب والمعاني، وفرغ من تعليقه في سنة ٦٦٨ هـ، ثمان وستين وستمائة هجرية .اهـ.

وعليه فوفاته رحمه الله تعالى كانت في سنة ٦٦٨ هـ أو بعدها بقليل والله أعلم.

* * *



مقدمة المؤلف

قال الفقير إلى رحمة الله ربه ومغفرته: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، عفا الله عنه، وغفر له ولجميع المسلمين:

الحمدُ لله رب العالمين، هذا مختصر جمعت فيه أنموذجًا يسيرًا مِن أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها؛ فمنه ما نقلته من كتب العلماء إلا أني نقحتُه ولخصتُه، ومنه ما فتح اللهُ تعالى عليَّ به، بسبب مذاكرة أخ لي من إخوان الصفاء في دين الله ومحبة كتابه؛ وكان صالحًا تقيًّا سليم الفطرة وقاد الذهن، جامعًا لجملةٍ مِن مكارم الأخلاق وصفات الكمال الإنساني. أنعم الله تعالى عليَّ بصحبته ومذاكرته في معاني كتابه. وكان شديدَ العناية بها، كثير البحث والسؤال عنها؛ قد هداه اللهُ إليها، وفتح عليه فيها بغرائب لم نسمعها من العلماء، ولا رأيناها في كتبهم. فحملتني فكرته القادحة ونيته الصالحة على جمع هذه الصّبابة[1]؛ وهي تزيد على ألف ومائتي سؤال؛ وإن كانت بالنسبة إلى ما في القرآن من العجائب والغرائب كالقطرة من الدَّأماء[2]، والسّها[3]، من نجوم السماء؛ ولكن، قصدت اختصارَ هذا الأنموذج منها وتقريبه إلى الأفهام، ليكثر الانتفاعُ به، ولا يُهْجَرُ لدقّته وغموضه.

وأما الأسئلة التي تتعلق بوجوه الإعراب، وبالمعاني التي هي أدق على الأفهام وأخفى، فإني وضعت لها مختصرًا آخر، وأودعته أنموذجًا منها أيضًا، فليطلب ثمة.

وبالله أستعينُ، وعليه أتوكلُ، وإليه أتضرعُ في أن يجعل علمي وعملي خالصًا لوجهه الكريم، ويتغمدني وأخي الصالح بمغفرته ورحمته؛ إنه غفور رحيم.

* * *

---

(١) الصبابة: تقال للشيء القليل أو لما تبقى من الشيء، كالقليل من الماء أو البقية منه.

(٢) أي من البحر، يقال: تأدم الماء الشيء إذا غمره.

(٣) هو كوكب تصعب رؤيته يقال له : الصَّيْدَقُ.

سورة فاتحة الكتاب[١]

١- **فإن قيل:** الرحمن أبلغ في الوصف بالرحمة من الرحيم، بالنقل عن الزجاج[٢] وغيره، فكيف قدمه؟ وعادة العرب في صفات المدح الترقي من الأدنى إلى الأعلى، كقولهم: فلان عالم نحرير؛ لأن ذكر الأعلى أولًا، ثم الأدنى لا يتجدد فيه، بذكر الأدنى، فائدة؛ بخلاف عكسه؟

قلنا: قال الجوهري[٣] وغيره: إنهما بمعنى واحد، كنديم وندمان؛ فعلى هذا لا يرد السؤالُ. وعلى القول الأول: إنما قدمه؛ لأن لفظ الله اسم خاص بالباري تعالى. لا يسمى به غيره. لا مفردًا ولامضافًا؛ فقدمه. والرحيم يوصف به غيره مفردًا ومضافًا فأخره. والرحمن يوصف به غيره مضافًا ولا يوصف به مفردًا إلا الله تعالى؛ فوسَّطه.

٢- **فإن قيل:** كيف قدم العبادة على الاستعانة، والاستعانة مقدمة؛ لأن العبد يستعينُ بالله على العبادة؛ فيعينه الله تعالى عليها؟

قلنا: الواو لا تدل على الترتيب، أو المراد بهذه العبادة التوحيد، وهو مقدم على الاستعانة على أداء سائر العبادات؛ فإنَّ مَنْ لم يكن موحدًا لا يطلب الإعانة على أداء العبادات.

٣- **فإن قيل:** المراد بالصراط المستقيم: الإسلام، أو القرآن، أو طريق الجنة، كما قيل بالنقل؛ والمؤمنون مهتدون إلى ذلك؛ فما معنى طلب الهداية لهم بقولهم: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] ؛ إذا فيه تحصيل الحاصل؟

---

(١) تسميتها بفاتحة الكتاب ثبت في السنة في أحاديث كثيرة منها قول النبي ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**». ومعنى فتحها الكتاب أنها جعلت أول القرآن لمن يريد أن يقرأ القرآن من أوله، فتكون فاتحة بالجعل النبوي في ترتيب السور. انظر التحرير والتنوير (١/ ٧٤).

(٢) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج النحوي اللغوي ولد ببغداد سنة ٢٤١هـ وتوفي بها سنة ٣١١هـ.

(٣) هو إمام اللغة أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٣٩٣هـ.

قلنا: معناه ثبتنا عليه وأدمنا على سلوكه؛ خوفًا مِن سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، كما تقول العرب للواقف: قِفْ حتى آتيك، معناه: دم على وقوفك واثبت عليه، أو معناه: طلب زيادة الهدى كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧]. وقال عز وجل: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًىۗ ﴾ [مريم: ٧٦].

٤- **فإن قيل:** ما فائدة دخول «لا» في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ والضالين كافٍ في المقصود؟

قلنا: فائدته تأكيد النفي الذي دل عليه غير.

❊ ❊ ❊

سورة البقرة [1]

٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] على سبيل الاستغراق؟ وكم ضال قد ارتاب فيه! ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

قلنا: المراد أنه ليس محلًّا للريب، أو معناه: لا ريب فيه عند الله ورسوله والمؤمنين، أو هو نفي معناه النهي: أي لا ترتابوا فيه أنه مِنْ عند الله تعالى. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧].

٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون فكأن فيه تحصيل الحاصل؟

قلنا: إنما صاروا متقين بما استفادوا منه مِن الهدى، أو أراد أنه ثبات لهم على الهدى وزيادة فيه، أو خصهم بالذكر، لأنهم هم الفائزون بمنافعه، حيث قبلوه واتبعوه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، أو أراد الفريقين مَنْ يتقي ومَنْ لم يتق، واقتصر على أحدهما، كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[2] [النحل: ٨١].

٧- **فإن قيل:** المخادعة إنما تتصور في حق مَنْ يخفى عليه الأمور، ليتم الخداعُ في حقه، يقال: خدعه إذا أراد به المكروه مِن حيث لا يعلم؛ والله تعالى لا يخفى عليه شيء؛ فكيف قال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾؟

---

(١) سميت بسورة البقرة في غير حديث ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه»، وفيه عن عائشة لما نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا قرأهن رسول الله ثم قام فحرم التجارة في الخمر. ووجه تسميتها أنها ذكرت فيها قصة البقرة التي أمر الله بنى إسرائيل بذبحها لتكون آية ووصف سوء فهمهم لذلك وهي مما انفردت به هذه السورة بذكره.
ونزلت سورة البقرة بالمدينة بالاتفاق وهي أول ما نزل في المدينة، قال ابن عاشور: وقد عدت سورة البقرة السابعة والثمانين في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة المطففين وقبل آل عمران. انظر: التحرير والتنوير (١/ ١١٧).

(٢) فالسرابيل: القمص، وقيل: هي كل ما لبس وتسربل به كالقميص والدرع. تقي من الحر والبرد، واقتصر في الآية على ذكر الحر؛ لأنه أكثر أحوال بلاد المخاطبين في وقت نزولها.

قلنا: معناه يخادعون[(١)] رسول الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، أو سمى نفاقهم خداعًا لشبهه بفعل المخادع.

٨- **فإن قيل:** كيف حصر الفسادَ في المنافقين، بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، ومعلوم أن غيرهم مفسد؟

قلنا: المراد بالفساد الفسادُ بالنفاق، وهم كانوا مختصين به.

٩- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[(٢)] [البقرة: ١٥]، والاستهزاء من باب العبث والسخرية. وهو قبيح. والله تعالى منزه عن القبيح؟

قلنا: سمي جزاء الاستهزاء استهزاءً مشاكلةً؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى ٤٠] فالمعنى: الله يُجازيهم جزاء استهزائهم.

١٠- **فإن قيل:** ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] ومعلوم أن الصيب[(٣)] لا يكون إلا من السماء؟

قلنا: فائدة أنه ذكر السماء معرفة وأضافه إليها ليدل على أنه من جميع آفاقها، لا من أفق واحد، إذ كل أفق يسمى سماء. قال الشاعر[(٤)]:

وَمِنْ بُعْدِ أرضٍ بَيْنَنا وَسَماءِ

١١- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، مع أن المشركين لم يكونوا عالمين أنه لا ند له، ولا شريك له؛ بل كانوا يعتقدون أن له أندادًا وشركاء؟

---

(١) ولا يمنع أن يكون المعنى يخادعون الله، أي: يظنون أنهم يخدعون الله.

(٢) قلت: الأولى إجراؤها على ظاهرها كسائر الأفعال.

(٣) المراد به المطر أو السحاب.

(٤) ما ذكره المصنف عجز بيت من الطويل - نسب لأبي الجراح في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣ وانظر الخصائص ٢/ ٨٩، والمحتسب ١/ ٣٩ وابن يعيش ٤/ ٣٨ والهمع ١/ ٦١ والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ١/ ٧٣ عزاه الفراء في معاني القرآن (٢/ ٢٣) لأبي الجراح وتمامه:

فأَوِّهِ من الذكرى إذا ما ذكرتها ... ومن بُعد أرض بيننا وسماء

قلنا: معناه وأنتم تعلمون أن الأنداد لا يقدرون على شيء مما سبق ذكره في الآية، أو وأنتم تعلمون أنه ليس في التوراة والإنجيل جوازُ اتخاذ الأنداد.

١٢- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤] فعرّف النار هنا، ونكّرها في سورة التحريم؟[١].

قلنا: لأن الخطاب في هذه مع المنافقين، وهم في أسفل النار المحيطة بهم، فعرفت بلام الاستغراق أو العهد الذهني، وفي تلك مع المؤمنين، والذي يُعذَّبُ مِن عصاتهم بالنار يكون في جزء من أعلاها، فناسب تنكيرها لتقللها.

وقيل: لأنّ تلك الآية نزلت بمكة، قبل هذه الآية، فلم تكن النارُ التي وقودها الناس والحجارة معروفة، فنكرها. ثم نزلت هذه الآيةُ بالمدينة، فَعُرِّفت؛ إشارة بها إلى ما عرفوه أولًا.

١٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢] ليسا فعلين متغايرين، فينهوا عن الجمع بينهما؛ بل أحدهما داخل في الآخر؟

قلنا: هما فعلان متغايران، لأن المراد بتلبيسهم الحق بالباطل كتابتهم في التوراة ما ليس منها، وبكتمانهم الحق قولهم: لا نجد في التوراة صفة محمد ﷺ.

١٤- **فإن قيل:** قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، ما فائدة الثاني والأول يدل عليه ويقتضيه؟

قلنا: قوله: ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، أي مُلاقُوا[٢] ثواب ربهم، وما وعدهم على الصبر والصلاة؛ وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي موقنون بالبعث؛ فصار المعنى: أنهم موقنون بالبعث وبحصول الثواب الموعود؛ فلا تكرار فيه.

١٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]؛

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

(٢) قلت: هذا حيود عن الظاهر فكم من آية أثبتت لقاء المؤمنين ربهم عز وجل كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وكقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ [التوبة: ٧٧]، وكقوله ﷺ: «**إنكم ستلقون ربكم..**».

وهم لم يبدلوا غير الذي قيل لهم؛ لأنهم قيل لهم: قولوا حِطَّةٌ[١]، فقالوا: حنطة؟

قلنا: معناه فبدّل الذين ظلموا قولًا، قيل لهم. وقالوا قولًا، غير الذي قيل لهم.

١٦- **فإن قيل:** قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، العثو: الفساد؛ فيصير المعنى: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟

قلنا: معناه ولا تعثوا في الأرض بالكفر، وأنتم مفسدون بسائر المعاصي.

١٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] وطعامهم كان المن والسلوى[٢] وهما طعامان؟

---

(١) أي: احطط عنا خطايانا، وفي صحيح البخاري (٤٤٧٩) من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**قيل لبني إسرائيل:** ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] **فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدّلوا وقالوا: حطة: حبة في شعيرة**» وفي تفسير ابن كثير، وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حبةٌ في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

(٢) في القاموس المن: كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ وقال الإمام ابن كثير: وعبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم مَنْ فسره بالطعام، ومنهم مَنْ فسره بالشراب، والظاهر، والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب، وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعامًا وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شرابًا طيبًا، وإن ركب مع غيره صار نوعًا آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن عبد الملك، عن عمر بن حريث عن سعيد بن زيد ﵁، قال: قال النبي ﷺ: «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين**». وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسُّمَّاني، كانوا يأكلون منه. وقال السدي في خَبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مُرّة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: السلوى: طائر يشبه السُّمَّاني، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا قرّة بن خالد، عن جهضم، عن ابن عباس قال: السلوى: هو السمَّاني، وكذا قال مجاهد، والشعبي، والضحاك، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس رحمهم الله، وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور، أو نحو ذلك. وقال ابن عطية: السلوى: طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلي في قوله: إنه العسل، وأنشد في ذلك مستشهدًا:

=

قلنا: المراد أنه دائم غير متبدل وإن كان نوعين.

١٨- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق؟

قلنا: معناه بغير الحق في اعتقادهم؛ ولأن التصريح بصفة فعلهم القبيح أبلغ في ذمهم؛ وإن كانت تلك الصفة لازمة للفعل، كما في عكسه؛ كقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، لزيادة معنى في التصريح بالصفة؛ ولأن قتل النبي قد يكون بحق؛ كقتل إبراهيم، صلوات الله على نبينا وعليه، ولَدهُ؛ لو وُجِدَ، لكان بحقّ.

١٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وانتقالهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس في وسعهم؟

قلنا: هذا أمرُ إيجادٍ لا أمرُ إيجابٍ؛ فهو من قبيل قوله عز وجل: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

٢٠- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿عَوَانٌۢ[1] بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، ولفظة بين تقتضي شيئين فصاعدًا، فكيف جاز دخولها على ذلك وهو مفرد؟

قلنا: ذلك يشاء به إلى المفرد والمثنى والمجموع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، إلى قوله

= وقاسمها بالله جهدًا لأنتم ... ألذ من السلوى إذا ما أشورها

قال: فظن أن السلوى عسلا قال القرطبي: دعوى الإجماع لا تصح؛ لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلي هذا، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة؛ لأنه يسلى به ومنه عين سلوان، وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد ببيت الهذلي أيضًا والسلوانة بالضم خرزة، كانوا يقولون: إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا قال الشاعر:

شربت على سلوانة ماء مزنة ... فلا وجديد العيش يا مي ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم: السلوان دواء يشفي الحزين فيسلو والأطباء يسمونه «مُفَرِّح»، وذهب الراغب في مفرداته إلى أن المن والسلوى شيء واحد وكلاهما إشارة إلى ما أنعم الله به على بني إسرائيل لكن سماه منًّا بحيث إنه امتن به عليهم وسماه سلوى من حيث إنه كان لهم به التسلي.

(١) عوان: تقال في الحيوان كالبقر والخيل.. إلخ التي نُتِجت بعد بطنها البكر، والعوان: المتوسط بين السنين.

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [آل عمران: ١٤]. فمعناه عوان بين الفارض والبكر[1]، وسيأتي تمامه في قوله عز وجل: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إن شاء الله تعالى.

٢١- **فإن قيل**: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾ [البقرة: ٧٤] كلاهما بمعنى واحد؛ فما فائدة الثاني؟

قلنا: التفجر يدل على الخروج بوصف الكثرة، والثاني يدل على نفس الخروج. وهما متغايران؛ فلا تكرار.

٢٢- **فإن قيل**: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: ٧٩] والكتابة لا تكون إلا باليد؟

قلنا: فائدته تحقيق مباشرتهم ذلك التحريف بأنفسهم؛ وذلك، زيادة في تقبيح فعلهم؛ فإنه يقال: كتب فلان كذا، وإن لم يباشره بنفسه؛ بل أمر غيره به، مِنْ كاتبٍ له ونحو ذلك.

٢٣- **فإن قيل**: التولي والإعراض واحد، فكيف قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

قلنا: معناه: ثم توليتم عن الوفاء بالميثاق والعهد، وأنتم معرضون عن الفكر والنظر في عاقبة ذلك.

٢٤- **فإن قيل**: قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ [البقرة: ٩٦]، ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ وهم من جملة الناس؟

قلنا: إنما خصوا بالذكر بعد العموم؛ لأن حرصهم على الحياة أشدّ؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث.

٢٥- **فإن قيل**: قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ [البقرة: ١٠٢] يدل على أن الله تعالى أنزل علم السحر على الملكين؛ فلم يكن حرامًا!.

قلنا: العمل به حرام؛ لأنهما كانا يُعَلّمان الناسَ السحر ليجتنبوه[2]، كما قال الله

---

(١) الفارض: المسن من البقر، والمراد بالبكر هنا التي لم تلد.

(٢) الأولى من ذلك أن يقال: ما نافية ومعطوف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ فيكون تقدير الكلام:

تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] نظيره لو سأل إنسان: ما الزنا؟ لوجب بيانه له، ليعرفه، فيجتنبه.

٢٦- **فإن قيل**: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] كيف أثبت لهما العلم أولًا، مؤكدًا بلام القسم، ثم نفاه عنهم.

قلنا: المثبت لهم أنهم علموا علمًا إجماليًّا أن مَنْ اختار السحر ما له في الآخرة من نصيب؛ والمنفي عنهم أنهم لا يعلمون حقيقة ما يصيرون إليه مِن تحسر الآخرة، ولا يكون لهم نصيب منها؛ فالمنفي غير المثبت، فلا تنافي.

٢٧- **فإن قيل**: كيف قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]؛ وإنما يستقيم أن يقال: هذا خير من ذلك، إذا كان في كل واحد منهما خير؛ ولا خير في السحر؟

قلنا: خاطبهم على اعتقادهم أن في تعلم السحر خيرًا؛ نظرًا منهم إلى حصول مقصودهم الدنيوي به[1].

٢٨- **فإن قيل**: كيف قال هنا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقال في سورة إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قلنا: في الدعوة الأولى، كان مكانًا قفرًا؛ فطلب منه أن يجعله بلدًا وآمنًا؛ وفي الدعوة الثانية، كان بلدًا غير آمن؛ فعرَّفه وطلب له الأمن؛ أو كان بلدًا آمنًا؛ فطلب له ثبات الأمن ودوامه.

وكون هذه السورة مدنية، وسورة إبراهيم مكية، لا ينافي هذا؛ لأن الواقع من إبراهيم، صلوات الله عليه، بلغته على الترتيب الذي قلنا؛ والإخبار عنه في القرآن على

= وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين السحر، ولكن الشياطين كفروا بتعليمهم السحر للناس ببابل هاروت وماروت. قال القرطبي: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح، ولا يلتفت على ما سواه. انظر: تفسير القرطبي وابن كثير.

(١) ووجه آخر أن هذا من أفعل التفضيل التي ليس في المقابل منها شيء كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وكقول النسوة لعمر: «أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ».

غير ذلك الترتيب؛ أو أن المكيَّ، منه، ما نزل قبل الهجرة؛ فيكون المدنيُّ متأخرًا عنه؛ ومنه ما نزل بعد فتح مكة؛ فيكون متأخرًا عن المدني؛ فَلِمَ قلتم إن سورة إبراهيم عليه السلام، من المكيِّ الذي نزل قبل الهجرة؟!.

٢٩- **فإن قيل:** أي مدح وشرف لإبراهيم صلوات الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] مع ما له من شرف الرسالة والخلّة؟

قلنا: قال الزجاج: المراد بقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي من الفائزين.

٣٠- **فإن قيل:** الموت ليس في وسع الإنسان وقدرته؛ حتى تصح أن يُنهي عنه، على صفة، أو يؤمر به على صفة؛ فكيف قال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢]؟؟

قلنا: معناه: اثبتوا على الإسلام، حتى إذا جاءكم الموتُ متم على دين الإسلام، فهو في المعنى أمر بالثبات على الإسلام والدوام عليه، أو نهي عن تركه.

٣١- **فإن قيل:** قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٧]، إن أريد به الله تعالى فلا مثل له، وإن أريد به دين الإسلام فلا مثل له، أيضًا؛ لأن دين الحق واحد؟

قلنا: كلمة مثل زائدة. معناه: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، يعني بمن آمنتم به، وهو الله تعالى، أو بما آمنتم به، وهو دين الإسلام. ومِثْلُ قد تُزَادُ في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. ومِثْل ومَثَل بمعنى واحد؛ وقيل: الباء زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، أي مثل إيمانكم بالله أو بدين الإسلام.

٣٢- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهو لم يزلْ عالمًا بذلك؟

قلنا: قوله لنعلم: أي لنعلم كائنًا موجودًا ما قد علمناه أنه يكون ويوجد، أو أراد بالعلم التمييز للعباد، كقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

٣٣- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، وهذا يدل على أنه ﷺ لم يكن راضيًا بالتوجه إلى بيت المقدس؛ مع أن التوجه إليه كان بأمر الله تعالى وحكمه؟

قلنا: المراد بهذا الرضا المحبة بالطبع، لا رضا التسليم والانقياد لأمر الله تعالى.

٢٤- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ولهم قبلتان: لليهود قبلة، وللنصاى قبلة؟

قلنا: لما كانت القبلتان باطلتين، مخالفتين لقبلة الحق؛ فكانتا، بحكم الاتحاد في البطلان، قبلة واحدة.

٣٥- **فإن قيل:** كيف يكون للظالمين من اليهود أو غيرهم حجةٌ على المؤمنين حتى قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾(١) [البقرة: ١٥٠]؟

قلنا: معناه إلا أن يقولوا ظلمًا وباطلًا، كقول الرجل لصاحبه: ما لك عندي حق إلا أن تظلم أو تقول الباطلَ؛ وقيل معناه: والذين ظلموا منهم؛ فـ«إلا» هنا، بمعنى واو العطف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠-١١]؛ وقيل: «إلا» فيهما بمعنى لكن. وحجتهم أنهم كانوا يقولون لما توجه النبيُّ، عليه الصلاة والسلام، إلى بيت المقدس: ما درى محمدٌ أين قبلته حتى هديناه، وكانوا يقولون، أيضًا: يخالفنا محمدٌ في ديننا، ويتبع قبلتنا؛ فلما حوله اللهُ تعالى إلى الكعبة انقطعت هذه الحجةُ؛ فعادوا يقولون: لِمَ تركْتَ قبلة بيت المقدس؟ إن كانت باطلة فقد صليتَ إليها زمانًا،وإن كانت حقًّا فقد انتقلت عنها؛ فهذا هو المراد به بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ وقيل: المراد به قولهم: ما ترك محمدٌ قبلتنا إلا ميلًا لدين قومه وحبًّا لوطنه، وقيل: المراد به قول المشركين: قد عاد محمدٌ إلى قبلتنا، لعلمه أن ديننا حق؛ وسوف يعود إلى ديننا، وإنما سمى اللهُ باطلهم حجةً لمشابهته الحجة في الصورة، كما قال الله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦]، أي باطلة، وقال: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر: ٨٣].

٣٦- **فإن قيل:** ما الفائدة في قوله: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، بعد قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ والشكر نقيض الكفر؛ فمتى وجد الشكرُ انتفى الكفرُ؟

---

(١) وهناك وجه أمثل وهو أنه كان مثبتًا عندهم في كتبهم أن الرسول ﷺ سيتحول إلى الكعبة فإذا لم يتحول أنكروا رسالته.

قلنا: قوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾ معناه: استعينوا بنعمتي على طاعتي، وقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ معناه: لا تستعينوا بنعمتي على معصيتي. وقيل: الأول أمر بالشكر. والثاني أمر بالثبات عليه.

٣٧- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، وأهل دينه لا يلعنونه إذا مات على دينهم؟

قلنا: المراد بالناس المؤمنون فقط؛ أو هو على عمومه، وأهل دينه يلعنونه في الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

٣٨- فإن قيل: ما الفائدة في قوله: «إله» في: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ فهلاَّ قال: وإلهكم واحد، فكان أخصر وأوجز؟

قلنا: لو قال: وإلهكم واحد، لكان ظاهره إخبارًا عن كونه واحدًا في الإلهية، يعني لا إله غيره، ولم يكن إخبارًا عن توحده في ذاته؛ بخلاف ما إذا كرر ذكر الإله.

والآية إنما سِيقَتْ لإثبات أحديته في ذاته، ونفي ما يقوله النصارى أنه واحد، والأقانيم ثلاثة، أي الأصول؛ كما أن زيدًا واحدًا، وأعضاؤه متعددة. فلما قال إله واحد دل على أحدية الذات والصفة. ولقائل أن يقول: قوله: واحد يحتمل الأحدية في الذات، ويحتمل الأحدية في الصفات، سواء كرر ذكر الإله أو لم يكرر؛ فلا يتم الجواب.

٣٩- فإن قيل: ما وجه صحة التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ [البقرة: ١٧١] وظاهره تشبيه الكفار بالراعي؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: ومثلك يا محمد، مع الكفار، كمثل الراعي مع الأنعام؛ أو تقديره: ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعي؛ أو ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الناعق بالبهائم؛ أو مثل الذين كفروا، في دعائهم الأصنام، كمثل الراعي.

٤٠- فإن قيل: كيف خص المنعوق، بأنه لا يسمع إلا دعاء ونداء؛ مع أن كل عاقل كذلك، أيضًا لا يسمع إلا دعاء ونداء؟

قلنا: المراد بقوله: لا يسمع أنه لا يفهم كقولهم: أساء سمعًا فأساء إجابة، أي

أساء فيهما.

٤١- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[البقرة: ١٧٤] وقال في موضع آخر: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الحجر: ٩٢، ٩٣].

قلنا: المنفي كلام التلطف والإكرام، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة، فلا تنافي.

٤٢- فإن قيل: كيف قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾[البقرة: ١٧٨] أي فرض؛ والقصاص ليس بفرض؛ بل الولي مخير فيه؛ بل مندوب إلى تركه؟

قلنا: المراد به فرض على القاتل التمكين، لا أنه فرض على الولي الاستيفاء.

٤٣- فإن قيل: كيف قال: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[البقرة: ١٨٠] عطف الأقربين على الوالدين، وهما أقرب الأقربين، والعطف يقتضي المغايرة؟

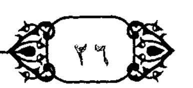
قلنا: الوالدان ليسا من الأقربين؛ لأن القريب مَنْ يدلي إلى غيره بواسطة، كالأخ والعم ونحوهما؛ والوالدان ليسا كذلك؛ ولو كانا منهم، لكان تخصيصهما بالذكر لشرفهما، كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[البقرة: ٩٨].

٤٤- فإن قيل: كيف قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٣]، وصوم هذه الأمة ليس كصوم أمة موسى وعيسى، عليهما السلام؟

قلنا: التشبيه في أصل الصوم، لا في كيفيته، أو في كيفية الإفطار؛ فإنه كان، في أول الأمر، الإفطار مباحًا، من غروب الشمس إلى وقت النوم، فقط؛ كما كان في صوم من قبلنا، ثم نُسِخَ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾[البقرة: ١٨٧] الآية، أو في العدد، أيضًا؛ على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: فرض على النصارى صوم رمضان بعينه، فقدموا عشرة، أو أخروا عشرة؛ لئلا يقع في الصيف، وجبروا التقديم والتأخير، بزيادة عشرين. فصار صومهم خمسين يومًا، بين الصيف والشتاء[1].

---

(١) أثر ابن عباس الذي ذكره المصنف لم أقف عليه مسندًا وورد معناه عن دغفل بن حنظلة: «كان على النصارى صوم شهر رمضان، فمرض ملك منهم، فقال: إن الله شفاه لأزيدن عشرًا، ثم كان بعده ملك أكل اللحم فوجع فاه، فقال: إن الله شفاه لأزيدن سبعًا، ثم كان بعده ملك فقال: ما ندع هذه الثلاثة أيام أن يتمها ويجعل صومنا في الربيع، ففعل ذلك، فكانت خمسين» رواه الطبراني في الكبير (٤٠٨٩) وابن الأعرابي في معجمه موقوفًا على دغفل، ورواه الطبراني في الأوسط (٨٤٢٧)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٣٠٦)، والنحاس في الناسخ



٤٥- **فإن قيل**، ما فائدة قوله: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، بعد قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟

قلنا، ذكر أولًا أنه هدى؛ ثم ذكر أنه بينات من الهدى، أي من جملة ما هدى الله به عبيده، وفرق به بين الحق والباطل، من الكتب السماوية الهادية الفارقة بين الحق والباطل؛ فلا تكرار.

٤٦- **فإن قيل**، ما فائدة إعادة ذكر المريض والمسافر؟

قلنا، فائدته أن الآية المتقدمة نسخ مما فيها تخيير الصحيح، وكان فيها تخيير المريض والمسافر، أيضًا؛ فأعيد ذكرهما لئلا يتوهم أن تخييرهما نسخ، كما نسخ تخيير الصحيح.

٤٧- **فإن قيل**، قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يدل

= والمنسوخ (٢٨) من حديث دغفل مرفوعًا وإسناده ضعيف، ودغفل مختلف في صحبته ورجح الإمام أحمد عدم ثبوتها. انظر: تهذيب التهذيب ٣/ ١٨٢ وفي الباب عن عمر مرفوعًا: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم» رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناد ضعيف وورد هذا المعنى عن الشعبي وقتادة قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: قال الشعبي وقتادة وغيرهما: التشبيه يرجع إلى وقت الصوم وقدر الصوم فإن الله تعالى كتب على قوم موسى وعيسى صوم رمضان فغيروا وزاد أحبارهم عليهم عشرة أيام ثم مرض بعض أحبارهم فنذر إن شفاه الله أن يزيد في صومهم عشرة أيام ففعل فصام النصارى خمسين يومًا فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى الربيع واختار هذا القول النحاس وقال: وهو الأشبه بما في الآية.

وقال الحافظ في الفتح: قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أما قوله: ﴿كُتِبَ﴾ فَمَعْنَاهُ: فُرِضَ، وَالْمُرَاد بِالْمَكْتُوبِ فِيهِ اللَّوْح الْمَحْفُوظُ، وَأَمَّا قَوْله: ﴿كَمَا﴾ فَاخْتُلِفَ فِي التَّشْبِيه الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْكَاف هَلْ هُوَ عَلَى الْحَقِيقَة فَيَكُون صِيَام رَمَضَان قَدْ كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلنَا؟ أَوْ الْمُرَاد مُطْلَق الصِّيَام دُون وَقْته وَقَدْره؟ فِيهِ قَوْلَانِ: وَوَرَدَ فِي أَوَّل حَدِيث مَرْفُوع عَنْ عُمَر أَوْرَدَهُ ابْن أَبِي حَاتِم بِإِسْنَادٍ فِيهِ مَجْهُول وَلَفْظه: «صِيَام رَمَضَان كَتَبَهُ الله عَلَى الْأُمَم قَبْلكُمْ» وَبِهَذَا قَالَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ وَالسُّدِّيُّ، وَلَهُ شَاهِد آخَر، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي فِي طَرِيق مَعْقِل النَّسَّابَة وَهُوَ مِنْ الْمُخَضْرَمِينَ وَلَمْ يَثْبُت لَهُ صُحْبَة، وَنَحْوه عَنْ الشَّعْبِيّ وَقَتَادَة. وَالْقَوْل الثَّانِي: أَنَّ التَّشْبِيه وَاقِع عَلَى نَفْس الصَّوْم وَهُوَ قَوْل الْجُمْهُور، وَأَسْنَدَهُ اِبْن أَبِي حَاتِم وَالطَّبَرِيُّ عَنْ مُعَاذ وَابْن مَسْعُود وَغَيْرهمَا من الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ، وَزَادَ الضَّحَّاك: «وَلَمْ يَزَلْ الصَّوْم مَشْرُوعًا مِنْ زَمَن نُوح» وَفِي قَوْله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إِشَارَة إِلَى أَنَّ مَنْ قَبْلنَا كَانَ فَرْض الصَّوْم عَلَيْهِمْ مِنْ قَبِيل الْآصَار وَالْأَثْقَال الَّتِي كُلِّفُوا بِهَا، وَأَمَّا هَذِهِ الْأُمَّة فَتَكْلِيفهَا بِالصَّوْمِ لِيَكُونَ سَبَبًا لاتِّقَاءِ الْمَعَاصِي وَحَائِلًا بَيْنهُمْ وَبَيْنهَا، فَعَلَى هَذَا الْمَفْعُول الْمَحْذُوف يُقَدَّر بِالْمَعَاصِي أَوْ بِالْمَنْهِيَّاتِ.

على أنه يجيب دعاء الداعين، ونحن نرى كثيرًا من الداعين لا يستجاب لهم؟!

قلنا: رُوي عن النبي ﷺ، أنه قال: «ما مِنْ مُسْلِم دَعَا الله بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا قَطِيعَةُ رَحِم وَلا إِثْم إلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»(١). ولأنَّ قبول الدعاء شرطه الطاعة لله تعالى، وأكل الحلال، وحضور القلب، وقت الدعاء؛ فمتى اجتمعت هذه الشروط، حصلت الإجابة؛ ولأن الداعي قد يعتقد مصلحته في الإجابة، والله تعالى يعلم أن مصلحته في تأخير ما سأل، أو في منعه، فيجيبه إلى مقصوده الأصلي وهو طلب المصلحة؛ فيكون قد أجيب، وهو يعتقد أنه منع عنه.

٤٨- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]؛ ومعلوم أن ثلاثة وسبعة عشرة؟ ثم ما فائدة قوله: ﴿كَامِلَةٌ﴾، والعشرة لا تكون إلا كاملة؛ وكذا جميع أسماء الأعداد لا تصدق على أقل من المذكور، ولا على أكثر منه؟

قلنا: فائدة قوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو، كما في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، وألا تحل التسعُ جملة. فنفى بقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ ظنَّ وجوبِ أحد العددين، فقط؛ إما الثلاثة في الحجُ، أو السبعة بعد الرجوع؛ وأن يعلم العددين من جهتين جملة وتفصيلًا، فيتأكد العلمُ به؛ ونظيره فذلكة الحساب وتنصيف الكتاب. وأما قوله تعالى: ﴿كَامِلَةٌ﴾ فتأكيد، كما في قوله

(١) صحيح بشواهده: رواه أحمد في مسنده (١٠٧٠٩) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٤)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٦٣)، والبيهقي في الشعب (١١٣٧) بسند حسن من حديث أبي سعيد مرفوعًا ولفظه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِم يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِم إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا» قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ قَالَ: «اللهُ أَكْثَرُ»، وله شاهد من حديث أبي هريرة كما في الترمذي (٤/ ٢٢٦)، ومسند الحارث (١٠٧٣)، ومن حديث عبادة بن الصامت كما في المسند (٢١٧٢٠)، والترمذي (٣٤٩٧)، ومن حديث أنس كما في مصنف عبد الرزاق وغيره (١٩٦٥٠) وبالجملة فالحديث صحيح بشواهده قال شيخنا أبو عبد الله مصطفى ابن العدوي حفظه الله وأمتع به في فقه الدعاء معلقًا على حديث أبي سعيد المتقدم: وعليه فلا تعارض بين قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١] وبين قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فقد تدخر الإجابة للآخرة أو يُصرف من السوء مثلها، ويكون كشف الضر بمشيئة الله إن شاء كشفه وإن شاء رفع طالب كشف الضر درجات. والله تعالى أعلم.

تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أو معناه كاملة في الثواب؛ مع وقوعها بدلًا عن الهدى، أو في وقوعها موقع المتتابع؛ مع تفرقها، أو في وقوعها موقع الصوم بمكة؛ مع وقوع بعضها في غير مكة؛ فالحاصل، أنه كمال وصفًا لا ذاتًا.

٤٩- **فإن قيل**: ما فائدة تكرار الأمر بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]؟

قلنا: إنما كرره تنبيهًا على أنه أراد ذِكرًا مكررًا، لا ذكرًا واحدًا؛ بل مرة بعد أخرى؛ ولأنه زاد في الثاني فائدة أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ يعني اذكروه بأحديته، كما ذكركم بهدايته؛ أو إشارة إلى أنه أراد بالذكر الأول الجمع بين الصلاتين بمزدلفة، وبالثاني الدعاء، بعد الفجر، بها، فلا تكرار.

٥٠- **فإن قيل**: كيف قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٩٨]، إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] وأراد به الإفاضة من عرفات بلا خلاف، وبعد المجيء إلى مزدلفة والذكر فيها مرتين، كما فسرنا كيف يفيضون من عرفات.

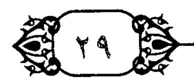
قلنا: فيه تقديم وتأخير تقديره: من ربكم. ثم، أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات.

٥١- **فإن قيل**: كيف قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، ومعلوم أن المتعجل التارك بعض الرمي إذا لم يكن عليه إثمٌ لا يكون على المتأخر الآتي بالرمي كاملًا؟

قلنا: كان أهلُ الجاهلية فريقين: منهم مَنْ جعل المتعجَل آثمًا، ومنهم مَنْ جعل المتأخر آثمًا؛ فأخبر الله تعالى بنفي الإثم عنهما جميعًا؛ أو معناه لا إثم على المتأخر، في تركه الأخذ بالرخصة؛ مع أن الله تعالى يحب أن تؤتي رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه[1]، أو أن معناه

---

(١) قوله: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه» قطعة من حديث رواه أحمد في مسنده من حديث ابن عمر مرفوعًا رقم (٥٦٠٠، ٥٦٠٦) بإسناد حسن وفي إسناده اختلاف لا يضر ولفظه: عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ» وليس فيه: كما يحب أن تؤتى عزائمه كما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ.



أن انتفاء الإثم عنهما موقوف على التقوى، لا على مجرد الرخصة أو العزيمة في الرمي.

ثم، قيل: المراد به تقوى المعاصي في الحج. وقيل: تقوى المعاصي بعد الحج، في بقية العمر، بالوفاء بما عاهد الله تعالى عليه، بعرفة وغيرها من مواقف الحج، من التوبة والإنابة.

والمشكل، في هذه الآية، قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، والتعجيل المرخص فيه إنما هو التعجيل في اليوم الثاني، من أيام التشريق، فكيف ذكر لفظ اليومين، وأراد بهما اليوم الثاني، فقط؟[١].

٥٢- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو يدل على أنها كانت إلى غيره، كقولهم: رجع إلى فلان عبده ومنصبه؟

قلنا: هو خطاب لمن كان يعبد غير الله، وينسب أفعاله إلى سواه؛ فأخبرهم أنه إذا كشف لهم الغطاءَ، يوم القيامة، ردوا ما أضافوه لغيره؛ بسبب كفرهم وظلمهم؛ ولأن رجع يستعمل بمعنى صار ووصل، كقولهم: رجع عليَّ من فلان مكروه؛ قال الشاعر:

وَمَا المَرْءُ إلاَّ كالشِّهابِ وضَوئِهِ ... يَحُورُ رَمادًا بَعدَ إذ هُوَ ساطِعُ[٢]

ولأنها كانت إليه قبل خلق عبيده؛ فلما خلقهم ملكهم بعضها، خلافة ونيابة؛ ثم رجعت إليه، بعد هلاكهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وإنما قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ولم يقل: إليه وإن كان قد سبق ذكرهُ مرة، لقصد التعميم والتعظيم؛ وذلك ينافي الإيجاز والاختصار.

٥٣- فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون، وأجيبوا عن بيان المصرف؟

---

(١) الظاهر أنه لا إشكال في الآية إذ المعنى أن الله رخص في هذه الآية لمن تعجل على وطنه أن يترك الإقامة بمنى اليومين الأخيرين من الأيام المعدودات. انظر: التحرير والتنوير ص ٢٦٣.

(٢) البيت من بحر الطويل - للبيد - والشاهد فيه قوله: «يحور رمادًا» حيث جاءت «حا» كـ «صار» معنى وعملاً. انظر (ديوانه ١٦٩ والدرر ٢/ ٥٣ ولسان العرب «حور» والأشموني ١/ ١١٠ والمعجم المفصل في شواهد النحو لإميل يعقوب ١/ ٥٢٩).

قلنا: قد تضمن قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ٢١٥]، بيان ما ينفقونه وهو كل خير، ثم زيد على الجواب بيان المصرف ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٧-١٨] الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن الوضوء بماء البحر -: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»(١).

٥٤- **فإن قيل:** كيف جاء يسألونك ثلاث مرات بغير واو ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٥-٢١٩] ثم جاء ثلاث مرات بالواو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢١٩- ٢٢٢].

قلنا: لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقًا، وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك.

٥٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، وعزمهم الطلاق مما يعلم لا مما يسمع؟

قلنا: الغالب أن العزم على الطلاق وترك الفيء لا يخلو عن مقاولة ودمدمة(٢) وإن خلا عنها فلا بد له أن يحدث نفسه ويناجيها بما عزم عليه، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله تعالى كما يسمع وسوسة الشيطان.

٥٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ولا حق للنساء في الرجعة، وأفعل يقتضي الاشتراك؟

---

(١) صحيح: أخرجه مالك في الموطأ (٣٧)، وأحمد في المسند (٨٧٣٧)، وأبو داود (٧٦)، والترمذي (٦٤)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجة (٣٨٠)، والدارمي (٧٢٣) في سننهم بإسناد صحيح من طريق المغيرة بن أبي بردة عن أبي هريرة سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنْ الْمَاءِ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا أَفَنَتَوَضَّأُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»، قَالَ الإمام الترمذي: وَفِي الْبَابِ عَنْ جَابِرٍ وَالْفِرَاسِيِّ وهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ لَمْ يَرَوْا بَأْسًا بِمَاءِ الْبَحْرِ وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الْوُضُوءَ بِمَاءِ الْبَحْرِ مِنْهُمْ: ابْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو، وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو: هُوَ نَارٌ.

(٢) دمدم: أي: غضب، ودمدم عليه أي كلمه مغضبًا، والدمدمة: الكلام الذي يزعج. انظر: لسان العرب ١٢/ ٢٠٦.

قلنا: المراد أن الزوج إذا أراد الرجعةَ وأبت وجب إيثارُ قوله على قولها؛ لأن لها حقًّا في الرجعة.

٥٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨] والزوج أحق بالرجعة سواء أراد الإصلاح أو الإضرار بها بتطويل العدة؟

قلنا: المراد أن الرجعة أصوب وأعدل إن أراد الزوج الإصلاح، وتركها أصوب وأعدل إن أراد الإضرار.

٥٨- **فإن قيل:** كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]؟؟.

قلنا: المراد بالآية الأولى إماتة العقوبة مع بقاء الأجل، وبالآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل، نظيره قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، لأنها كانت إماتة عقوبة، أو كان إحياؤهم آية لنبيهم على ما عرف في قصتهم، فصار كإحياء العزير حين مر على قرية وآيات الأنبياء نوادر مستثناة، فكان المراد بالآية الثانية الموتة التي ليست بسبب آية نبي من الأنبياء أو إحياء قوم موسى آية له أيضًا فكان هذا جوابًا عامًّا؛ مع أن في أصل السؤال نظرًا لأن الضمير في قوله ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ للمتقين وقوله: ﴿فِيهَا﴾ للجنات، على ما يأتي بيانه، في سورة الدخان، إن شاء الله تعالى، على وجه يندفع به السؤالُ من أصله.

٥٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٧] والله تعالى لا يؤتي ملكه أحدًا؟

قلنا: المراد بهذا الملك السلطنة والرياسة التي أنكروا إعطاءها لطالوت، وليس المراد بأنه يعطي ملكه لأحد؛ لأن سياق الآية يمنعه.

٦٠- **فإن قيل:** كيف قال في الماء: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ولم يقل ومن لم يشربه، والماء مشروب لا مأكول؟

قلنا: طعم بمعنى أكل وبمعنى ذاق، والذوق هو المراد هنا وهو يعم.

٦١- **فإن قيل:** كيف خص موسى، وعيسى من بين الأنبياء بالذكر في قوله تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية؟

قلنا: لما أوتيا من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة مع الكتابين العظيمين المشهورين.

٦٢- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة: ٢٥٤] ، وفي يوم القيامة شفاعة الأنبياء، وغيرهم، بدليل قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢٥٥] ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨] ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ: ٢٣] ؟؟.

قلنا: هذه الآيات لا تدل على وجود الشفاعة يوم القيامة؛ بل تدل على أنها لا توجد ولا تنفع من غير إذنه، ولا توجد لغير مرضي عنده. وهذا لا ينافي نفي وجودها؛ بل المنافي له الإخبار عن وجودها، لا الإخبار عن إمكان وجودها، ولو سُلِّمَ، فالمراد به نفي شفاعة الأصنام والكواكب، التي كانوا يعتقدونها، ولهذا عَرَّض بذكر الكفار، بقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وقيل: المراد أنه لا شفاعة في إثم ترك الواجبات؛ لأن الشفاعة، في الآخرة، في زيادة الفضل لا غير؛ والخطاب، مع المؤمنين، في النفقة الواجبة، وهي الزكاة.

٦٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤] على وجه الحصر وغيرهم ظالم أيضًا؟

قلنا: لأن ظلمهم أشد، فكأنه لا ظالم إلا هم؛ نظيره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨] .

٦٤- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧] بلفظ المضارع؛ ولم يقل أخرجهم بلفظ الماضي والإخراج قد وجد؛ لأن الإيمان قد وجد؟

قلنا: لفظ المضارع فيه دلالة على استمرار ذلك الإخراج، من الله تعالى، في الزمان المستقبل، في حق مَنْ آمن، بزيادة كشف الشبه ومضاعفة الهداية؛ وفي حق مَنْ لم يؤمن، مِمَن قضى الله أنه سيؤمن بابتداء الهداية وزيادتها أيضًا، ولفظ الماضي لا يدل على هذا المعنى.

٦٥- **فإن قيل:** متى كان المؤمنون في ظلمات الكفر، والكافرون في نور الإيمان

ليخرجوا من ذلك؟

قلنا: الإخراج يستعمل بمعنى المنع عن الدخول؛ يقال لمن امتنع عن الدخول في أمر: خرج منه، وأخرج نفسه منه؛ وإن لم يكن دخل فيه، فعصمة الله تعالى المؤمنين عن الدخول في ظلمات الضلال إخراج لهم منها، وتزيين قرناء الكفار لهم الباطل الذي يصدونهم به عن الحق إخراج لهم من نور الهدى. ولأن إيمان رؤساء أهل الكتاب بالنبي، عليه الصلاة والسلام، قبل أن يظهر، كان نورًا لهم؛ وكفرهم به، بعد ظهوره، خروج منه، إلى ظلمات الكفر. ولأنه لما ظهرت معجزاته، عليه الصلاة والسلام، كان موافقهُ ومتبعهُ خارجًا مِن ظلمات الجهل، إلى نور العلم، ومخالفه خارجًا من نور العلم، إلى ظلمات الجهل.

٦٦- **فإن قيل:** كيف انتقل إبراهيمُ ﷺ، إلى حجة أخرى، وعدل عن نصرة الأولى؛ مع أنه لم ينقطع بما عارضه به نمرود، من قتل أحد المجوسيين وإطلاق الآخر؛ فإن إبراهيم ﷺ ما أراد هذا الإحياء والإماتة؟

قلنا: إما لأنه رأى خصمه قاصر الفهم عن إدراك معنى الإحياء والإماتة التي أضافها إبراهيمُ ﷺ، إلى الله حيث عارض معارضةً لفظيةً، وعمِي عن اختلاف المعنيين؛ أو لأنه علم أنه فهم الحجة، لكنه قصد التمويه والتلبيس على أتباعه وأشياعه؛ فعدل إبراهيمُ إلى أمر ظاهر يفهمه كل أحد، ولا يقع فيه تمويه ولا تلبيس.

٦٧- **فإن قيل:** كيف طبع اللهُ على قلبه، فلم يعارض بالعكس، في طلوع الشمس؟

قلنا: لأنه لو عارض به لم يأت الله بها من المغرب، لأنَّ ذلك أمارةُ قيام الساعة فلا يوجد إلا قريبًا من قيامها، ولأنه وأتباعه كانوا عالمين أن طلوعها من المشرق سابق على وجوده، فلو ادعاه لكذبوه.

٦٨- **فإن قيل:** كيف قال عزير عليه السلام، منكِرًا مستبعدًا: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[البقرة: ٢٥٩] ، وهو نبي، والنبي لا تخفي عليه قدرة الله تعالى على إحياء قرية خربة وإعادة أهلها إليها؟

قلنا: ما قاله منكِرًا مستبعدًا لعظيم قدرة اللهُ تعالى، بل متعجبًا من عظيم قدرته تعالى أو طلبًا لرؤية كيفية الإعادة؛ لأن (أنى) بمعنى كيف، أيضًا. وقد نقل عن

مجاهد أن المار على القرية القائل ذلك كان رجلًا كافرًا شاكًّا في البعث؛ وإن كان الأول هو المشهور.

٦٩- فإن قيل: كيف قال اللهُ تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقد علم أنه أثبت الناس إيمانًا؟

قلنا: ليجيب بما أجاب به؛ فتحصل به الفائدة الجليلة للسامعين من طلبه لإحياء الموتى.

٧٠- فإن قيل: كيف يجوز أن يكون النبي غير مطمئن القلب بقدرة الله على إحياء الموتى؛ حتى قال إبراهيم: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ مع أن قلبه مطمئن بقدرة الله على الإحياء؟

قلنا: معناه ليطمئن قلبي بعلم ذلك عيانًا، كما اطمأن به برهانًا، أو ليطمئن بأنك اتخذتني خليلًا؛ أو بأني مستجاب الدعوة.

ولقائل أن يقول: على الوجه الأول، كيف يزداد يقينًا بالمشاهدة وقد روي عن علي، كرم الله وجهه أنه قال: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»، وإبراهيم صلوات الله عليه وسلامه أعظم رتبة وأجلّ؟

وجوابه: أن عليًّا أراد بذلك قوة يقينه قبل العيان؛ حتى كأن الزيادة الحاصلة له بالعيان يسيرة لا يعتد بها.

٧١- فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي فضمهن، ولفظ الأخذ مغن عنه؟

قلنا: الفائدة فيه تأملها، ومعرفة أشكالها وصفاتها؛ لئلا يلتبس عليه بعد الإحياء فيتوهم أنه غيرها.

٧٢- فإن قيل: كيف مدح الله المتقين بترك المن؛ ونهى عن المن، أيضًا مع أنه وصف نفسه بالمنان، في نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قلنا: مَنَّ بمعنى أعطى؛ ومنه المنان في صفات الله تعالى. وقوله: ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾، وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، أي أنعم عليهم وقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ [محمد: ٤] أي إنعامًا بالإطلاق من غير عوض، وَمَنَّ بمعنى اعتد بالنعمة وذكرها،

واستعظمها وهو المذموم.

٧٢م- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] من القسم الثاني.

قلنا: ذلك اعتداد بنعمة الإيمان؛ فلا يكون قبيحًا بخلاف نعمة المال، ولأنه يجوز أن يكون من صفات الله تعالى ما هو مدح في حقه، ذم في حق العبد، كالجبار، والمتكبر، والمنتقم، ونحو ذلك.

٧٣- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؛ ثم قال له: ﴿فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؟

قلنا: لما كان النخيلُ والأعنابُ أكرم الشجر، وأكثرها منافع، خصهما بالذكر وجعل الجنةَ منهما؛ وإن كان فيها غيرهما، تغليبًا لهما، وتفضيلًا.

٧٤- فإن قيل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[١] [البقرة: ٢٧٣]، يدل بمفهومه على أنهم كانوا يسألون الناس برفق؛ فكيف قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]؟

قلنا: المراد به نفي السؤال، والإلحاف جميعًا، كقوله تعالى: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾[٢] [البقرة: ٧١] وكقول الأعشى:

لا يغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أيْنٍ ولا وَصَبِ

معناه: ليس بساقه أين[٣] ولا وصب[٤]، فيغمزها[٥].

٧٥- فإن قيل: كيف قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآية، ألحق الوعيد بآكله؛ مع أن لابسه ومدخره وواهبه، أيضًا؛ في الإثم سواء؟

---

(١) إلحافًا: أي إلحاحًا.

(٢) ذلول: منقادة.

(٣) أين: إعياء وتعب.

(٤) وصب: سقم ومرض.

(٥) فيغمزها من الغمز وهو الإشارة ويكون بالعين واليد والجفن يقال: فلان فيه غميزة أي نقيصة وعيب، ويقال: غمزت الكبش إذا فحصت بيدك عن شحمه وسمنه.

قلنا: لما كان أكثر الانتفاع والهمم بالمال، إنما هو الأكل؛ لأنه مقصود لا غناء عنه، ولابد منه؛ عبر عن أنواع الانتفاع بالأكل، كما يقال: أكل فلان ماله كله، إذا أخرجه في مصالح الأكل وغيره.

٧٦- **فإن قيل:** كيف خصَّ الآكل بذكر الوعيد دون المُطعِم، وكلاهما آثم؟

قلنا: لأن انتفاعه الدنيوي بالربا أكثر من انتفاع المُطعِم.

٧٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والكلام إذ ذاك في الربا، ومقصودهم تشبيهه بالبيع؛ فقياسه: إنما الربا مثل البيع، في حله؟

قلنا: جاؤوا بالتمثيل على طريق المبالغة؛ وذلك أنه بلغ من اعتقادهم استحلال الربا أنهم جعلوه أصلًا في الحل، والبيع فرعًا كقولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفه إذا أرادوا المبالغة.

٧٨- **فإن قيل:** كيف قلتم إن أهل الكبائر لا يخلدون في النار، وقد قال الله تعالى، في حق آكل الربا: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]؟

قلنا: الخلود يستعمل بمعنى طول البقاء، وإن لم يكن بصفة التأبيد، يقال: خلد الأمير فلانًا في الحبس، إذا أطال حبسه، أو أن قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى مَنْ عاد إلى استحلال الربا، بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، بعد نزول آية التحريم، وذلك يكون كافرًا، والكافر مخلد في النار.

٧٩- **فإن قيل:** إنظار المعسر فرض بالنص، والتصدق عليه تطوع؛ فكيف قال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]؟

قلنا: كل تطوع كان محصلاً للمقصود من الفرض، بوصف الزيادة، كان أفضل من الفرض، كما أن الزهد في الحرام فرض وفي الحلال تطوع، والزهد في الحلال أفضل كما بينا، كذلك هنا.

٨٠- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿بِدَيْنٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿تَدَايَنتُم ﴾ مغن عنه؟

قلنا: فائدته رجوع الضمير إليه في قوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبُوهُ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] إذ لو لم يذكره لقال: فاكتبوا الدين، فالأول أحسن نظمًا، أو لأن التداين مشترك بين الإقراض

والمبايعة وبين المجازاة، وإنما يميز بينهما بفتح الدال وكسرها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي الجزاء ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢] فذكر الدين ليتعين أي المعنيين هو المراد.

٨١- **فإن قيل:** كيف شرط السفر في الارتهان بقوله: ﴿۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ [البقرة: ٢٨٣] الآية، وجواز الرهن لا يختص بالسفر؟

قلنا: لم يذكره لتخصيص الحكم به، بل لما كان السفرُ مظنةَ عوز الكاتب، والشاهد الموثوق بهما، أمر على سبيل الإرشاد لحفظ مال المسافرين بأخذ الرهان.

٨٢- **فإن قيل:** ما فائدة ذكر القلب في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣] مع أن الجملة هي الموصوفة بالإثم لا القلب وحده؟

قلنا: كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها؛ فلما كان ذلك إثمًا مقترنًا بالقلب ومكتسبًا له، أسند إليه، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ؛ كما يقال: هذا ما أبصرته عيني، وسمعته أذني، ووعاه قلبي.

٨٣- **فإن قيل:** كيف قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وما يحدِّث به الإنسان نفسه لا يأثم به ما لم يفعله، إما لأنه لا يمكن الاحتراز عنه، في الوسع والطاقة، أو بالحديث المشهور فيه؟

قلنا: قيل: أريد بالآية العموم ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقيل: لا نسخ فيه؛ لأنه خبر لا أمر أو نهي؛ بل العموم غير مراد، وإنما المراد ما يمكن الاحتراز عنه، وهو العزم القاطع، والاعتقاد الجازم لا مجرد حديث النفس والوسوسة، ولأنه أخبر عن المحاسبة لا عن المعاقبة؛ فهو يوم القيامة يخبر العباد بما أبدوا وما أخفوا ليعلموا إحاطة علمه بجميع ذلك، ثم يغفر لمن يشاء فضلًا، ويعذب من يشاء عدلًا، كما أخبر في الآية.

٨٤- **فإن قيل:** أي شرف للرسول ﷺ في مدحه بالإيمان، مع أنه في رتبة الرسالة ودرجتها، وهي أعلى من درجة الإيمان، فما فائدة قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؟

قلنا: فائدة أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان، حيث مدح به خواصه ورسله؛ ونظيره، في سورة الصافات، قوله تعالى، في خاتمة ذكر كل نبي: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا

ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١].

٨٥- **فإن قيل:** روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: «ملائكته وكتابه» فسئل عن ذلك، فقال: «كتاب أكثر من كتب» فما وجهه؟

قلنا: قيل فيه أنه أراد أن الكتاب جنس والكتب جمع، والجنس أكثر من الجمع؛ لأن حقيقته في الكل على ما ذهب إليه بعضهم ويرد على هذا أن يقال الكلام في الجمع المضاف والمفرد المضاف للاستغراق، عرفًا وشرعًا، كقوله لعبده: أكْرِمْ أصدقائي وأَهِنْ أعدائي، وقوله: زوجاتي طوالق وعبيدي أحرار؛ بخلاف قوله: صديقي وعدوي وعبدي وامرأتي، فظهر أن الجمع المضاف أكثر.

٨٦- **فإن قيل:** قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، كيف قال ذلك؛ مع أن «بين» لا تضاف إلا إلى اثنين فصاعدًا، فكيف قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؟؟

قلنا: أحد هنا بمعنى الجمع الذي هو آحاد كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [الحاقة: ٤٧]، فإنه ثَمَّ بمعنى الجمع، بدليل قوله تعالى: ﴿حَٰجِزِينَ﴾ فكأنه قال: لا نفرق بين آحاد من رسله، كقولك: المال بين آحاد الناس؛ ولأن أحدًا يصلح للمفرد المذكر والمؤنث، وتثنيتهما وجمعهما نفيًا وإثباتًا، تقول: ما رأيت أحدًا إلا بني فلان، أو إلا بنات فلان سواء، وتقول: إن جاءك أحد بكتابي فأعطه وديعتي، يستوي فيه الكل، فالمعنى لا نفرق بين اثنين منهم، أو بين جماعة منهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

٨٧- **فإن قيل:** من أين دل قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] على أن الأول في الخير والثاني في الشر؟

قلنا: قيل: هو مِن كسبت واكتسبت فإن الأول للخير والثاني للشر، وليس بدليل لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: ١١٢]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى: ٣٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ [الشورى: ٢٣]، والاقتراف والاكتساب بمعنى واحد.

وقيل: هو مِن اللام وعلى، وليس بدليل، أيضًا، لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧]، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ١٥٧]، اللهم إلا أن يدعي أن اللام وعلى، عند الإطلاق يقتضيان ذلك أو لأنهما يستعملان لذلك، عند تقاربهما، كما في هذه الآية؛ لا نفرق بين ذكر الحسنة والسيئة، أو الحسن والقبيح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤] أطلقه وأراد به الشر، بدليل ما بعده. وقولهم: «الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك» وقولهم: فلان يشهد لك وفلان يشهد عليك. ويقول الرجلُ لصاحبه: هذا الكلام حجة عليك لا لك قال الشاعر:

عَلى أنني رَاضٍ بِأنْ أَحْمِلَ الهَوَى ... وَأخلُصَ مِنهُ لا عَليَّ وَلا لِيَا[1]

وأما قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]، وإن كان مقيدًا، إلا أن فيه دلالة أيضًا من جهة اللام وعلى؛ لأن القيد شامل لطَرَفَيْهِ.

* * *

---

(١) من الطويل - ولم أحصل على قائله ومثله:

ألا ليت حَظِّي من غدائه أنه ... يكون كَفَافًا لا عَليَّ ولا ليا

وانظر (المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٨/ ٣٤٨).

سورة آل عمران(١)

٨٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾. ثُمَّ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]؟

قلنا: لأن القرآن أنزل منجمًا، والتوراة والإنجيل نزلا جملة واحدة، كذا أجاب الزمخشري(٢) وغيره، ويرد عليه قوله تعالى، بعد ذلك: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤] فإن الزمخشري قال: أراد به جنس الكتب السماوية لا الثلاثة المذكورة خصوصًا، أو أراد به الزبور، أو أراد به القرآن، وكرر ذكره تعظيمًا. ويرد عليه أيضًا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

والذي وقع لي فيه والله أعلم أن التضعيف، في نزل، والهمزة في أنزل كلاهما للتعدية، لأن نَزَل فعل لازم في نفسه؛ وإذا كانا للتعدية لا يكونان لمعنى آخر، وهو التكثير أو نحوه؛ لأنه لا نظير له، وإنما جمع بينهما، والمعنى واحد، وهو التعدية

---

(١) سميت هذه السورة في كلام النبي ﷺ وكلام الصحابة: سورة آل عمران، ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا الزهراوين: **البقرة وآل عمران**» وفيه عن النواس بن سمعان: قال: سمعتُ النبي يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة تقدمه سورة البقرة وآل عمران**»، وسماها ابن عباس في حديثه في الصحيح قال: «بت في بيت رسول الله فنام رسول الله حتى إذا كان نصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله فقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران».

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ص ٧٠٢: ووجه تسميتها بسورة آل عمران: أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران وهو عمران بن ماتان أبو مريم وآله هم: زوجه حنة وأختها زوجة زكريا النبي وزكريا كافل مريم إذ كان أبوها عمران توفي وتركها حملاً فكفلها زوج خالتها.

(٢) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ولد سنة ٤٦٧ هـ بزمخشر وتوفي سنة ٥٣٨هـ بجرجانية خوارزم عرف بتضلعه في التفسير واللغة والمعاني والبيان والنحو تأثر بعقيدة المعتزلة، وكتابه الكشاف خير شاهد على ذلك لتضمنه الكثير من أقوال وأفكار المعتزلة.

جريًا على عادة العرب في افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه على وجوه شتى. ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧] وقال موضع آخر: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرعد: ٧].

٨٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ومن للتبعيض؟ وقال في موضع آخر: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] وهذا يقتضي كون جميع آياته محكمة؟

قلنا: المراد بقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، أي ناسخات. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] أي منسوخات.

وقيل: المحكمات: العقليات؛ والمتشابهات: الشرعيات.

وقيل: المحكمات: ما ظهر معناها؛ والمتشابهات: ما كان في معناها غموض ودقة.

والمراد بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] أن جميع القرآن صحيح ثابت، مصون عن الخلل والزلل فلا تنافي.

٩٠- **فإن قيل:** كيف قال، هنا: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] جعل بعضه متشابهًا وقال، في موضع آخر: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] وصفه كله بكونه متشابهًا؟

قلنا: المراد بقوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ ما سبق ذكره، والمراد بقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أنه يشبه بعضه بعضًا، في الصحة وعدم التناقض وتأييد بعضه بعضًا؛ فلا تنافي.

٩١- **فإن قيل:** ما فائدة إنزال المتشابهات بالمعني الأخير، والمقصود من إنزال القرآن إنما هو البيان والهدى، والغموض والدقة في المعاني ينافي هذا المقصود أو يبعده؟

قلنا: لما كان كلام العرب ينقسم إلى ما يفهم معناه سريعًا ولا يحتمل غير ظاهره، وإلى ما هو مجاز وكناية وإشارة وتلويح، والمعاني فيه متعارضة متزاحمة، وهذا القسم هو المستحسن عندهم والمستبدع في كلامهم، نزل القرآنُ بالنوعين تحقيقًا لمعنى الإعجاز، كأنه قال: عارضوه بأي النوعين شئتم فإنه جامع لهما، وأنزله الله، عز وجل، محكمًا ومتشابهًا ليختبر مَنَ يؤمن بكله، ويرد علم ما تشابه منه إلى الله، فيثيبه، وَمَن يرتاب فيه ويشك، وهو المنافق فيعاقبه؛ كما ابتلى عباده بنهر طالوت وغيره. أو



أراد أن يشتغل العلماء برد المتشابه إلى المحكم بالنظر والاستدلال والبحث والاجتهاد، فيثابون على هذه العبادة ولو كان كله ظاهرًا جليًّا، لا ستوى فيه العلماءُ والجهالُ؛ ولماتت الخواطرُ بعدم البحث والاستنباط، فإن نار الفكر إنما تقدحُ بزناد المشكلات، ولهذا قال بعضُ الحكماء: عيبُ الغنى أنه يورث البلادة ويميت الخاطرَ؛ وفضيلة الفقر أنه يبعث على إعمال الفكر، واستنباط الحيل في الكسب.

٩٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ أي ترى الفئةُ الكافرةُ الفئةَ المسلمةَ مثلي عدد نفسها، أو بالعكس، على اختلاف القولين؛ وكيفما كان، فهو منافٍ لقوله تعالى، في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]، لأنه يدل على أن الفئتين تساوتا في استقلال كل واحدة منهما للأخرى. فكل منهما ترى الأخرى قليلةَ؟

قلنا: التقليل والتكثير في حالين مختلفين. قلل اللهُ المشركين في نظر المؤمنين أولًا، والمؤمنين في نظر المشركين؛ حتى اجترأت كلُ فئة على قتال صاحبتها. فلما التقتا، كَثَّر الله المؤمنين في نظر المشركين؛ حتى جبنوا وفشلوا، فغلبوا. وكَثَّر اللهُ المشركين في نظر المؤمنين، أو أراهم إياهم على ما هم عليه، وكانوا في الحقيقة أكثر من المؤمنين، ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى، بقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية، فإن المؤمنين غلبوهم في هذه الغزوة وهي غزوة بدر. مع أنهم كانوا أضعاف عدد المؤمنين.

وقيل: أرى اللهُ المسلمين المشركين مثل عدد المسلمين، وكانوا ثلاثة أمثالهم، لكنه قللهم في أعين المسلمين؛ وأراهم إياهم بقدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم، لتقوى قلوبهم بما سبق من الوعد أن المائة، من المؤمنين يغلبون المائتين، منهم.

٩٣- **فإن قيل:** ما فائدة تكرار قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]؟

قلنا: الأول قول الله عز وجل، والثاني حكاية قول الملائكة وأولي العلم.

وقال جعفر الصادق[1]، رحمه الله تعالى: الأول وصف، والثاني تعليم، أي قولوا

---

(١) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، لُقب

واشهدوا، كما شهدت.

٩٤- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، والتولي والإعراض واحد، كما سبق في البقرة؛ فلم جمع بينهما؟

قلنا: معناه: يتولون عن الداعي، ويعرضون عما دعاهم إليه، وهو كتاب الله؛ أو يتولون بأبدانهم، ويعرضون عن الحق بقلوبهم؛ أو كان الذين تولوا علماءهم والذين أعرضوا أتباعهم.

٩٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ خص الخير بالذكر، وبيده تعالى الخير والشر، والنفع والضر أيضًا؟

قلنا: لأن الكلام إنما ورد ردا على المشركين فيما أنكروه مما وعد الله تعالى به نبيه ﷺ على لسان جبريل عليه السلام، من فتح بلاد الروم وفارس ووعد النبي ﷺ الصحابة بذلك. فلما كان الكلام في الخير خصه بالذكر، باعتبار الحال. أو أراد الخير والشر. فاكتفى بأحدهما، لدلالته على الآخر؛ كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

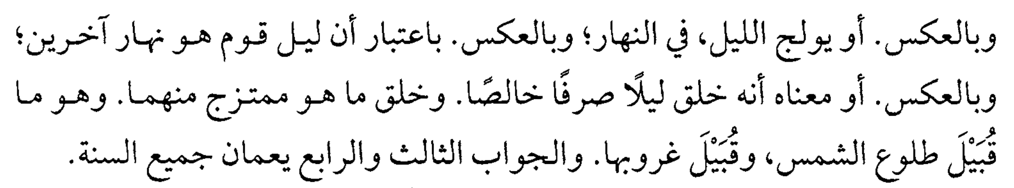
وإنما خص الخير بالذكر؛ لأنه المرغوب فيه، المطلوب للعباد من الله تعالى.

٩٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، وإيلاج الشيء، في الشيء، يقتضي اجتماع حقيقتهما، بعد الإيلاج، كإيلاج الخيط في الإبرة، والإصبع في الخاتم، ونحوهما؛ وحقيقة الليل والنهار لا يجتمعان؟

قلنا: الإيلاج قد يكون كما ذكرتم وقد يكون مع تبدل صفة أحدهما، بغلبة صفة الآخر عليه، مع بقاء ذاته فيه كإيلاج يسير من خبز، في لبن كثير، أو بالعكس.

فإن الحقيقتين مجتمعتان ذاتًا؛ وصفة إحداهما غالبة على الأخرى كذلك الليل والنهار، إذا كان الليل أربع عشرة ساعة، بالنسبة إلى زمن الاعتدال. ففيه من النهار ساعتان قطعًا؛ وكذا على العكس. أو معناه: يولج زمن الليل، في زمن النهار،

= بالصادق؛ لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، كان جريئًا على خلفاء بني العباس آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ، وتوفي بها سنة ١٤٨هـ.



وبالعكس. أو يولج الليل، في النهار؛ وبالعكس. باعتبار أن ليل قوم هو نهار آخرين؛ وبالعكس. أو معناه أنه خلق ليلًا صرفًا خالصًا. وخلق ما هو ممتزج منهما. وهو ما قُبَيْلَ طلوع الشمس، وقُبَيْلَ غروبها. والجواب الثالث والرابع يعمان جميع السنة.

٩٧- **فإن قيل:** ما فائدة قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وهو معلوم من غير ذكر؟

قلنا: فائدته اعتذارها عما قالته ظنًّا؛ فإنها ظنت أن ما في بطنها ذكر، ولهذا نذرت أن تجعله خادمًا لبيت المقدس. وكان من شريعتهم صحة هذا النذر في الذكور، خاصة؛ فلما وضعت أنثى، استحيت؛ حيث خاب ظَنُّهَا، ولم يتقبل نذرها؛ فقالت ذلك معتذرة. تعني ليست الأنثى بصالحة، لما يصلح له الذكرُ، في خدمة المسجد، لا أنها أرادت أن الأنثى ليست كالذكر صورةً أو قوة، أو نحو ذلك. فلما قالت ذلك، منكرة خجلة، مَنَّ الله عليها، بتخصيص مريم بقبولها في النذر؛ دون غيرها من الإناث. فقال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

٩٨- **فإن قيل:** المستعمل في مثله إدخال حرف النفي على القاصر، وحرف التشبيه على الكامل كقولهم: ليس كالذهب الفضة، وليس العبد كالحر، فَوِزَانُهُ: وليس الأنثى كالذكر.

قلنا: لما كان جعل الأصل فرعًا، والفرع أصلًا، في التشبيه، في حالة الإثبات، يقتضي المبالغة في المشابهة، كقولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفه، كان جعل الأصل فرعًا، والفرع أصلًا، في حالة النفي، يقتضي نفي المبالغة في المشابهة، لا نفي المشابهة، وذلك هو المقصود، هنا؛ لأن المشابهة واقعة بين الذكر والأنثى، في أعم الأوصاف، وأغلبها؛ ولهذا يقاد أحدهما بالآخر وإنما أرادت أمّ مريم نفي المشابهة بينهما في صحة النذرية، خادمًا للبيت المقدس؛ لا غير. فلذلك عكس.

الثاني: أن ذلك قوله تعالى، والمعنى ليس الذكر الذي طلبت أن يكون خادمًا للكنيسة كالأنثى التي وُهِبَتْ؛ لِمَا علم اللهُ مِن جعلها وابنها آية للعالمين. وهو تفسير للتعظيم والتفخيم المجمل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وهي لا تعرف مقدار شرفه، واللام في الذكر والأنثى للعهد. هذا كله قول

الزمخشري، وتمامه في الكشاف.

وقال الفقيه أبو الليث رحمه الله تعالى[1]: قال بعضهم: هذا قول الله تعالى لمحمد ﷺ أي وليس الذكر كالأنثى يا محمد. وقال بعضهم: هو مِن كلام أمّ مريم.

٩٩- **فإن قيل:** كيف نادت الملائكةُ زكريا، وهو قائم يصلي في المحراب، وأجابها وهو في الصلاة، كما قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾ [آل عمران: ٣٩] الآية؟

قلنا: المراد بقوله يصلي: أي يدعو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بدعائك.

١٠٠- **فإن قيل:** ما فائدة تخصيص يحيى، عليه السلام، بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وكلّ واحد من المؤمنين مصدق بجميع كلمات الله تعالى؟

قلنا: معناه مصدقًا بعيسى الذي كان وجوده بكلمة من الله تعالى وهو قوله: «كُنْ» من غير واسطة أب في الوجود. وكان تصديق يحيى بعيسى أسبق من تصديق كل أحد، في الوجود، أو في الرتبة.

١٠١- **فإن قيل:** زكريا سأل الولدَ بقوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] والله تعالى بشره بيحيى، عليه السلام، على لسان الملائكة، فكيف أنكر، بعد هذا كله، قدرة الله تعالى على إعطائه الولد، حتى قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]؟؟.

قلنا: إنما قاله على سبيل الاستفهام والتعجب من عظيم قدرة الله تعالى، لا على طريق الإنكار والاستبعاد؛ أو اشتبه عليه كيف يُعْطَى الولد، وهو شيخ، وامرأته عاقر؛ أو تزول عنهما هاتان الصفتان لكشف الحال. تقديره: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] ولقائل أن يقول: آخر الآية لا يناسب هذا الجواب.

---

(١) هو نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي أبو الليث من أئمة الحنفية وكان زاهدًا متصوفًا توفي سنة ٣٧٣هـ.

١٠٢- **فإن قيل:** ما فائدة تكرار ذكر الاصطفاء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: ٤٢].

قلنا: الاصطفاء الأول: العبادة التي هي خدمة البيت المقدس، وتخصيصها بقبولها في النذر؛ مع كونها أنثى، والاصطفاء الثاني: لولادة عيسى، عليه السلام، أو أعيد ذكر الاصطفاء، ليفيد بقوله: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] فيندفع وَهْمُ أنها مصطفاة على الرجال.

١٠٣- **فإن قيل:** كيف نفى حضور النبي عليه الصلاة والسلام في زمن مريم بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤] الآية؛ وذلك معلوم عندهم، لا شك فيه، وترك نفي استماعه ذلك الخبر من حفاظه وهو الذي كانوا يتوهمونه؟

قلنا: كان معلومًا أيضًا عندهم، علمًا يقينًا أنه ليس من أهل القراءة والرواية.

وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة والحضور، وهي في غاية الاستحالة؛ فنفيت، على طريق التهكم بالمنكرين للوحي؛ مع علمهم أنه لا قراءة له ولا رواية.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦].

١٠٤- **فإن قيل:** كيف قال: اسمه المسيح عيسى ابن مريم، والخطاب مع مريم، وهي تعلم أن الولد الذي بُشّرت به يكون ابنها؟

قلنا: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات؛ فأعلمت، بنسبته إليها، أنه يولد من غير أب؛ فلا ينسب إلا إلى أمه.

١٠٥- **فإن قيل:** أي معجزة لعيسى عليه الصلاة والسلام، في تكليم الناس كهلًا؟ وأي خصوصية له في هذا، حتى قال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦]؟

قلنا: معناه ويكلم الناس في هاتين الحالتين، بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولية وحال الكهولية التي يستحكم فيها العقل، ويُنَبَّأُ فيها الأنبياء. فكأنه قال: ويكلم الناس في المهد، كما يكلمهم كهلًا. وقال الزجّاج: هذا خرج مخرج البشارة لمريم أنه عليه الصلاة والسلام سيبقى إلى زمن الكهولة فهو بشارة لها بطول عمره وقيل: المقصود منه أن الزمان يؤثرفيه، كما يؤثر في غيره، وينقله من حال إلى حال؛

ولو كان إلهًا لم يجز عليه التغيير.

١٠٦- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ والله تعالى رفعه ولم يتوفه؟

قلنا: لما هدده اليهود بالقتل، بشره الله بأنه إنما يقبض روحه بالوفاة لا بالقتل، والواو لا تفيد الترتيب، فلا يلزم من الآية موته قبل رفعه.

الثاني: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، أي أني رافعك ومتوفيك.

والثالث: أن معناه: قابضك من الأرض تامًّا، وافيًا في أعضائك وجسدك، لم ينالوا منك شيئًا؛ من قولهم: توفيت حقي على فلان، إذا استوفيته تامًّا وافيًا.

الرابع: أن معناه إني متوفيك في نفسك بالنوم، من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ورافعك إليَّ، وأنت نائم؛ حتى لا تخاف، بل تستيقظ وأنت في السماء.

١٠٧- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] وآدم خلق من التراب، وعيسى خلق من الهواء، وآدم خلق من غير أب وأمّ، وعيسى خلق من أمّ؟

قلنا: المراد به التشبيه في وجوده بغير واسطة أب. والتشبيه لا يقتضي المماثلة من جميع الوجوه، بل من بعضها.

١٠٨- فإن قيل: كيف خص أهل الكتاب بأن منهم أمينًا وخائنًا بقوله: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] الآية، والمسلمون وغيرهم من أهل الملل كذلك، منهم الأمين والخائن؟؟.

قلنا: إنما خصهم باعتبار واقعة الحال، فإن سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام أودِع ألفًا ومائتي أوقية من الذهب، فأدى الأمانة فيها؛ وفنحاص بن عازوراء أودِع دينارًا فخانه؛ ولأن خيانة أهل الكتاب المسلمين تكون عن استحلال بدليل آخر الآية؛ بخلاف خيانة المسلم المسلم؛ فلذلك خصهم بالذكر.

١٠٩- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] وأكثر الجن والإنس كفرة؟

قلنا: المراد بهذا: الاستسلام والانقياد لما قضاه الله عليهم، وقدره من الحياة

والموت، والمرض والصحة، والشقاء والسعادة، ونحو ذلك.

١١٠- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران: ٩٠] ومعلوم أن المرتد وإن ازداد ارتداده كفرًا فإنه مقبول التوبة؟

قلنا: الآية نزلت في قوم ارتدوا، ثم أظهروا التوبة بالقول، لستر أحوالهم والكفر في ضمائرهم، قاله ابن عباس.

وقيل: نزلت في قوم تابوا من ذنوبهم غير الشرك.

وقيل: معناه: لن تقبل توبتهم وقت حضور الموت.

١١١- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦] وكم من بيت بُني قبل الكعبة، من زمن آدم إلى زمن إبراهيم عليه السلام؟

قلنا: معناه أن أول بيت وضع قبلة للناس ومكان عبادة لهم، أو وضع مباركًا للناس أو لأن ابن عباس قال: أول مَنْ بناه آدم عليه السلام، لمَّا هبط مِن السماء أوحى الله تعالى إليه ابنِ لي بيتًا في الأرض، واصنع حوله نحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، فبناه، وجعل يطوف حوله.

١١٢- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولم يقل أنتم خير أمة؟

قلنا: معناه كنتم في سابق علم الله، أو كنتم يوم أخذ الميثاق على الذرية، فأراد الإعلام بكون ذلك صفة أصلية فيهم، لا عارضة متجددة أو معناه خلقتم ووجدتم فهي (كان) التامة[1]؛ و«خير أمة» نصب على الحال؛ وتمام الكلام في كان يذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ [النساء: ٢٢].

---

(١) قد تخرج كان عن معناها الحقيقي، تستعمل تامة وتكتفي برفعها وحينئذ يكون المرفوع فاعلا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فكان هنا بمعنى: وُجِدَ وهي بذلك خرجت عن معناها الحقيقي الذي هو اتصاف خبرها بمعنى اسمها في الزمن الماضي أو الحال أو المستقبل؛ ولذلك هي هنا تامة، ومعنى التمام أن الفعل يكتفي بمرفوعه ويعرب مرفوعه فاعلًا.

ومنه قول الشاعر أي: استعمال «كان» تامة: وهو من بحر الوافر:

إذا كان الشتاء فأدفئوني ... فإن الشيخ يفسده الشتاء

١١٣- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠] ولا يصح أن يقال: هذا خير من ذلك إلا إذا كان في كل واحد منهما خير؛ مع أن غير الإيمان لا خير فيه؛ حتى يقال: إن الإيمان خير منه؟

قلنا: معناه إيمانهم بمحمد ﷺ مع إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام، خير من إيمانهم بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فقط.

١١٤- فإن قيل: كيف قال: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: ١١٧]، الآية، والمقصود تشبيه نفقة الكفار وأموالهم، في تحصيل المفاخر، وطلب الصيت والسمعة، أو ما ينفقونه في الطاعات، مع وجود الكفر، أو ما ينفقونه في عداوة رسول الله ﷺ، بالزرع الذي أصابته ريح شديدة البرد، فأهلكته فضاع، ولم ينتفع به، والتشبيه في الحقيقة بالزرع، وفي لفظ الآية بالريح؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر؛ أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ [البقرة: ١٧١] الآية، وقال ثعلب[1]: فيه تقديم وتأخير تقديره: كمثل حرث قوم، ظلموا أنفسهم، أصابته ريح فيها صرٌّ فأهلكته.

١١٥- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠] فوصف الحسنةَ بالمس والسيئة بالإصابة؟

قلنا: المسّ مستعار، بمعنى الإصابة، توسعة في العبارة؛ وإلا فكان المعنى واحدًا، ألا ترى إلى قوله تعالى في الفريقين: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩- ٢١].

١١٦- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ والنبي، عليه أفضل التحية

---

(١) هو إمام الكوفيين في النحو واللغة أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني ولاءً، المشهور بثعلب توفي سنة ٢٩١هـ.

يقول: «**العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالتَّأَنِّي مِنَ الرَّحْمنِ**»؟[١].

قلنا: قد استثنى النبي ﷺ خمسة مواضع، فقال: «**إِلَّا فِي التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ وَقَضَاءِ الدَّيْنِ الحَال، وتَزْوِيجِ الْبِكْرِ البَالِغِ، وَدَفْنِ المَيِّتِ وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ إِذَا نَزَلَ**»[٢].

---

(١) ضعيف الإسناد: في السنن والمسانيد بلفظ: «**التأني من الله والعجلة من الشيطان**» وأسانيده لا تخلو من مقال، رواه الترمذي (١٩٣٥) من حديث سهل بن سعد وإسناده ضعيف فيه عبد المهيمن بن عباس بن سهل وهو ضعيف، ورواه البيهقي في سننه (١٤/ ١٠٤)، وفي الشعب (٤٣٦٧)، والمدخل (٨١٩)، والحارث في مسنده كما في زوائد الهيثمي رقم (٨٦٨)، وأبو يعلي في مسنده (٤٢٥٦)، والفسوى في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٨٩) من طريق سعد بن سنان عن أنس مرفوعًا وسعد وثقه يحيى بن معين وبين أنه اختلط فقال: سمع منه عبد الله بن يزيد بعد ما اختلط، وأورده ابن حبان في ثقاته، وذكر الخلاف في اسمه وقال: وقد اعتبرت حديثه فرأيت ما روي عن سنان بن سعد يشبه أحاديث الثقات. وما روي عن سعد بن سنان وسعيد بن سنان فيه المناكير كأنهما اثنان، وقال أبو داود: قلت لأحمد بن حنبل: سنان بن سعد سمع أنسًا فغضب من إجلاله له، وقال أحمد: تركت حديثه؛ لأنه مضطرب غير محفوظ وقال مرة: يشبه حديثه حديث الحسن لا يشبه حديث أنس، وقال الجوزجاني: أحاديثه واهية، وقال محمد بن سعد والنسائي: منكر الحديث، انظر: التهذيب (٣/ ٤٧١)، والثقات (٤/ ٣٦٣)، وأحوال الرجال (٢٧٩)، والضعفاء للنسائي (٢٨٢) وطبقات ابن سعد (٤/ ٢٨٣)، ورواه إسحاق في مسنده (١/ ٤٢٦) من طريق عطاء الخراساني عن أبي هريرة وهو ضعيف. وقد ورد في فضل التأني قول النبي ﷺ لِلأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ القَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**»، مسلم (٢٤)، وقال الإمام مالك كما في المدخل للبيهقي (١/ ٤٣٧): العجلة في الفتوى نوع من الجهل والخرق وكان يقال: (التأني من الله والعجلة من الشيطان)، وما عجل امرؤ فأصاب واتأد آخر فأخطأ إلا كان الذي اتأد أصوب رأيا ولا عجل امرؤ فأخطأ واتأد آخر فأخطأ إلا كان الذي اتأد أيسر خطأ. اهـ.

(٢) في الحلية (٨/ ٧٨) عن أحمد بن سليمان الكفر سلاني يقول: وجدت في كتابي عن حاتم الأصم أنه قال.. وفيه: وقال حاتم: كان يقال: العجلة من الشيطان إلا في خمس: إطعام الطعام إذا حضر الضيف، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب.اهـ. فهو وجادة من قول حاتم وليس فيه: فإنها سنة رسول الله كما ذكر المصنف والغزالي في الإحياء ولم أقف له على إسناد مرفوع بهذا اللفظ، قال العجلوني في كشف الخفاء عقب تخريج حديث «**التأني من الله**»: وقد ورد تقييد ذلك ببعض الأعمال، فروى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص: التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة، قال الأعمش: لا أعلم إلا أنه رفعه، وفي لفظ للحاكم وأبي داود والبيهقي عن سعد: التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة. اهـ. وهو في الصحيحة (١٧٩٤)، وللمزي في

والمسارعة المأمور بها في الآية هي المسارعة إلى التوبة وما في معناها من أسباب المغفرة.

١١٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، عطف عليه بكلمة «أو»، وفعل الفاحشة داخل في ظلم النفس، بل هو أبلغ أنواع ظلم النفس؟

قلنا: أريد بالفاحشة نوع من أنواع ظلم النفس، وهو الزنا؛ أو كل كبيرة. فخص بهذا الاسم تنبيهًا على زيادة قبحه، وأُرِيدَ بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب.

١١٨- **فإن قيل:** كيف قال، هنا: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ﴾ [الجاثية: ١٤]؟

قلنا: معناه وَمَنْ يستر الذنوب مِن جميع الوجوه إلا الله، ومثل هذا الغفران لا يوجد إلا مِن الله.

١١٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وهلاَّ اقتصر على قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ وكان القتلُ يدخل فيه فإنه موت؟

قلنا: القتل وإن كان موتًا لكن إذا أطلق الميتُ في العرف لا يفهم منه المقتول، فلذلك عطف أحدهما على الآخر.

١٢٠- **فإن قال:** كيف قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]؟؟.

قلنا: معناه يأتي به مكتوبًا في ديوانه، أو يأتي به حاملًا إثمه. ومعنى فرادى منفردين عن الأموال والأهل أو عن الشركاء في الغي، أو عن الآلهة المعبودة من دون الله.

= تهذيبه في ترجمة محمد بن موسى عن مشيخة من فوقه مرسلا أن النبي ﷺ قال: «**الأناة في كل شيء إلا في ثلاث: إذا صيح يا خيل الله اركبي، وإذا نودي للصلاة، وإذا كانت الجنازة**» وإسناده ضعيف للإرسال، وفي الترمذي (٩٩٥) وغيره عن علي رفعه: «**ثلاثة لا تؤخروها: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤا**» وإسناده ضعيف.

وتمام الآية يشهد للكل.

١٢١- **فإن قيل:** قد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أن الغال يأتي يوم القيامة حاملًا عين ما غله على عنقه صامتًا كان أو ناطقًا هذا معنى الحديث[1]، فاندفع الجواب.

قلنا: على هذا يكون المرادُ بالآية الآخرى فرادى عن مال وأهل يعتزون بهما، ويستنصرون ويشهد بصحته تمام الآية.

١٢٢- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، والعبيد ليسوا نفس الدرجات؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: هم ذوو درجات أو أهل درجات؛ فحذف المراد لعدم الإلباس.

وقيل: المراد بالدرجات الطبقات؛ فلا يكون فيه إضمار، معناه أنهم طبقات عند الله متفاوتون كتفاوت الدرجات.

١٢٣- **فإن قيل:** كيف يجعل لكل الفريقين درجات، وأحد الفريقين لهم دركات لا درجات؟

قلنا: الدرجات تستعمل في الفريقين، بدليل قوله تعالى، في سورة الأحقاف، بعد ذكر الفريقين: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢] وتحقيقه أن بعض أهل النار أخف عذابًا، فمكانه فيها أعلى؛ وبعضهم أشد عذابًا، ومكانه فيها أسفل.

ولو سُلِّم اختصاص الدرجات بأهل الدرجات كان قوله: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ راجعًا إليهم خاصة، تقديره: أفمن اتبع رضوان الله وهم درجات عند الله، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ

(١) يشير إلى ما رواه البخاري (٢٨٤٤)، ومسلم (١٦٤٧) من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ قَالَ: «لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَها ثُغَاءٌ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ يَقُولُ: يَارَسُولَ الله، أَغِثْنِي فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِير لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ فَيَقُولُ: يَارَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ».

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وهم دركات! إلا أنه حذف البعض لدلالة المذكور عليه.

١٢٤- **فإن قيل:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] كانوا في زمن النبي ﷺ قالوا ذلك لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فكيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ [آل عمران: ١٨١] أي ونكتب قتلهم الأنبياء، وهم لم يقتلوا نبيًّا قط؟

قلنا: لما رضوا بقتل أسلافهم الأنبياء، كأنهم باشروا ذلك؛ فأضيف إليهم. وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيرًا.

١٢٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وظلام صيغة مبالغة من الظلم، ولا يلزم من نفي الظلام نفي الظالم، وعلى العكس يلزم. فهلاَّ قال: ليس بظالم ليكون أبلغ في نفي الظلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا: صيغة المبالغة جيء بها لكثرة العبيد، لا لكثرة الظلم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٧٣] و ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]. لما أفرد المعمول لم يأت بصيغة المبالغة. ونظيره قولهم: زيد ظالم لعبده، وعمرو ظَلَّام لعبيده، فهما في الظلم سيان، وكذلك قال الله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل. أو الصيغة هنا للنسب، أي لا ينسب إليه ظلم؛ فالمعنى ليس بذي ظلم.

الثاني: أن العذاب من العظيم القدر الكثير العدل، لولا سبق الجناية، يكون أفحش وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر كثير العدل. فيطلق عليه اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه، لا باعتبار تكرره.

فحاصله، أن صيغة المبالغة تارة تكون باعتبار زيادة ذات الفعل، وتارة باعتبار صفته، ففعل الظلم لو وجد من الله تعالى وتَقَدَّس لكان أعظم مِن ألف ظلم يوجد من عبيده؛ باعتبار زيادة وصف القبح؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] على ما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

١٢٦- **فإن قيل:** في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤] من حق الجزاء أن يتعقب الشرط، وهذا سابق له؟

قلنا: جواب الشرط محذوف، إذ لا يصلح قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤] جوابًا، لأنه سابق عليه. ومعناه: وإن يكذبوك فتأسَّ بتكذيب الرسل قبلك، وضعًا للسبب، وهو تكذيبهم موضع المسبب، وهو التأسي بهم.

١٢٧- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾، في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، والأول مغن عن الثاني؟

قلنا: معناه ليبيننه في الحال، ويدومون على ذلك البيان ولا يكتمونه، في المستقبل.

الثاني: أن الضمير الأول للكتاب، والثاني لنعت النبي ﷺ وذكره، فإنه قد سبق ذكر النبي ﷺ قبيل هذا.

١٢٨- **فإن قيل:** متى بينوا الكتاب لزم من بيانه بيان صفة النبي ﷺ وذكره؛ لأنه مِن جملة الكتاب الذي هو التوراة والإنجيل، فقوله، بعد ذلك، ولا يكتمونه تكرار.

قلنا: على هذا يكون تأكيدًا.

١٢٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وقال: في موضع آخر: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]؛ ويلزم من هذا أن لا يدخل المؤمنين النار كما قالت المعتزلة والخارجية؟

قلنا: أخزيته بمعنى أذللته وأهنته، من الخزي وهو الذل والهوان، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] من الخزاية وهي النكال والفضيحة. فكل مَنْ يدخل النار يذل وليس كل مَنْ يدخلها ينكل به ويفضح أو المراد بالآية الأولى إدخال الإقامة والخلود، لا إدخال تحلة القسم المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، أو إدخال التطهير الذي يكون لبعض المؤمنين، بقدر ذنوبهم.

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله.

١٣٠- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران: ١٩٣] والمسموع نداء المنادي لا نفس المنادي؟

قلنا: لما قال مناديًا ينادي، صار تقديره: نداء مناد، كما يقال: سمعت زيدًا يقول كذا، أي سمعت قول زيد فمناديًا مفعول سمع، وينادي حال دالة على محذوف مضاف للمفعول.

١٢١- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وتكفير السيئات داخل في غفران الذنوب؟

قلنا: المعنى مختلف؛ لأن الغفران مجرد فضل، والتكفير محو السيئات بالحسنات.

١٢٢- فإن قيل: ما فائدة قولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]؛ مع أنهم لا ينفعهم توفيهم مع الأبرار؛ بل النافع لهم كونهم من الأبرار؛ سواء توفاهم معهم، أو قبلهم، أو بعدهم؟

قلنا: معناه وتوفنا مخصوصين بصحبتهم معدودين في جملتهم كما يقال: أعطاني الأميرُ مع أصحاب الخِلَعِ والجوائز، أي جعلني من جملتهم؛ وإن تقدم إعطاؤه عنهم أو تأخر.

١٢٣- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] أي على لسان رسلك. دعوه بإنجاز الوعد، مع علمهم، وقولهم، أيضًا: إنه لا يخلف الميعاد؟

قلنا: الوعد من الله تعالى على ألسنة الرسل للمؤمنين عام، يحتمل أن يراد به الخصوص، كما في أكثر عمومات القرآن فسألوا الله تعالى أن يجعلهم من الداخلين في حكم الوعد.

الثاني: أنهم سألوا تعجيل النصر الذي وعدوا به؛ فإنه تعالى وعدهم النصرَ على أعدائهم، غير مُوقّت بوقْت خاص.

١٢٤- فإن قيل: كيف يجوز أن يغتر الرسولُ بنعم الذين كفروا حتى نُهي عن الاغترار بقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦] أي تصرفهم فيها بالتجارات متنعمين؟

قلنا: معناه لا يغرنكم أيها المؤمنون، فإن رئيس القوم ومقدمهم يخاطب بشيء، والمراد به أتباعه وجماعته.

الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام كان غيرَ مغتر بحالهم؛ فقيل له ذلك تأكيدًا وتثبيتًا على الدوام عليه، كما قيل له: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨].

١٣٥- فإن قيل: كيف ينهى عن التقلب وهو مما ليس ينهى عنه؟

قلنا: معناه لا تغتر بتقلبهم فيكون تقلبهم قد غركَ، وهذا مِن تنزيل السبب منزلة المسبب؛ لأن تقلبهم لو غره لاغتر به، فمنع السبب، وهو غرور تقلبهم إياه ليمتنع المسبب، وهو اغتراره بتقلبهم.

١٣٦- فإن قيل: كيف قال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]؛ ولم يقل لا يغرنك نعمهم وأموالهم؛ والذي يحتمل أن يغرَّ الرسولَ والمؤمنين النعمُ والأموالُ لا التقلبُ في البلاد؟

قلنا: المراد بتقلبهم تصرفهم في التجارات والنعم، والتلذذ بالأموال، والفقير إنما يتألم، وينكسر قلبه، إذا رأى الغنَي يتقلبُ في النعمة، ويتمتعُ بها، فلذلك ذكر التقلبَ. وقيل: معناه لا يغرنك تقلبهُم في المعاصي، غير مأخوذين بذنوبهم.

١٣٧- فإن قيل: كيف قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، مع أن قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ موضع البشارة بالثواب؛ وسرعة الحساب إنما تذكَرُ في موضع التهديد والعقاب؟

قلنا: معناه لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا، خوفًا من حسابه، فإنه سريع الحساب؛ فهو راجع إلى ما قبله.

* * *

سورة قصة النساء(١)

١٣٨- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] إذا كانت حواء مخلوقة من آدم، ونحن مخلوقون منه أيضًا، تكون نسبة حواء إلى آدم نسبة الولد؛ لأنها متفرعة منه، فتكون أختا لنا لا أمًّا.

قلنا: قال بعض المفسرين: «من» لبيان الجنس لا للتبعيض، معناه: وخلق من جنسها زوجها، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الثاني: وهو الذي عليه الجمهور أنها للتبعيض، ولكن خلق حواء من آدم لم يكن بطريق التوليد، كخلق الأولاد من الآباء؛ فلا يلزم منه ثبوت البنتية والأختية فيها.

١٣٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، واليتيم لا يعطى ماله حتى يبلغ اتفاقًا؟

قلنا: المراد به إذا بلغوا؛ وإنما سموا يتامى لقرب عهدهم بالبلوغ، باعتبار ما كان، كما تسمى الناقة عشراء بعد الوضع، وقد يسمى البالغ يتيمًا باعتبار ما كان، كما يسمى الحي ميتًا والعنب خمرًا، باعتبار ما يكون. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]. ومنه قولهم للنبي عليه الصلاة

(١) في الأصل سورة قصة النساء ولم أقف عليه، قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: سميت هذه السورة في كلام السلف سورة النساء؛ ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت: ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده. وكذلك سميت في المصاحف وفي كتب السنة وكتب التفسير ولا يعرف لها اسم آخر، لكن يؤخذ مما روي في صحيح البخاري عن ابن مسعود من قوله: «نزلت سورة النساء القصرى» يعني: سورة الطلاق أنها شاركت هذه السورة في التسمية الطولى ولم أقف عليه صريحًا.

ووقع في كتاب بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي: أن هذه السورة تسمى سورة النساء الكبرى واسم سورة الطلاق سورة النساء الصغرى. ولم أره لغيره. ووجه تسميتها بإضافة إلى النساء أنها افتتحت بأحكام صلة الرحم ثم بأحكام تخص النساء، وأن بها أحكامًا كثيرة من أحكام النساء: الأزواج والبنات وختمت بأحكام تخص النساء، وكان ابتداء نزولها بالمدينة لما صح عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده. وقد علم أن النبي ﷺ بنى بعائشة في المدينة في شوال لثمان أشهر خلت من الهجرة. اهـ. انظر: التحرير والتنوير ص ٨٧٨.

والسلام، بعد ما نبأه الله: يتيم أبي طالب.

١٤٠- فإن قيل: أكل مال اليتيم حرام وحده، ومع أموال الأوصياء؛ فَلِمَ ورد النهيُ مخصوصًا عن أكله معها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أي معها؟

قلنا: لأن أكل مال اليتيم، مع الاستغناء عنه، أقبح؛ فلذلك خُصَّ بالنهي. ولأنهم كانوا يأكلونه، مع الاستغناء عنه، فجاء النهيُ على ما وقع منهم.

١٤١- فإن قيل: لما قال: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧]، دخل فيه القليل والكثير؛ فما فائدة قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ [النساء: ٧]؟

قلنا: إنما قال ذلك على جهة التأكيد والإعلام أن كل تركة تجب قسمتها، لئلَّا يتهاون بالقليل من التركات ويحتقر؛ فلا يقسم، وينفرد به بعض الورثة.

١٤٢- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١]؛ مع أنه لو كان الولد بنتًا فللأب الثلث؟

قلنا: الآية وردت لبيان الفرض دون التعصيب، وليس للأب مع البنت بالفرض إلا السدس.

١٤٣- فإن قيل: كيف قطع على العاصي الخلودَ في النار بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]؟

قلنا: أراد به من يعصِ الله برد أحكامه وجحودها، وذلك كفر؛ والكافر يستحق الخلود في النار.

١٤٤- فإن قيل: كيف قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥]، والتوفي والموت بمعنى واحد؛ فصار كأنه قال: حتى يميتهن الموت؟

قلنا: معناه حتى يتوفاهن ملائكة الموت.

الثاني: معناه: حتى يأخذهن ملائكة الموت، وتُتوفّى أرواحهن.

١٤٥- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٧]، ولم يقل: إنما التوبة على العبد؛ مع أن التوبة واجبة على العبد؟

قلنا: معناه إنما قبول التوبة على الله بحذف المضاف.

الثاني: أن معنى التوبة من الله رجوعه على العبد بالمغفرة والرحمة، لأن التوبة في

اللغة الرجوع.

١٤٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، ولو عمله بغير جهالة، ثم تاب، قبلت توبته؟

قلنا: معناه بجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها، لا بكونها معصية وذنبًا وكل عاص جاهل بذلك حال مباشرة المعصية، معناه أنه مسلوب كمال العلم به، بسبب غلبة الهوى، وتزيين الشيطان.

١٤٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، مع أنهم لو تابوا بعد الذنب من بعيد، قبلت توبتهم؟

قلنا: ليس المراد بالقريب مقابل البعيد إذ حكمهما واحد؛ بل معناه قبل معاينة سلطان الموت، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما، بقرينة قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

١٤٨- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] الآية، مع أن حرمة الأخذ ثابتة، وإن لم يكن قد أعطاها المهر؛ بل كان في ذمته، أو في يده؟

قلنا: المراد بالإيتاء الضمان والالتزام كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي ما غنمتم والتزمتم.

١٤٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ [النساء: ٢٠] وأخذ مهر المرأة ظلم وليس ببهتان؛ لأن البهتان الكذب؟

قلنا: ابن عباس وابن قتيبة قالا: المراد بالبهتان الظلم. وقال الزجاج: المراد به الباطل. والمشهور في كتب اللغة أن البهتان أن يقول الإنسان على غيره ما لم يفعله.

قالوا: فالمراد به أن الرجل ربما رمى امرأته بتهمة ليتوصل بذلك إلى أن يأخذ منها مهرها ويفارقها. وقيل: المراد به إنكاره أن لها مهرًا في ذمته.

١٥٠- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ [النساء: ٢٢]؛ نهي عن الفعل المستقبل، وإلا ما قد سلف ماضٍ، فكيف يصح استثناء الماضي من المستقبل؟

قلنا: قيل إن «إلا»، هنا بمعنى «بعد»، كما في قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا

ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[الدخان: ٥٦] . وقيل: هو استثناء من محذوف تقديره: فإنكم تعذبون به، إلا ما قد سلف. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: إنه كان فاحشة إلا ما قد سلف.

١٥١- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾[النساء: ٢٢] بلفظ الماضي، مع أن نكاح منكوحة الأب فاحشة في الحال وفي الاستقبال إلى يوم القيامة؟؟.

قلنا: كان تارة تستعمل للماضي المنقطع كقوله: كان زيد غنيًّا، وكان الخزف طينًا، وتارة تستعمل للماضي المستمر المتصل للحال، كقول أبي جندب الهذلي[1] :

وكُنْتُ إذَا جَارِي دعا لِمَضُوفَةٍ ... أُشَمِّرُ حتَّى ينْصِفَ الساقَ مِئْزَرِي

أي وإني الآن، لأنه إنما يتمدح بصفة ثابته له في الحال، لا بصفة زائلة ذاهبة.

والمضوفة بالفاء: الأمر الذي يشفق منه، والقاف تصحيف. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤٠] ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢٧] . وما أشبه ذلك.

وما نحن فيه من هذا القبيل؛ وسيأتي الكلام في «كان»، بعد هذا، إن شاء الله، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾[النساء: ١٠٣] .

١٥٢- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم ﴾[النساء: ٢٣] ، قيد التحريم بكون الربيبة في حجر زوج أمها، والحرمة ثابتة مطلقًا، وإن لم تكن في حجره؟

قلنا: أخرج ذلك مخرج العادة، والغالب لا مخرج الشرط والقيد؛ ولهذا اكتفى في موضع الإحلال بنفي الدخول، في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾[النساء: ٢٣] .

١٥٣- فإن قيل: لما قال: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾[النساء: ٢٣] ، ثم قال في آخر الآية: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾[النساء: ٢٤] ، علم من مجموع ذلك أن الربيبة لا تحرم إذا لم يدخل بأمها؛ فما فائدة قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

---

(١) البيت من بحر الطويل - لأبي جندب الهذلي وفي رواية - حتى يبلغ - والشاهد فيه أن «كان» دلت على الماضي المتصل بالحال، وانظر (خزانة الأدب ٧/ ٤١٧ وابن يعيش ١٠/ ٨١ والمحتسب ١/ ٢١٤ والممتع في التصريف ٢/ ٤٧٠ والمعجم المفصل في شواهد النحو ١/ ٤٢٧).

عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]؟؟.

قلنا: فائدته أن لا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج العادة والغالب لا مخرج الشرط كما في الحجر.

١٥٤- **فإن قيل:** كيف قال، في نكاح الإماء: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥] والمهر ملك المولى؛ وإنما يجب تسليمه إلى المولى لا إلى الأمة؟

قلنا: لما كانت الأمة وما في يدها ملك المولى، كان أداؤه إليها كأدائه إلى المولى.

الثاني: أن معناه: وآتوا مواليهن أجورهن، بطريق حذف المضاف.

١٥٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]، وجواز نكاح الأمة ثابت من غير خوف العنت عند بعض العلماء؟

قلنا: فيه إضمار، تقديره: ذلك أصوب وأصلح لمن خشي العنت منكم. فيكون شرطًا لما هو الأرشد والأصلح، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]

١٥٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] والإرادة إنما تقرن بأن يقال: يريد أن يفعل، وقال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]؟

قلنا: قد ورد في الكتاب العزيز اللام بمعنى «أن» كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]. وقال الله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا﴾ [الصف: ٨]، فكذلك هذا.

١٥٧- **فإن قيل:** كيف خَصَّ التجارةَ بالذكر، في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ؛ مع أن الهبة، والصدقة، والوصية، والضيافة، وغيرها، تقتضي الحل أيضًا، كالتجارة؟

قلنا: إنما خصها بالذكر، لأن معظم تصرف الخلق في الأموال إنما هو بالتجارة، أو لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها.

١٥٨- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢] ، قالوا: معناه أنهم يتمنون أن يجعلوا يوم القيامة ترابًا، كما جاء في آخر سورة النبأ؛ وظاهر اللفظ يعطي أنهم يتمنون أن تجعل الأرض مثلهم ناسًا، كما تقول: سويت زيدًا بعمرو، ومعناه

جعلت زيدًا وهو المسوى مثل عمرو هو المسوى به.

قلنا: قولهم سويت هذا بهذا له معنيان:

أحدهما: إجراء حكم الثاني على الأول، كقولك سويت زيدًا بعمرو؛ وكما تقول ساويت.

والثاني: أن يكون المسوى مفعولًا والمسوى به آلة، كقولك: سويت القلم بسكين، والثوب بالمقراض، بمعنى أصلحته به. قلنا: فقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢]، يحتمل وجهين: أن يكون بمعنى ساويت ويكون من المقلوب، أي لو يسوون بالأرض بجعلهم ترابًا، كقوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ [القصص: ٧٦]، قوله: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، في قول مَنْ لم يجعل الباء زائدة، كقولهم: أدخلت الخاتم في أصبعي ونحوه، وأن يكون بمعنى الآلة. معناه: ودوا لو تمهد بهم الأرض وتوطد، بأن يجعلوا ترابًا، ويبثوا في وهادها وحضيضها، لتساوي بقاعها وآكامها، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]، انخفاضًا ولا ارتفاعًا، وإن كان يدل على أن الأرض يوم القيامة متساوية السطوح، فجعلها متساوية السطوح إن كان قبل البعث، فإذا بعث الموتى من قبورهم خلت منهم قبورُهُم وحفرهم فحصل في الأرض تفاوت، وإن كان بعد البعث فيجوز أن يكون هذا التمني سابقًا على جعلها متساوية السطوح.

١٥٩- **فإن قيل:** قولنا هذا الخير من ذلك يقتضي أن يكونَ في كل واحد منهما خيرٌ حتى يصح تفضيلُ أحدهما على الآخر؛ لأن خيرًا، في الأصل، أفعل تفضيل؛ فكيف قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: ٤٦]، بعد ما سبق من قولهم في أول الآية؟

قلنا: المراد بالخير ها هنا الخير الذي هو ضد الشر، لا الذي هو أفعل التفضيل، كما تقول: في فلان خير.

١٦٠- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، والمفعول مخلوق، وأمر الله وقوله غير مخلوق؟

قلنا: ليس المراد بهذا الأمر ما هو ضد للنهي؛ بل المراد به ما يحدث من الحوادث، فإن الحادثة تسمى أيضًا أمرًا؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ

﴿أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

١٦١- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]؛ مع أن شرك الساهي والمكره والتائب مغفور؟

قلنا: المراد به شرك غير هؤلاء المخصوص من عموم الآية بأدلة مِن خارج؛ أو نقول قيد المشيئة متعلق بالفعلين المنفي والمثبت كأنه قال: إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء، ويغفر ما دونه لمن يشاء.

١٦٢- فإن قيل: هذه الآية تدل على أن غير الشرك من الذنوب لا يقطع بانتفاء مغفرته؛ بل ترجى مغفرته، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، يدل على القطع بانتفاء المغفرة في الكفر والظلم وهما غير الشرك، فكيف الجمعُ بينهما؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الشرك، قال مقاتل[١]: والشرك يسمى ظلمًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فكأنه قال: إن الذين أشركوا.

الثاني: أو قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ليس قطعًا بالمغفرة لغير المشرك، وهو تعليق للمغفرة له بالمشيئة ثم بين بالآية الأخرى أن الكافر ليس داخلاً فيمن يشاء المغفرة له فيتعين دخوله فيمن لا يغفر له؛ لأنه لا واسطة بينهما.

الثالث: أنه عام خص بالآية الثانية، كما خص قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] بالآية الأولى. ويؤيد هذا إجماع الأمة على أن الكافر والمشرك سواء، في عدم المغفرة والتخليد في النار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البينة: ٦].

١٦٣- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، ذمهم على ذلك، وقال أيضًا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، وقد زكى النبي ﷺ نفسه فقال: «والله إني لأمينٌ في السَّماءِ أَمينٌ في الأَرْضِ»[٢]. ويوسف عليه السلام، قال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ

---

(١) هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي ولاءً، أحد مشاهير المفسرين توفي سنة ١٥٠هـ.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١/ ٤٢٦) رقم (٩٨٢)، والبزار في مسنده (البحر الزخار) رقم (٦٢٨٥)، وأبو

﴿ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾؟

قلنا: إنما قال ذلك حين قال المنافقون: اعدل في القسمة[1] تكذيبًا لهم؛ حيث وصفوه بخلاف ما كان عليه من العدل والأمانة، وأما يوسف عليه السلام، فإنه إنما قال ذلك ليتوصل به إلى ما هو وظيفة الأنبياء، وهو إقامة العدل وبسط الحق وإمضاء أحكام الله تعالى؛ ولأنه علم أنه لا أحد، في ذلك الوقت، أقوم منه بذلك العمل؛ فكان

= نعيم في معرفة الصحابة رقم (٨١٤)، والروياني في مسنده (٦٧٨) و (٦٩٧)، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو يعلي كما في المطالب العالية النسخة المسندة (٧/ ٤٥٠)، من طرق عن موسى بن عبيدة قال: أخبرني يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي رافع رضي الله عنه قال: نزل برسول الله ضيف فبعثني إلى يهودي فقال: «**قل له: إن رسول الله يقول: بعني أو أسلفني إلى رجب**» فأتيته فقلت له ذلك، فقال له: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن، فأتيت رسول الله فأخبرته فقال: «**والله لو باعني أو أسلفني لقضيته إني لأمين في السماء أمين في الأرض اذهب بدرعي الحديد إليه**» قال: فنزلت تعزية عن الدنيا ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [طه: ١٣١]، وهذا إسناد ضعيف فيه موسى بن عبيدة الربذي وهو عابدٌ ضعيف الحديث، ورواه أبو يعلي كما في المطالب العالية (٧/ ٤٥٠)، من طريق الحسن بن شبيب، ثنا خلف بن خليفة، ثنا جعفر بن علي بن أبي رافع عن جده به، وهذا إسناد واه فيه الحسن بن شبيب، قال ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢/ ٣٣٠): حدث عن الثقات بالبواطيل وأوصل أحاديث هي مرسلة، قال صاحب الكشف الحثيث (ص ٩٠): قال ابن عدي: حدث بالبواطيل عن الثقات، وقال البرقاني عن الدارقطني: إخباري ليس بالقوي يعتبر به، قال الذهبي: المتعين ما قال ابن عدي فيه، ثم شرع وذكر له حديثًا ثم قال: افته المكتب انتهى. فهذه كناية عن الوضع ويحتمل أن يريد: افته في نكارته، وانظر: لسان الميزان (٢/ ٢١٣)، وأخرجه عبد الرزاق عن زيد بن أسلم مرسلًا: أن رجلا كان يطلب النبي ﷺ بحق، فأغلظ له، فقال: فأرسل النبي ﷺ إلى يهودي للتسليف منه، فأبى أن يسلفه إلا برهن فذكره، وهذا إسناد ضعيف للإرسال، وسبب الحديث فيه مخالف للسبب الوارد في رواية أبي رافع وعليه فإسناده ضعيف بهذا اللفظ وكون الرسول ﷺ أمين من في السماء.. إلخ ثابت في صحيح مسلم – بغير السبب الوارد في الأسانيد الضعيفة – من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تحصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ: إِمَّا عَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ، وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً.**» الحديث في مسلم رقم (١٧٦٣).

(١) قول المصنف: إنما قال ذلك حين قال المنافقون: اعدل في القسمة، أورده الحافظ الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٣٢٧) رقم (٣٣٥) وقال: غريب. اهـ. قلت: ولم أقف له على إسناد بهذا اللفظ، والمعروف في سببه هو ما سبق ذكره في الحاشية السابقة فانظره لزاما.

متعينًا عليه؛ فلذلك طلبه وأثنى على نفسه.

ومع ذلك كله فإنه رُوي عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنه قال: «رَحِمَ اللهُ أَخِي يُوسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ، لا سْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ؛ وَلَكِنَّهُ أَخَّرَ ذَلِكَ سَنَةً»[١].

١٦٤- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾[٢]؛ إلى أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٥١]، حصر لعنته فيهم؛ لأن هذا الكلام للحصر؛ وليست لعنة الله منحصرة فيهم؛ بل هي شاملة لجميع الكفار؟؟.

قلنا: قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى القائلين: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[النساء: ٥١]؛ وهذا القول موجود من جميع الكفار، فكانت اللعنة شاملة للجميع.

١٦٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]؛ أخبر أنه يعذبُ جلودَهُم التي لم تعص، مكان الجلود العاصية، وتعذيب البريء ظلم؟

قلنا: الجلود المجددة وإن عذبت فالألم بتعذيبها إنما يحصل للقلوب، وهي غير مجددة، بل هي العاصية باعتقاد الشرك ونحوه.

الثاني: أن المراد بتبديلها إعادة النضيج غير نضيج، والجلود هي الجلود بعينها؛ وإنما قال غيرها باعتبار صفة النضيج وعدمه، كما قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾[إبراهيم: ٤٨]، وأراد تبديل الصفات، لا تبديل الذات، وكما قال الشاعر:

وَمَا النَّاسُ بالنَّاسِ الذِينَ عَهِدْتَهُمْ   وَمَا الدَّارُ بالدَّارِ التي كُنْتُ أَعْهَدُ

١٦٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[النساء: ٥٧]؛ وليس في الجنة

---

(١) ضعيف جدًا: رواه الثعلبي وعنه الواحدي في التفسير من طريق جويبر بن سعيد الأزدي عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا وجويبر ضعيف جدًا، وانظر: تخريج أحاديث الكشاف للحافظ الزيلعي (٢/ ١٧٢)، ومسند الفردوس (٣٢٢٣).

(٢) قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ في معنى الإيمان بالجبت والطاغوت: هو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله، فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت.

شمس، ليكون فيها حر يحتاج بسببه إلى ظل ظليل أو غير ظليل؟

قلنا: هو مجاز عن المستقر المستلذ المستطاب، جريًا على المتعارف بين الناس؛ لأن بلاد الحجاز شديدة الحر؛ فأطيب ما عندهم موضع الظل، فخاطبهم بما يعقلون ويفهمون، كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وليس في الجنة طلوع شمس ولا غروبها، فيكون فيها بكرة وعشيًّا؛ لكن لما كان في عرفهم تمام نعمة الغذاء وكمال وظيفته أن يكون حاضرًا مهيأً في طرفي النهار عبر عن حضوره وتهيئته بذلك[1].

١٦٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وهذا مدح لمن يطيع الله والرسول، وعادة العرب في صفات المدح الترقي من الأدنى إلى الأعلى، وهذا عكسه لأنه نزول من الأعلى إلى الأدنى؟؟

قلنا: هذا ليس من الباب الذي ذكرتموه؛ بل هو كلام المقصود منه الإخبار عن كون المطيعين لله ورسوله يكونون يوم القيامة مع الأشراف والخواص. ثم كأنَّ سائلًا سأل، مَنْ الأشراف والخواص، ففصلوا له، زيادة في الفائدة، بعد تمام المعنى المقصود بالذكر، بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]؛ وأتى في تفصيلهم بذكر الأشرف فالأشرف والأخص فالأخص، إذ هو الغالب في تعديد الأشراف والخواص، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، والدليل على أن المراد من الآية الإخبار جملة لا تفصيلًا أنه لما عَلَّم عبادَه أن يسألوه هذا المعنى أرشدهم إلى طلبه مجملًا بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

١٦٨- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال في كيد النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، ومعلوم أن كيد الشيطان أعظم من كيد النسوان؟

---

(١) قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: هو من تمام محاسن الجنّات؛ لأن الظل إنما يكون مع الشمس، وذلك جمال الجنات ولذة التنعم برؤية النور مع انتفاء حرّه. ووصف بالظليل وصفًا مشتقًّا من اسم الموصوف للدلالة على بلوغه الغاية في جنسه. ا. هـ. من التحرير والتنوير.

قلنا: المراد أن كيد الشيطان ضعيف في جنب نصرة الله وحفظه لأوليائه المخلصين من عباده، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال حكاية عن إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، والمراد بالآية الأخرى أن كيد النسوان عظيم بالنسبة إلى الرجال.

الثاني: القائل إن كيدكن عظيم هو عزيز مصر لا الله تعالى، فلا تناقض ولا معارضة.

١٦٩- **فإن قيل:** كيف عاب على المشركين والمنافقين قولهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨] ورد عليهم ذلك، بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ﴾ [النساء: ٧٨]، ثم قال بعد ذلك: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وأخبره بعين قولهم المردود عليهم؟

قلنا: قيل إن الثاني حكاية قولهم، أيضًا، وفيه إضمار تقديره: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، فيقولون: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ [النساء: ٧٩]، الآية.

وقيل معناه: ما أصابك أيها الإنسان مُن حسنة، أي رخاء ونعمة فَمِن فضل الله وما أصابك مِن سيئة، أي قحط وشدة، فبشؤم فعلك ومعصيتك، لا بشؤم محمد عليه الصلاة والسلام، كما زعم المشركون ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

١٧٠- **فإن قيل:** كيف قيل إن الشر والمعصية بإرادة الله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ؟.

قلنا: ليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية، بل القحط والرخاء، والنصر والهزيمة، على ما اختلف فيه العلماءُ. ألا ترى أنه قال: ﴿مَّا أَصَابَكَ﴾ ولم يقل ما عملت من سيئة.

١٧١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]؛ السؤال فيه من وجهين:

أحدهما: أنه يدل من حيث المفهوم على أن في القرآن اختلافًا قليلًا، وإلا لما كان للتقييد بوصف الكثرة فائدة؛ مع أنه لا اختلاف فيه أصلًا.

الثاني: أنه إنما يدل عدم الاختلاف الكثير، في القرآن، على أنه من عند الله، أن لو كان كل كتاب من عند غير الله فيه اختلافٌ كثير؛ وليس الواقع كذلك؛ لأن المراد من الاختلاف: إما الكذب والتباين في نظمه، وإما التناقض في معانيه، أو التفاوت بين بعضه وبعضه، من الجزالة والبلاغة والحكمة وكثرة الفائدة.

قلنا: الجواب عن السؤال الأول: أن التقييد بوصف الكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة، فكأنه قال: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا فضلًا عن القليل، لكنه من عند الله فليس فيه اختلافٌ كثير ولا قليل، فكيف يكون من عند غير الله؟ فهذا هو المقصود من التقييد بوصف الكثرة، لا أن القرآنَ مشتملٌ على اختلاف قليل. وعن السؤال الثاني: أن كل كتاب في فن مِنَ العلوم إذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلافٌ ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة يعرف ذلك بالاستقراء؛ والقرآن جامع لفنون مِن علوم شتى؛ فلو كان من عند غير الله لوجد فيه بالنسبة إلى كل فن اختلافُ ما، فيصير مجموع الاختلاف اختلافًا كثيرًا.

١٧٢- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]؛ استثنى القليل، على تقدير انتفاء الفضل والرحمة، مع أنه لولا فضله بالهداية والعصمة ورحمته لاتبع الكلُ الشيطانَ، من غير استثناء؟

قلنا: الاستثناء راجع إلى ما تقدم، تقديره: أذاعوا به إلا قليلًا.

وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلًا.

وقيل: معناه: ولولا فضل الله عليكم بإرسال الرسل لاتبعتم الشيطانَ، في الكفر والضلال، إلا قليلا منكم كانوا يهتدون بعقولهم إلى معرفة الله تعالى وتوحيده، كقسّ ابن ساعدة، وورقة بن نوفل، ونحوهما، قبل بعث النبي عليه الصلاة والسلام.

١٧٣- **فإن قيل:** على الجواب الأخير إذا كان المراد أن من لوازم نفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص، وهو بإرسال الرسل، اتباع الشيطان، ونفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص معلوم حق في الرسول؛ لأنه لم يرسل إليه رسول ومع هذا لم يتبع الشيطان؟

قلنا: لا نسلم أنه لم يرسل إليه رسول، بل أرسل إليه الملك وأنه رسول.

الثاني: التقييد في الفضل والرحمة بتعيين الطريق يكون في حق الأمة، أما في حق الرسل، ومَنْ آمن بغير رسول، يكون اللفظ باقيًا على ظاهره.

١٧٤- **فإن قيل:** هذه الآية تقتضي وجود فضله ورحمته المانع من اتباع أكثر الناس للشيطان مع أن الواقع خلافه؛ فإن أكثر الناس كفرة، يؤيده قوله ﷺ: «**الإِسْلامُ فِي الْكُفْرِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ**»[1].

قلنا: الخطاب في هذه الآية للمؤمنين لا لكل الناس.

١٧٥- **فإن قيل:** إذا كان الخطابُ خاصًّا للمؤمنين فما معنى الاستثناء؟ فإنه إن كان المراد به اتباعه فيما يدعو إليه ويوسوس من المعاصي فأكثر المؤمنين متبعون له في ذلك، ولو في العمر مرة واحدة في بعض الكبائر، وإن كان المراد به اتباعه في دعائه إلى الكفر فأحد من المؤمنين لم يتبعه في الكفر.

قلنا: معناه ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون ورحمته بالهداية بالرسول لاتبعتم الشيطان في الكفر وعبادة الأصنام وغير ذلك، إلا قليلًا منكم، كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما، فإنهم لولا الفضل والرحمة بالرسول لما اتبعوا الشيطان؛ لفضل ورحمة خصهم الله تعالى بها غير إرسال الرسول، وهو زيادة الهداية ونور البصيرة.

١٧٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]؛ مع أنه لا تفاوت بين صدق وصدق في كونه صدقًا، كما في القول والعلم لا يقال هذا القول أقول، ولا هذا العلم أعلم، ولا هذا الصدق أصدق؛ لأن الصدق عبارة عن الإخبار المطابق

---

(١) البخاري (٦١٦٣)، ومسلم (٢٢١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: قال: كنا مع النبي في قبة فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة» قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة» قلنا: نعم، قال: «والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»، وفي البخاري (٦١٦٤)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه في إخراج بعث النار فيه: «إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود».



للواقع؛ ومتى ثبت أنه مطابق للواقع لا يحتمل الزيادة والنقصان؟

قلنا: أصدق هنا صفة للقائل لا صفة للقول، والقائلان يتفاوتان في الصدق في نفس الأمر وإن تساويا في قصة واحدة أخبرا بها وكان كل واحد منهما صادقًا فيها. وحاصله أن هذا استفهام معناه النفي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، معناه لا أحد يغفرها إلا الله، فمعناه هنا، لا أحد أصدق في حديثه من الله، فيكون ترجيحًا للمحدث على المحدث في الصدق، لا ترجيحًا لأحد الصدقين على الآخر، ولا شك أنه لا أحد أصدق في حديث من الله؛ لأن غيره يجوز عليه غير الصدق عقلًا، ويقع منه أيضًا ولو نادرًا والله تعالى منزه عن الأمرين جميعًا.

١٧٧- فإن قيل، قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩١] يقال: ركسه وأركسه أي رده، فيصير معناه كلما ردوا إلى الفتنة ردوا فيها وهو تكرار.

قلنا: جوابه أن الفاعل مختلف فانتفى التكرارُ وصار المعنى: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك ردهم الله إليه وقلبهم بشؤم نفاقهم، فالرد الأول بمعنى الدعاء، والركس بمعنى الرد والنكس.

١٧٨- فإن قيل، كيف قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]؛ مع أنه ليس له أن يقتله خطأ؟.

قلنا: إلا بمعنى ولا[1]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وقوله تعالى:

---

(١) قول المصنف: إلا بمعنى ولا في هذه الآية مشكل والأولى أن يقال: بأن الاستثناء هنا حقيقيٌّ من عموم الأحوال أي ينتفي قتل المؤمن مؤمنًا في كل حال إلا في حال عدم القصد قال ابن عاشور: هَوّل الله تعالى أمر قتل المسلم أخاه المسلم، وجعله في حَيّز ما لا يكون، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢] فجاء بصيغة المبالغة في النفي، وهي صيغة الجحود، أي ما وُجد لمؤمن أن يقتل مؤمنًا في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ، أو أن يَقتُل قَتْلًا من القتل إلا قَتْل الخطأ، فكان الكلام حصرًا وهو حصر ادعائي مراد به المبالغة كأن صفة الإيمان في القاتل والمقتول تنافي الاجتماع مع القتل في نفس الأمر منافاة الضدين لقصد الإيذان بأن المؤمن إذا قتل مؤمنًا فقد سُلب عنه الإيمان وما هو بمؤمن، على نحو «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» فتكون هذه الجملة مستقلة عما بعدها، غير مراد بها التشريع، بل هي كالمقدمة للتشريع لقصد تفظيع حال قتل المؤمن المؤمنَ قتلاً غيرَ خطأ، وتكون خبرية لفظًا ومعنًى، ويكون الاستثناء حقيقيًا من عموم

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠].

الثاني: معناه أنه ليس له أن يقتله مع تيقن إيمانه؛ بل له أن يقتله إذا غلب على ظنه أنه ليس بمؤمن، وهو في صف المشركين، وإن كان في نفس الأمر مؤمنًا.

١٧٩- **فإن قيل:** كيف يقال إن أهل الكبائر من المؤمنين لا يخلدون في النار والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؟؟.

قلنا: معناه متعمدًا قتله بسبب إيمانه، والذي يفعل ذلك يكون كافرًا.

الثاني: أن المراد بالخلود طول المكث، لأن الخلود إذا لم يكن بالأبدية يطلق على طول المكث، كما يقال: خلَّد السلطان فلانًا في الحبس إذا أطال حبسه.

١٨٠- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥]، ثم قال: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]؟

قلنا: المراد بالأول التفضيل على القاعدين عن الغزاة بعذر، فإن لهم فضلًا لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة والقصد الصالح؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥]، يعني الجنة أي من المجاهدين والقاعدين بعذر. والمراد بالثاني التفضيل على القاعدين عن الغزاة بغير عذر، وأولئك لا فضل لهم؛ بل هم مقصرون ومسيئون؛ فظهر فضل الغزاة عليهم بدرجات لانتفاء الفضل لهم.

١٨١- **فإن قيل:** كيف صح قولُهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧]، جوابًا لقول الملائكة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ مع أنه ليس مطابقًا للسؤال، والجواب المطابق أن يقولوا كنا في

= الأحوال، أي ينتفي قتل المؤمن مؤمنًا في كل حال إلا في حال عدم القصد، وهذا أحسن ما يبدو في معنى الآية. ولك أن تجعل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ خبرًا مرادًا به النهي، استعمل المركب في لازم معناه على طريقة المجاز المرسل التمثيلي، وتجعل قوله: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ ترشيحًا للمجاز: على نحو ما قرّرناه في الوجه الأول فيحصل التنبيه على أن صورة الخطأ لا يتعلق بها النهي، إذ قد عَلم كلّ أحد أنّ الخطأ لا يتعلق به أمر ولا نهي، يعني إن كان نوع من قتل المؤمن مأذونًا فيه للمؤمن، فهو قتل الخطأ، وقد عُلم أنّ المخطئ لا يأتِي فعلَه قاصدًا امتثالًا ولا عصيانًا، فرجع الكلام إلى معنى: وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا قتلًا تتعلق به الإرادة والقصدُ بحال أبدًا، فتكون الجملة مبدأ التشريع، وما بعدها كالتفصيل لها؛ وعلى هذين الوجهين لا يشكل الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾.

كذا، أو لم نكن في شيء؟

قلنا: معنى فيم كنتم التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين؛ حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا فصار قوله: فيم كنتم؟ مجازًا عن قوله لم تركتم الهجرة؟ فقالوا كنا مستضعفين، اعتذارًا عما وبخوا به تعللًا؛ فردت عليهم الملائكةُ ذلك بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، يعني أنكم إن كنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لبعدها عليكم كنتم قادرين على الخروج من مكةَ إلى بعض البلاد القريبة منكم التي تقدرون فيها على إظهار دين الإسلام.

١٨٢- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، أي وجب، والعبد لا يستحق على مولاه أجرًا، لأنه ليس بأجير له إنما هو عبد قنّ؟

قلنا: معناه وجب مِن جهة أنه وعد عباده أنه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، والخلف في وعده عز وجل محال، فالوجوب من هذه الجهة؛ مع أن ذلك الوعد ابتداء فضل منه.

١٨٣- **فإن قيل:** كيف شرط في إباحة القصر للمسافر خوف العدو بقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١] الآية، والقصر جائز مع أمن المسافر؟

قلنا: خرج ذلك مخرج الغالب لا مخرج الشرط، وغالب أسفار رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه لم تخل من خوف العدو فصار نظير قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣].

الثاني: أن الكلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ كلام مستأنف، وجوابه محذوف تقديره: فاحتاطوا أو تأهبوا.

الثالث: أن المراد به القصر من شروطها وأركانها حالة اشتداد الخوف بترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة واستقبال القبلة ونحو ذلك، لا من عدد الركعات، وذلك القصر مشروط بالخوف.

١٨٤- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وكان لفظ دال على المُضِيِّ، والصلاة في الحال وإلى يوم القيامة أيضًا على المؤمنين فرض موقت؟

قلنا: «كان» في القرآن العزيز على خمسة أوجه:

كان: بمعنى الأزل والأبد، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

وكان: بمعنى المُضِيِّ المنقطع، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: ٤٨] وهو الأصل في معاني كان، كما تقول: كان زيد صالحًا أو فقيرًا أو مريضًا ونحو ذلك.

وكان: بمعنى الحال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وكان: بمعنى الاستقبال، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وكان: بمعنى صَارَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤]، أي: صار.

١٨٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، والكافرون أيضًا يرجون الثواب في محاربة المؤمنين[١]، لأنهم يعتقدون أن دينهم حق، وأنهم ينصرون دين الله ويذبون عنه ويقاتلون أعداءه، كما يعتقد المؤمنون، فالرجاء مشترك؟

قلنا: قيل إن الرجاء هنا بمعنى الخوف، كما في قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]. وقول الشاعر:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا[٢]

وعلى قول مَنْ قال إنه بمعنى الأمل، تقول: قد بشر اللهُ المؤمنين في القرآن ووعدهم بإظهار دينهم على الدين كله، ومثل هذه البشارة والوعد لم يوجد في سائر الكتب فافترقا.

وقيل: الرجاء ما يكون مستندًا إلى سبب صحيح ومقدمات حقة، والطمع ما يكون مستندًا إلى خلاف ذلك؛ فالرجاء للمؤمنين، وأما الكافرون فلهم طمع لا رجاء.

---

(١) كيف يرجون الثواب وهم لا يقرون ببعث، ثم إن الآية خلاف هذا؟؟.

(٢) لم يرج لسعها: أي: لم يخفه ولم يكترث به.

١٨٦- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾، بعد قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ [النساء: ١١٠]، وظلم النفس من عمل السوء، فَلِمَ لَمْ يقتصر على الأولِ؛ مع أن الثاني داخل فيه؟

قلنا: «أو» بمعنى الواو، فمعناه ويظلم نفسه بذلك السوء حيث دساها بالمعصية.

وقيل: المراد بعمل السوء التلبس بما دون الشرك، وبظلم النفس الشرك.

وقيل: المراد بعمل السوء الذنب المتعدي ضرره إلى الغير، وبظلم النفس الذنب المقتصر ضرره على فاعله.

١٨٧- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣]، ظاهره نفي وجود الهم منهم بإضلاله، والمنقول في التفاسير أنهم هموا بإضلاله، وزادوا على الهمِّ الذي هو القصد القول المضل أيضًا.

يعرف ذلك من تفسير أول القصة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥].

قلنا: قوله: ﴿لَهَمَّت﴾ ليس جواب «لولا» بل هو كلام مقدَّم على لولا، وجوابها في التقدير مقول على طريق القسم، وجواب لولا محذوف تقديره: لقد همت طائفةٌ منهم أن يضلوك ولولا فضل الله عليك ورحمته لأضلوك.

١٨٨- فإن قيل: النجوى فعل ومِن اسم، فكيف صح استثناء الاسم من الفعل في قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ [النساء: ١١٤]؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إلا نجوى من أمر بصدقة، فيكون استثناء الفعل من الفعل، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ﴾ [البقرة: ١٧٧] تقديره: برّ مَن آمن بالله.

١٨٩- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ [النساء: ١١٤]، ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١١٤]؟

قلنا: ذكر الآمر بالخير ليدل به على خيرية الفاعل بالطريق الأولى، ثم ذكر الفاعل ووعده الأجر العظيم إظهارًا لفضل الفاعل المؤتمر على الآمر.

الثاني: أنه أراد: وَمَن يأمر بذلك، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر أنواع الفعل، وإذا كان الآمر موعودًا بالأجر العظيم كان الفاعلُ موعودًا به بالطريق الأولى.

١٩٠- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾[النساء: ١١٧] ، أي ما يعبدون من دون الله إلا اللات والعزى ومناة ونحوها، وهي مؤنثة، ثم قال: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[النساء: ١١٧] ، أي ما يعبدون إلا الشيطان؟

قلنا: معناه أن عبادتهم للأصنام هي في الحقيقة عبادة للشيطان، إما لأنهم أطاعوا الشيطانَ فيما سوَّل لهم وزيَّن من عبادة الأصنام بالإغواء والإضلال، أو لأن الشيطانَ مُوكلٌ بالأصنام يدعو الكفار إلى عبادتهما شفاهًا ويتزيى للسدنة(١) فيكلمهم ليضلهم.

١٩١- **فإن قيل:** كيف يقال إن العبد يحكم بكونه من أهل الجنة بمجرد الإيمان، والله تعالى شرط لذلك العمل الصالح بظاهر قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[النساء: ٥٧] ، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[النساء: ١٢٤] وإلا لما كان للتقييد فائدة؟

قلنا: قيل إن المراد بالعمل الصالح الإخلاص في الإيمان، وقيل: الثبات عليه إلى الموت، وكلاهما شرط في كون الإيمان سببًا لدخول الجنة.

١٩٢- **فإن قيل:** كيف قال: و ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣] والتائب المقبول التوبة غير مجزي بعمله، وكذلك مَنْ عمل سيئةً ثم أتبعها حسنة، لأنها مذهبة لها وماحية بنص القرآن؟

قلنا: المراد مَنْ يعمل سوءًا ويمت مصرًّا عليه، فإن تاب منه لم يجز به.

الثاني: أن المؤمن يجازى في الدنيا بما يصيبه فيها من المرض وأنواع المصائب والمحن، كما جاء في الحديث؛ والكافر يجازى في الآخرة.

١٩٣- **فإن قيل:** كيف خص المؤمنين الصالحين بأنهم لا يظلمون بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[النساء: ١٢٤] الآية، مع أن غيرهم لا يظلم، أيضًا؟

قلنا: قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء: ١٢٤] راجع إلى الفريقين عمال السوء وعمال الصالحات لسبق ذكر الفريقين.

الثاني: أن يكون من باب الإيجاز والاختصار فاكتفى بذكره عقب الجملة الأخيرة

---

(١) هم الذين يقومون على خدمة العبد.

عند ذكر أحد الفريقين لدلالته على إضماره عقب ذكر الفريق الآخر، ولا يظلم المؤمنون بنقصان أعمالهم، ولا الكافرون بزيادة عقاب ذنوبهم.

الثالث: أن المراد بالظلم نفي نقصان ثواب الطاعات، وهذا مخصوص بالمؤمنين، لأن الكافرين ليس لهم على أعمالهم ثواب ينقص منه.

١٩٤- فإن قيل: طلب الإيمان من المؤمنين تحصيل حاصل، فكيف قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] الآية؟

قلنا: معناه: يا أيها الذين آمنوا بعيسى آمنوا بالله ورسوله محمد، وقيل: معناه: يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق آمنوا الآن، وقيل معناه: يا أيها الذين آمنوا علانية آمنوا سرًّا.

١٩٥- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ١٤١] لم سمى ظفر المؤمنين فتحًا، وظفر الكافرين نصيبًا؟

قلنا: تعظيمًا لشأن المؤمنين وتحقيرًا لحظ الكافرين؛ لأن ظفر المسلمين أمر عظيم؛ لأنه متضمن نصرة دين الله وعزة أهله؛ تفتح له أبواب السماء حتى ينزل على أولياء الله، وظفر الكافرين ليس إلا حظًّا دنيئًا وعرضًا مِنْ متاع الدنيا يصيبونه، وليس بمتضمن شيئًا مما ذكرنا.

١٩٦- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، وقد نصر الكافرين على المؤمنين يوم أحد، وفي غيره أيضًا، إلى يومنا هذا؟

قلنا: المراد به السبيل بالحجة والبرهان، والمؤمنون غالبون بالحجة دائمًا.

١٩٧- فإن قيل: كيف كان المنافق أشد عذابًا من الكافر، حتى قال الله تعالى في حقهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]؛ مع أن المنافق أحسن حالًا من الكافر، بدليل أنه معصوم الدم وغيره محكوم عليه بالكفر، ولهذا قال الله تعالى في حقهم ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] فلم يجعلهم مؤمنين ولا كافرين؟

قلنا: المنافق وإن كان في الظاهر أحسن حالًا من الكافر، إلا أنه عند الله، في الآخرة، أسوأ حالًا منه، لأنه شاركه في الكفر، وزاد عليه الاستهزاء بالإسلام وأهله،

والمخادعة لله وللمؤمنين.

١٩٨- فإن قيل: الجهر بالسوء غير محبوب لله تعالى أصلًا؛ بل المحبوب عنده العفو والصفح والتجاوز فكيف قال: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، أي إلا جهر مَنْ ظلم؟.

قلنا: معناه ولا جهر مَنْ ظلم، فإلَّا بمعنى ولا[1]، وقد سبق نظيره وشاهده في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢].

١٩٩- فإن قيل: كيف يجوز دخول «بين» على أحد في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] وبين تقتضي اثنين فصاعدًا، يقال فرقت بين زيد وعمرو، وبين القوم، ولا يقال فرقت بين زيد؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] في آخر سورة البقرة أيضًا.

٢٠٠- فإن قيل: ما فائدة إعادة الكفر في الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٦] بعد قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥] الآية؟

قلنا: لأنه قد تكرر الكفرُ منهم فإنهم كفروا بموسى وعيسى عليهما السلام، ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فعطف بعض كفرهم على بعض.

٢٠١- فإن قيل: اليهود كانوا كافرين بعيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، يسمونه الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة؛ فكيف أقرُّوا أنه رسول الله بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] ؟

قلنا: قالوه على طريق الاستهزاء كما قال فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون.

٢٠٢- فإن قيل: كيف وصفهم بالشك بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾

---

(١) قول المصنف: إلا بمعنى و«لا» في هذه الآية فيه نظر ومخالف لما عليه جماهير المفسرين والأولى أن يقال: لا يحب الله الجهر بالسوء إلا جهر من ظلم فاستثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه من السوء فيكون من باب التظلم والدعاء على الظالم. وهذا هو ما اختاره الزمخشري وغيره من المفسرين.

[النساء: ١٥٧]، ثم وصفهم بالظن بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، والشك تساوي الطرفين والظن رجحان أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين، وكيف استثنى الظنَ مِن العلم، وليس الظنُ فردًا من أفراد العلم، بل هو قسيمه؟

قلنا: استعمل الظنُ بمعنى الشك مجازًا لما بينهما مِن المشابهة في انتفاء الجزم، وأما استثناء الظن من العلم فهو استثناء من غير الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

وقيل: لأن المراد بالشك هنا ما يشمل الظن، واستثناء الظن من العلم في الآية منقطع؛ فإلا فيها بمعنى لكن، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] وما أشبهه.

٢٠٣- **فإن قيل:** كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل، وهم محجوجون بما نصبه لهم من الأدلة العقلية الموصلة إلى معرفته، حتى قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؟

قلنا: الرسل والكتب منبهة من الغفلة، وباعثة على النظر في أدلة العقل ومفصلة لمجمل الدنيا وأحوال التكليف التي لا يستقل العقلُ بمعرفتها فكان إرسالُهم إزاحةً للعلة وتتميمًا لإلزام الحجة، لئلا يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباهُ له.

٢٠٤- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، ولم يقل أنزله بقدرته أو بعلمه وقدرته؛ مع أن الله تعالى لا يفعل إلا عن علم وقدرة؟

قلنا: معناه أنزله متلبسًا بعلمه: أي عالمًا به، أو وفيه علمه، أي معلومه أو معلمه من الشرائع والأحكام، وقيل معناه: أنزله عليك بعلم منه أنك أولى بإنزاله عليك من سائر خلقه.

٢٠٥- **فإن قيل:** كلام الله صفة قديمة[1] قائمة بذاته، وعيسى عليه الصلاة والسلام مخلوق وحادث فكيف صح إطلاق الكلمة عليه في قوله تعالى: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١٧١]؟

---

(١) لفظة قديمة هذه تحتاج إلى دليل، وليس معنى هذا أن القرآن مخلوق؟ والوارد سلطانه القديم.

قلنا: معناه أن وجوده في بطن أمه كان بكلمة الله تعالى، وهو قوله: «كن» من غير واسطة أب، بخلاف غيره من البشر سوى آدم. وقيل: المراد بالكلمة الحجة.

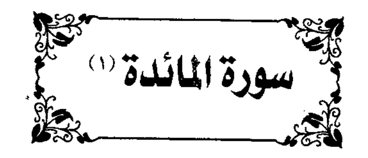
٢٠٦- **فإن قيل:** على الوجه الأول، لو كان صحة إطلاق الكلمة على عيسى، صلوات الله على نبينا وعليه، لهذا المعنى لصح إطلاقُها على آدم عليه الصلاة والسلام لأن هذا المعنى فيه أتم وأكمل لأنه وجد بهذه الكلمة من غير واسطة أب ولا أم أيضًا.

قلنا: لا نسلم أنه لا يصح إطلاقها عليه لهذا المعنى، بل يصح.

٢٠٧- **فإن قيل:** لو صح إطلاقها عليه لجاء به القرآن كما جاء في حق عيسى عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: خص ذلك بعيسى لأن المجيء في حق عيسى عليه الصلاة والسلام إنما كان للرد على مَن افترى عليه وعلى أمه ونسبه إلى أب؛ ولم يوجد هذا المعنى في حق آدم، عليه الصلاة والسلام، لاتفاق الناس كلهم على أنه غير مضاف إلى أب ولا إلى أم.

* * *



سورة المائدة (١)

٢٠٨- **فإن قيل:** كيف الارتباط والمناسبة بين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: ١]؟

قلنا: المراد بالعقود عهود الله عليهم في تحليل حلاله وتحريم حرامه، فبدأ بالمجمل ثم أتبعه بالمفصل من قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: ١] وقوله بعده: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

٢٠٩- **فإن قيل:** ما أكله السبع وعدم وتعذر أكله، فكيف يحسن فيه التحريم حتى قال: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣]؟

قلنا: معناه وما أكل منه السبع، يعني الباقي بعد أكله.

٢١٠- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، يدل من حيث المفهوم عرفًا على أنه لم يرض لهم الإسلام دينًا قبل ذلك اليوم، وليس كذلك فإن الإسلام لم يزل دينًا مرضيًا للنبي ﷺ وأصحابه عند الله منذ أرسله عليه الصلاة والسلام.

قلنا: قوله اليوم ظرف للجملتين الأوليين لا للجملة الثالثة؛ لأن الواو الأولى للعطف، والثانية للابتداء، فالجملة الثالثة مطلقة غير موقتة.

٢١١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤] كيف صلح جوابًا لسؤالهم والطيبات غير معلومة ولا متفق عليها لأنها تختلف باختلاف الطباع والبقاع؟

قلنا: المراد بالطيبات هنا الذبائح، والعرب تسمى الذبيحة طيبًا وتسمى الميتة

---

(١) سميت في كتب التفسير وكتب السنة بسورة المائدة؛ لأن فيها قصة المائدة التي أرسلها الحواريون من عيسى عليه السلام وقد اختصت بذكرها. وفي مسند أحمد بن حنبل وغيره وقعت تسميتها سورة المائدة، وفي كلام عبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت يزيد وغيرهم. انظر: تفسير المائدة من التحرير والتنوير.

خبيثًا، فصار المراد معلومًا لكنه عام مخصوص كغيره من العمومات.

٢١٢- **فإذا قيل:** ما فائدة قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ [المائدة: ٤]، والمكلب هو المعلم من كلاب الصيد؟

قلنا: قد جاء في تفسير المكلب أيضًا أنه المضري للجارح والمغري له فعلى هذا لا يكون تكرارًا، وعلى القول الأول يكون إنما عمم ثم خصص فقال مكلبين بعد قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ [المائدة: ٤]؛ لأن غالب صيدهم كان بالكلاب، فأخرجه مخرج الغالب الواقع منهم[1].

٢١٣- **فإن قيل:** ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤] يقتضي إباحة الجوارح المعلمة وهي حرام.

قلنا: فيه إضمار وتقديره: مصيد ما علمت من الجوارح، يؤيده ما في تمام الكلام من قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤].

٢١٤- **فإن قيل:** المؤمن به هو الله لقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] فالمكفور به يكون هو الله أيضًا ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، وإذا ثبت هذا فكيف قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ [المائدة: ٥] مع أنه لا يصح أن يقال آمن بالإيمان فكذلك ضده؟

قلنا: المراد به: وَمَن يرتد عن الإيمان يقال كفر فلانٌ بالإسلام إذا ارتد عنه، فكفر بمعنى ارتد؛ لأن الردة نوع من الكفر، والباء بمعنى: عن، كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقيل: المراد هنا بالإيمان المؤمن به تسمية للمفعول بالمصدر، كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦]، أي: مصيده، وقولهم: ضَرْبُ الأَمِيرِ، وَنَسْجُ الْيَمَنِ.

٢١٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]، ولم يقل: وعملوا السيئات؛ مع أن الغفران يكون لفاعل السيئات لا لفاعل الحسنات؟

---

(١) ومكن أن يقال: إن مكلبين حال من ضمير علمتم كما ذهب إليه العكبري في إملائه.

قلنا: كل أحد لا يخلو من سيئة صغيرة أو كبيرة، وإن كان مِمَنْ يعمل الصالحات وهي الطاعات، والمعنى: أن مَنْ آمن وعمل الحسنات غفرت له سيئاته. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

٢١٦- **فإن قيل:** كيف قال في آخر قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: ١٢] الآية، ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، مع أن الذي كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل؟

قلنا: نعم ولكن الضلال بعد ما ذكر من النعم أقبح؛ لأن قبح الكفر بقدر عظم النعم المكفورة، فلذلك خصه بالذكر.

٢١٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ [المائدة: ١٤]، ولم يقل ومن النصارى؟

قلنا: لأن هؤلاء كانوا كاذبين في دعواهم أنهم نصارى، وذلك أنهم إنما سموا أنفسهم نصارى ادعاء لنصرة الله تعالى، وهم الذين قالوا لعيسى نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعده نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارًا للشيطان، فقال ذلك توبيخًا لهم.

٢١٨- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥]، مما كتمتموه من الكتاب فلا يظهره، ولا يبين كتمانكم إياه، فكيف يجوز النبي ﷺ أن يمسك عن إظهار حق كتموه مما في كتبهم؟

قلنا: إنما لم يبين البعض لأنه كان يتبعُ الأمرَ ولا يفعلُ شيئًا مِن الأمور الدينيةِ من تلقاء نفسه بل اتباعًا للوحي، فما أمر ببيانه بينه، وما لم يؤمر ببيانه أمسك عنه إلى وقت أمره ببيانه، وعلى هذا الجواب يكون لفظ العفو مجازًا عن الترك، فيكون قد أعلمه الله به وأطلعه عليه ولم يأمره ببيانه لهم فترك تبيانه لهم.

الثاني: أن ما كان في بيانه إظهار حكم شرعي كصفته ونعته والبشارة به وآية الرجم ونحوها بينه، وما لم يكن في بيانه حكم شرعي ولكن فيه افتضاحهم وهتك أستارهم فإنه عفا عنه.

الثالث: أن عقد الذمة اقتضى تقريرهم على ما بدلوا وغيروا من دينهم، إلا ما كان



في إظهاره معجزة له وتصديق لنبوته من نعته وصفته، أو ما اختلفوا فيه فيما بينهم وتحاكموا إليه فيه كحكم الزنا ونحوه.

٢١٩- **إن قيل:** كيف قال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، مع أن العبد ما لم يهده الله أولًا، لا يتبع رضوانه؛ فيلزم الدور؟

قلنا: في إضمار تقديره: يهدي به الله مَنْ علم أنه يريد أن يتبع رضوانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أي والذين أرادوا سبيل المجاهدة فينا لنهدينهم سبل مجاهدتنا.

٢٢٠- **فإن قيل:** لم نر ولم نسمع أن قومًا من اليهود والنصارى قالوا نحن أبناء الله فكيف أخبر اللهُ تعالى عنهم بذلك؟

قلنا: المراد بقولهم أبناء الله خاصة الله، كما يقال أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، وقيل: فيه إضمار تقديره: أبناء أنبياء الله.

٢٢١- **فإن قيل:** كيف يصحُ الاحتجاجُ عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] مع أنهم ينكرون تعذيبهم بذنوبهم، ويدعون أن ما يذنبون بالنهار يغفر بالليل، وما يذنبون بالليل يغفر بالنهار؟

قلنا: هم كانوا مقرين أنهم يعذبهم أربعين يومًا وهي مدة عبادتهم العجل، في غيبة موسى عليه السلام لميقات ربه؛ ولذلك قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

وقيل: أراد به العذاب الذي أوقعه ببعضهم في الدنيا مِنْ مسخهم قردة كما فعل بأصحاب السبت، وخسف الأرض كما فعل بقارون، وهذا لا ينكرونه، وعلى هذا الوجه يكون المضارع بمعنى الماضي في قوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ [المائدة: ١٨]، والإضافة إليهم بمعنى الإضافة إلى آبائهم، كأنه قال: فلم عذب آباءكم.

٢٢٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨] إن أريد به يغفر لمن يشاء منكم أيها اليهود والنصارى، ويعذب مَنْ يشاء يلزم جواز المغفرة لهم وأنه غير جائز لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] وإن

أريد به يغفر لمن يشاء مِن المؤمنين ويعذب مَن يشاء لا يصلح جوابًا لقولهم.

قلنا: المراد به يغفر لمن يشاء منهم إذا تاب من الكفر. وقيل: يغفر لمَن يشاء ممن خلق وهم المؤمنون، ويعذب مَن يشاء وهم المشركون.

٢٢٣- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ [المائدة: ٢٠]، ولم يكن قومُ موسى عليه السلام ملوكًا؟

قلنا: المراد جعل فيكم ملوكًا، وهم ملوك بني إسرائيل، وهم اثنا عشر ملكًا، لاثنى عشر سبطًا، لكل سبط ملك.

وقيل: المراد به أنه رزقهم الصحةَ، والكفايةَ، والزوجة الموافقة، والخادم، والبيت، فسماهم ملوكًا لذلك.

وقيل: المراد به أنه رزقهم المنازلَ الواسعةَ التي فيها المياهُ الجاريةُ.

٢٢٤- **فإن قيل:** من أين علم الرجلان أنهم الغالبون، حتى قالا: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ [المائدة: ٢٣] ؟

قلنا: من جهة وثوقهم بإخبار موسى ﷺ بذلك بقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١] .

وقيل: علما ذلك بغلبة الظن، وما عهداه من صنع الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه.

٢٢٤م- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] يدل على أن مَن لم يتوكل على الله لا يكون مؤمنًا وإلا لضاع التعليق وليس كذلك.

قلنا: «إن» هنا بمعنى إذ، فتكون بمعنى التعليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] .

٢٢٥- **فإن قيل،** كيف التوفيقُ بين قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١] ، وبين قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ [المائدة: ٢٦] ؟

قلنا: معناه كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهادَ قيل: فإنها محرمةٌ عليهم.

الثاني: أن كل واحد منهما عام أريد به الخاص، فالكتابة للبعض وهم المطيعون،

والتحريم على البعض وهم العاصون.

الثالث: أن التحريم موقت بأربعين سنة والكتابة غير موقتة، فيكون المعنى أن بعد مضي الأربعين يكون لهم. وهذا الجواب تام على قول مَن نصب الأربعين بمحرمة وجعلها ظرفًا؛ فأما مَنْ جعل الأربعين ظرفًا لقوله: ﴿يَتِيهُونَ﴾ [المائدة: ٢٦] مقدمًا عليه فإنه جعل التحريم مؤبدًا فلا يتأتى على قوله هذا الجواب، لأن التقدير عنده: فإنها محرمة عليهم أبدًا، يتيهون في الأرض أربعين سنة؛ وهو موضع قد اختلف فيه المفسرون، والفرّاء من جملة مَنْ جوَّز نصب الأربعين بمحرمة ويتيهون؛ والزّجّاج مِن جملة مَن منع جواز نصبه بمحرمة ونقل أن التحريم كان مؤبدًا، وأنهم لم يدخلوها بعد الأربعين، ونقل غيره أنه دخلها بعد الأربعين مَن بقي منهم وذرية مَن مات منهم.

ويعضد الوجه الأول كون الغالب في الاستعمال تقدم الفعل على الظرف الذي هو عدد لا تأخُّره عنه، يقال: سافر زيد أربعين يومًا وما أشبه ذلك، وقلما يقال على العكس.

٢٢٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧]، ولم يقل قربانين، لأن كل واحد منهما قرَّب قربانًا؟

قلنا: أراد به الجنس فعبَّر عنه بلفظ الفرد، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧].

الثاني: أن العرب تطلق الواحد وتريد الاثنين، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] وقال الشاعر:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ[1]

تقديره: فإني بها لغريب وقيار كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢] الآية. وقيل: إنما أفرده لأن فعيلًا يستوي فيه الواحد والمثنى والمجموع.

---

(١) عجز بيت من الطويل - لضابئ بن الحارث البرجمي وصدره:
فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالمَدِينَةِ رَحْلُهُ ....

وانظر (شرح أبيات سيبويه ١/ ٣٦٩) وخزانة الدب ٩/ ٣٢٦ والدرر ٦/ ١٨٢ والكتاب ١/ ٧٥ وابن يعيش ٨/ ٨٦ والمعجم المفصل في شواهد النحو ١/ ٨٩).

٢٢٧- فإن قيل: كيف صلح قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧] جوابًا لقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[المائدة: ٢٧] ؟

قلنا: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له ذلك كنايةً عن حقيقة الجواب وتعريضًا؛ معناه إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا منِّي فَلِمَ تقتلني؟

٢٢٨- فإن قيل: كيف قال هابيل لقابيل: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾[المائدة: ٢٩]، أي تنصرف بهما؛ مع أن إرادة السوء والوقوع في المعصية للأجنبي حرام، فكيف للأخ؟

قلنا: فيه إضمار حرف النفي تقديره: إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[لقمان: ١٠]، أي أن لا تميد بكم، وقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾[يوسف: ٨٥]، وقول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينَ الله أبْرَحُ قَاعِدًا[1]

الثاني: أن فيه حذف مضاف تقديره: إني أريد انتفاء أن تبوء بإثمي وإثمك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[البقرة: ٩٣]، أي حب العجل.

الثالث: أن معناه، إني أريد ذلك إن قتلتني لا مطلقًا.

الرابع: أنه كان ظالمًا، وجزاء الظالم تحسن إرادته من الله تعالى فتحسن من العبد أيضًا.

٢٢٩- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾[المائدة: ٣١]، يدل على أن قابيل كان تائبًا، لقوله عليه الصلاة والسلام: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[2]؛ فلا يستحق النار.

قلنا: لم يكن ندمه على قتل أخيه؛ بل على حمله على عنقه سنة، أو على عدم

---

(١) صدر بيت من الطويل لامرئ القيس وعجزه:

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

والشاهد فيه هنا «أبرح» التقدير: لا أبرح وانظر (خزانة الأدب ٩/ ٢٣٨ والكتاب ٣/ ٥٠٤ وابن يعيش ٧/ ١١٠ والمقتضب ٢/ ٣٦٢ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٧٤٦.

(٢) صحيح: أحمد (١/ ٥٨)، وابن ماجه (٤٢٥٢)، والحاكم (٤/ ٢٧١)، وابن حبان (٦١٢)، والطبراني في الأوسط (٦٧٩٩)، وغيرهم من طرق عن ابن مسعود بأسانيد صحيحة بشواهدها.

اهتدائه إلى الدفن الذي تعلمه من الغراب، أو على فقد أخيه لا على المعصية، ولو سلمنا أن ندمه كان على قتل أخيه، ولكن يجوز أن الندم لم يكن توبةً في شريعتهم، بل في شريعتنا، أو نقول: التوبة تؤثر في حقوق الله تعالى لا في حقوق العباد، والدّم من حقوق العباد، فلا تؤثر فيه التوبة.

٢٣٠- فإن قيل: كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل، وإحياء الواحد كإحياء الكل والدليل يأباه من وجهين:

أحدهما: أن الجناية كلما تعددت وكثرت كانت أقبح فتناسب زيادة الإثم والعقوبة، هذا هو مقتضى العقل والحكمة.

الثاني: أن المراد بهذا التشبيه إما أن يكون تساوي قتل الواحد والكل في الإثم والعقوبة، أو تقاربهما، وإنما كان يلزم منه أنه إذا قتل الثاني أو الثالث وهلم جرًّا أن لا يكون عليه إثمٌ آخر، ولا يستحق عقوبةً أخرى؛ لأنه أَثِمَ إِثْمَ قتلِ الكل، واستحق عقوبةً قتل الكل بمجرد قتل الأول، أو الأول والثاني؛ لأن قتل الواحد إذا كان يساوي قتل الكل أو يقاربه، فقتلُ الاثنين يجعل عليه إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل؛ فكيف يزداد بعد ذلك بقتل الثالث والرابع وهلم جرا، ولو قتل الكل لما ازداد عن قتل الكل وعقوبة قتل الكل، ولا يجوز أن يستحق بقتل الواحد أو الاثنين إثمَ قتل الكل، وبقتل الكل إثمُ قتل الكل!.

قلنا: أقرب ما قيل فيه أن المراد مَنْ قتل نفسًا واحدة بغير حق كان جميع الناس خصومه في الدنيا إن لم يكن له ولي، وفي الآخرة مطلقًا، لأنهم من أب وأم واحدة.

وقيل: معناه مَنْ قتل نفسًا نبيًّا وإمامًا عادلًا فهو كمن قتل الناس جميعًا من حيث إبطال المنفعة على الكل؛ لأن منفعتهما عامة للكل.

وقيل: المراد بمَنْ قتل هو قابيل، فإن عليه من الإثم بمنزلة إثم قتل الكل؛ لأنه أول مَنْ سَنَّ القتلَ، فكل قتل يوجد بعده يلحقه شيء من وزره بغلبة التسبب، لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً»[1] الحديث؛ وهذا أحسن في المعنى؛ ولكن

---

(١) مسلم (٤٨٣٠) من حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله ولفظه: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

اللفظ لا يساعد عليه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا ...﴾ [المائدة: ٣٦]؛ لأن هذا المعنى إذا أريد به قابيل لا تختص كتابته ببني إسرائيل.

٢٣١- **فإن قيل:** كيف وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية، وحقيقة المحاربة بين العبد والرب ممتنعة؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: يحاربون أولياء الله. وقيل: أراد بالمحاربة المخالفة.

٢٣٢- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٦]، ولم يقل بهما، والمذكور شيئان؟

قلنا: قد سبق جواب مثله قبيل هذا في قوله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧]، وهنا جواب آخر وهو أن يكون وضع الضمير موضع اسم الإشارة كأنه قال: ليفتدوا بذلك، وذلك يشار به إلى الواحد والاثنين والجمع.

٢٣٣- **فإن قيل:** ما فائدةُ قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] وحال النبي عليه الصلاة والسلام، مع أهل الكتاب لا يخلو عن هذين القسمين؛ لأنه إما أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم؟

قلنا: فائدته تخيير النبي عليه الصلاة والسلام، بين الحكم بينهم وعدمه، ليعلم أنه لا يجبُ عليه أن يحكمَ بينهم كما يجب عليه ذلك بين المسلمين إذا تحاكموا إليه؛ وقيل: إن هذا التخيير منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، وهو القرآن يدل عليه أول الآية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، في الحكم بالتوراة.

٢٣٤- **فإن قيل:** لما أنزل الله القرآن صار الإنجيل منسوخًا به، فكيف قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]؟

قلنا: هو عام مخصوص، أي: ما أنزل الله فيه من صدق نبوة محمد، عليه الصلاة والسلام، بعلاماته المذكورة في الإنجيل، وذلك غير منسوخ.

٢٣٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، مع أن الكفار معاقبون بكل ذنوبهم؟

قلنا: أراد به عقوبتهم في الدنيا، وهو ما عجله من إجلاء بني النضير وقيل بني قريظة وذلك جزاء بعض ذنوبهم لأنه جزاء منقطع، وأما جزاؤهم على شركهم فهو

جزاء دائم لا يتصور وجوده في الدنيا.

وقيل: أراد بذلك البعض ذنب التولي عن الرضا بحكم القرآن، وإنما أبهمه تفخيمًا له وتعظيمًا.

٢٣٦- فإن قيل: حسن حكم الله وصحته أمر ثابت على العموم بالنسبة إلى الموقنين وغير الموقنين، فكيف قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؟

قلنا: لما كان الموقنون أكثر انتفاعًا به من غيرهم، بل هم المنتفعون به في الحقيقة لا غير كانوا أخص به، فأضيف إليهم لذلك، ونظيره: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

٢٣٧- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] يقتضي أن يكون مَنْ وادّ أهل الكتاب وصادقهم كافرًا وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨] الآية.

قلنا: المراد بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٥١] المنافقون، لأنها نزلت في شأنهم وهم كانوا من الكفار في الدنيا ضميرًا واعتقادًا، ومعناه أنه منهم في الآخرة جزاء وعقابه أشد.

٢٣٨- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وكم من ظالم هداه الله تعالى فتاب وأقلع عن ظلمه؟

قلنا: معناه لا يهديهم ما داموا مقيمين على ظلمهم.

الثاني: أن معناه: لا يهدي مَنْ قضى في سابق علمه أنه يموتُ ضالًّا.

الثالث: أن معناه: لا يهدي القوم الظالمين يوم القيامة إلى طريق الجنة، أي: المشركين.

٢٣٩- فإن قيل: كيف قال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولم يقل أذلة للمؤمنين، وإنما يقال ذل له لا ذل عليه؟

قلنا: لأنه ضَمَّنَ الذلَ معنى الحنوّ والعطف فعدَّاه تعديته، كأنه قال: حانين على المؤمنين عاطفين عليهم.

٢٤٠- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وكم مرة غُلِبَ حزبُ الله تعالى في زمن النبي ﷺ، وبعده إلى يومنا هذا؟

قلنا: المراد به الغلبة بالحجة والبرهان لا بالدولة والصولة، وحزب الله هم المؤمنون غالبون بالحجة أبدًا.

٢٤١- **فإن قيل:** المثوبة مختصة بالإحسان، فكيف قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية؟

قلنا: لا نسلم أن الثواب والمثوبة مختص بالإحسان؛ بل هو الجزاء مطلقًا بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] أي هل جُوزوا، وقوله تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣] وهو كلفظ البشارة لا اختصاص له لغة بالخبر السار؛ بل هو عام شامل للشر؛ قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

٢٤٢- **فإن قيل:** ما فائدة إرسال الكتاب والرسول إلى أولئك الكثيرين الذين قال في حقهم: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]؟

قلنا: فائدته إلزام الحجة عليهم.

الثاني: تبجيل الكتاب والرسول فإنّ الخطاب بالكتاب إذا كان عامًّا، والرسول إذا كان مرسلًا إلى الخلق كلهم، كان ذلك أفخم وأعظم للرسول والمرسل.

٢٤٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٦] الآية، يقتضي تعلق الرخاء وسعة الرزق بالإيمان بالكتاب والعمل بما فيه، وليس كذلك، فإن كثيرًا من المؤمنين بالكتب الأربعة العاملين بما فيها مما لم ينسخ، عيشهم في الدنيا منكد، ورزقهم مضيَّق.

قلنا: هذا التعليق خاص في حق أهل الكتاب؛ لأنهم اشتكوا من ضيق الرزق حتى قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] فأخبرهم الله تعالى أنَّ ذلكَ التضييقَ عقوبةٌ لهم بشؤم معاصيهم وكفرهم، والله تعالى يجعل ضيق الرزق وتقديره نعمة في حق بعض عباده، ونقمة في حق بعضهم وكذلك الرخاء والسعة فيعاقب بهما على المعصية، ويثيب بهما على الطاعة، ويختلف ذلك باختلاف أحوال الأشخاص، فلا يلزم من توسيع الرزق الإكرام. ولا مِن تضييقه الإهانة ولا يلزم عكسه أيضًا، ولهذا رد الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر: ١٥] إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧]، أي ليس الأمر كما ظن الإنسانُ وزعم مِن أن توسيعَ الرزق دليلُ الكرامة

وتضييقه دليل الإهانة، بل دليل الكرامة هو الهداية والتوفيق للطاعات، ودليل الإهانة هو الإضلال وحرمة التوفيق.

٢٤٤- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾ [المائدة: ٦٧] ومعلوم أنه إذا لم يبلغ المنزل إليه لم يكن قد بلغ الرسالة؟

قلنا: المراد حثه على تبليغ ما أنزل عليه من معايب اليهود ومثالبهم فالمعنى بلِّغْ الجميعَ فإن كتمت منه حرفًا كنت في الإثم والمخالفة كمَنْ لم يبلغ شيئًا ألبتة، فجعل كتمان البعض ككتمان الكل.

وقيل: أمر بتعجيل التبليغ كأنه ﷺ كان عازمًا على تبليغ جميع ما نزل إليه، إلا أنه أخر تبليغ البعض خوفًا على نفسه وحذرًا؛ مع عزمه على تبليغه في ثاني الحال، فأمر بتعجيل التبليغ، يؤيد هذا القول قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢٤٥- **فإن قيل:** كيف ضمن اللهُ تعالى لرسوله العصمةَ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] ثم إنه شج وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته؟

قلنا: المراد به العصمة مِنِ القتل لا مِن جميع الأذى، فإن جميعَ العصمة مِن جميع المكاره لا تناسب أخلاقَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم جامعون مكارم الأخلاق ومِن أشرف مكارم الأخلاق تحمل الأذى.

الثاني: أن هذه الآيةَ نزلت بعد أحد؛ لأن سورة المائدة مِن آخر ما نزلت من القرآن.

٢٤٦- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] مع أن بعض الظالمين وهم العصاة من المؤمنين يشفع فيهم النبيُّ ﷺ يوم القيامة فيكون ناصرًا لهم؟

قلنا: المراد بالظالمين هنا المشركون، يعلم ذلك مِن أول الآية ووسطها.

٢٤٧- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، بعد قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: ٧٧]؟

قلنا: المراد بالضلال الأول ضلالهم عن الإنجيل، وبالضلال الثاني ضلالهم عن القرآن.

٢٤٨- **فإن قيل:** قوله تعالى ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: ٧٩]، والنهي عن المنكر بعد فعله ووقوعه لا معنى له؟

قلنا: فيه إضمار حذف مضاف تقديره: كانوا لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، كما يرى الإنسان أمارات الخوض في الفسق وآلاته تُسوَّى وتُهَيَّأُ فينكِرُ، ويجوز أن يريد بقوله: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يُصرّون عليه ويداومون، يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه بمعنى واحد أي: امتنع عنه وتركه.

٢٤٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٨١]، والمراد بقوله منهم المنافقون أو اليهود على اختلاف القولين وكلهم فاسقون؟

قلنا: المراد بهم فسقهم بموالاة المشركين ودسّ الأخبار إليهم لا مطلق الفسق، وذلك الفسق الخاص مخصوص بكثير منهم، وهم المذكورون في أول الآية في قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٨٠] الآية لا شامل لجميعهم.

٢٥٠- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠]، وهذه الأعيان كلها مخلوقات لله تعالى فأين عمل الشيطان في وجودها؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إنما تعاطي الخمر والميسر إلى آخره أو مباشرته إلخ.

٢٥١- **فإن قيل:** مع هذا الإضمار كيف قال مِنْ عمل الشيطان، وتعاطي الخمر والقمار ونحوهما من عمل الإنسان حقيقة؟

قلنا: إنما أضيف إلى الشيطان مجازًا؛ لأنه هو السبب في وجود الفعل بواسطته ووسوسته وتزيينه ذلك للفساق فصار كما لو أغرى رجلٌ رجلًا بضرب آخر فضربه، فإنه يجوز أن يقال للمُغْرِي هذا من عملك.

٢٥٢- **فإن قيل:** كيف جمع الخمرَ والميسرَ والأنصابَ والأزلامَ في الآية الأولى، ثم خص الخمر والميسر في الآية الثانية؟

قلنا: لأن العداوة والبغضاء بين الناس تقع كثيرًا بسبب الخمر والميسر وكذلك يشتغلون بهما عن الطاعة، بخلاف الأنصاب والأزلام فإن هذه المفاسدَ لا توجد فيها، وإن كانت فيها مفاسد آخر.

وقيل: إنما كرَّر ذكر الخمر والميسر فقط لأن الخطاب للمؤمنين؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المائدة: ٩٤]، وهم إنما يتعاطون الخمرَ والميسرَ فقط، وإنما

جمع الأربعةَ في الآية الأولى إعلامًا للمؤمنين أن هذه الأربعة من أعمال الجاهلية، وإنه لا فرق بين مَنْ عبد صنمًا أو أشرك بالله تعالى بدعوى علم الغيب، وبين مَنْ شرب الخمر أو قامر مستحلًا لهما.

٢٥٣- فإن قيل: كيف يحسن أن يفعل الله تعالى فعلًا يتوسل به إلى تحصيل علم حتى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [المائدة: ٩٤]؟

قلنا: معناه ليميز اللهُ الخائفَ مِن غير الخائف عند الناس. وقيل: معناه ليعلم عباد الله من يخافه بالغيب وهو قريب من الأول. وقيل: معناه ليعلم الخوفُ واقعًا كما علمه منتظرًا.

٢٥٤- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، ووصف العمدية ليس بشرط لوجوب الجزاء، فإنه لو قتله ناسيًا أو مخطئًا وجب الجزاءُ أيضًا؟

قلنا: عند ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وصف العمدية شرط لوجوب الجزاء، فلا يرد عليهم السؤال، وأما على قول الجمهور فإنما قيده بوصف العمدية؛ لأن الواقعة التي كانت سبب نزول الآية كانت عمدًا على ما يروى عن الصحابة أنه اعترض حمار وحش بالحديبية وهم محرمون، فطعنه أبو اليسر برمحه فقطعه فنزلت الآية، فخرج وصف العمدية مخرج الواقع لا مخرج الشرط.

وقال الزهري: نزل الكتابُ بالعمد، ووردت السنةُ بالوجوب في الخطأ.

٢٥٥- فإن قيل: كيف قال: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، مع أن الشرط بلوغه إلى الحرم لا غير؟

قلنا: لما كان المقصود من بلوغ الهدي إلى الحرم تعظيم الكعبة ذكر الكعبة تنبيهًا على ذلك. وقيل: معناه بالغ حرم الكعبة.

٢٥٦- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، أي: دلالة لهذه الأمور المذكورة على علم الله تعالى بما في

السموات وما في الأرض وأنه بكل شيء عليم؟

قلنا: ذلك إشارة إلى كل ما سبق ذكره من الغيوب في هذه السورة من أحوال الأنبياء والمنافقين واليهود لا إلى المذكور في هذه الآية.

الثاني: أن العرب كانت تسفك الدماءَ وتنهب الأموالَ، فإذا دخل الشهرُ الحرامُ أو دخلوا إلى البلد الحرام كفوا عن ذلك، فعلم الله تعالى أنه لو لم يجعل لهم زمانًا أو مكانًا يقتضي كفهم عن القتل ونهب الأموال لهلكوا، فظهرت المناسبةُ.

٢٥٧- فإن قيل: كيف قال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾(١) [المائدة: ١٠٣]، والجعل هو الخلق بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وخالق هذه الأشياء هو الله تعالى.

قلنا: المراد بالجعل هنا الإيجاب والأمر: أي ما أوجبها ولا أمر بها. وقيل: المراد بالجعل التحريم.

٢٥٨- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] يدل على عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما واجبان؟

قلنا: معنى قوله أنفسكم: أي أهل دينكم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي: أهل دينكم.

وقيل: المراد به آخر الزمان عند فساد الزمان وتعذر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو زماننا هذا.

٢٥٩- فإن قيل: كيف يقول الرسل ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٩] إذا قال الله تعالى لهم:

---

(١) البحيرة: كانوا يشقون أذن الناقة التي تلد عشرة أبطن ويتركونها ترعى في المرعى ولا ينتفعون بها ويسمونها بحيرة، والسائبة تطلق على الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، فتسيب في المرعى، فلا تُردُّ عن حوض ولا علف، والوصيلة من قول الجاهليين حين تلد الشاة ذكرًا وأنثى وصلت أخاها يريدون حمته عن الذبح فلا يذبحون الذكر من أجلها، والحام من تطلق على الفحل إذا ضرب عشرة أبطن يريدون أنه حمى ظهره فلا يركب وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] ذم للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرموا ما أحله الله، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئًا من مواشيهم محرمًا، على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله.

﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وهم عالمون بماذا أجيبوا؟

قلنا: هذا جواب الدهشة والحيرة حين تطيش عقولُهُم مِن زفرة جهنم نعوذ بالله تعالى منها، ومثله لا يفيد نفي العلم ولا إثباته.

الثاني: أنهم قالوا ذلك تعريضًا بالتشكي من قومهم وإظهارًا للالتجاء إلى الله تعالى في الانتقام منهم، كأنهم قالوا: أنت أعلم بما أجابونا به من التصديق والتكذيب.

الثالث: معناه: لا علم لنا بحقيقة ما أجابونا به؛ لأنا نعلم ظاهره وأنت تعلم ظاهره ومضمره، ويؤيده ما بعده.

٢٦٠- **فإن قيل:** أي معجزة لعيسى ﷺ في تكليم الناس كهلًا حتى قال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠]؟

قلنا: قد سبق جوابه في سورة آل عمران مستقصى.

٢٦١- **فإن قيل:** كيف قال الحواريون: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢] شَكُّوا في قدرة الله تعالى على بعض الممكنات وذلك كفر، ووصفوه بالاستطاعة وذلك تشبيه؛ لأن الاستطاعة إنما تكون بالجوارح، والحواريون خلص أتباع عيسى عليه السلام والمؤمنون به بدليل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]؟؟.

قلنا: هذا استفهام عن الفعل لا عن القدرة، كما يقول الفقيرُ للغني القادر: هل تقدر أن تعطيني شيئًا، وهذا يسمى استطاعة المطاوعة لا استطاعة القدرة، أو المعنى: هل يسهل عليك أن تسأل ربك؟ كقولك لآخر: هل تستطيع أن تقومَ معي؟ وأنت تعلم استطاعته لذلك.

٢٦٢- **فإن قيل:** لو كان المراد هذا المعنى فَلِمَ أنكرَ عليهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢] ؟

قلنا: إنكاره عليهم إنما كان لأنهم أتوا بلفظ يحتمل المعنى الذي لا يليق بالمؤمن المخلص إرادته وإن كانوا لم يريدوه.

٢٦٣- **فإن قيل:** كيف قال عيسى عليه السلام ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وكل ذي نفس فهو ذو جسم؛ لأن النفس عبارة عن الجوهر القائم بذاته المتعلق

بالجسم تعلق التدبير، والله تعالىٰ منزه عن الجسم؟

قلنا: النفس تطلق على معنيين: أحدهما هذا والثاني حقيقة الشيء وذاته، كما يقال: نفس الذهب والفضة محبوبة، أي: ذاتهما، والمراد به في الآية ثانيًا هذا المعنى.

٢٦٤- **فإن قيل:** كيف قال عيسى عليه السلام ﴿قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ﴾ [المائدة: ١١٧] الآية، مع أنه قال لهم كثيرًا من الكلام المباح غير الأمر بالتوحيد؟

قلنا: معناه ما قلت لهم فيما يتعلق بالإله.

٢٦٥- **فإن قيل:** إذا كان عيسى لم يمت وإنما هو حَي في السماء فكيف قال ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ [المائدة: ١١٧]؟

قلنا: أراد بالتوفي إتمام مدة إقامته في الأرض، وإتمامه قد سبق في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] والسؤال إنما يتوجه على قول مَنْ قال: إن السؤال والجواب وجدا يوم رفعه إلى السماء، وأما مَنْ قال: إن السؤال إنما يكون يوم القيامة، وعليه الجمهور، فالجواب مطابق ولا إشكال فيه.

٢٦٦- **فإن قيل:** لو قال عيسى عليه السلام: إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وإن تغفر لهم فإنهم عبادك، كان أظهر مناسبة؟

قلنا: معناه إن تعذبهم فإنهم عبادك، وتصرف المالك المطلق الحقيقي في عبيده مباح: أي تصرف كان، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم الذي لا ينقص من عزه شيء بترك العقوبة والانتقام ممن عصاه، الحكيم في كل ما يفعله من العذاب أو المغفرة.

٢٦٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، يعني يوم القيامة والصدق نافع في الدنيا والآخرة، ولفظ الآية في قوة الحصر؟

قلنا: لما كان نفع الصدق في الآخرة هو الفوز بالجنة والنجاة من النار ونفعه في الدنيا دون ذلك، كان كالعدم بالنسبة إلى نفعه في الآخرة فلم يقيد به في مقابلته.

٢٦٨- **فإن قيل:** قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] إن أراد به صدقهم في الآخرة فالآخرة ليست بدار عمل، وإن أراد به صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه، وهو الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟

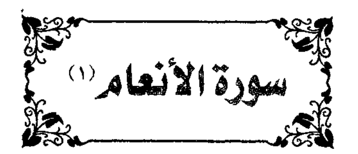
قلنا: أراد به الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم وعن قتادة رحمه

الله: متكلمان صدقًا يوم القيامة، فنفع أحدهما صدقه دون الآخر: أحدهما إبليس قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية، وصدق يومئذ فلم ينفعه صدقه؛ لأنه كان كاذبًا قبل ذلك. والآخر عيسى عليه السلام كان صادقًا في الدنيا والآخرة فنفعه صدقه.

٢٦٩- **فإن قيل:** ما في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فهلا غلَّب العقلاء فقال: لله ملك السموات والأرض وَمَنْ فيهن؟

قلنا: لأن كلمة «ما» تتناول الأجناس كلها تناولاً عامًّا بأصل الوضع و«مَنْ» لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع، فكان استعمال «ما» في هذا الموضع أوفى.

* * *



سورة الأنعام(١)

٢٧٠- **فإن قيل**: كيف جمع الظلمة دون النور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]؟

قلنا: ترك جمعه استغناء عنه بجمع الظلمة قبله فإنه يدل عليه، كما ترك جمع الأرض أيضًا استغناء عنه بجمع السماء قبله في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

الثاني: أن الظلمة اسم والنور مصدر، نقله المفضل والمصادر لا تجمع.

٢٧١- **فإن قيل**: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] بعد قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] ومعلوم أن من يعلم السر يعلم الجهر بالطريق الأولى؟

قلنا: إنما ذكره للمقابلة كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] في بعض الوجوه.

٢٧٢- **فإن قيل**: كيف خص السكون بالذكر دون الحركة في قوله: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] على قول مَنْ فسره بما يقابل الحركة؟

قلنا: لأن السكون أغلب الحالتين على كل مخلوق من الحيوان والجماد، ولأن الساكن مِن المخلوقات أكثر عددًا من المتحرك، أو لأن كل متحرك يصير إلى السكون من غير عكس، أو لأن السكون هو الأصل والحركة حادثة عليه وطارئة. وقيل: فيه إضمار تقديره: ما سكن وتحرك فاكتفى بأحدهما اختصار لدلالته على مقابله، كما في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد.

٢٧٣- **فإن قيل**: كيف قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، ولم يقل: وهو يُنعِم ولا

---

(١) قال الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير: ليس لهذه السورة إلا هذا الاسم من عهد رسول الله ﷺ وسميت سورة الأنعام لما تكرر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرات من قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ إلى قوله ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٦- ١٤٤] وهي مكية بالاتفاق.

يُنعَم عليه، وهذا أعم لتناوله الإطعام وغيره؟

قلنا: لأن الحاجة إلى الرزق أمس فخص بالذكر.

والثاني: أن كون المطعَم آكلًا متغوطًا أقبح من كونه منعَمًا عليه، فلذلك ذكره.

٢٧٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٩] يقتضي أن يسمى الله تعالى شيئًا، ولو صح ذلك لصح نداؤه به كالحي القيوم ونحوهما؟

قلنا: صحة ندائه تعالى مخصوصة بما يدل على المدح وصفة الكمال كالحي والقيوم ونحوهما، لا بكل ما يصح إطلاقه عليه؛ ألا ترى أن الموجود والثابت يصح إطلاقه عليه سبحانه وتعالى لا يصح نداؤه به؟ كذا ذكروا.

٢٧٥- **فإن قيل:** استشهاد المدعي بالله لا يكفي في صحة دعواه وثبوتها شرعًا حتى لو قال المدعي: الله شاهدي لا يكفي هذا، فكيف صح ذلك من النبي ﷺ حيث قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]؟

قلنا: إنما لم يصح ذلك من غير النبي ﷺ لأنه لا يقدر على إقامة الدليل على أن الله تعالى يشهد له، والنبي ﷺ أقام الدليل على ذلك بقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الأنعام: ١٩] لأنه معجز.

٢٧٦- **فإن قيل:** في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] كيف يكذبون يوم القيامة بعد معاينة حقائق الأمور، وقد ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]؟

قلنا: المبتلي يوم القيامة ينطق بما ينفعه وبما يضره لعدم التمييز بسبب الحيرة والدهشة، كحال المبتلى المعذب في الدنيا يكذب على نفسه وعلى غيره، ويتكلم بما يضره، ألا تراهم يقولون ربنا أخرجنا منها وقد أيقنوا بالخلود فيها، وقالوا: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقد علموا أنه ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ﴾ [فاطر: ٣٦].

٢٧٧- **فإن قيل:** كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؟

قلنا: القيامة مواقف مختلفة؛ ففي بعضها لا يكتمون، وفي بعضها يحلفون

كاذبين، كما قال عز وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقيل إن حلفهم كاذبين يكون قبل شهادة جوارحهم عليهم، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] يكون بعد شهادتها عليهم.

٢٧٨- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] وهو خير لغير المتقين أيضًا كالأطفال والمجانين؟

قلنا: إنما خصهم بالذكر لأنهم الأصل فيها من حيث أن درجتهم أعلى وغيرهم تبع لهم.

٢٧٩- **فإن قيل:** كيف قال لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، فخاطبه بأفحش الخطابين، وقال لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] فخاطبه بألين الخطابين مع أن محمدًا ﷺ أعظم رتبةً وأعلى منزلةً منه؟

قلنا: لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان معذورًا في جهله بمطلوبه؛ لأنه تمسك بوعد الله تعالى في إنجاء أهله، وظن أن ابنه من أهله. ومحمد ﷺ ما كان معذورًا، لأنه كبر عليه كفرهم؛ مع علمه أن كفرهم وإيمانهم بمشيئة الله تعالى، وأنهم لا يهتدون إلا أن يهديهم الله[1].

٢٨٠- **فإن قيل:** إذا بعث الله تعالى الموتى من قبورهم فقد رجعوا إلى الله بالحياة بعد الموت، فما فائدة قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]؟

---

(١) الأولى والأليق من ذلك ما ذكره ابن عاشور في تفسير الآية حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: والمراد بـ ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ يجوز أن يكون من الجهل الذي هو ضدّ العلم، كما في قوله تعالى خطابًا لنوح: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وهو ما حمل عليه المفسرون هنا. ويجوز أن يكون من الجهل ضدّ الحلم، أي لا تضق صدرًا بإعراضهم. وهو أنسب بقوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥]. وإرادة كلا المعنيين ينتظم مع مفاد الجملتين: جملة: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ وجملة: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ومع كون هذه الجملة تذييلًا للكلام السابق فالمعنى: فلا يَكْبُرْ عليك إعراضهم ولا تضق به صدرًا، وأيضًا فكن عالمًا بأن الله لو شاء لجمعهم على الهدى. وهذا إنباء من الله تعالى لرسوله ﷺ بأمر من علم الحقيقة يختصّ بحالة خاصة فلا يطرد في غير ذلك من مواقف التشريع. وإنما عدل على الأمر بالعلم؛ لأن النهي عن الجهل يتضمنه فيتقرر في الذهن مرتين؛ ولأن في النهي عن الجهل بذلك تحريضًا على استحضار العلم به، كما يقال للمتعلم: لا تنسَ هذه المسألة. وليس في الكلام نهي عن شيء تلبس به الرسول ﷺ كما توهمه جمعٌ من المفسرين، وذهبوا فيه مذاهب لا تستبين.

قلنا: المراد به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء، وذلك غير البعث وهو إحياؤهم بعد الموت فلا تكرار فيه.

٢٨١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]، لو صح من النبي ﷺ هذا الجوابُ لصح لكل مَن ادَّعى النبوةَ وطولب بآية أن يقول إن الله قادر على أن ينزل آية؟

قلنا: إذا ثبتت نبوته بما شاء الله مِن المعجزة يصح له أن يقول ذلك، بخلاف ما إذا لم تثبت نبوته، والنبي ﷺ كان قد ثبتت نبوته بالقرآن وانشقاق القمر وغيرهما.

٢٨٢- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٨] الدابة لا تكون إلا في الأرض؛ لأن الدابة في اللغة اسم لما يدب على وجه الأرض، وما فائدة ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والطير لا يكون إلا بالجناح؟

قلنا: فيه فوائد:

الأولى: للتأكيد كقولهم: هذه نعجة أنثى، وقولهم كلمته بلساني، ومشيت إليه برجلي، وكما قال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

الثانية: نفي توهم المجاز فإنه يقال: طار فلان في أمر كذا إذا أسرع فيه، وطار الفرسُ إذا أسرع الجري.

الثالثة: زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قال: جميع الدواب الدابة وجميع الطيور الطائرة.

٢٨٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]، إلى أن قال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ٤١]، ومِنْ جملة ما ذكر الدعاء فيه عذاب الساعة وهو لا يكشف عن المشركين؟

قلنا: لم يخبر عن الكشف مطلقًا؛ بل مقيدًا بشرط المشيئة وعذاب الساعة لو شاء كشفه عن المشركين لكشفه.

٢٨٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، كيف ذكر القولَ في الجملة الأولى والثالثة وترك ذكره في

الجملة الثانية؟

قلنا: لما كان الإخبارُ بالغيب كثيرًا مما يدعيه البشر، كالكهنة والمنجمين وواضعي الملاحم، ثم إن كثيرًا من الجهال يعتقدون صحة أقاويلهم ويعملون بمقتضى أخبارهم بالغ في سلبه عن نفسه بسلب حقيقته عنه بخلاف الإلهية والملكية، فإن انتفاءهما عنه وعن غيره من البشر ظاهر فاكتفى في نفيهما بنفي القول، إذ غير الدعوى فيهما لا تتصور في نفس الأمر ولا في زعم الناس، بخلاف علم الغيب فافترقا والمراد بقوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، أي: لا أدعي الإلهية، كذا قاله بعض المفسرين.

٢٨٥- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥]، كيف ذكر سبيل المجرمين ولم يذكر سبيلَ المؤمنين وكلاهما محتاج إلى بيانه؟

قلنا: لأنه إذا ظهر سبيلُ المجرمين ظهر سبيلُ المؤمنين أيضًا بالضرورة إذ السبيل سبيلان لا غير.

٢٨٦- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [المائدة: ٦٠] أي: ما كسبتم، وهو يعلم ما جرحوا ليلًا ونهارًا؟

قلنا: لأن الكسب أكثر ما يكون بالنهار لأنه زمان حركة الإنسان، والليل زمان سكونه لقوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٣]، بعد قوله: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ [القصص: ٧٢].

٢٨٧- فإن قيل: كيف قال: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٦٢]، يعني مولى جميع الخلائق، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١].

قلنا: المولى الأول بمعنى: المالك أو الخالق أو المعبود، والمولى الثاني بمعنى الناصر فلا تنافي بينهما.

٢٨٨- فإن قيل: كيف خص كون ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الأنعام: ٧٣] بيوم القيامة، فقال: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ [الأنعام: ٧٣]؛ مع أن قوله الحق في كل وقت له الملك في كل زمان؟

قلنا: لأن ذلك اليوم ليس لغيره فيه ملك بوجه من الوجوه، وفي الدنيا لغيره ملك

خلافة عنه أو هبة منه وإنعامًا بدليل قوله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقوله في ذلك اليوم هو الحق الذي لا يدفعه أحدٌ من العباد، ولا يشك فيه شاك من أهل العناد، لانكشاف الغطاء فيه للكل، وانقطاع الدعاوى والخصومات، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وإن كان الأمر له في كل زمان، وكذا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]؟

٢٨٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في معرض الامتنان: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ولم يذكر إسماعيل؛ مع أنه كان هو الابن الأكبر؟

قلنا: لأن إسحاق وهب له من حُرَّة وإسماعيل من أَمَةٍ، وإسحاق وهب له مِنْ عجوز عقيم فكانت المِنَّة فيه أظهر.

٢٩٠- **فإن قيل:** كيف قال في وصف القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٢] وكثير ممن يؤمن بالآخرة من اليهود والنصارى وغيرهم لا يؤمن به؟

قلنا: معناه والذين يؤمنون بالآخرة إيمانًا نافعًا مقبولًا هم الذين يؤمنون به إما تصديقًا به قبل إنزاله لما بشر به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، أو اتباعًا له بعد إنزاله والأمر كذلك، فإنَّ مَنْ لم يصدق موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام في بشارتهما بمحمد ﷺ وبالقرآن أو كان بعد بعثه ولم يؤمن به فإيمانه بالآخرة غير معتد به ولا معتبر.

٢٩١- **فإن قيل:** كيف أفرد قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٩٣] بالذكر بعد قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، وذلك أيضًا افتراء؟

قلنا: لأن الأول عام والثاني خاص، والمقصود الإنكار فيهما، ولا يلزم من وجود العام وجود الخاص، ولكن يلزم من الذم على العام وإنكاره الذم على الخاص وإنكاره لا محالة، وما نحن فيه من هذا القبيل، والجواب المحقق أن يقال: إن هذا الخاص لما كان مخصوصًا بمزيد قبح من بين أنواع الافتراء خصَّه بالذكر تنبيهًا على مزيد العقاب فيه والإثم.

٢٩٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١] الآية، ما فائدة قوله: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، بعد قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]؟

قلنا: ذكره أولًا استدلالاً به على نفي الولد، ثم ذكره ثانيًا توطئة وتمهيدًا لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فإن كونه خالق كل شيء يقتضي تخصيصه بالعبادة والطاعة، فكانت الإعادة لفائدة جديدة.

٢٩٣- **فإن قيل:** في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] كيف خص الأبصار بإدراكه لها ولم يقل وهو يدرك كل شيء مع أنه أبلغ في التمدح؟

قلنا: لوجهين:

أحدهما: مراعاة المقابلة اللفظية فإنه نوع من البلاغة.

الثاني: أن هذه الصفة خاصة بينه وبين الأبصار أنه يدركها، بمعنى: الإحاطة بها وهي لا تدركه فأما غيره مما يدرك الأبصار فهي تدركه أيضًا، فلهذا خصها بالذكر.

٢٩٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ولم يقل وهو الذي أنزل إليّ؛ مع أن الله تعالى قال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٤٨]؟؟.

قلنا: لما كان إنزاله إلى النبي ﷺ ليبلغه إلى الخلق، ويهديهم به، كان في الحقيقة منزلًا إليهم، لكن بواسطة النبي ﷺ فصلح إضافة الإنزال إليه وإليهم.

٢٩٥- **فإن قيل:** في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨] كيف علق الكون من المؤمنين بأكل الذبيحة المسمى عليها، والكون من المؤمنين حاصل وإن لم تُؤكل الذّبيحةُ أصلًا؟

قلنا: المراد اعتقاد الحل لا نفس الأكل؛ فإن بعض مَنْ كان يعتقد حل الميتة مِن العرب كان يعتقد حرمة الذبيحة.

٢٩٦- **فإن قيل:** كيف أبهم فاعل التزيين هنا، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال في آية أخرى ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النمل: ٤]، وقال في آية أخرى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النمل: ٢٤] فمَنْ هو مُزين الأعمال للكفار في الحقيقة؟

قلنا: التزيين مِن الشيطان بالإغواء والإضلال والوسوسة وإيراد الشبه، ومِن الله تعالى بخلق جميع ذلك فصحت الإضافتان.

٢٩٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠] والرسل إنما كانت مِن الإنس خاصة؟

قلنا: المراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآنَ مِن النبي ﷺ ثم ولوا إلى قومهم منذرين كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية.

الثاني: أنه كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، والمراد من أحدهما؛ لأنه إنما يخرج مِن الملح.

والثالث: أنه بُعث إليهم رسل منهم، قاله الضَّحَّاك ومقاتل.

٢٩٨- **فإن قيل:** كيف ذكر شهادتهم على أنفسهم في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية، والمعنى فيهما واحد؟

قلنا: المعنى المشهود به متعدد وإن كان في الشهادة واحدًا، إلا أنهم في الأولى شهدوا على أنفسهم بتبليغ الرسل وإنذارهم، وفي الثانية شهدوا على أنفسهم بالكفر وهما متغايران.

٢٩٩- **فإن قيل:** كيف أقروا في هذه الآيةِ بالكفر وشهدوا على أنفسهم به وجحدوه في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ؟

قلنا: مواقف القيامة ومواطنها مختلفة، ففي بعضها يقرون وفي بعضها يجحدون، أو يكون المرادُ هنا شهادة أعضائهم عليهم حين يختم على أفواههم كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥].

٣٠٠- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٤٠] والسفه لا يكون إلا عن جهل؟

قلنا: معنى قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ بغير حجة.

وقيل: بغير علم بمقدار قبحه، ومقدار العقوبة فيه؛ وعلى الوجهين لا يكون مستفادًا من الأول.

٣٠١- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] بعد قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ [الأنعام: ١٤٠] ؟

قلنا: فائدته الإعلام بأنهم بعد ما ضلوا لم يهتدوا مرة أخرى، فإن مِن الناس مَن يضل ثم يهتدي بعد ضلاله.

٣٠٢- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١] بعد قوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ومعلوم أنه إنما يؤكل مِن ثمره إذا أثمر؟

قلنا: فائدته نفي توهم توقف الإباحة على الإدراك والنضج بدلالته على الإباحة من أول إخراج الثمر.

٣٠٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية، وفي القرآن تحريم أكل الربا ومال اليتيم ومال الغير بالباطل وغير ذلك.

قلنا: محرمًا مما كانوا يحرمونه في الجاهلية، وقيل: مما كانوا يستحلون فيها.

٣٠٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، والموضع موضع العقوبة، فكان يحسن أن يقال فيه ذو عقوبة شديدة أو عظيمة ونحو ذلك؟

قلنا: إنما قال ذلك نفيًا للاغترار بسعة رحمته في الاجتراء على معصيته، وذلك أبلغ في التهديد معناه: لا تغتروا بسعة رحمته، فإنه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم.

وقيل معناه: فقل ربكم ذو رحمة واسعة للمطيعين، ولا يرد عذابه عن العاصين.

٣٠٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ثم فسره بعشرة أحكام، خمسة منها واجبة، والتلاوة وصف للفظ لا للمعنى كيلا يقال أضدادها محرمة؟

قلنا: قوله: ﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ لا ينفي تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضًا.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: أتل ما حَرَّم ربكم عليكم وأوجبَ.

٣٠٦- **فإن قيل:** كيف خَصَّ مال اليتيم بالنهي عن قربانه بغير الأحسن ومال البالغ أيضًا كذلك؟

قلنا: إنما خصه بالنهي لأن طمع الطامعين فيه أكثر لضعف مالكه وعجزه وقلة الحافظين له والناصرين، بخلاف مال البالغ.

الثاني: أن التخصيص لمجموع الحكمين وهما النهي عن قربانه بغير الأحسن، ووجوب قربانه بالأحسن، أو جواز قربانه بالأحسن بغير إذن مالكه؛ ومجموع الحكمين مختص بمال اليتيم، وهذا هو الجواب عن كونه مُغيًّا ببلوغ الأشد، لأن المجموع ينتفي ببلوغ الأشد لانتفاء الحكم الثاني. وقيل إن الغاية لمحذوف تقديره: حتى يبلغ فسلموه إليه.

٣٠٧- **فإن قيل:** كيف خَصَّ العدلَ بالقول فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ولم يقل: وإذا فعلتم فاعدلوا، والحاجة إلى العدل في الفعل أمس؛ لأن الضرر الناشئ من الجور الفعلي أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولي؟

قلنا: إنما خصه بالقول ليعلمَ وجوبَ العدل في الفعل بالطريق الأولى كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] ولم يقل: ولا تشتمهما ولا تضربهما لما قلنا.

٣٠٨- **فإن قيل:** كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، وقد جاء في الحديث المشهور: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].

قلنا: المراد بالآية الأولى وزر لا يكون مضافًا إليها بمباشرة أو تسبب لتحقيق إضافته إلى غيرها على الكمال، أما إذا لم يكن كذلك فهو وزرها من وجه فتزره.

وقيل معناه: لا تزره طوعًا كما زعم المشركون بقولهم للنبي ﷺ: ارجع إلى ديننا ونحن كفلاء بما يلحقك من تبعة في دينك، وقول الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣] ومعنى باقي النصوص أننا نحمله كرهًا فلا تنافي بينهما.

* * *

(١) مسلم (٤٨٣٠) من حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله ولفظه: «وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

سورة الأعراف[1]

٣٠٩- **فإن قيل:** النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] متوجه إلى الحرج فما وجهه؟

قلنا: هو من باب قولهم لا أرينك هنا، معناه: لا تقم هنا فإنك إن أقمت رأيتك، فمعنى الآية، فكن على يقين منه ولا تشك فيه؛ لأن المراد بالحرج الشك.

٣١٠- **فإن قيل:** كيف قال اللهُ تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس وهو العذاب.

قلنا: معناه أردنا إهلاكها كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨].

٣١١- **فإن قيل:** ميزان القيامة واحد فكيف قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٩]؟

قلنا: إنما جمعه لأنه أراد بالميزان الموزونات من الأعمال.

وقيل: إنما جمعه لأنه ميزان يقوم مقام موازين ويفيد فائدتها، لأنه يوزن به ذرات الأعمال وما كان منها في عظم الجبال.

---

(١) هذا هو الاسم الذي عرفت به هذه السورة من عهد النبي ﷺ، أخرج النسائي من حديث أبي مليكة عن عروة بن زيد بن ثابت: أنه قال لمروان به الحكم: ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين، قال مروان: قلت: يا أبا عبد الله، ما أطول الطوليين قال: الأعراف. وكذلك حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في المغرب بطولا الطوليين. والمراد بالطوليين سورة الأعراف وسورة الأنعام، فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام باعتبار عدد الآيات. ويفسر ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرقها في ركعتين، ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ الآية [الأعراف: ٤٦] ولم يذكر في غيرها من سور القرآن، ولأنها ذكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة ولم يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ ولكنه ذكر بلفظ: «سور» في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ في سورة الحديد اهـ. من التحرير والتنوير.

٣١٢- **فإن قيل:** كيف توزن الأعمال وهي أعراض لا ثقل لها ولا جسم، والوزن من خواص الأجسام؟

قلنا: الموزون صحائف الأعمال.

الثاني: أنه قد ورد أن الله تعالى يحيلها في جواهر وأجسام فتتصور أعمال المطيعين في صورة حسنة، وأعمال العاصين في صورة قبيحة، ثم يزنها والله على كل شيء قدير.

٣١٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] وكلمة ثُمَّ للترتيب، وخطاب الملائكة عليهم السلام بالسجود سابق على خلقنا وتصويرنا؟

قلنا: المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناه بطريق حذف المضاف.

وقيل: المراد: ولقد خلقنا أباكم ثُمَّ صورناكم في ظهره، والقول الأول أظهر.

٣١٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى لإبليس: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، أي في السماء، وليس له ولا لغيره أن يتكبر في الأرض أيضًا؟

قلنا: لما كانت السماءُ مقرَّ الملائكة المطيعين الذين لا توجد منهم معصية أصلًا كان وجودُ المعصية منهم أقبح، فلذلك خَصَّ مقرهم بالذكر.

٣١٥- **فإن قيل:** كيف أجيب إبليس إلى الأنظار، وإنما طلب الإنظار ليفسد أحوال عباد الله تعالى ويغويهم؟

قلنا: لما في ذلك من ابتلاء العباد، ولما في مخالفته من عظم الثواب، ونظير ذلك ما خلقه الله تعالى في الدنيا من أصناف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركبه في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده.

٣١٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتهما، بل إخراجهما من الجنة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]؟

قلنا: اللام في ليبدي لام العاقبة والصيرورة، لا لَامُ كَيْ، كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وقول الشاعر[1]:

---

(١) البيت من الوافر- نسب للإمام علي في ديوانه ص ٣٧ وخزانة الأدب ٩/ ٥٢٩ ونسب لأبي العتاهية في

لِـدُوا لِلْمَـوْتِ وَابْنُـوا لِلْخَـرَابِ فَكُلُّكُـمُ يَـصِيرُ إِلَـى التُّـرَابِ

٣١٧- **فإن قيل:** أي آية لله تعالى في اللباس والكسوة حتى قال تعالى في آية اللباس والكسوة ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٦]؟

قلنا: معناه أن اللباس والكسوة للإنسان خاصة علامة من العلامات الدالة على أن الله تعالى فضله على سائر الحيوانات، وقيل معناه: ذلك من نعم الله.

٣١٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في حق إبليس: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧] ونازع لباسهما هو الله تعالى؟

قلنا: لما كان ذلك السبب بسبب وسوسته وإغوائه أضيف النزع إليه، كما يقال: أشبعني الطعام وأرواني الشراب، والمشبع والمروي في الحقيقة إنما هو الله تعالى وهما سبب.

٣١٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وهو بدأنا أولًا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم لحمًا، كما ذكر؛ ونحن لا نعود عند الموت، ولا عند البعث بعد الموت، على ذلك الترتيب؟

قلنا: معناه كما بدأكم أولًا من تراب كذلك تعودون ترابًا.

وقيل معناه: كما أوجدكم أولًا بعد العدم كذلك يعيدكم بعد العدم، فالتشبيه في نفس الإحياء والخلق لا في الكيفية والترتيب.

وقيل معناه: كما بدأكم سعداء وأشقياء، كذلك تعودون، ويؤيده تمام الآية.

وقيل معناه: كما بدأكم لا تملكون شيئًا كذلك تعودون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤] الآية.

٣٢٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى مخبرًا عن الزينة والطيبات: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢] مع أن الواقع المشاهد أنها لغير الذين آمنوا أكثر وأدوم؟

= ديوانه ص ٣٣ والبيت له رواية أخرى:

لـه مَلَكٌ ينـادي كُـلَّ يـوم لِـدوا لِلمَـوْت وابنـوا لِلْخَـراب

والشاهد فيه : قوله «للموت» و«للخراب» حيث دخلت لام العاقبة .

وانظر المعجم المفصل في شواهد النحوِ ١/ ١٠٢.

قلنا: فيه إضمار تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا؛ لأن المشركين شاركوهم فيها؛ خالصة للمؤمنين في الآخرة.

٣٢١- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، والميراث عبارة عما ينتقل من ميت إلى حي وهو مفقود هنا؟

قلنا: هو على تشبيه أهل الجنة وأهل النار بالوارث وبالموروث عنه. وذلك أن الله تعالى خلق في الجنة منازل للكفار على تقدير الإيمان، فَمَنْ لم يؤمن منهم جعل منزله لأهل الجنة.

الثاني: أن نفس دخول الجنة بفضل الله ورحمته مِن غير عوض، فأشبه الميراث، وإن كانت الدرجات فيها بحسب الأعمال.

٣٢٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف: ٥٤]، أما الخلق بمعنى الإيجاد والإحداث فظاهر أنه مختص به سبحانه وتعالى، وأما الأمر فلغيره أيضًا بدليل قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[التوبة: ٧١]، وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[طه: ١٣٢] ؟

قلنا: المراد بالأمر هنا قوله تعالى: ﴿كُن﴾ عِند خلق الأشياء، وهذا الأمر الذي به الخلق مخصوص به كالخلق.

الثاني: أن المراد بالخلق والأمر ما سبق ذكرهما في هذه الآية، وهو خلق السموات والأرض وأمر تسخير الشمس والقمر والنجوم كما ذكر، وذلك مخصوص به عز وجل.

٣٢٣- **فإن قيل:** لِمَ قال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ بالتاء، ولم يقل ليس بي ضلال كما وصفه قومه به، وذلك أشد مناسبة ليكون نافيًا عين ما أثبتوه؟

قلنا: الضلالة أقل من الضلال، فكان نفيها أبلغ في نفي الضلال عنه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل: ألك ثمر فقلت: ما لي ثمرة؟ كان ذلك أبلغ في النفي من قولك ما لي ثمر.

٣٢٤- **فإن قيل:** كيف وصف الملأ بالذين كفروا في قصة هود دون قصة نوح عليهما السلام؟

قلنا: لأنه كان في أشراف قوم هود مَن آمن به منهم عند هذا القول، فلم يكن كل الملأ من قومه قائلين: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] بخلاف قوم نوح فإنه لم يكن منهم من آمن به عند قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] فكان كل الملأ قائلين ذلك، هكذا أجاب بعض العلماء، وهذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة هود في قصة نوح عليه السلام ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [هود: ٢٧] وكذا في سورة المؤمنين، وجواب هذا النقض أنه يجوز أن القول كان وقع مرتين، والمرة الثانية بعد إيمان بعضهم.

٣٢٥- **فإن قيل:** كيف قال صالح عليه السلام لقومه، بعد ما أخذتهم الرجفةُ وماتوا: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، ولا يحسن مِن الحي مخاطبة الميت لعدم الفائدة؟

قلنا: هذا مستعمل في العرف، فإن من نصح إنسانًا فلم يقبل منه حتى قتل أو صلب ومر به ناصحه فإنه يقول له: كم نصحتك يا أخي فلم تقبل حتى أصابك هذا. وفائدة هذا القول حث السامعين له على قبول النصيحة ممن ينصحهم لئلا يصيبهم ما أصاب المنصوح الذي لم يقبل النصيحة حتى هلك.

٣٢٦- **فإن قيل:** لم قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] وهم ما زالوا كافرين مفسدين لا مصلحين؟

قلنا: بعد أن أصلحها الله تعالى بالأمر بالعدل وإرسال الرسل.

وقيل: معناه بعد أن أصلح الله تعالى أهلها بحذف المضاف وقيل: معناه بعد الإصلاح فيها، أي بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، فإضافته كإضافة قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] يعني بل مكرهم في الليل والنهار.

٣٢٧- **فإن قيل:** كيف خاطبوا شعيبًا عليه السلام بالعود في الكفر بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] وهو أجابهم بقوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩] وهو لم يكن في ملتهم، قط؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا يجوز عليهم شيء من الكبائر خصوصًا الكفر؟

قلنا: العرب تستعمل عاد بمعنى صار ابتداء، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

الثاني: أنهم قالوا ذلك على طريق تغليب الجماعة على الواحد، لأنهم عطفوا على ضميره الذين آمنوا منهم بعد كفرهم، فجعلوهم عائدين جميعًا إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيبٌ عليه السلام جوابه، ومراده عود قومه المعطوفين عليه.

٣٢٨- فإن قيل: لِمَ قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٠٦] بعد قوله: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ [الأعراف: ١٠٦]؟

قلنا: معناه إن كنت جئت بآية مِنْ عند الله فأتني بها، أي أحضرها عندي.

٣٢٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] فنسب هذا القول إلى فرعون؟

قلنا: قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثَمَّ وقولهم هنا.

٣٣٠- فإن قيل: السحرة إنما سجدوا لله تعالى طوعًا، لما تحققوا معجزة موسى عليه السلام؛ فكيف قال تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]؟

قلنا: لما زالت كُلُّ شبهة لهم بما عاينوا مِن آيات الله تعالى على يد نبيه اضطرهم ذلك إلى مبادرة السجود، فصاروا مِن غاية المبادرة كأنهم ألقوا إلى السجود تصديقًا لله والرسول.

٣٣١- فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا حكاية عن السحرة الذين آمنوا وعن فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١] إلى قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] ثم حكى عنهم هذا المعنى في سورة طه وسورة الشعراء بزيادة ونقصان في الألفاظ المنسوبة إليهم، وهذه الواقعة ما وقعت إلا مرة واحدة، فكيف اختلفت عبارتُهُم فيها؟

قلنا: الجواب عنه أنهم إنما تكلموا بذلك بلغتهم لا بلغة العربية، وحكى الله ذلك عنهم باللغة العربية مرارًا لحكمة اقتضت التكرار والإعادة نبينها في سورة الشعراء إن

شاء الله تعالى، فمرة حكاه مطابقًا للفظهم في الترجمة رعاية للفظ، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جريًا على عادة العرب في التفنن في الكلام والمخالفة بين أساليبه، لئلا يمل إذا تمحض تكراره.

٣٣٢- فإن قيل: كيف قالوا: ﴿مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٣٢]، سموها آية، ثم قالوا ﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾؟

قلنا: ما سموها آية لاعتقاد أنها آية، بل حكاية لتسمية موسى عليه السلام على طريق الاستهزاء والسخرية.

٣٣٣- فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، أي أهلكنا، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩]؟

قلنا: معنى ودمرنا: أي أبطلنا ما كان يصنع فرعونُ وقومُه من المكر والمكيدة في حق موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] أي يبنون مِن الصرح الذي أمر فرعون هامان ببنائه ليصعد بواسطته إلى السماء.

وقيل: هو على ظاهره؛ لأن الله تعالى أورث ذلك بني إسرائيل مدة ثُمَّ دمره جميعه.

٣٣٤- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٤٩]، قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ إن كان إشارة إلى الإنجاء فليس فيه بلاء؛ بل هو محض نعمة، وإن كان إشارة إلى القتل والأسر فإضافته إلى آل فرعون بقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٤٩]، أشد مناسبة لسياق الآية وهو الامتنان، ولهذا قال: يقتلون ويستحيون فأضاف إليهم الفعلين.

قلنا: البلاء مشترك بين النعمة والمحنة؛ لأنه مِن الابتلاء وهو الاختبار، يقال بلاه وابتلاه، أي اختبره؛ والله تعالى يختبر شكر عباده بالنعمة ويختبر صبرهم بالمحنة، يؤيده قوله تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فمعنى الآية وفي ذلك الإنجاء نعمة عظيمة

من ربكم عليكم.

٣٣٥- فإن قيل: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢] المواعدة كانت أمره بالصوم في هذا العدد، فكيف ذكر الليالي مع أنها ليست محلًّا للصوم؛ بل يقع في القلب أن ذكر الأيام أولى، لأنها محل الصوم الذي وقعت به المواعدة؟

قلنا: العرب في أغلب تواريخها إنما تذكر الليالي، وإن كان مرادها الأيام؛ لأن الليل هو الأصل في الزمان، والنهار عارض؛ لأن الظلمة سابقة في الوجود على النور.

وقيل: إنه كان في شريعة موسى عليه السلام جواز صوم الليل.

٣٣٦- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وقد علم مجموع الميقات من قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾؟

قلنا: فيه فوائد:

إحداها: التأكيد. الثانية: أن يعلم أن العشر ليال لا ساعات.

الثالثة: أن لا يتوهم أن العشر التي وقع بها الإتمامُ كانت داخلةً في الثلاثين، يعني كانت عشرين وأتمت بعشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] على ما نذكره مشروحًا في حم السجدة.

٣٣٧- فإن قيل: لِمَ قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقد كان قبله كثير من المؤمنين، وهم الأنبياء وَمَن آمن بهم؟

قلنا: معناه وأنا أول المؤمنين بأنك يا الله لا ترى بالحاسة الفانية مِن الجسد الفاني في دار الفناء.

وقيل معناه: وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل في زماني.

وقيل: أراد بالأول الأقوى والأكمل في الإيمان يعني لم يكن طلبي للرؤية لشك عندي في وجودك أو لضعف في إيماني؛ بل لطلب مزيد الكرامة.

٣٣٨- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]، أي التوراة؛ وهم مأمورون بالعمل بكل ما في التوراة؟

قلنا: معناه بحسنها وكلها حسن.

الثاني: أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، ففعل الخير أحسن مِن ترك الشر.

الثالث: أن فيها حسنها وأحسن كالاقتصاص والعفو، والانتصار والصبر، والواجب والمندوب والمباح، فأمروا بالأخذ بالعزائم والفضائل وما هو أكثر ثوابًا.

٣٣٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨] واتخاذهم العجل كان في زمن موسى عليه السلام بالنقل، وفي سياق الآية ما يدل على ذلك.

قلنا: معناه مِن بعد ذهابه إلى الجبل.

وقيل: من بعد الأخذ عليهم أن لا يعبدوا غير الله.

٣٤٠- **فإن قيل:** كيف عَبَّر عن الندم بالسقوط في اليد في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، وأي مناسبة بينهما؟

قلنا: لأن مِن عادة مَن اشتد ندمُهُ وحسرتُهُ على فائت أن يعض يده غمًّا، فتصير يده مسقوطًا فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها؛ وسقط مسند إلى قوله: ﴿فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾، وهو من كنايات العرب كقولهم للنائم: ضرب على أذنه.

٣٤١- **فإن قيل:** ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وهما متقاربان في المعنى؟

قلنا: لأن الآسف الحزين، وقيل: الشديد الغضب، ففيه فائدة جديدة.

٣٤٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، ولم يقل وفيها وإنما يقال نسختها لشيء كتب مرة ثم نقل، فأما أول مكتوب فلا يسمى نسخة، والألواح لم تكتبْ مِن مكتوب آخر؟

قلنا: لما ألقى الألواحَ، قيل إنه انكسر منها لوحان، فنسخ ما فيهما في لوح ذهب وكان فيهما الهدى والرحمة، وفي باقي الألواح تفصيل كل شيء. وقيل: إنما قال: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ [الأعراف: ١٥٤]؛ لأن الله تعالى لقّن موسى عليه السلام التوراة ثم أمره بكتابتها، فنقلها من صدره إلى الألواح فسماها نسخة.

٣٤٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي مع النبي ﷺ يعني القرآن، والقرآن إنما أنزل مع جبريل عليه السلام على النبي ﷺ لا

مع النبي ﷺ؟؟

قلنا: معه، أي مقارنًا لزمانه.

وقيل: معه، أي عليه.   وقيل: معه، أي إليه.

ويجوز أن يتعلق معه باتبعوا لا بأنزل، معناه: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي ﷺ والعمل بسنته، أو واتبعوا القرآنَ كما اتبعه هو مصاحبين له في اتباعه.

٣٤٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، وهم إنما بدلوا القولَ الذي قيل لهم؛ لأنهم قيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٦١]، فقالوا: حنطة؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة.

٣٤٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وانتقالهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس في وسعهم؟

قلنا: قد سبق هذا السؤالُ وجوابُه في سورة البقرة.

٣٤٦- **فإن قيل:** الحلم من صفات الله تعالى فكيف قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ وسرعة العقاب تنافي صفة الحلم؛ لأن الحليم هو الذي لا يعجل بالعقوبة على العصاة؟

قلنا: معناه شديد العقاب.

وقيل: معناه سريع العقاب، إذ جاء وقتُ عقابه، لا يرده عنه أحد.

٣٤٧- **فإن قيل:** التمسك بالكتاب يشتملُ على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة فكيف قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]؟

قلنا: إنما خصها بالذكر إظهارًا لمزيتها لكونها عماد الدين بالحديث، وناهية عن الفحشاء والمنكر بالآية.

٣٤٨- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، تمثيلٌ لحال بلعام[1]، فكيف قال بعده: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧] والمثل لم يضرب إلا لواحد؟

---

(١) لم أقف على خبر ثابت عن رسول الله ﷺ بشأن بلعام.

قلنا: المثل في الصورة وإن ضرب لبلعام ولكن أريد به كفار مكة كلهم؛ لأنهم صنعوا مع النبي ﷺ بسبب ميلهم إلى الدنيا وشهواتها من الكيد والمكر ما يشبه فعل بلعام مع موسى عليه السلام.

الثاني: أن ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأعراف: ١٧٧] لا إلى أول الآية.

٣٤٩- فإن قيل: كيف قال: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وهو ﷺ كان بشيرًا ونذيرًا للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]؟

قلنا: المراد بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] لقوم كتب عليهم في الأزل أنهم يؤمنون، وإنما خصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالإنذار والبشارة دون غيرهم، فكأنه نذير وبشير لهم خاصة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

ويجوز أن يكونَ متعلق النذير محذوفًا تقديره: إن أنا إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون؛ فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر، كما استغنى بالجملة عن التفصيل في تلك الآية؛ لأن المعنى: وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين.

٣٥٠- فإن قيل: كيف قال الله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام، وحواء رضي الله عنها: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وقال عز وجل: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] والأنبياء معصومون عن مطلق الكبائر فضلًا عن الشرك الذي هو أكبر الكبائر؟

قلنا: المراد بقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ أي جعل أولادهما بطريق حذف المضاف. وكذا قوله تعالى: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي فيما آتى أولادهما، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] حيث ذكر ضمير الجمع ولم يقل يشركان، ومعنى إشراك أولادهما فيما آتاهم الله تعالى تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس ونحو ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم.

وقيل: الضمير جعلا للولد الصالح وهو السليم الخلق، وإنما قال جعلا لأن حواء كانت تلد في بطن ذكرًا وأنثى.



وقيل: المراد بذلك تسميتهما إياه عبد الحارث[1]، والحارث اسم إبليس في الملائكة، وسبب تلك التسمية يعرف من تفسير الآية، وإنما قال شركاء إقامة للواحد مقام الجمع، ولم يذهب آدم وحواء إلى أن الحارث ربه؛ بل قصد أنه كان سبب نجاته.

وقال جمهور المفسرين: قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] في مشركي العرب خاصة، وهو منقطع عن قصة آدم وحواء عليهما السلام.

* * *

(١) لم يصح الخبر في هذا عن رسول الله ﷺ.





سورة الأنفال[1]

٣٥١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، إلى آخر الآيتين، يدل على أن مَنْ لَم يتصف بجميع تلك الصفات لا يكون مؤمنًا؛ لأن كلمة إنما للحصر.

قلنا: فيه إضمار تقديره: إنما المؤمنون إيمانًا كاملًا، وإنما الكاملون في الإيمان كما يقال: الرجل مَن تصبَّر على الشدائد، يعني الرجل الكامل.

٣٥٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤]، ينفي إرادة ما ذكرتم.

قلنا: معناه أولئك هم المؤمنون إيمانًا كاملًا حقًّا.

وقيل: إنَّ حقًّا متعلق بما بعده لا بما قبله، والمؤمنون تمام الكلام.

٣٥٣- **فإن قيل:** كيف يقال: إن الإيمان لا يقبل الزيادةَ والنقصانَ[2]، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]؟

قلنا: المراد هنا آثار الإيمان من الطمأنينة واليقين والخشية ونحو ذلك؛ لأن تظاهر الأدلة على المدلول مما يزيده رسوخًا في العقائد وثبوتًا، فأما حقيقة الإيمان فهو التصديق والإقرار بوحدانية الله تعالى. وكما أن الإلهية الوحدانية لا تقبل الزيادة والنقصان، فكذا الإقرار بها.

---

(١) عرفت بهذا الاسم من عهد أصحاب رسول الله ﷺ كما أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت: لابن عباس سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر، فباسم: «الأنفال» عرفت بين المسلمين وبه كتبت تسميتها في المصحف حين كتبت أسماء السور في زمن الحجاج ولم يثبت في تسميتها حديث وتسميتها سورة الأنفال من أنها افتتحت بآية فيها اسم الأنفال ومن أجل أنها ذكر فيها حكم الأنفال. انظر: التحرير والتنوير.

(٢) قلت: بل الإيمان يزيد وينقص وعلى هذا جمهور أهل السنة والأدلة تشهد لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا.

٣٥٤- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥] تشبيه، فأين المشبه والمشبه به؟

قلنا: معناه امض على ما رأيته صوابًا مِن تنفيل الغزاة في قسمة الغنائم وإن كرهوا، كما مضيت في خروجك مِن بيتك للحرب بالحق وهم كارهون.

وقيل معناه: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فهو خير لكم وإن كرهتم، كما كان إخراجك من بيتك بالحق.

٣٥٥- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]، وكلاهما متعذر، لأنه تحصيل الحاصل؟

قلنا: المراد بالحق الإيمان، والباطل الشرك، فاندفع السؤالُ.

٣٥٦- فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ [الأنفال: ٧، ٨]؟

قلنا: إنما ذكر أولًا لبيان أن إرادتهم كانت متعلقة باختيار الطائفة التي كانت فيها الغنيمة، وإرادة الله تعالى باختيار الطائفة التي في قهرها نصرة الدين. فذكره أولًا للتمييز بين الإرادتين، ثم ذكره ثانيًا لبيان الحكمة في قطع دابر الكافرين.

٣٥٧- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ومعلوم أن المؤمنين يوم بدر قتلوا الكفارَ ورماهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام بكف مِنْ حصى الوادي في وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه**»، فلم يبقَ مشركٌ إلا وقع في عينيه شيء مِن ذلك، فشغلوا بعيونهم وانهزموا[1]، فتبعهم المؤمنون يقتلون ويأسرون؟

قلنا: لما كان السبب الأقوى في قتلهم إنما هو مدد الملائكة وإلقاء الرعب في

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٤٤٢، ٤٤٣) بإسنادين صحيحين إلى عروة وقتادة لكنهما مرسلان وله شواهد من حديث أبي هريرة وحكيم بن حزام وغيرهما عند الطبراني (٣١٢٨، ٤٠٥٦) وغيره، انظر: تفسير الثوري (ص ١١٧)، والدر المنثور (٤/ ١٥)، ومجمع الزوائد (٦/ ٨٤)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٣٣١)، وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٢/ ٢٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٦)، وشواهده لا يخلو أحدها من مقال ويحسن الحديث بمجموعها. والله أعلم.

قلوب الكافرين وتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم، وذلك كله فعل الله تعالى، نفى الفعل عنهم ونسبه إليه، يعني إن كان ذلك في الصورة منكم فهو في الحقيقة مني، فسبيلكم الشكر دون العجب والفخر، وكذلك الرمية أثبتها لرسول الله ﷺ؛ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه؛ لأن أثرها الذي لا يوجد مثله عن رمي البشر فعل الله تعالى، ونظير هذا قولك لمن يصدر عنه قول حسن أو فعل مكروه بتسليط مَنْ هو أعلى رتبة منه: هذا ليس قولك ولا فعلك.

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] وما رميتَ الرعبَ في قلوبهم إذا رميتَ الحصى في وجوههم ولكن اللهَ رمى الرعبَ في قلوبهم.

ولأهل الحقيقة في هذه الآية وفي نظائرها من الكتاب والسنة مباحث لا يحتملها هذا المختصر، وهي مستقصاة في كتب التصوف.

٣٥٨- **فإن قيل**: كيف قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ثنَّى في الأمر ثم أفرد في النهي؟

قلنا: كما يذكر في لغة العرب الاسم المفرد ويراد به الاثنان والجمع، فكذلك يذكر ضمير المفرد ويراد به ضمير الاثنين كقولهم: إنعام فلان، ومعروفه يغشيني، والإنعام والمعروف لا ينفع مع فلان، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، أي يرضوهما، فكذا هنا، معناه: ولا تولوا عنهما.

الثاني: أنه إنَّما أفرد باعتبار عود الضمير إلى الله وحده لأنه الأصل مع أن طاعة الله وطاعة رسوله متلازمان، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، فكان الإعراض عن الرسول إعراضًا عن الله تعالى فاكتفى بذكره.

الثالث: أن معناه: ولا تولوا عن هذا الأمر وعن أمثاله، فالضمير للأمر لا للرسول عليه الصلاة والسلام.

الرابع: أنَّه إنما لم يقل ولا تولوا عنهما لئلَّا يلزم منه الإخلال بالأدب مِن النبي عليه الصلاة والسلام عند نهيه للكفار في قرانه بين اسمه واسم الله تعالى في ذكرهما بلفظ واحد من غير تقديم اسم الله، كما روي: أن خطيبًا خطب فقال: مَنْ أطاع الله

ورسوله فقد رشد، ومن عصاهما فقد غوى، فقال له النبي ﷺ: «بِئْسَ خَطِيبُ الْقَوْمِ أَنْتَ! هَلَّا قُلْتَ: وَمَنْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى»؟[١].

٣٥٩- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣] الآية؟

قلنا: معناه ولو علم الله فيهم تصديقًا وإيمانًا في المستقبل لأسمعهم سماع فهم وقبول، أو لأنطق لهم الموتى يشهدون بصدق نبوتك كما طلبوا.

وقيل: معنى لأسمعهم: لرزقهم الفهم والبصيرة، وأسمعهم وحالهم هذه الحال، وهو أنه لم يعلم فيهم الخير، لتولوا وهم معرضون، لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره.

٣٦٠- **فإن قيل:** التولي والإعراض واحد، فما فائدة قوله: ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]؟

قلنا: معناه لتولوا عن الإيمان وأعرضوا عن البرهان فلا تكرار.

٣٦١- **فإن قيل:** ما فائدة ذكر السماء في قوله تعالى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] والمطر إنما يكون من السماء؟

قلنا: المطر المطلق. إنما يكونُ مِن السماء ولكن المطر المضاف هنا وهو مطر الحجارة قد يكون من رؤوس الجبال ومن حيطان المساكن والقصور وسقوفها، فكان ذكر السماء مفيدًا لأن الحجارة إذا نزلت مِن السماء كانت أشد نكاية وأكثر ضررًا.

الثاني: أنه لما كانت الحجارةُ المسومةُ للعذاب وهي السجيل معهودة النزول من السماء ذكر السماءَ إشارة إلى إرادة المعهود مِن الحجارة، كأنه قال: فأمطرْ علينا حجارةً مِن سجيل، فوضع قوله مِن السماء موضع قوله مِن سجيل كما تقول: صب عليه مسرودة من حديث، يعني درعًا.

٣٦٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ويوم بدر عذبهم الله تعالى بالقتل والأسر وهو فيهم؟

قلنا: معناه وأنت مقيم فيهم بمكة، وكان كذلك؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام،

---

(١) مسلم (١٤٣٨) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

ما دام بمكة لم يعذبوا، فلما أخرجوه من مكة وخرجوا لحربه عذبوا.

وقيل معناه: وما كان الله ليعذبهم عذاب الاستئصال وأنت فيهم.

وقيل معناه: وما كان الله ليعذبهم العذاب الذي طلبوه وهو إمطار الحجارة وأنت فيهم.

٣٦٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى أولاً: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، الآية، ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤] الآية، وهو يوهم التناقض؟

قلنا: معناه وما لهم أن لا يعذبهم الله بعد خروجك من بينهم وخروج المؤمنين والمستغفرين.

وقيل: المراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال، وبالثاني عذاب غير الاستئصال.

وقيل: المراد بالأول عذاب الدنيا، وبالثاني عذاب الآخرة.

٣٦٤- **فإن قيل:** ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، والمكاء الصفير، والتصدية التَّصفيق، وهما ليسا بصلاة؟

قلنا: معناه أنهم أقاموا المكاء والتصدية مقام الصلاة، كما يقول القائل: زرت فلانًا، فجعل الجفاء صلتي، أي أقام الجفاء مقام صلتي، ومنه قول الفرزدق:

أخافُ زيادًا أنْ يكون عطاؤُهُ أداهِمَ سودًا أوْ مَحَدْرَجَةً سُمْرًا(١)

أراد بالأداهم القيود، وبالمحدرجة السياط، ووضعهما موضع العطاء.

٣٦٥- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ﴾ [الأنفال: ٣٨] وهُم لم ينتهوا عن الكفر، فكيف قال: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾؛ والعود إلى الشيء إنما يكون بعد تركه والإقلاع عنه؟

قلنا: معناه إن ينتهوا عن عداوة رسول الله ﷺ ومحاربته يغفر لهم ما قد سلف مِن ذلك، وإن يعودوا إلى قتاله وعداوته فقد مضت سنةُ الأولين منهم الذين حاق بهم

---

(١) من الطويل – للفرزدق. وانظر (ديوانه ص ٢٢٧ ولسان العرب مدرج ٢/ ٢٣٢ وتاج العروس مدرج ٥/ ٤٧٢ والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٣/ ١٤٢.

مكرهم يوم بدر، أو فقد مضت سنةُ الذين تحزَّبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية.

وقيل معناه: إن ينتهوا عن الكفر بالإيمان يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ**»[1]. وإن يعودوا إلى الكفر بالارتداد بعد ما أسلموا فقد مضت سنةُ الأولين مِن الأمم مِن أخذهم بعذاب الاستئصال.

٣٦٦- **فإن قيل:** الفائدة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة، وهي زوال الرعب من قلوب المؤمنين وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القتال، فما فائدة تقليل المؤمنين في أعين الكفار حتى قال الله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] مع أن في ذلك زوال الرعب من قلوب الكافرين وتثبيت أقدامهم واجترائهم على القتال؟

قلنا: فائدته أن لا يستعد الكفارُ كُلَّ الاستعداد، فيجترئوا على المؤمنين معتمدين على قلتهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيدهشوا ويتحيروا، وأن يكون ذلك سببًا يتنبه به المشركون على نصرة الحق إذا رأوا المؤمنين مع قلتهم في أعينهم منصورين عليهم.

وفي التقليل من الطرفين معارضة تعرف بالتأمل.

٣٦٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، يدل على حرمة المنازعة والجدال أيضًا؛ لأنه منازعة فكيف تجوز المناظرةُ وهي منازعة وجدال؟

قلنا: المراد بالمنازعة هنا، المنازعة في أمر الحرب والاختلاف فيه، لا المنازعة في إظهار الحق بالحجة والبرهان، والدليل عليه أن ذلك مأمور به.

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ولكن للجواز شروط يندر وجودها في زمننا هذا، أحدها: أن يكون كل المقصود منها ظهور الحق على لسان أي الخصمين، كما كانت مناظرة السلف؛ وعلامة ذلك أن لا يفرح بظهور الحق على لسانه أكثر مما يفرح بظهوره على لسان خصمه.

٣٦٨- **فإن قيل:** كيف قال إبليس: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وهو لا يخاف الله،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١٧٣) عن عمرو بن العاص ﵁ أنه قال النبي ﷺ لما أسلم: أريد أن أشترط، قال: «تشترط ماذا» قلت: أن يُغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله»، وخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٠٤) ولفظه: «إن الإسلام يجب ما كان قبله من الذنوب».

لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده؟

قلنا: قال قتادة: صدق عدوُّ الله في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: ٤٨] يعني جبريل والملائكة عليهم السلام معه نازلين من السماء لنصرة المسلمين يوم بدر، وكذب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ [الأنفال: ٤٨]، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم.

وقيل: لما رأى نزولَ الملائكة على صورة لم يرها قط خاف قيامَ الساعة التي هي غاية إنظاره، فيحل به العذاب الموعود.

وقيل: معنى أخاف الله: أعلم صدق وعده لنبيه بالنصر، وقد جاء الخوف بمعنى العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ويحتمل عندي أن يكون خاف أن يحل به من الملائكة ما دون الإهلاك من الأذى إذ لم يخف الإهلاك.

ثم أقول: كيف تؤخذ عليه كذبة واحدة، وهو أفسق الفسقة، وأكفر الكفرة؛ فلا عجب في كذبه وإنما العجب في صدقه!.

٣٦٩- فإن قيل: أي مناسبة بين الشرط والجزاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٤٩]؟

قلنا: لما أقدم المؤمنون وهم ثلاث مائة وبضعة عشر على قتال المشركين وهم زهاء ألف متوكلين على الله، وقال المنافقون: غرَّ هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ثلاثة أمثالهم عددًا أو أكثر. قال الله تعالى ردًّا على المنافقين وتثبيتًا للمؤمنين ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾ [الأنفال: ٤٩]، أي غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي وينصره عليه، ﴿حَكِيمٞ﴾ في جميع أفعاله.

٣٧٠- فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١]، ولم يقل ليس بظالم، وهو أبلغ في نفي الظلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا: قد سبق هذا السؤالُ وجوابهُ في سورة آل عمران.

٣٧١- فإن قيل: قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وذلك إشارة إلى إهلاك كفار مكة وآل فرعون ولم تكن لهم حال مرضية غيروها.

قلنا: كما تغير الحالُ المرضيةُ إلى المسخوطة تغير الحال المسخوطة إلى أسخط

منها وأسوأ، وأولئك كانوا قبل بعث الرسول إليهم عباد أصنام، فلما بعث الرسولُ ﷺ إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وسعوا في قتله غيروا حالهم إلى أسوأ منها، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب.

٣٧٢- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]، بعد قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٥٥]؟

قلنا: مراده أن يبين أن شر الكفار الذين كفروا واستمروا على الكفر إلى وقت الموت.

٣٧٣- **فإن قيل:** ما فائدة تكرار المعنى الواحد في مقاومة الجماعة لأكثر منها قبل التخفيف وبعده في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]؟

قلنا: فائدته الدلالة على أن الحال مع القلةِ والكثرة واحدة لا تتفاوت؛ بل كما ينصر الله تعالى العشرين على المائتين ينصر المائة على الألف، وكما ينصر المائة على المائتين ينصر الألف على الألفين.

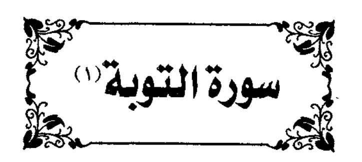
٣٧٤- **فإن قيل:** كيف أخبر الله تعالى عن هذه الغلبةِ ونحن نشاهدُ الأمرَ بخلافها، فإن المائة من الكفار قد تغلب المائة من المسلمين؛ بل المائتين في بعض الأحوال؟

قلنا: إنما أخبر الله عز وجل عن هذه الغلبة بشرط الصبر الذي هو الثبات في موقف الحرب، أو الذي هو الموافقة بين المسلمين ظاهرًا وباطنًا؛ فمتى وجد الشرط تحققت الغلبة للمسلمين مع قلتهم لا محالة، ولقائل أن يقول إن هذه الغلبة مخصوصة بطائفة كان النبي ﷺ أحدهم، وسياق الآية يدل عليه.

٣٧٥- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الأنفال: ٦٧]، مع أنه يريد الدُّنيا أيضًا؛ لأنه لولا إرادته إياها لما وجدت، فما فائدة هذا التخصيص؟

قلنا: المراد بالإرادة هنا الاختيار والمحبة، لا إرادة الوجود والكون، فالمعنى أتحبون عرض الحياة الدنيا وتختارونه، والله يختار ما هو سبب الجنة وهو إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل.

* * *



سورة التوبة(١)

٣٧٦- فإن قيل: لأي سبب تركت كتابة البسملة في أول هذه السورة بخلاف سائر السور؟

قلنا: لما تشابهت هي والأنفال واختلفت الصحابة في كونهما سورتين أو سورة واحدة تركت بينهما فرجة عملًا بقول مَنْ قال هما سورتان، وتركت البسملة بينهما عملًا بقول مَنْ قال هما سورة واحدة، وممَّنْ قال بذلك قتادة رحمه الله.

الثاني: أن اسم الله تعالى سلام وأمان، وبراءة فيها قتل المشركين ومحاربتهم فلا يناسب كتابتها.

٣٧٧- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢]، خَصَّ الأمرَ بالقتال بأئمة الكفر، مع أن النكث والطعن ليس مخصوصًا بهم؛ بل هو مسند إلى جميع المشركين؟

قلنا: المراد بأئمة الكفر رؤوس المشركين وقادتهم. وقيل: كفار مكة؛ لأنهم كانوا قدوةَ جميع العرب في الكفر، فكأن النكثَ والطعنَ لم يوجد إلا منهم لما كانوا هم الأصل فيه، فلذلك خصهم بالذكر.

٣٧٨- فإن قيل: كيف قال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ

---

(١) سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كلام السلف: سورة براءة، ففي الصحيح عن أبي هريرة في قصة حج أبي بكر بالناس قال أبو هريرة: فأذن معنا علي بن أبي طالب في أهل مني ببراءة. وفي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال: آخر سورة نزلت سورة براءة، وبذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، وهي تسمية لها بأول كلمة منها، وتسمى سورة التوبة في كلام بعض السلف في مصاحف كثيرة فعن ابن عباس: سورة التوبة هي الفاضحة. وترجم لها الترمذي في جامعه باسم: التوبة. ووجه التسمية: أنها وردت فيها توبة الله تعالى عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهو حدث عظيم، ووقع هذان الاسمان معًا في حديث زيد بن ثابت في صحيح البخاري في باب جمع القرآن قال زيد: فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة سورة براءة. انظر: التحرير والتنوير ص ١٨٠٣.

﴿ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠]، ونحن نسأل اليهود والنصارى عن ذلك فينكرونه ويجحدونه؟

قلنا: طائفة من اليهود وطائفة من النصارى هم الذين يقولون ذلك لا كُلُّهم، فالألف واللام للعهد لا للجنس، ولا للاستغراق، أو أطلق اسم الكل وأراد البعض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ [آل عمران: ٤٢] وإنما قال لها جبريل وحده.

٣٧٩- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقول كل أحد إنما يكون بفمه؟

قلنا: معناه أنه قول لا تعضده حجةٌ وبرهانٌ، إنما هو مجرد لفظ لا أصل له، وقيل: ذكر ذلك للمبالغة في الرد عليهم والإنكار لقولهم، كما يقول الرجل لغيره: أنت قلت لي ذلك بلسانك.

٣٨٠- **فإن قيل:** دين الحق هو جملة الهدى فما فائدة عطفه على الهدى في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]؟

قلنا: المراد بالهدى هنا القرآن، وبدين الحق الإسلام، وهما متغايران.

الثاني: أنه وإن كان داخلًا في جملة الهدى ولكنه خصه بالذكر تشريفًا له وتفضيلًا كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣٨١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، ولم يقل على الأديان كلها مع أنه أظهره على الأديان كلها؟

قلنا: المراد بالدين هنا اسم الجنس، واسم الجنس المعرف باللام يفيد معنى الجمع، كما في قولهم: كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس.

٣٨٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، والمذكور الذهب والفضة، فأعاد الضمير على أحدهما؟

قلنا: أعاد الضمير على الفضة؛ لأنها أقرب المذكورين، أو لأنها أكثر وجودًا في أيدي الناس، فيكون كنزها أكثر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ﴾ [البقرة: ٥٤].

الثاني: أنه أعاد الضمير على المعنى؛ لأن المكنوز دنانير ودراهم وأموال، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [الحجرات: ٩] لأن كل طائفة مشتملة على عدد كثير، وكذا قوله تعالى ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩] يعني المؤمنين والكافرين.

الثالث: أن العربَ إذا ذكرتْ شيئين يشتركان في المعنى تكتفي بإعادة الضمير على أحدهما، استغناء بذكره عن ذكر الآخر؛ لمعرفة السامع باشتراكهما في المعنى.

ومنه قول حسان بن ثابت:

إنَّ شَرْخ الشَّبابِ والشَّعَرَ الأسْـ ـوَدَ ما لَمْ يُعاصَ كانَ جُنُونا[1]

ولم يقل ما لم يعاصيا. وقول الآخر:

فَمَنْ يكُ أمْسَى بِالمدِينَةِ رَحْلهُ فَإنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ[2]

ولم يقل لغريبان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنفال: ٢٠] وليس قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ١١٢] من هذا القبيل؛ لأن الإضمار ثَمَّ عن أحدهما لوجود لفظة أو، وهي لإثبات أحد المذكورين، فَمَنْ جعله نظير هذا فقد سها؛ إلا أن يثبت أن أو في هاتين الآيتين بمعنى الواو.

وفي هاتين الآيتين لطيفة وهي أن الكلامَ لَمَّا اقتضى إعادةَ الضمير على أحدهما أعاده في الآية الأولى على التجارة، وإن كانت أبعد، ومؤنثة أيضًا؛ لأنها أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله تعالى من اللهو؛ لأن المشتغلين بها أكثر من المشتغلين باللهو، أو لأنها أكثر نفعًا مِن اللهو، أو لأنها كانت أصلًا واللهو تبعًا؛ لأنه ضرب بالطبل لقدومها على ما عرف مِن تفسير الآية، وأعاده في الآية الثانية على الإثم رعاية

---

(١) من الخفيف - لحسان بن ثابت وانظر (ديوانه ٢٨٢ ولسان العرب - شرخ - ٣/ ٢٩ وتاج العروس ٧/ ٢٨١ والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٨/ ٥٢).

(٢) هذا البيت سبق تخريجه والحديث عنه ص ٨٥ وانظر (المعجم المفصل في شواهد النحو١/ ٨٩).

لمرتبة القرب والتذكير.

٣٨٣- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهي عند الناس أيضًا كذلك في كل ملة سواء كانت الشهور قمرية أو شمسية؟

قلنا: فائدته أن يعلم أن هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناسُ وابتدعوه بعقولهم من ذات أنفسهم، وإنما هو أمر أنزله الله في كتبه على ألسنة رسله.

٣٨٤- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦]، خص الأربعة الحرم بذلك وظلم النفس منهي عنه في كل زمان؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما، الضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ راجع إلى قوله: ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ لا الأربعة الحرم فقط، فاندفع السؤالُ.

الثاني: أن الضميرَ راجعٌ إلى الأربعة الحرم فقط، إما لأنها أقرب، أو لما قاله الفراء: إن العرب تقول في العشرة وما دونها لثلاث ليال خلون وأيام خلون وهن وهؤلاء، فإذا جاوزت العشرة قالت خلت ومضت، للفرق بين القليل وهو العشرة فما دونها، وبين الكثير وهو ما زاد عليها، ولهذا قال في الاثنى عشر: منها وقال في الأربعة: فيهن فعلى هذا يكون تخصيصها بالذكر إما لمزيد فضلها وحرمتها عندهم في الجاهلية فيكون ظلم النفس فيها أقبح، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾[البقرة: ١٩٧]، وإن كان ذلك منهيًا عنه في غير الحج أيضًا، أو لأن المراد بالظلم النسيء، وهو كان مخصوصًا بها، أو قتال الكفار فيها ابتداء، أو ترك قتالهم إذا ابتدؤوا وكل ذلك مخصوص بها.

٣٨٥- فإن قيل: الشهر مذكر فقياسه فيها؟

قلنا: الضمير بالهاء والنون لا يختص بالمؤنث، ولو اختص فالمراد بقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ ساعات الأشهر وهي مؤنثة.

٣٨٦- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ والإنسان لا يظلم نفسه؛ بل يظلم غيره؟

قلنا: لا نسلم أنه لا يظلم نفسه قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ [النساء: ١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[الطلاق: ١].

الثاني: أن معناه فلا يظلم بعضكم بعضًا كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا

تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١].

الثالث: أن معناه فلا تنقصوا حظ أنفسكم من الآخرة بالمعصية، فإن مَنْ عصى فقد ظلم نفسه بنقصه ثوابها وتوجيه العقاب والذم إليها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

الرابع: أن كل ظالم لغيره فهو ظالم لنفسه في الحقيقة؛ لأن ضرر ظلمه في حق المظلوم ينقطع عن قريب؛ لأنه لا يتعدى الدنيا، وضرر ظلمه في حق نفسه يراه في الآخرة حيث لا ينقطع، أو يكون أشد وأدوم.

٣٨٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، يدل على قبول الكفر للزيادة والنقصان، فكذلك الإيمان الذي هو ضده، فيكون حجة للشافعي رحمة الله عليه في قوله: الإيمان يقبل الزيادة والنقصان[1].

قلنا: معناه زيادة معصية في الكفر.

٣٨٨- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ٤٤]، إن كان نهيًا فأين الجزم؟ وإن كان نفيًا فقد وقع المنفي؛ لأن كثيرًا من المؤمنين المخلصين استأذنوه في التخلف عن الجهاد لعذر، ويعضده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] فقيل إن المراد به كل أمر طاعة اجتمعوا عليه كالجهاد والجمعة والعيد ونحوها.

قلنا: هو نهي بصيغة النفي كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]

الثاني: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾.

الثالث: أن المراد بقوله: ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ﴾ الآية، الاستئذان في التخلف عن الجهاد من غير عذر، وكذا المراد بالآية التي بعدها، وبقوله: ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾

---

(١) وهو الراجح كما هو معلوم في معتقد أهل السنة.

إباحة الاستئذان في التخلف عن الأمر الجامع لعذر فلا نسخ لإمكان العمل بالآيتين؛ لأن محل الحكم مختلف، وهو وجود العذر وعدمه.

٣٨٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، أخبر أنهم أمروا بالقعود، وذمهم على القعود والتخلف عن الخروج للجهاد والاستئذان في القعود؟

قلنا: ليس في الآية ما يدل على أن الله تعالى هو الآمر لهم، فقيل: الآمر لهم بذلك هو الشيطان بالوسوسة والتزيين.

الثاني: أن بعضُهم أمر بعضًا.

الثالث: أن النبي ﷺ قال لهم ذلك غضبًا عليهم.

الرابع: أنه أمرُ توبيخ وتهديد مِن الله تعالى لهم كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] يعضده قوله تعالى: ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي مع النساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت.

٣٩٠- **فإن قيل:** إذا كان اللهُ تعالى علم أَنَّ المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، أي فسادًا، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي ولأسرعوا السعي بينهم بالنمائم، فكيف أمرهم بالخروج مع المؤمنين؟

قلنا: أمرهم بالخروج لإلزامهم الحجة ولإظهار نفاقهم.

٣٩١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣]، يدل على أن الفسق يمنع قبول الطاعات؟

قلنا: المراد بالفسق هنا الفسق بالكفر والنفاق لا مطلق الفسق، وذلك محبط للطاعات ومانع من قبولها؛ ويعضده قوله عز وجل: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤] الآية.

٣٩٢- **فإن قيل:** لم عدل في آية الصدقات عن اللام إلى «في» في المصارف الأربعة الأخيرة؟

قلنا: للتنبيه على أنهم أقوى في استحقاق الصدقة ممن سبق ذكره؛ لأن «في» للظرفية والوعاء، فنبه بها على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مصبًّا لها، لما ورد في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفي فك الغارمين عن الدين من التخليص والإنقاذ؛



ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر ومثل هذه العبادة الشاقة؛ وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، ولا يرد المؤلفة قلوبهم؛ لأن بعضهم كفار وبعضهم مسلمون ضعيفو النية في الإسلام، فكيف يعارض بهم مَنْ ذكرنا، أو لأن الله تعالى علم أن وجوب إعطائهم سينسخ، فلذلك جعلهم في القسم المقدم الذي هو أضعف.

٣٩٣- **فإن قيل:** لِمَ كرر «في» في الأربعة الأخيرة ولم يكرر اللام في الأربعة الأولى؟

قلنا: للتنبيه على ترجيح استحقاق المصرفين الأخيرين على الرقاب والغارمين من جهة أن إعادة العامل تدل على مزيد قوة تأكيد كقولك مررت بزيد وبعمرو.

٣٩٤- **فإن قيل:** لِمَ عَدَّى فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء وإلى المؤمنين باللام في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]؟

قلنا: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به، فعدَّاه بالباء، كما يُعدَّى ضده بها، وقصد التسليم والانقياد للمؤمنين فيما يخبرون به لكونهم صادقين عنده، فَعدَّاه بما يُعدَّى به التسليم والانقياد، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١] فمشترك الدلالة؛ لأنه قال في موضع آخر ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقال ابن قتيبة، في الجواب عن أصل السؤال: إن الباء واللام زائدتان، والمراد بالإيمان التصديق، فمعناه يصدق الله ويصدق المؤمنين.

٣٩٥- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [التوبة: ٦٣]، يدل على تخليد أصحاب الكبائر في النار؛ لأن المراد بالمحادة المخالفة والمعاداة؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ خبر عن المنافقين الذين سبق ذكرُهُم، فيكون المراد به المحادة بالكفر والنفاق، وذلك موجب للتخليد في النار.

٣٩٦- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ [التوبة: ٦٤]، وسور القرآن إنما تنزل على النبي ﷺ لا على المنافقين؟

قلنا: معناه أن تنزل فيهم، فـ«على» هنا بمعنى «في» كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقولهم كان ذلك على عهد فلان.

الثاني: أن الإنزال هنا بمعنى القراءة؛ فمعناه أن تقرأ عليهم.

٣٩٧- **فإن قيل:** الحذر في هذه الآية واقعٌ منهم عَلَى إنزال السورة، فكيف قال تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي مظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم بإنزال السورة، وهو مناسب لقوله تعالى: ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤].

الثاني: أن معناه مظهر ومبرز ما تحذرون من إنزال السورة.

٣٩٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وإنباؤهم بما في قلوبهم تحصيل الحاصل؛ لأنهم عالمون به فما فائدته؟

قلنا: معناه تنبئهم بأن أسرارهم وما كتموه من النفاق شائعة ذائعة؛ وتفضحهم بظهور ما اعتقدوا أنه لا يعرفه غيرهم ولا يطلع عليه سواهم، وهذا ليس تحصيل الحاصل.

٣٩٩- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال بعده ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وكلمة «مِنْ» أدل «على» المشابهة والمجانسة من حيث أنها تقتضي الجزئية والبعضية، فكانت بالمؤمنين أولى وأحرى؛ لأنهم أشد تشابهًا وتجانسًا في الصفات والأخلاق؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي بعضهم على دين بعض، أي على عادتهم وخلقهم بإضمار لفظة الدين أو الخلق ونحوه؛ لأن «مِنْ» تأتي بمعنى على، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي يحلفون على وطء نسائهم، وهذا هو المعنى المراد في قوله عليه الصلاة والسلام: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[١] وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[٢]، والمراد بقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي أنصارهم وأعوانهم

(١) البخاري (٤٦٧٥)، ومسلم (٢٤٨٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في الدين، وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين، إلا أنه خص المنافقين بتلك العبارة تكذيبًا لهم في حلفهم السابق في قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، وتقريرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]؟

٤٠٠- **فإن قيل:** أيُّ فائدة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٩] مع أن قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٩] بوضع الظاهر موضع الضمير مُغْنٍ عنه، كما قال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] من غير تكرار؟

قلنا: فائدته تصدير التشبيه بذم المشبه بهم باستمتاعهم بما أوتوا مِنْ حظوظ الدنيا واشتغالهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة الباقية وطلب الفلاح في الآخرة، وتهجين حالهم وتقبيح صفتهم؛ ليكون التشبيه بعد ذلك أبلغ في ذم المشبهين بأولئك الأولين، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون كان يقتلُ بغير حق ويظلم ويفسق وأنت تفعل مثل فعله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فإنه لما كان معطوفًا على ما قبله وهو التشبيه المُصدَّر بتلك المقدمة أغنى ذلك عن إعادة تلك المقدمة المذكورة للتقبيح والتهجين.

٤٠١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٦٩]، حبوط العمل إن كان عبارة عن بطلان ثوابه فذلك إنما يكون في الآخرة؛ وإن كان عبارة عن بطلان منفعته فأعمال المنافقين في الدنيا ليست باطلة المنفعة؛ لأنهم ينتفعون بها في حقن دمائهم وأموالهم وجريان أحكام المسلمين عليهم؟

قلنا: المراد بالأعمال إن كانت نوعي أعمالهم الدينية والدنيوية، فالحبوط في الدنيا راجع إلى أعمالهم الدنيوية، وهي كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم الذي كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى ورفع آياته وبيناته ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فلم ينالوا من ذلك ما أملوه وقصدوه عن إبطال دين الله تعالى وستر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، والحبوط في الآخرة راجع إلى أعمالهم الدينية وهي

عباداتهم وطاعاتهم؛ لأنهم فعلوها نفاقًا ورياء فبطل ثوابها في الآخرة؛ وإن كان المراد بأعمالهم مجرد الأعمال الدينية فحبوطها في الدنيا هو عدم قبولها؛ لأن الله تعالى يقبل العبادة في الدنيا ثم يثيب عليها في الآخرة، والمراد بحبوطها في الدنيا عدم قبولها وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها، كالعبادة والقربة والحسنة ونحو ذلك، وهذا ضد قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[العنكبوت: ٢٧]، فدل على أن للطاعات أجرًا معجلًا في الدنيا غير الأجر المؤجل إلى الآخرة، وهو القبول وحسن الثناء والذكر وإلقاء المحبة في قلوب الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦] قيل معناه: يحبهم ويحببهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب المحبة، وكذلك على العكس حال العصاة والفساق يبغضهم ويبغِّضهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب البغض.

٤٠٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٤]، لم خص الأرض بالنفي؛ مع أن المنافقين ليس لهم ولي ولا نصير من عذاب الله في الأرض ولا في السماء، في الدنيا ولا في الآخرة؟

قلنا: لما كان المنافقون لا يعتقدون الوحدانية ولا يصدقون بالآخرة كان اعتقادهم وجود الولي والنصير مقصورًا على الدنيا، فعبر عن الدنيا، بالأرض، وخصها بالذكر لذلك.

الثاني: أنه أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة فكأنه قال: وما لهم في الدنيا والآخرة من ولي ولا نصير.

٤٠٣- **فإن قيل:** لم خص السبعين بالذكر في قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة: ٨٠]، مع أن الله تعالى لا يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول ﷺ ألف مرة بدليل قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[المنافقون: ٦]، ولأنهم مشركون، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به؟

قلنا: جرت عادةُ العرب بضرب المثل في الآحاد بالسبعة، وفي العشرات بالسبعين، وفي المئات بسبعمائة استعظامًا لها واستكثارًا، لا أنهم يريدون بذكرها الحصر، فكأنه قال: إن تستغفرْ لهم أعظم الأعداد وأكثرها فلن يغفر اللهُ لهم، ويعضده ما ذكره بعد ذلك مِن بيان

الصارف عن المغفرة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٨٠].

٤٠٤- فإن قيل: لو كان ما ذكرتم لما خفي ذلك على النبي ﷺ وهو أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام وتمثيلاته؛ حتى قال، لما نزلت هذه الآيةُ: «**إن الله تعالى قد رخص لي فسأزيد على السبعين**». وفي رواية أخرى: «**فسأستغفر لهم أكثر من السبعين لعل الله أن يغفر لهم**»؟[1].

قلنا: لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال إظهار غلبة رحمته ورأفته بمن بعث إليهم، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] الآية وفي إظهار النبي ﷺ الرأفة والرحمة لطف لأمته، وحث لهم على التراحم، وشفقة بعضهم على بعض، وهذا دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ألا ترى إلى قول إبراهيم صلوات الله عليه ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

٤٠٥- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١]، والمغفرة والرحمة إنما تكون للمسيئين لا للمحسنين؟

قلنا: معناه والله غفور رحيم للمسيئين إذا تابوا، فهو متعلق بمحذوف لا بالمحسنين؛ لأنهم قد سدوا بإحسانهم طريق العقاب والذم؛ فليس عليهم سبيل فيهما.

الثاني: أن المحسن مِن الناس وإن تناهي في إحسانه لا يخلو عن إساءة بينه وبين الله تعالى، أو بينه وبين الناس، لكنه إذا أحسن باجتناب الكبائر غفر الله له صغائر سيئاته ورحمه، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

٤٠٦- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، أي سيعلم؛ لأن السين

---

(١) الثابت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**»، كما في البخاري (٤٣٠٢) من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ دُعِيَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وكَذَا وكذا أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: «**أَخِّرْ عَنِّي يا عُمَرُ**» فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ: «**إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**» قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]، قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ وَالله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

للاستقبال، والرؤية من الله تعالى بمعنى العلم، والله تعالى عالم بعملهم حالًا ومآلًا؟

قلنا: معناه في حق الله أنه سيعلمه واقعًا موجودًا كما علمه غيبًا؛ لأن الله تعالى يعلم كل شيء على ما هو عليه، فيعلم المنتظر منتظرًا ويعلم الواقع واقعًا، وأما في حق الرسول عليه الصلاة والسلام فهو على ظاهره.

٤٠٧- **فإن قيل:** إن الله تعالى قد وصف العربَ بالجهل في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]، فكيف يصح الاحتجاجُ بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟

قلنا: هذا وصف من الله لهم بالجهل في أحكام القرآن لا في ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام؛ بل نحتج بلغتهم في بيان معاني الألفاظ؛ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم.

٤٠٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في صفة المنافقين: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقال في موضع آخر ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]؟

قلنا: هذه الآية نزلت قبل تلك الآية فلا تناقض؛ لأنه نفى علمه لهم في زمان ثم أثبته بعد ذلك في زمان آخر.

٤٠٩- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، قد جعل كل واحد منهما مخلوطًا فأين المخلوط به؟

قلنا: كل واحد مخلوط ومخلوط به، لأن معناه: خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطتُ الماءَ واللبنَ، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه من المبالغة ما ليس في قولك: خلطت الماءَ باللبن، لأنك بالباء جعلت الماءَ مخلوطًا واللبن مخلوطًا به، وبالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطًا بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء؛ ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولهم: بعت شاة ودرهما، يعنون شاة بدرهم.

٤١٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]، بالواو وما قبلها من الصفات بغير واو؟

قلنا: لأنها صفةٌ ثامنةٌ، والعرب تدخل الواوَ بعد السبعة إيذانًا بتمام العدد، فإن السبعة عندهم هي العقد التام كالعشرة عندنا، فأتوا بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف

والمعطوف عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] بعد ما ذكر العددَ مرتين بغير واو، وقوله تعالى في صفة الجنة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو لأنها ثمانية. وقال في صفة النار نعوذ بالله منها ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بغير واو لأنها سبعة، وليس قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] مِن هذا القبيل، لأن الواو لو أسقطت فيه لاستحال المعنى لتناقض الصفتين. وقيل: إنما دخلت الواو على ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إعلامًا بأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر في حال أمره بالمعروف، فهما صفتان متلازمتان بخلاف باقي الصفات المذكورة فإنها ليست متلازمة، ولا ينقض هذا بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]؛ لأنهما ليستا صفتين متلازمتين؛ لأن السجود يلزم الركوع، أما الركوع فلا يلزم السجود بدليل سجود التلاوة وسجود الشكر، والزمخشري لم يتكلم على هذه الواو.

٤١١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١]، أي بأحسن الذي كانوا يعملون بإضمار حرف الجر، مع أنهم يجزون بحسنة أيضًا لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]؟

قلنا: معناه بحَسن الذي كانوا يعملون، وهو الطاعات كلها، لا بسيئه وهو المعاصي، فالأحسن هنا بمعنى الحسن، وسيأتي في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ما يوضح هذا إن شاء الله تعالى.

الثاني: أن معناه ليجزيهم الله أحسن من الذي كانوا يعملون.

٤١٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة؟[1].

قلنا: قال مجاهد: معناه فزادتهم علمًا؛ لأن العلم مِن ثمرات الإيمان فجعل مجازًا عنه، والله أعلم.

---

(١) ورد في الشرع العديد من الأدلة الدالة على كون الإيمان يقبل الزيادة كما هو معتقد أهل السنة.
انظرها في كتاب الإيمان من صحيح البخاري، ولم هذا وقواعد أهل السنة على أن الإيمان يزيد وينقص، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] ونصوص كثيرة جدًا في هذا.

سورة يونس عليه السلام(١)

٤١٣- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، والله تعالى فصل الآيات للعلماء والجهال أيضًا.

قلنا: لَمَّا كان يقعُ تفصيلُ الآيات مخصوصًا بالعلماء وانتفاعهم بالتفصيل أكثر أضاف التفصيلَ إليه وخصهم به.

٤١٤- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخر لها، لأن الجنة دار الخلود؟

قلنا: معناه وآخر دعائهم في كل مجلس دعاء أو ذكر أو تسبيح، فإن أهل الجنة يسبحون ويذكرون للتنعم والتلذذ بالذكر والتسبيح.

٤١٥- فإن قيل: قد أنكر الله تُعالى على الكفار احتجاجهم بمشيئته في قوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ولهذا لا يجوز للعاصي أن يحتج في وجود المعصية منه بقوله لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية فلا تقيموا عليَّ حدها: فكيف قال النبي ﷺ: لو شاء الله ما تلوته عليكم؟

قلنا: النبي ﷺ قال هذه الجملة بأمر الله تعالى، لأن اللهَ عَزَّ وجل قال له: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ [يونس: ١٦] وللعبد أن يحتج بمشيئة الله إذا أمره الله أن

(١) قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة سورة يونس؛ لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب فعفا الله عنهم لما آمنوا. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] وتلك الخصوصية كرامة ليونس عليه السلام وليس فيها ذكر ليونس غير ذلك، وقد ذكر يونس في سورة الصافات بأوسع مما في هذه السورة ولكن وجه التسمية لا يوجبها والأظهر عندي أنها أضيفت إلى يونس تمييزًا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة بـ﴿الر﴾. ولذلك أضيفت كل واحدة منها إلى نبي أو قوم نبي عوضًا عن أن يقال: ﴿الر﴾ الأولى و﴿الر﴾ الثانية. وهكذا فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها وخاصة إذا كانت فواتحها حروفًا مقطعة فكانوا يدعون تلك السور بآل حم وآل الر ونحو ذلك.اهـ. من التحرير والتنوير.

يحتج بها، أما ما ليس كذلك فليس له أن يحتج بمجرد المشيئة، وما أوردتموه كذلك.

٤١٦- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٣]، والبغي لا يكون إلا بغير الحق؛ لأن البغيَ هو التعدي والفساد مِن قولهم بغى الجرح إذا فسد، كذا قاله الأصمعي[١] ، فما فائدةُ التقييد؟

قلنا: قد يكون الفساد بالحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفار وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم، كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة.

٤١٧- **فإن قيل:** كيف شَبَّه اللهُ تعالى الحياةَ الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٢٤]؟

قلنا: لأن ماءَ السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه ولا حيلة للعبد في زيادته ونقصانه، كما أن الحياة لا حيلة للعبد في زيادتها ونقصانها.

الثاني: أن ماء السماء يستوي فيه جميعُ الخلائق، الوضيع والشريف، والغني والفقير والحيوان وغيره كالمدر والحجر والشوك والثمر، كما أن الحياةَ كذلك، فكأن تشبيه الحياة بماء السماء أشد مناسبة ومطابقة.

٤١٨- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة: ١٧٤]؟

قلنا: يوم القيامة مواقف ومواطن ففي موقف لا يكلمهم وفي موقف يكلمهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] وقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

الثاني: المراد أنه لا يكلمهم كلام إكرام؛ بل كلام توبيخ وتقريع.

٤١٩- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٣١]، إلى آخر الآية يدل على أنهم معترفون أن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدبر لجميع المخلوقات، فكيف يعترفون بذلك كله ثم يعبدون الأصنام؟

قلنا: كانوا يعتقدون في عبادة الأصنام أنهم يتقربون بها إلى عبادة الله؛ فطائفة كانت تقولُ

---

(١) هو أبو سعيد عبد الله بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي راوية الشعر واللغة، ولد في البصرة سنة ١٢٢هـ وتوفي بها سنة ٢١٦هـ.

نحنُ لا نتأهلُ لعبادةِ الله تعالى بغير واسطة لعظمة إجلاله ونقصنا وحقارتنا، فجعلوا الأصنامَ وسائط، كما قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وطائفة كانت تقول: نتخذ أصنامًا على هيئة الملائكة ونعبدهم لتشفع لنا الملائكةُ عند الله ليقربونا إلى الله، وطائفة كانت تقول: الأصنام قبلة لنا في عبادة الله، كما أن الكعبة قبلة في عبادته، وطائفة وهي الأكثر كانت تقول: على كل صنم شيطان موكل به مِن عند الله، فَمَنْ عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطانُ حوائجه على وفق مراده بأمر الله، وَمَنْ قصر في عبادة الصنم أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله، فكل الطوائف مِن عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه ولكن بطرق مختلفة.

٤٢٠- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٣٤]، وهم غير معترفين بوجود الإعادة أصلًا لا مِن الله ولا مِن غيره؟

قلنا: لما كانت الإعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها وهو القدرة على ابتداء الخلق، والإعادة أهون بالنسبة إلينا لزمهم الاعتراف بها، فصاروا كأنهم مسلمون وجودها من حيث ظهور الحجة ووضوحها.

٤٢١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، رتب كونه شهيدًا على أفعالهم على رجوعهم إليه في القيامة، مع أنه شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة؟

قلنا: ذكر الشهادة وأراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب والجزاء، فكأنه قال: ثم الله يعاقب على ما يفعلون أو مجاز على ما يفعلون. كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧] ونظائره في القرآن العزيز كثيرة.

٤٢٢- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٥٠]، ولم يقل ليلًا أو نهارًا وهو أظهر في المطابقة استعمالًا مع النهار في القرآن العزيز وغيره؟

قلنا: لأن المعهودَ المألوفَ في كلام العرب عند ذكر البطش والإهلاك والوعيد والتهديد ذكر لفظ البيات سواء قرن به النهار أو لا، فلذلك لم يقل ليلًا.

٤٢٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠]، أي ماذا يستعجلون منه، وأول الآية للمواجهة؟



قلنا: أراد بذكر المجرمين الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام، لأنَّ مِنْ حق المجرم أن يخاف التعذيبَ على إجرامه ويفزع مِن مجيئه، وإن أبطأ فضلًا عن أن يستعجله.

٤٢٤- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس: ٥٨]، ولم يقل فبذينك، والمشار إليه اثنان الفضل والرحمة؟.

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٦٨].

٤٢٥- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [يونس: ٦٠]، تهديد؛ لأن فيه محذوفًا تقديره: وما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم، فكيف يناسبه قوله تعالى بعده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]؟

قلنا: هو مناسب لأن معناه أن الله لذو فضل على الناس حيث أنعم عليهم بالعقل والوحي والهداية وتأخر العذاب وفتح باب التوبة، فكيف يفترون على الله الكذب مع توافر نعمه عليهم؟

٤٢٦- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ [يونس: ٦١]، فأفرد ثم قال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ [يونس: ٦١] فجمع، والخطاب للنبي ﷺ؟

قلنا: قال ابن الأنباري: إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي ﷺ في الفعلين الأولين. وقال غيره: المراد بالفعل الثالث أيضًا النبي ﷺ وحده، وإنما جمع تفخيمًا له وتعظيمًا كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٧٥] على قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [المؤمنون: ٥١] والمراد به النبي ﷺ كذا قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، واختاره ابن قتيبة والزّجّاج.

٤٢٧- **فإن قيل:** كيف قدم الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٦١] وقدم السماء على الأرض في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٣]؟

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض مطلقًا لأنها أشرف، لكنه لما ذكر هنا في صدر الآية شهادته على شؤون أهل الأرض وأقوالهم وأعمالهم ثم أردفه بقوله: ﴿وَمَا



يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ [يونس: ٦١] ناسب ذلك تقديم الأرض على السماء.

الثاني: أن العطف بالواو نظير التثنية وحكمه حكمها، فلا يعطي رتبة كالتثنية.

٤٢٨- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال في موضع آخر ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؟

قلنا: أثبت الاشتراك في نفس العزة التي هي في حق الله تعالى القدرة والغلبة، وفي حق الرسول ﷺ علو كلمته وإظهار دينه، وفي حق المؤمنين نصرهم على أعدائهم وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] أراد به العزة الكاملة التي يندرج فيها عزة الإلهية والخلق والإماتة والإحياء والبقاء الدائم وما أشبه ذلك فلا تنافي.

٤٢٩- **فإن قيل:** إذا كانت السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات وما وراءهما كل ذلك لله تعالى ملكًا وخلقًا، فما فائدة التخصيص في قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦]؟

قلنا: إنما خص العقلاء المميزين بالذكر وهم الملائكة والثقلان، ليعلم أن هؤلاءِ إذا كانوا عبيدًا له وهو ربهم، ولا يصلحُ أحدٌ منهم للربوبية، ولا للشركة معه، فما وراءهم مما لا يعقل كالأصنام والكواكب ونحوهما أحق أن لا تكون له ندًّا وشريكًا.

٤٣٠- **فإن قيل:** كيف قال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾[يونس: ٧٧]، على طريق الاستفهام، وهم إنما قالوا ذلك على طريق الإخبار أو التحقيق المؤكد بإن واللام لا على طريق الاستفهام، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[يونس: ٧٦].

قلنا: فيه إضمار تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين. ثم قال أسحر هذا إنكارًا لما قالوه، فالاستفهام من قول موسى عليه السلام لا مفعول لقولهم.

٤٣١- **فإن قيل:** كيف نوَّع الخطابَ في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٨٧] فثنى أولًا، ثم جمع، ثم أفرد؟

قلنا: خوطب أولًا موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتًا ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم سيق الخطاب عامًّا لهما

ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب عل الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيمًا لها أو تعظيمًا له عليه السلام.

٤٣٢- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، أضافها إليهما، والدعوة إنما صدرت من موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ [يونس: ٨٨] إلى آخر الآية؟

قلنا: نقل أن موسى عليه السلام كان يدعو وهارون كان يُؤَمِّنُ على دعائه؛ والتأمين دعاء في المعنى فلهذا أضاف الدعوة إليهما.

الثاني: أنه يجوز أن يكون هارون دعا أيضًا مع موسى، إلا أن الله تعالى خص موسى بالذكر؛ لأنه كان أسبق بالدعوة أو أحرص عليها أو أكثر إخلاصًا فيها.

٤٣٣- فإن قيل: لو كان كذلك لقال تعالى دعوتاكما بالتثنية؟

قلنا: لما كانت الدعوة مصدرًا اكتفى بذكرها في موضع الإفراد والتثنية والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر، ونظيره قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

٤٣٤- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وإن إنما تدخل على ما هو محتمل الوجود، وشك النبي ﷺ في القرآن منتفٍ قطعًا ؟

قلنا: الخطاب ليس للنبي ﷺ بل لمن كان شاكًّا في القرآن وفي نبوة محمد ﷺ، فكأنه قال: فإن كنت أيها الإنسان في شك.

٤٣٥- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤].

يدل على أن الخطابَ للنبي ﷺ لا لغيره.

قلنا: لا يدل، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ [التوبة: ٦٤].

الثاني: أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ويعضده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤] ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [يونس: ١٠٤].

الثالث: أن تكون «إن» بمعنى «ما»، تقديره: فما كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل المعنى لسنا نأمرك أن تسأل أحبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك، لأنك في شك منه، بل لتزداد بصيرة ويقينا وطمأنينة.

الرابع: أن الخطاب للنبي ﷺ مع انتفاء الشك منه قطعًا أو المراد به إلزام الحجة على الشاكين الكافرين كما يقول لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لإلزام الحجة على النصارى.

٤٣٦- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] ما فائدة ذكر ﴿جَمِيعًا﴾ بعد قوله ﴿كُلُّهُمْ﴾ وهو يفيد الشمول والإحاطة؟

قلنا: كل يفيد الشمول والإحاطة، ولا يدل على وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع وجميعًا يدل على وجوده منهم في حالة واحدة، كما تقول جاءني القوم جميعًا، أي مجتمعين، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠].

٤٣٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] كيف يصح هذا الأمر؛ مع أنا لا نعلم جميع ما فيهما ولا نراه؟

قلنا: هو عام أريد ما ندركه بالبصر مما فيهما، كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمعادن والحيوانات والنبات ونحو ذلك مما يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته، فيستدل به على ما وراءه.

٤٣٨- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: ١٧]، الآية ما الحكمة في ذكر المس في الضر والإرادة في الخير؟

قلنا: لاستعمال كل مِن المس والإرادة في كل من الضر والخير، وأنه لا مزيلَ لما يصيب به منهما، ولا راد لِمَا يريده فيهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المس في أحدهما والإرادة في الآخر ليدل بما ذكر على ما لم يذكر؛ مع أنه قد ذكر المس فيهما في سورة الأنعام، وإنما عدل هنا عن لفظ المس المذكور في سورة الأنعام إلى لفظ الإرادة، لأن الجزاء هنا قوله تعالى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[يونس: ١٠٧] والرد إنما يكون فيما لم يقع بعد، والمس إنما يكون فيما وقع، فلهذا قال ثَمَّ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأنعام: ١٧] ومعناه فإن شاء أدام ذلك الخير، وإن شاء أزاله، فلا يطلب دوامه وزيادته إلا منه تعالى.

سورة هود عليه السلام[1]

٤٣٩- **فإن قيل**: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، مع أن التوبةَ مقدمةٌ على الاستغفار؟

قلنا: المراد استغفروا ربكم من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة، كذا قاله مقاتل، وهذا الاستغفار مقدّم على هذه التوبة.

الثاني: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا.

الثالث: قال الفراء: ثُمَّ هنا بمعنى الواو، وهي لا تفيد ترتيبًا فاندفع السؤالُ.

٤٤٠- **فإن قيل**: مَن لم يستغفره ولم يتبْ فإن الله يمتعه متاعًا حسنًا إلى أجله أي يرزقه ويوسع عليه كما قال ابن عباس، أو يعمره كما قال ابن قتيبة، فما فائدة قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣]؟

قلنا: قال غيرهما المتاع الحسن المشروط بالاستغفار والتوبة هو الحياة في الطاعة والقناعة، ومثل هذه الحياة إنما تكون للمستغفر التائب التقي.

٤٤١- **فإن قيل**: قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ٦]، كيف لم يقل على الأرض، مع أنه أشد مناسبة لتفسير الدابة لغة فإنها ما يدب على وجه الأرض؟

قلنا: «في» هنا بمعنى «على»، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨].

الثاني: أن لفظة «في» أعم وأشمل، لأنها تتناول كل دابة على وجه الأرض وكل دابة في باطن الأرض بخلاف على.

---

(١) قال ابن عاشور: سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود ولا يعرف لها اسم غير ذلك، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أن أبا بكر قال: يا رسول الله، قد شبت قال: «**شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**». رواه الترمذي بسند حسن في كتاب التفسير من سورة الواقعة. وروي من طرق أخرى بألفاظ متقاربة يزيد بعضها على بعض. اهـ قلت: ولا يخلو أحدها من مقال.

٤٤٢- **فإن قيل:** كيف خَصَّ الدابةَ بذكر ضمان الرزق، والطير كذلك رزقه على الله تعالى، وهو غير الدابة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَامِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]؟

قلنا: إنما خَصَّ الدابةَ بالذكر؛ لأن الدواب أكثر من الطيور عددًا، وفيها ما هو أكبر جثة من كل فرد من أفراد الطير كالفيل والحوت؛ فيكون أحوج إلى الرزق، فلذلك خصه بالذكر.

٤٤٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، و«على» للوجوب، والله تعالى لا يجب عليه شيء وإنما يرزقها تفضلًا منه وكرمًا؟؟.

قلنا: «على» هنا بمعنى «من»، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢].

الثاني: أنه ذكره بصيغة الوجوب ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة في حصوله.

٤٤٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، والخطاب عام للمؤمنين والكافرين، فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى أحسن وأحسن، فأما أعمال الفريقين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟؟.

قلنا: قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [هود: ٧] عام أريد به الخاص وهو المؤمنون؛ تشريفًا لهم وتخصيصًا؛ فصح قوله أحسن عملًا.

٤٤٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، ولم يقل وضيق؟

قلنا: ليدل على أن ضيقه عارض غير ثابت، لأن النبي ﷺ كان أفسح الناس صدرًا، ونظيره قولك: زيد سائد وجائد، فإذا أردت وصفه بالسيادة والجود الثابتين المستقرين قلت: زيد سيّد وجوّاد، كذا قال الزمخشري.

٤٤٦- **فإن قيل:** قال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، أمرهم بالإتيان بمثله وما يأتون به لا يكون مثله، لأن ما يأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى.

قلنا: أراد به مثله في البلاغة والفصاحة وإن كان مفترى. وقيل: معناه: مفتريات، كما أن القرآن مفترى في زعمكم واعتقادكم فيتماثلان.

٤٤٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟﴾ [هود: ١٣]، فأفرد في قوله: ﴿قُلْ﴾ ثم

جمع فقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ﴾ [هود: ١٤]؟

قلنا: الخطاب للنبي ﷺ في الكل، ولكنه جمع في قوله: ﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ﴾ [هود: ١٤] تفخيمًا له وتعظيمًا.

الثاني: أن الخطابُ الثاني للنبي ﷺ وأصحابه، لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتحدونهم بالقرآن، وقوله تعالى في موضع آخر ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ﴾[القصص: ٥٠] يعضد الوجه الأول.

الثالث: أن يكون الخطاب في الثاني والثالث للمشركين، والضمير في يستجيبوا لمن استطعتم، يعني فإن لم يستجب لكم مَنْ تدعونه المظاهرة على معارضته لعجزهم فاعلموا أيها المشركون أنما أنزل بعلم الله، وهذا وجه لطيف.

٤٤٨- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ [هود: ١٦]، يدل على بطلان عملهم، فما فائدة قوله بعده ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ [هود: ١٦] أي: بطل ثواب ما صنعوا من الطاعات في الدنيا ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦] من الرياء.

٤٤٩- **فإن قيل:** كيف قال نوح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٢٩] بالواو وقال هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٥١] بغير الواو؟

قلنا: لأن الضمير في قولهما «عليه» لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول الكلام في القصتين، ولكن في قصة نوح عليه السلام وقع الفصل بين الضمير وبين ما هو عائد عليه بكلام آخر، فجيء بواو الابتداء، وفي قصة هود عليه السلام لم يقع بينهما فصل فلم يحتج إلى واو الابتداء، هذا ما وقع لي فيه، والله أعلم.

٤٥٠- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣]، لا يناسبه المستثنى في الظاهر وهو قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] لأن المرحوم معصوم، فظاهره يقتضي لا معصوم إلا مَنْ رحم؛ أي لا معصوم من الغرق بالطوفان إلا مَنْ رحمه الله بالإنجاء في السفينة.

قلنا: عاصم هنا بمعنى معصوم، كقوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] مدفوق، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي مرضية، وقول العرب: سر كاتم،

أي مكتوم.

الثاني: أن معناه: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مَنْ رحم، أي إلا الرّاحم وهو الله تعالى، وليس معناه المرحوم، فكأنه قال: لا عاصم إلا الله.

الثالث: أن معناه: لا عاصم اليوم مِن أمر الله إلا مكان مَنْ رحم الله من المؤمنين ونجاهم وهو السفينة، ويناسب هذا الوجه قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، وهذا لأن ابن نوح عليه السلام لما جعل الجبلَ عاصمًا مِن الماء رد نوح عليه السلام ذلك، ودله على العاصم وهو الله تعالى، أو المكان الذي أمر الله بالالتجاء إليه وهو السفينة.

٤٥١- **فإن قيل:** كيف صَحَّ أمرُ السماء والأرض بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤] وهما لا يعقلان، والأمر والنهي إنما يكونُ لِمَن يعقل ويفهم الخطابَ؟

قلنا: الخطاب لهما في الصورة، والمراد به الخطاب للملائكة الموكلين بتدبيرهما.

الثاني: أن هذا أمر إيجاب لا أمر إيجاد، وأمر الإيجاد لا يشترط فيه العقل والفهم، لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة منقادة لله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] كل ذلك أمر إيجاد.

٤٥٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى هنا: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: ٤٥]، بالفاء وقال في قصة زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ﴾ [مريم: ٣، ٤]؟؟

قلنا: أراد بالنداء هنا إرادة النداء فجاء بالفاء الدالة على السببية، فإن إرادة النداء سبب للنداء، فكأنه قال: وأراد نوح نداء ربه فقال كيت وكيت، وأراد به في قصة زكريا عليه الصلاة والسلام حقيقة النداء، فلهذا جاء بغير فاء لعدم ما يقتضي السببية.

٤٥٣- **فإن قيل:** هود عليه الصلاة والسلام كان رسولًا ولم يظهر معجزة: ولهذا قال له قومه: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] فبأي شيء لزمتهم رسالته؟

قلنا: إنما يحتاج إلى المعجزة مِن الرسل مَن يكون صاحب شريعة لتنقاد أمتُهُ لشريعته، فإن في كل شريعة أحكامًا غير معقولة فيحتاج الرسول الآتي بها إلى معجزة لتشهد بصحة

صدقه، فأما الرسول الذي لا تكون له شريعة ولا يأمر إلا بالعقليات فلا يحتاج إلى معجزة، لأن الناس ينقادون إلى ما يأمرهم به لموافقته للعقل، وهود كان كذلك.

الثاني: أنه نقل أن معجزة هود كانت الريح الصرصر فإنها كانت سخرت له.

٤٥٤- فإن قيل: على الوجه الأول لو كان أمره لهم مقصورًا على العقليات لما خالفوه وكذبوه ونسبوه إلى الجنون بقولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] إلى قوله: ﴿بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

قلنا: إنما صدر ذلك القول من قاصري العقول أو المعاندين المكابرين، كما قيل ذلك لكل رسول، بعد إتيانه بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات.

٤٥٥- فإن قيل: هلّا قال: إني أشهد الله وأشهدكم ليتناسب الجملتان؟؟

قلنا: لأن إشهاد الله تعالى على البراءة من الشرك إشهاد صحيح مفيد تأكيد التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهكم بهم وتهاون ودلالة على قلة المبالاة؛ لأنهم ليسوا أهلًا للشهادة، فعدل به عن اللفظ الأول وأتى به على صورة التهكم والتهاون، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لاحاه: أشهد إني لأحبك، تهكمًا به واستهانة له.

٤٥٦- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ [هود: ٥٧]، جعل التولي شرطًا، والإبلاغ جزاء، والإبلاغ كان سابقًا على التولي؟؟

قلنا: ليس الإبلاغ جزاء التولي، بل جزاؤه محذوف تقديره: فإن تولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ أو تقصير فيه، ودل على الجزاء المحذوف قوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣].

الثاني: قال مقاتل تقديره: فإن تولوا فقل لهم: قد أبلغتكم.

٤٥٧- فإن قيل: ما فائدة تكرار التنجية في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]؟

قلنا: أراد بالتنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذي نزل بقوم هود، وهو سموم أرسلها الله تعالى عليهم فقطعتهم عضوًا عضوًا، وأراد بالتنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذي استحقه قوم هود بالكفر ولا عذاب أغلظ منه ولا أشد.

٤٥٨- فإن قيل: ﴿بُعْدًا﴾ [هود: ٦٠] معناه عند العرب الدعاء عليهم بالهلاك بعد

هلاكهم.

قلنا: معناه الدلالة على أنهم مستأهلون له وحقيقون به، ونقيضه قول الشاعر:

إخـــوتي لا تَبْعَـــدُوا أَبَـــدًا وَبَلَـــى وَاللهِ قَـــدْ بَعُـــدُوا[١]

أراد بالدعاء لهم بنفي الهلاك، بعد هلاكهم، الإعلام بأنهم لم يكونوا مستأهلين له ولا حقيقين به.

٤٥٩- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، نهى عن النقص فيهما، والنهي عن النقص أمر بالإيفاء معنى، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٥]؟

قلنا: صرح أولًا بنهيهم عن النقص الذي كانوا يفعلونه لزيادة المبالغة في تقبيحه وتغييرهم إياه، ثم صرح بالأمر بالإيفاء بالعدل الذي هو حسن عقلًا لزيادة الترغيب فيه والحث عليه.

٤٦٠- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]، والعثو الفساد، فيصير المعنى: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة، وجواب آخر معناه: ولا تعثوا في الأرض بالكفر، وأنتم مفسدون بنقص المكيال والميزان.

٤٦١- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، فشرط الإيمان في كون البقية خيرًا لهم، وهي خير لهم مطلقًا؛ لأن المراد ببقية الله ما يبقى لهم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن وذلك خير لهم وإن كانوا كفارًا؛ لأنهم يسلمون معه من عقاب البخس والتطفيف؟

قلنا: إنما شرط الإيمان في خيرية البقية، لأن خيريتها وفائدتها مع الإيمان أظهر، وهو حصول الثواب مع النجاة من العقاب، ومع فقد الإيمان أخفى لانغماس

---

(١) ديوان الحماسة (٢/ ٩١٢).

من المديد - لفاطمة بنت أحجم الخزاعية وانظر (شرح شواهد المغني ٢/ ٥٤٣، ومغني اللبيب ١/ ١٩٨، وبلا نسبة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩١٢، وانظر المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٢/ ٢٤٩).

صاحبها في عذاب الكفر الذي هو أشد العذاب.

الثاني: أن المراد إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح.

٤٦٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، ولم يقل ببعيدين والقوم اسم لجماعة الرجال، وما جاء في القرآن الضمير العائد إليه إلا ضمير جماعة، قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ [نوح: ١] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١]؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: وما هلاك قوم لوط أو مكان قوم لوط، ومكان قوم لوط كان قريبًا منهم، وإهلاكهم أيضًا كان قريبًا مِن زمانهم.

الثاني: أن فعيلاً يستوي فيه الواحدُ والاثنان والجمع، قال الجوهري: يقال ما أنتم منا ببعيد، وقال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧].

٤٦٣- **فإن قيل:** قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، كلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صَحَّ قولُه: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]؟

قلنا: تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله، فحين عز رهطه عليهم دونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

٤٦٤- **فإن قيل:** قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان المطابق والموافق في ظاهر الفهم أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه؛ حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إليهم، وَمَنْ هو صادق إليه.

قلنا: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبًا قال: وَمَنْ هو كاذب، يعني في زعمكم ودعواكم تجهيلًا لهم.

٤٦٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]، والقرى لا تكون ظالمة؛ لأن الظلم من صفات مَنْ يعقل أو من صفات الحيوان دون الجماد؟

قلنا: هو من الإسناد المجازي، والمراد به أهلها، كما قال تعالى، في موضع آخر:

﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]؛ لكن لما أمن اللبس أسند الظلم إلى القرية لفظًا كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

٤٦٦- **فإن قيل:** كيف التوفيق بين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥] وقوله: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] فإن الآية الثالثة تناقض الآية الأولى بنفي الإذن، وتناقض الآيتين جميعًا بنفي النطق؟!.

قلنا: أما التوفيق بين الآيتين الأوليين فظاهر؛ لأن معناه تجادلُ عن نفسها بإذنه فتوافقت الآيتان، وأما الآية الثالثة فإنها لا تناقض الآية الأولى بنفي الإذن، إن قلنا إن الاستثناء من النفي ليس بإثبات، لأن الآية الأولى لا تقتضي وجود الإذن حينئذٍ، بل تقتضي نفي الكلام عند انتفاء الإذن، فأما إن قلنا إن الاستثناء من النفي إثبات ناقضت الآية الثالثة الأولى، ولا تناقض الآيتين بنفي النطق؛ لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن؛ ففي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم فيه، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم، وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات ويرد على هذا أن يقال قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾[المرسلات: ٣٥]، نفي النطق عنهم يوم القيامة فيقتضي انتفاءه في جميع أجزاء ذلك الزمان عملًا بعموم النفي، كما يعم النفي جميع أجزاء المكان في قولنا لا وجود لزيد في الدار، فاندفع الجواب باختلاف المواقف والمواطن، فيكون الجواب أن الآية الثالثة أريد بها طائفة خاصة غير الطائفتين الأوليين فلا تناقض.

٤٦٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾[هود: ١٠٥]، وكلمة «مِنْ» للتبعيض، ومعلوم أن الناسَ كلهم إما شقي أو سعيد، فما معنى التبعيض؟

قلنا: التبعيض هنا على حقيقته؛ لأن أهل القيامة ثلاثة أقسام: قسم شقي وقسم سعيد وهم أهل النار والجنة كما ذكر في هذه الآية مفصلًا، وقسم لا شقي ولا سعيد وهم أهل الأعراف.

الثاني: أن معنى الكلام: فمنهم شقي ومنهم سعيد، وهذا يقتضي أن يكون الشقي بعض الناس والسعيد بعض الناس، والأمر كذلك، ولا يقتضي أن يكون الشقي



والسعيد كلاهما بعض الناس؛ بل كل واحد منهما بعض، وكلاهما كل؛ كما تقول مِن الحيوان إنسان، ومِن الحيوان غير إنسان وكل الحيوان إما إنسان أو غير إنسان.

٤٦٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [هود: ١٠٧]، وأراد به بيان دوام الخلود، مع أن أهل الجنة وأهل النار مخلدون فيهما خلودًا لا نهاية له، والسموات والأرض ودوامهما منقطع لأنهما يوم القيامة ينهدمان، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ونظائره كثيرة مما يدل على خراب السموات والأرض؟

قلنا: للعرب في معنى الأبد ألفاظ تعبر بها عن إرادة الدوام دون التأقيت منها، هذا، يقولون: لا أفعل كذا ما اختلف الليلُ والنهارُ، وما دامت السماء والأرض، وما أطمت الإبل، ويريدون بذلك لا أفعله أبدًا مع قطع النظر عن كون المؤقت به له نهاية أو لا نهاية له.

الثاني: أنه خاطبهم على معتقدهم أن السموات والأرض لا تزول ولا تتغير.

الثالث: أنه أراد به كون الفريقين في قبورهم إما منعمين أو معذبين، كما جاء في الحديث أن «**القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**»[١]، ومن كان في روضة مِن رياض الجنة فهو في الجنة، وَمَنْ كان في حفرة مِنْ حفر النار فهو في النار، فعلى هذا يكون المراد بالتأقيت بدوام السموات والأرض مدة الخلود إلى يوم القيامة.

الرابع: أن المراد بها سموات الآخرة وأرضها، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وتلك دائمة لا تزول ولا تفنى، ولأنه لابد لأهل الجنة مما يقلهم ويظلهم، إما سماء يخلقها الله تعالى، أو العرش، كما جاء في الأخبار أن أهل الجنة

---

(١) الترمذي (٢٣٨٤) من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف جدًّا، وكون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ثابت بالمعنى في غير حديث صحيح منها: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥، ٢٩٦)، والحاكم (١/ ٣٧) وغيرهم وقد صححه جمع من العلماء منهم: الحاكم ووافقه الذهبي والبيهقي في إثبات عذاب القبر (ص ٣٩)، وابن تيمية في شرح حديث النزول (ص ٨٧، ٨٩)، وابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٧٨) وتهذيب السنن (٤/ ٣٣٧) ونقل تصحيح أبي نعيم وابن منده، وحسنه المنذري في الترغيب (٤/ ١٨٦)، وقال القرطبي في التذكرة: حديث صحيح وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص (١٥٩) وساقه سياقًا واحدًا فانظره لزامًا.

تحت ظل العرش، وكل ما أظلك فهو سماء، وجاء في الأخبار أيضًا في صفة الجنة أن ترابها من زعفران، فدل أن لها أرضًا، والمراد تلك السموات وتلك الأرض.

٤٦٩- **فإن قيل**: إذا كان المرادُ بهذا التأقيت دوام الخلود دوامًا لا آخر له، فكيف يصحُ الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]؟

قلنا: قال الفراء: «إلا» هنا بمعنى غير وسوي، فمعناه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] سوى ما شاء الله تعالى من الخلود والزيادة؛ فكأنه قال: خالدين فيها قدر مدة الدنيا غير ما شاء الله من الزيادة عليها إلى غير نهاية، وهذا الوجه إنما يصح إذا كان المراد سماوات الدنيا وأرضها. قال ابن قتيبة: ومثله في الكلام قولك: لأسكننك في هذه الدار حولًا إلا ما شئت، يريد سوى ما شئت أن أزيدك على الحول.

الثاني: أنه استثناء لا يفعله كما تقول: لأهجرنك إلا أن أرى غير ذلك، وعزمك على هجرانه أبدًا وهو معنى قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إلا ما شاء ربك وقد شاء أن يخلدوا فيها.

قال الزجاج: وفائدة هذا الاستثناء إعلامنا أنه لو شاء أن لا يخلدهم لما خلدهم، ولكنه ما شاء إلا خلودهم.

الثالث: أنه استثناء لزمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب، فإن الأشقياء والسعداء في ذلك الزمان كله ليسوا في النار؛ ولا في الجنة.

الرابع: أن «ما» بمعنى «من»، والمستثنى مَن يدخل النار مِن الموحدين فيعذب بقدر ذنوبه ثم يخرج مِن النار ويدخل الجنة، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من الأشقياء فقط.

الخامس: أن المستثنى زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من السعداء، لأنهم لم يدخلوا النار؛ لأن مصيرهم إلى الخلود في الجنة.

السادس: أنه استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة، الأشقياء لا يخلدون في عذاب النار بل يعذبون بالزمهرير وغيره من أنواع العذاب سوى النار وهو سخط الله عليهم فإنه أشد، وكذلك السعداء لهم سوى نعيم الجنة ما هو أجل منها، وهو الزيادة التي وعدهم الله تعالى إياها بقوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟

ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ورضوان الله كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، فهو المراد بالاستثناء، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى، بعد ذكر الاستثناء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وقوله تعالى: بعد ذكر السعداء: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، يعني أنه يفعل بأهل النار ما يريد من أنواع العذاب، ويعطي أهل الجنة أنواع العطاء الذي لا انقطاع له، فاختلاف المقطعين يؤكد صرف الاستثناء إلى ما ذكرنا، فتأمل كيف يفسر القرآن بُعضه بعضًا.

٤٧٠- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩] بعد قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [هود: ١٠٩] والتوفية والإيفاء إعطاء الشيء وافيًا، أي تامًّا، نقله الجوهري وغيره، والتام لا يكون منقوصًا؟

قلنا: هو من باب التأكيد.

٤٧١- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٩] إشارة إلى ماذا؟

قلنا: هو إشارة إلى ما عليه الفريقان مِن حالي الاختلاف والرحمة، فمعناه أنه خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة، وقد فسره ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: خلقهم فريقين: فريقًا رحمهم فلم يختلفوا وفريقًا لم يرحمهم فاختلفوا.

وقيل: هو إشارة إلى معنى الرحمة وهو الترحم، وعلى هذا يكون الضميرُ في خلقهم للذين رحمهم فلم يختلفوا.

وقيل: هو إشارة إلى الاختلاف والضمير في خلقهم للمختلفين، واللام على الوجه الأول والثالث لام العاقبة والصيرورة لا لام كي وهي التي تسمى لام الغرض والمقصود؛ لأن الخلق للاختلاف في الدين لا يليق بالحكمة، ونظير هذه اللام قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ [القصص: ٨] وقول الشاعر:

لِـدُوا للمَـوْتِ وابْنُـوا للخَـرَابِ فَكُلُّكُـمُ يَـصيرُ إلـى التُّـراب[1]

وقيل: أنها لام التمكين والاقتدار كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟

---

(١) هذا البيت سبق تخريجه والحديث عنه ص ١٠٩، ١١٠.

﴿فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨]، والتمكن والاقتدار حاصل وإن لم يسكن بعض الناس في الليل ولم يركب بعض هذه الدواب، ومعنى التمكين والاقتدار هنا أنه سبحانه وتعالى أقدرهم على قبول حكم الاختلاف ومكنهم منه.

وقيل: اللام هنا بمعنى «على»، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

٤٧٢- فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ [هود: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]؟

قلنا: معناه وكل نبأ نقصه عليك مِن أنباء الرسل هو ما نثبت به فؤادك فما في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف، فلا يقتضي اللفظ قص أنباء جميع الأنبياء، فلا تناقض بين الآيتين.

الثاني: أن المرادَ بالكل هنا البعض، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] وقول لبيد الشاعر:

ألا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلا اللهَ باطِلُ ... وكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحالَةَ زَائِلُ[1]

وكثير مِن الأشياء غير الله تعالى حقّ، كالنبي عليه الصلاة والسلام والإيمان والجنة وغير ذلك، وكذلك نعيم الجنة والآخرة ليس بزائل، ولبيد صادق في هذا البيت لقوله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَها شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ»:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ[2]

إلى آخره.

---

(١) من الطويل - للبيد بن ربيعة - وانظر (ديوانه ص ٢٥٦ وخزانة الأدب ٢/ ٢٥٥ وشرح التصريح ١/ ٢٩ وابن يعيش ٢/ ٧٨ والهمع ١/ ٣ وأوضح المسالك ٢/ ٢٨٩ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٦٧٠).

(٢) البخاري (٣٥٥٣، ٥٦٨١)، ومسلم (٤١٨٦، ٤١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤٧٣- فإن قيل: ما فائدة تخصيص هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠] مع أن الحق جاء في كل سور القرآن؟

قلنا: قالوا فائدة تخصيص هذه السورة بذلك زيادة تشريفها وتفضيلها مع مشاركة غيرها إياها في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، بعد قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، بعد قوله: ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ووجه المشابهة بينهما أنه حمل قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، على التشريف والتفضيل عند تعذر حمله على تعليق العداوة به لئلا يلزم تحصيل الحاصل، وكذا في المثال الأخير تعذر حمله على إيجاب المحافظة لما قلنا، وهنا تعذر حمله على حقيقته وهو الجنس بأن حقيقته انحصار كل حق في هذه السورة وهو منتف، أو حمل الحق على معهود سابق وهو منتف، وحمله على بعض الحق يلزم منه وصف هذه السورة بوصف مشترك بينها وبين كل السور، وأنه لا يحسن كما لو قال: وجاءك في هذه الحق آيات الله أو كلام الله أو كلام معجز، فجعل مجازًا عن التفضيل والتشريف.

وقيل: الإشارة بهذه إلى الدنيا لا إلى السورة، والجمهور على القول الأول.

ولا يقال إنما خصت هذه السورة بذلك؛ لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين، لأنا نقول الأمر بالاستقامة جاء أيضًا في سورة ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥] ولا يصلح هذا علة للتخصيص، والله أعلم.

* * *

سورة يوسف عليه السلام(١)

٤٧٤- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [يوسف: ٤]، ولم يقل ثلاثةَ عشرَ كوكبًا وهو أوجز وأخصر، والذي رآه كان أحد عشر كوكبًا غير الشمس والقمر؟

قلنا: قصد عطفهما على الكواكب تخصيصًا لهما بالذكر وتفضيلًا لهما على سائر الكواكب لما لهما من المزية والرتبة على الكل، ونظيره تأخير جبريل وميكائيل عن الملائكة عليهم السلام ثم عطفهما عليهم، إن قلنا إنهما غير مرادين بلفظ الملائكة، وكذا قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٨] إن قلنا إنها غير مرادة بلفظ الصلوات.

٤٧٥- **فإن قيل:** ما فائدة تكرار رأيت؟

قلنا: قال الزمخشري: ليس ذلك تكرارًا؛ بل هو كلام مستأنف وضع جوابًا لسؤال مقدر مِن يعقوب عليه السلام، كأنه قال له بعد قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [يوسف: ٤] ، كيف رأيتها سائلًا عن حال رؤيتها؟ فقال مجيبًا له ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال الزّجّاج: إنما كرر الفعل تأكيدًا لما طال الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[الروم: ٧] ، ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾[الأعراف: ٤٥] وقال غيره: إنما كرره تفخيمًا للرؤية وتعظيمًا لها.

٤٧٦- **فإن قيل:** كيف أجريت مجرى العقلاء في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾ وأصله رأيتها ساجدة؟

---

(١) الاسم الوحيد لهذه السورة اسم سورة يوسف، فقد ذكر ابن حجر في كتاب الإصابة في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحاق أن أبا رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف يعني بعد أن بايع النبي ﷺ يوم العقبة، ووجه تسميتها ظاهر؛ لأنها قصت قصة يوسف عليه السلام كلها ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر، وفي هذا الاسم تمييز لها من بيْن السور المفتتحة بحروف ﴿الٓر﴾ كما ذكرناه في سورة يونس. انظر: التحرير والتنوير (ص ٢١٥٧).

قلنا: لما وصفها بما هو من صفات مَن يعقل وهو السجود أجرى عليها حكمه كأنها عاقلة، وهذا شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء مِنْ بعض الوجوه فيعطى حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة المقارنة، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟﴾ [النمل: ١٨]، وقوله تعالى في وصف السماء والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

٤٧٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]، وكانوا عاقلين بالغين وأنبياء أيضًا في قول البعض، وكيف رضي يعقوب عليه السلام لهم بذلك؟

قلنا: على قراءة الياء لا إشكال، لأن يوسف عليه السلام كان يومئذٍ دون البلوغ فلا يحرم عليه اللعب، وعلى قراءة النون نقول كان لعبهم المسابقة والمناضلة ليعودوا أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا للهو وذلك جائز بالشرع، ويعضد هذا قولهم ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] وإنما سموه لعبًا لأنه في صورة اللعب ويرد على أصل السؤال أن يقال: كيف يتورعون عن اللعب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب وأشد وهو إلقاء أخيهم في الجب على قصد القتل؟.

٤٧٨- **فإن قيل:** كيف اعتذر إليهم يعقوب عليه السلام بعذرين أحدهما: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ [يوسف: ١٣] لأنه كان لا يصبر عنه ساعة واحدة، والثاني: خوفه عليه من الذئب، فأجابوه عن أحد العذرين دون الآخر؟

قلنا: حبه إياه وإيثاره له وعدم صبره على مفارقته هو الذي كان يغيظهم ويؤلمهم فأضربوا عنه صفحًا ولم يجيبوا عنه.

٤٧٩- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ١٥]، وهو يومئذٍ لم يكن بالغًا، والوحي إنما يكون بعد الأربعين؟

قلنا: المراد به وحي الإلهام لا وحي الرسالة الذي هو مخصوص بما بعد الأربعين؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

٤٨٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال في حق موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]؟؟.

قلنا: المراد ببلوغ الأشد دون الأربعين سنة على اختلاف مقداره، والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين أو الستين، وكان إيتاء كل واحد منهما الحكم والعلم في ذلك الزمان فأخبر عنه كما وقع.

٤٨١- **فإن قيل:** كيف وَحَّدَ الباب في قوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥] بعد جمعه في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣]؟

قلنا: لأن إغلاق الباب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق جميع أبواب الدار، سواء كانت كلها في جدار الدار أَوْ لاَ؛ وأما هربه منها إلى الباب فلا يكون إلا إلى باب واحد إن كانت كلها في جدار الدار، ولأن خروجه في وقت هربه لا يتصور إلا من باب واحد منها، وإن كان بعض الأبواب داخل بعض فإنه أول ما يقصد الباب الأدنى لقربه، ولأن الخروج مِن الباب الأوسط والباب الأقصى موقوف على الخروج من الباب الأدنى فلذلك وحد الباب.

٤٨٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، ولم يكن قوله شهادة؟

قلنا: لما أدى معنى الشهادة في ثبوت قول يوسف عليه السلام وبطلان قولها سمي شهادة، فالمراد بقوله شهد: أعلم وبين وحكم.

٤٨٣- **فإن قيل:** ﴿قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٧] يدل على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته وجذبت قميصه من خلفه فقدته، وأما قده مِن قُبُلٍ فكيف يدل على أنها صادقة؟

قلنا: يدل من وجهين:

أحدهما: أنه إذا كان طالبها وهي تدفعه عن نفسها بيدها أو برجلها فإنها تقد قميصه من قُبُلٍ بالدفع.

الثاني: أنه يسرع خلفها وهي هاربة منه فيعثر في مقادم قميصه فيشقه، ويرد على الوجه الثاني أنه مشترك الدلالة من جهة العثار الذي هو نتيجة الإسراع؛ لأنه يحتمل أن يكون إسراعًا في الهرب منها وهي خلفه فيعثر فينقد قميصه من قُبُلٍ.

٤٨٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١] ، وإنما يقال: خرجت إلى السوق وطرقت عليه الباب فخرج إليَّ؟

قلنا: إذا كان الخروج بقهر وغلبة أو بجمال وزينة أو بآية وأمر عظيم فإنما يُعدَّى بعلى، ومنه قولهم: خرج علينا في السفر قُطّاع الطريق، وقوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٩] وقوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [مريم: ١١].

٤٨٥- **فإن قيل:** كيف شبهن يوسف عليه السلام بالملك فقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وهن ما رأين الملائكة قط؟

قلنا: إن كن ما رأين الملائكة فقد سمعن وصفها.

الثاني: أن الله تعالى قد ركز في الطباع حسن الملائكة كما ركز فيها قبح الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن بالملك، وكل متناه في القبح بالشيطان.

٤٨٦- **فإن قيل:** كيف قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٧] وترك الشيء إنما يكون بعد ملابسته والكون فيه، يقال ترك فلان شرب الخمر وأكل الربا ونحو ذلك إذا كان فيه ثم أقلع عنه، ويوسف عليه السلام لم يكن على ملة الكفار قط؟

قلنا: الترك نوعان: ترك بعد الملابسة ويسمى ترك انتقال، وترك قبل الملابسة ويسمى ترك إعراض كقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وموسى عليه السلام ما لابَس عبادة فرعون ولا عبادة آلهته في وقت من الأوقات وما نحن فيه من النوع الثاني، وسيأتي نظير هذا السؤال في سورة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨].

٤٨٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، فسر الأمر بالنهي أو بما جزؤه النهي وهما ضدان؟

قلنا: فيه إضمار أمر آخر تقديره أمر أمرًا اقتضى أن لا تعبدوا إلا إياه وهو قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦] فإنه باعتبار تقديم المفعول في معنى الحصر كما قال في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

الثاني: أن فيه إضمار نهي تقديره: أمر ونهى، ثم فسر الأمرين بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

الثالث: أن قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وإن كان مضادًّا للأمر من

حيث اللفظ فهو موافق له من حيث المعنى، فلم قلتم إن تفسير الشيء بما يضاده صورة، ويوافقه معنى غير جائز. وبيان موافقته معنى من وجهين:

أحدهما: أن النهي عن الشيء أمر بضده، وعبادة الله ضد عبادة غير الله.

الثاني: أن معنى مجموع قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: ٤٠] اعبدوه وحده فيكون تفسيرًا للأمر المطلق بفرد من أفراده وأنه جائز.

٤٨٨- **فإن قيل:** الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس زهدًا في الدنيا ورغبة في الآخرة، فكيف قال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ﴾ [يوسف: ٥٥]؛ طلب أن يكون معتمدًا على الخزائن متوليًا لها وهو من أكبر مناصب الدنيا؟

قلنا: إنما طلب ذلك ليتوصل به إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ونحوه مما يبعث له الأنبياء، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء لوجه الله تعالى وسعيًا لمنافع العباد ومصالحهم لهم لا لحب الملك والدنيا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨] يعني لو كنت أعلم أي وقت يكون القحط لادَّخرت لزمن القحط طعامًا كثيرًا، لا للحرص؛ لكن لأتمكن من إعانة الضعفاء والفقراء وقت الضرورة والمضايقة، ويحتمل أن يكون علم تعينه بذلك العمل فكان طلبه واجبًا عليه.

٤٨٩- **فإن قيل:** كيف جاز ليوسف عليه السلام، أن يأمر المؤذن أن يقول: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] وذلك بهتان وتسريق بالصُّواع لمن لم يسرقه، وتكذيب للبريء واتهام مَنْ لم يسرق بأنه سرق؟

قلنا قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ تورية عما جرى منهم مجرى السرقة، وتصور بصورتها، من فعلهم بيوسف ما فعلوه أولًا.

الثاني: أن ذلك القول كان من المؤذن بغير أمر يوسف عليه السلام، كذا قاله بعض المفسرين.

الثالث: أن حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ﴾ [ص: ٤٤] وقول إبراهيم عليه السلام، في حق زوجه هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما

أشبه ذلك.

٤٩٠- فإن قيل: كيف تأسفَ يعقوبُ عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] والرزء الأحدث أشد على النفس وأعظم أثرًا؟

قلنا: إنما يكون أشدُّ إذا تساوت المصيبتان في العظم ولم يتساويا هنا، بل فقد يوسف كان أعظمَ عليه وأشدَّ مِن فقد أخيه، فإنما خصه بالذكر ليدل على أن الرزء[1] فيه مع تقادم عهده ما زال غضًّا طريًّا.

٤٩١- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤]، والحزن لا يحدث بياض العين لا طبًّا ولا عرفًا؟

قلنا: قال ابن عباس، أي من البكاء؛ لأن الحزن سبب البكاء، فأطلق اسم السبب وأراد به المسبب. وكثرة البكاء قد تحدث بياضًا في العين يغشى السواد، وهكذا حدث ليعقوب عليه السلام.

وقيل: إذا كثرت الدموع محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر.

٤٩٢- فإن قيل: كيف قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، مع أن مِن المؤمنين مَن ييأس مِن روح الله، أي من فرجه وتنفيسه أو مِن رحمته، على اختلاف القولين، إما لشدة مصيبته أو لكثرة ذنوبه ، كما جاء في الحديث في قصة الذي أمر أهله إذا مات أن يحرقوه ويذروا رماده في البر والبحر ففعلوا به ذلك، ثم إن الله غفر له كما جاء مشروحًا في الحديث المشهور، وهو من الصحاح؛ مع أنه يئس من رحمة الله تعالى، وضم إلى يأسه ذنبًا آخر وهو اعتقاده أنه إذا أُحرق وذُرِيَ رمادُه لا يقدر الله على إحيائه وتعذيبه، ومع هذا كله يغفر له، فدلّ على أنه لم يمت كافرًا؟

قلنا: إنما ييأس من روح الله الكافر لا المسلم عملًا بظاهر الآية، وكل مؤمن يتحقق منه اليأس من روح الله فهو كافر في الحال حتى يعود إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله، وأما الرجل المغفور له في الحديث فلا نسلم أنه لم يكفر، ثم إن الله

---

(١) الرزء: المُصِيبةُ والجمع أَرْزاءٌ ورَزايا. انظر: لسان العرب (١/ ٨٥).

تعالى لما أحياه في الدنيا عاد إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله تعالى فلذلك غفر له، وقد يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى قبل موتته الأولى، ولم يتسع له الزمان أن يرجع عن وصيته التي أوصى بها أهله؛ فمات مسلمًا، فلذلك غفر له.

٤٩٣- **فإن قيل**: في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى؟

قلنا: لعله كان السجود عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة عندنا. وقيل: كان إنحناء كالركوع ولم يكن بوضع الجبهة على الأرض، إلا أن قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ﴾ يأبى ذلك، لأن الخرور عبارة عن السقوط، ولا يرد عليه قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [ص: ٢٤] لأنهم قالوا أراد به ساجدًا فعبر عن السجود بالركوع كما عبر عن الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] أي صلوا مع المصلين.

وقيل له: أي لأجله، فاللام للسببية لا لتعدية السجود إلى يوسف عليه السلام، فالمعنى وخروا لأجل يوسف سجدًا لله تعالى شكرًا على جمع شملهم به. وقيل: الضمير في «له» يعود إلى الله تعالى، وهذا الوجه يدفعه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

٤٩٤- **فإن قيل**: كيف ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله تعالى عليه في إخراجه من السجن فقال: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يذكر نعمته عليه في إخراجه من الجب وهو أعظم نعمة؛ لأن وقوعه في الجب كان أعظم خطرًا؟

قلنا: إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة لوجوه:

أحدها: أن محنة السجن ومصيبته كانت أعظم لطول مدتها، فإنه لبث فيه بضع سنين وما لبث في الجب إلا مدة يسيرة.

الثاني: أنه إنما لم يذكر الجب كيلا يكون في ذكره توبيخ وتقريع لإخوته عند قوله لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

الثالث: أن خروجه من السجن كان مقدمة لملكه وعزه فلذلك ذكره، وخروجه من الجب كان مقدمة الذل والرق والأسر فلذلك لم يذكره.

الرابع: أن مصيبة السجن كانت أعظم عنده لمصاحبة الأوباش والأراذل وأعداء

الدين، بخلاف مصيبة الجب فإنه كان مؤنسه فيه جبريل وغيره من الملائكة عليهم السلام.

٤٩٥- **فإن قيل:** كيف قال يوسفُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[يوسف: ١٠١] وهو يعلم أنّ كلّ نبي لا يموت إلاّ مسلمًا؟

قلنا: يجوز أن يكون دعا بذلك في حالة غلبة الخوف عليه غلبة أذهلته عن ذلك العلم في تلك الساعة.

الثاني: أنه دعا بذلك مع علمه إظهارًا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليمًا للأمة وطلبًا للثواب.

٤٩٦- **فإن قيل:** كيف يجتمعُ الإيمانُ والشركُ وهما ضدان؛ حتى قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦]؟

قلنا: معناه وما يؤمن أكثرهم بأن الله تعالى خالقه ورازقه وخالق السموات والأرض قولًا إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلًا.

الثاني: أن المراد بها المنافقون يؤمنون بألسنتهم قولًا ويشركون بقلوبهم اعتقادًا.

الثالث: أن المراد بها تلبية العرب، كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك؛ فكانوا يؤمنون بأول تلبيتهم بنفي الشريك، ويشركون بآخرها بإثباته.

٤٩٧- **فإن قيل:** هذه التلبية توحيد كلها ولا شرك فيها؛ لأن معنى قولهم إلا شريكًا هو لك: إلا شريكًا هو مملوك لك موصوفًا بأنك تملكه وتملك ما ملك، واللام هنا للملك لا لعلاقة الشركة، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون حقيقيًا ويحتمل أن يكون مجازيًا، بيان الأول أنا إن قلنا إن اللام حقيقة في المعنى العام في مواردها وهو الاختصاص يكون قولهم: لا شريك لك، عامًا في نفي كل شريك يضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما، فيدخل في النفي من جهة لفظ الشريك المضاف بجهة المملوكية، وهو شريك زيد وعمرو ونحوهما ثم يقطع عليه الاستثناء فيكون استثناء حقيقيًا، وإن قلنا إنها مشتركة بين المعاني الثلاثة الموجودة في موارد استعمالها وهي الملك والاستحقاق، ويقال: الاختصاص والعلية، فقولهم: لا شريك لك يكون عامًا

أيضًا عند من يجوز حمل المشترك على مفهومه في حالة واحدة فيكون الاستثناء أيضًا حقيقيًّا كما مر، وأما على قول من لا يجوز ذلك يكون النفي واردًا على أحد مفهوماته وهو علاقة الشركة، فيكون الاستثناء بعده مجازيًّا، من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو نوع من أنواع البلاغة مذكور في علم البيان، وشاهده قول الشاعر:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[1]

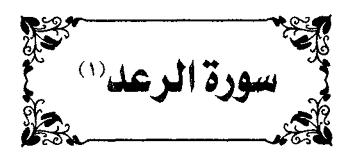
معناه: إن كان هذا عيبًا ففيهم عيب، وهذا ليس بعيب فلا يكون فيهم عيب، فكذا هنا، معناه: إن كان الشريك المملوك لك يصلح شريكًا فلك شريك، وهو لا يصلح شريكًا لك، فلا يكون لك شريك؛ لأنّ كل ما يدَّعى أنه شريك لك فهو مملوك لك، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] الآية.

قلنا: على الوجه الأول إنه ليس بصحيح؛ لأنه لو جعلنا اللام حقيقة في المعنى العام وهو الاختصاص يلزم منه الكفر حيث وجد نفي الشريك من غير استثناء، لأنه يلزم منه نفي ملكه تعالى شريك زيد وعمرو ونحوهما وهو كفر، واللازم منتف؛ لأنه إيمان محض بلا خلاف.

٤٩٨- **فإن قيل:** إنما لم يكن كفرًا مع عمومه، لأن الحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء نفي كل شريك يضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشريك، لا نفي كل شريك يضاف إليه بجهة ما فصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء.

والجواب عن أصل السؤال أنه سؤال حَسَنٌ محققٌ، وأن هذه التلبيةَ توحيدٌ محض على التقديرين؛ فإن صح النقل أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عنها، فإنما نهى عنها لأنها توهم إثبات الشريك لمقتضى الاستثناء عند قاصري النظر وهم عوام الناس، فلهذه المفسدة نهى عنها.

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٢/ ٤٣٢).
من الطويل - للنابغة الزبياني - وانظر ديوانه ٤٤ وخزانة الأدب ٣/ ٣٢٧ والدرر ٣/ ١٧٣ والكتاب ٢/ ٣٢٦ والهمع ١/ ٢٣٢ والمعجم المفصل في شواهد النحو ١/ ٩٦ وللبيت رواية أخرى: من صِراع - بدلاً من «من قراع».



سورة الرعد(١)

٤٩٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، ولم يقل ومن هو سارب بالنهار، ليتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب؛ وإلا فقد تناول واحدًا هو مستخف وسارب، أي ظاهر، وليتناسب لفظ الجملة الأولى والثانية، فإنه قال في الجملة الأولى: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌۢ﴾ معطوف على «من» لا على مستخف، فيتناول معنى الاستواء اثنين.

الثاني: أنه وإن كان معطوفًا على مستخف إلا أن من هنا في معنى التثنية كقوله:

نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ(٢)

فكأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار.

٥٠٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] أي في ضياع وبطلان، والكفار يدعون الله تعالى في وقت الشدائد والأهوال ومشارفتهم الغرق في البحر فيستجيب لهم؟

قلنا: المراد وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الرعد: ١٤] أي يعبدون.

٥٠١- **فإن قيل:** كيف طابق قولُهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧] قوله:

---

(١) قال ابن عاشور: كذا سميت من عهد السلف، وذلك يدل على أنها مسماة بذلك من عهد النبي ﷺ إذ لم يختلفوا في اسمها، وإنما سميت بإضافتها إلى الرعد لورود ذكر الرعد فيها بقوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية [الرعد: ١٣].

(٢) انظر: أمالي ابن الشجري (٢/ ٣١١)، والشاهد في البيت: تثنية يصطحبان، لأن فاعله من أراده الشاعر بالبيت والذئب.

عجز بيت من الطويل - للفرزدق وصدره: تَعَالَ فإن عَاهَدْتَني لا تَخُونني.

والشاهد فيه تثنية «يصطحبان» حملًا على معنى «مَنْ» لأنها كناية عن اثنين. وانظر الكتاب ٢/ ٤١٦ والمقتضب ٢/ ٢٩٥ والمغني ٢/ ٤٠٤ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ١٠٠٦).

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]؟

قلنا: هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم؛ لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جحدوا آياته ولم يعتدوا بها وجعلوه كأنّ آية لم تنزل عليه قط كان موضعًا يتعجب منه، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم.

٥٠٢- **فإن قيل:** كيف المطابقة بين قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الرعد: ٣٣]؟

قلنا: فيه محذوف تقديره: أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر، ويعد لكل جزاء كمن ليس كذلك وهو الصنم، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الرعد: ٣٣]، أو تقديره: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وجعلوا له شركاء، أو التقدير: أفمن كان بهذه الصفة يغفلُ عن أهل مكة وأقوالهم وأفعالهم وجعلوا لله شركاء.

٥٠٣- **فإن قيل:** كيف اتصل قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ [الرعد: ٣٦] بما قبله وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٣٦]؟

قلنا: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به، فإنكارهم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده، كذا أجاب به الزمخشري، وفيه نظر.

٥٠٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الرعد: ٤٢]، أثبت لهم مكرًا ثم نفاه عنهم بقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]؟

قلنا: معناه أن مكر الماكرين مخلوق له ولا يصير إلا بإرادته؛ فبهذه الجهة صحة إضافة مكرهم إليه.

الثاني: أنه جعل مكرهم كَلَا مكر، بالإضافة إلى مكره؛ لأنه يأتيهم مِن حيث لا يعلمون فيعكس مكرهم عليهم، فإثباته لهم باعتبار الكسب، ونفيه عنهم باعتبار الخلق.

سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام(1)

٥٠٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، هذا في حق غير النبي عليه الصلاة والسلام من الرسل مناسب؛ لأن غيره لم يبعث إلى الناس كافة، بل إلى قومه فقط، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة ولا تبقى لهم حجة بأنا لم نفهم رسالتك، فأما النبي عليه الصلاة والسلام فإنه بعث إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨] فإرساله بلسان قومه إن كان لقطع حجة العرب، فالحجة باقية لغيرهم من أهل الألسن الباقية، وإن لم يكن لغير العرب حجة أن لو نزل القرآن بلسان غير العرب يكن للعرب الحجة؟؟

قلنا: نزوله على النبي عليه الصلاة والسلام بلسان واحد كاف؛ لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله لجميع الألسن، ويكفي مؤونة التطويل كما جرى في القرآن العزيز.

الثاني: أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف.

الثالث: أنه لو نزل بألسنة كل الناس وكان معجزًا في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها، كما كلم أمته التي هو منها لكان ذلك أمرًا قريبًا من القسر والإلجاء وبعثة الرسل لم تبن على القسر والإلجاء؛ بل على التمكين من

---

(١) قال في التحرير والتنوير ص (٢٢٥٩): أضيفت هذه السورة إلى اسم إبراهيم عليه السلام، فكان ذلك اسمًا لها لا يعرف لها غيره، ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبي ﷺ ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم عليه السلام جرى في كثير من السور أنها من السور ذوات ﴿الٓر﴾ وقد ميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء عليهم السلام التي جاءت قصصهم فيها أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي سورة الحجر ولذلك لم تضف سورة الرعد إلى مثل ذلك؛ لأنها متميزة بفاتحتها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراء.

الاختيار، فلما كان نزوله بلسان واحد كافيًا كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه.

٥٠٦- فإن قيل: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩] وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤١] بغير واو فيهما، وقال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: ٦]، بالواو والقصة واحدة؟

قلنا: حيث حذف الواو وجعل التذبيح والتقتيل تفسيرًا للعذاب، وبيانًا له، وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب؛ لأنه أوفى على بقية أنواعه وزاد عليها زيادة ظاهرة، فعلى هذا يكون إثبات الواو أبلغ.

٥٠٧- فإن قيل: ما معنى التبعيض في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠] ؟

قلنا: ما جاء هذا إلا في خطاب الكافرين كقوله تعالى في سورة نوح عليه السلام: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] وقوله تعالى، في سورة الأحقاف: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] وقال تعالى في خطاب المؤمنين في سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف: ١٠] إلى قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] وقال تعالى، في آخر سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]، وكذا باقي الآيات في خطاب الفريقين إذا تتبعتها، وما ذلك إلا للتفرقة بين الخطابين لئلا يسوى بين الفريقين في الوعد مع اختلاف رتبتهما، لا لأنه يغفر للكفار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم والذي يؤيد ما ذكرناه من العلة أنه في سورة نوح عليه السلام وفي سورة الأحقاف وعدهم مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان مطلقًا، وقيل: معنى التبعيض أنه يغفر لهم ما بينهم وبينه لا ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها.

وقيل: «من» زائدة.

٥٠٨- فإن قيل: كيف كرر تعالى الأمر بالتوكل وكيف قال أولًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم: ١١] وقال ثانيًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم: ١٢] ؟

قلنا: الأمر الأول لاستحداث التوكل، والثاني لتثبيت المتوكلين على ما استحدثوا من توكلهم فلهذا كرره، وقال أولًا المؤمنون وثانيًا المتوكلون.

٥٠٩- فإن قيل: كيف قالوا لرسلهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] والرسل لم يكونوا على ملة الكفار قط، والعود هو الرجوع إلى ما كان فيه الإنسان؟

قلنا: العود في كلام العرب يستعمل كثيرًا بمعنى الصيرورة، يقولون: عاد فلان يكلمني، وعاد لفلان مال وأشباه ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

الثاني: أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسل كانوا أولًا على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها.

الثالث: أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد، ونظير هذا السؤال ما سبق في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] وفي سورة يوسف عليه السلام من قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] الآية.

٥١٠- فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١]؟؟

قلنا: لما كان قول الضعفاء توبيخًا وتقريعًا وعتابًا للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوائهم، أحالوا الذنب على الله تعالى في ضلالهم وإضلالهم، كما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، و ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولون في الدنيا، كما حكى الله تعالى عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] الآية.

وقيل: معنى جوابهم: لو هدانا الله في الآخرة طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة في الدنيا.

٥١١- فإن قيل: كيف اتصل وارتبط قولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١] بما قبله؟

قلنا: اتصاله به مِن حيث إنَّ عتاب الضعفاء للذين استكبروا كان جزعًا مما هم

فيه وقلقًا من ألم العذاب، فقال لهم رؤساؤهم: ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين عليها في الدنيا، كأنهم قالوا للضعفاء: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة فيه كما لا فائدة في الصبر، فإن الأمر أعظم من ذلك وأعم.

٥١٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، عبر عنه بلفظ الماضي، وذلك القول من الشيطان لم يقع بعد وإنما هو مترقب منتظر يقوله يوم القيامة؟

قلنا: يجوز وضعَ المضارعَ موضع الماضي، ووضع الماضي موضع المضارع إذا أمن اللبس، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي ما تلت، وقال تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩١]، وقال الحطيئة الشاعر:

شَـهِدَ الحُطَيْئَـةُ يَـوْمَ يَلْقَـى رَبـهُ ... أَنَّ الوَلِيـدَ أحَـقُّ بالغَـدرِ

فقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] نفى اللبس، وكذا قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] وقول الحطيئة يوم يلقى ربه، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] لأن قضاء الأمر إنما يكون يوم القيامة.

٥١٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧]، وقد رأينا كثيرًا من الظالمين هداهم الله بالإسلام وبالتوبة وصاروا من الأتقياء؟

قلنا: معناه أنه لا يهديهم ما داموا مصرين على الكفر والظلم معرضين عن النظر والاستدلال.

الثاني: أن المراد منه الظالم الذي سبق له القضاء في الأزل أنه يموت على الظلم، فالله تعالى يثبته على الضلالة لخذلانه، كما يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة التوحيد.

الثالث: أن معناه: أن يضل المشركين عن طريق الجنة يوم القيامة.

٥١٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم:٣٠]، والضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد وهي الأصنام، وإنما عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله: ﴿مَا

﴿نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]؟

قلنا: قد شرحنا ذلك في سورة يونس عليه السلام إذ قلنا هذه لام العاقبة والصيرورة لا لام الغرض، والمقصود كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وقول الشاعر:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وابْنُوا لِلْخَرَابِ[1]

وقول الآخر:

فَلِلمَوْتِ تَغْذُو الوالداتُ سِخالها   كما لخرابِ الدَّهْرِ تُبْنَى المساكِنُ[2]

والمعنى فيه أنهم لما أفضى بهم اتخاذ الأنداد إلى الضلال أو الإضلال صار كأنهم اتخذوها لذلك، وكذا الالتقاط والولادة والبناء، ونظائره كثيرة في القرآن العزيز وفي كلام العرب.

٥١٥- **فإن قيل:** كيف طابق الأمر بإقامة الصلاة وإنفاق المال وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال؟

قلنا: معناه قل لهم يقدمون من الصلوات والصدقة متجرًا يجدون ربحه يوم لا تنفعهم متاجر الدنيا من المعاوضات والصدقات التي يجلبونها بالهدايا والتحف لتحصيل المنافع الدنيوية، فجاءت المطابقة.

٥١٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم:٣١]، أي لا صداقة وفي يوم القيامة خلال لقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] ولقوله عليه الصلاة والسلام: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»؟[3].

قلنا: لا خلال فيه لمن لم يقم الصلاة ولم يؤد الزكاة، فأما المقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة فهم الأتقياء، وبينهم الخلال يوم القيامة، لما تلونا من الآية.

---

(١) هذا البيت سبق تخريجه والحديث عنه ص ١٠٩، ١١٠.

(٢) من الطويل - لسابق البربري والشاهد فيه قوله «فللموت» حيث جاءت اللام للعاقبة أو للصيرورة. وانظر (خزانة الأدب ٩/ ٥٢٩، والدرر ٤/ ١٦٨ ومغنى اللبيب ١/ ٢١٤ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٩٩٨.

(٣) البخاري (٥٧٠٢)، ومسلم (٤٧٧٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٥١٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم:٣٣] والمسخر للإنسان هو الذي يكون في طاعته يصرفه كيف شاء في أمره ونهيه كالدابة والعبد والفلك، كما قال تعالى: ﴿ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ويقال: فلان مسخر لفلان إذا كان مطيعًا له وممتثلًا لأوامره ونواهيه؟

قلنا: لما كان طلوعهما وغروبهما وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متصلًا مستمرًا اتصالًا لا تنقطع علينا فيه المنفعة ولا تنخرم سواء شاءت هذه المخلوقات أم أبت، أشبهت المسخر المقهور في الدنيا، كالعبد والفلك ونحوهما.

والثاني: أن معناه أنها مسخرة لله لأجلنا ومنافعنا. فإضافة التسخير إلى الله تعالى، بمعنى أنه فاعل التسخير، وإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع التسخير إلينا، فصحت الإضافتان.

٥١٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله تعالى لم يعطنا كل ما سألناه ولا بعضًا من كل فرد مما سألناه؟

قلنا: معناه: وآتاكم بعضًا من جميع ما سألتموه لا من كل فرد فرد.

٥١٩- **فإن قيل:** لا يصح هذا المحمل لوجهين:

أحدهما: أنه لا يحسن الامتنان به.

الثاني: أنه لا يناسبه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[إبراهيم: ٣٤] ؟

قلنا: إذا كان البعض الذي أعطانا هو الأكثر من جميع ما سألناه وهو الأصلح والأنفع لنا في معاشنا ومعادنا بالنسبة إلى البعض الذي منعه عنا لمصلحتنا، أيضًا؛ لا يحسن الامتنان به، ويكون مناسبًا لما بعده.

وجواب آخر: عن أصل السؤال: أنه يجوز أن يكون قد أعطى جميع السائلين بعضًا من كل فرد مما سأله جميعهم، وبهذا المقدار يصح الإخبار في الآية وإن لم يعط كل واحد من السائلين بعضًا من كل فرد مما سأله وإيضاح ذلك أن يكون هذا قد أعطى شيئًا مما سأله ذاك، وأعطى ذاك شيئًا مما سأله هذا على ما اقتضته الحكمة

والمصلحة في حقهما، كما أعطي النبي عليه الصلاة والسلام الرؤية ليلة المعراج وهي مسؤول موسى عليه السلام وما أشبه ذلك.

٥٢٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] والإحصاء والعد بمعنى واحد كذا نقله الجوهري، فيكون المعنى: وإن تعدوا نعمة الله لا تعدوها وهو متناقض كقولك: إن تر زيدًا لا تبصره، إذ الرؤية والإبصار واحد؟

قلنا: بعض المفسرين فَسَّر الإحصاءَ بالحصر، فإن صح ذلك لغة، اندفع السؤالُ. ويؤيد ذلك قولُ الزمخشري لا تحصوها، أي لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، وعلى القول الأول فيه إضمار تقديره: وإن تريدوا عد نعمة الله لا تعدوها.

٥٢١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وهو يوهم أن نعمَ الله غير متناهية، وكل نعمة ممتن بها علينا فهي مخلوقة، وكل مخلوق متناه؟

قلنا: لا نسلم أنه يوهم أنها لا تتناهى، وذلك لأن المفهوم منه منحصر في أنا لا نطيق عدها أو حصر عددها، ويجوز أن يكون الشيء متناهيًا في نفسه، والإنسان لا يطيق عدَّه كرمل القفار وقطر البحار وورق الأشجار وما أشبه ذلك.

٥٢٢- **فإن قيل:** كيف قال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وعبادة الأصنام كفر، والأنبياء معصومون عن الكفر بإجماع الأمة، فكيف حسن منه هذا السؤال؟

قلنا: إنما سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن ذلك العلم، لأن الأنبياء عليهم السلام أعلم الناس بالله فيكونون أخوفهم منه فيكون معذورًا بسبب ذلك.

وقيل: إن في حكمة الله تعالى وعلمه أن لا يبتليَ نبيًّا من الأنبياء بالكفر بشرط أن يكون متضرعًا إلى ربه طالبًا منه ذلك، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة.

٥٢٣- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] جعل الأصنام مضلة، والمضل ضار، وقال في موضع آخر: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨] ونظائره كثيرة فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: إضافة الإضلال إليها مجاز بطريق المشابهة. ووجهه أنهم لما ضلوا بسببها

فكأنها أضلتهم، كما يقال فتنتهم الدنيا وغرتهم، أي افتتنوا بسببها واغتروا، ومثله قولهم: دواء مسهل، وسيف قاطع، وطعام مشبع، وماء مرو وما أشبه ذلك. ومعناه: حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء، وفاعل الآثار هو الله تعالى.

٥٢٤- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولم يقل أفئدة الناس، وقوله قلوب الناس أظهر استعمالًا من قوله قلوبًا من الناس؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما، لو قال إبراهيمُ عليه السلام في دعائه أفئدة الناس، لحجت جميعُ الملل وازدحم عليه الناسُ حتى لم يبق لمؤمن فيه موضعٌ، مع أن حج غير الموحدين لا يفيد، والأفئدة هنا القلوب في قول الأكثرين، وقيل: الجماعة مِن الناس.

٥٢٥- **فإن قيل:** إذا كان الله تعالى قد ضمن رزق العباد، فلِمَ سأل إبراهيم عليه السلام الرزق لذريته فقال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]؟

قلنا: الله تعالى ضَمن الرزقَ والقوتَ الذي لابد للإنسان منه ما دام حيًّا ولم يضمن كونه ثمرًا أو حبًّا أو نوعًا معينًا فالسؤال كان لطلب الثمر عينًا.

٥٢٦- **فإن قيل:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [إبراهيم: ٣٩] شكر على نعمة الولد، فكيف يناسبه بعده ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]؟

قلنا: لما كان قد دعا ربه لطلب الولد بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فاستجاب له، ناسب قوله بعد الشكر: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي لمجيبه من قولهم: سمع الملك قول فلان إذا أجابه وقبله، ومنه قولهم في الصلاة «سمع الله لمن حمده» أي أجابه وأثابه.

٥٢٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨] استغفر إبراهيم لوالديه وكانا كافرين، والاستغفار للكافرين لا يجوز، ولا يقال إن هذا موضع الاستثناء المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية، لأن المراد بذلك استغفاره لأبيه خاصة بقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] والموعدة التي وعدها إيَّاه إنما كانت له خاصة بقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ [مريم: ٤٧] ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]؟

قلنا: هذا الاستغفار لهما كان مشروطًا بإيمانهما تقديرًا، كأنه قال ولوالدي إن آمنا.

الثاني: أنه أراد بهما آدم وحواء صلوات الله عليهما، وقرأ ابن مسعود وأبي والنخعي والزهري رضي الله عنهم (ولولديَّ) يعني إسماعيل وإسحاق، ويعضد هذه القراءة سبق ذكرهما، ولا إشكال على هذه القراءة.

وقيل: إن هذا الدعاءَ على القراءة المشهورة كان زلةً من إبراهيم صلوات الله عليه، وإليها أشار بقوله: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[الشعراء: ٨٢].

٥٢٨- **فإن قيل:** الله تعالى منزه ومتعال عن الغفلة، والنبي عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بصفات جلاله وكماله، فكيف يحسبه النبي عليه الصلاة والسلام غافلًا وهو أعلم الخلق بالله حتى نهاه عن ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[إبراهيم: ٤٢]؟

قلنا: يجوز أن يكون هذا نهيًا لغير النبي عليه الصلاة والسلام ممن يجوز أن يحسبه غافلًا لجهله بصفاته، وقوله تعالى، بعده: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾[إبراهيم: ٤٤] لا يدل قطعًا على أن الخطاب الأول للنبي عليه الصلاة والسلام، لجواز أن يكون ذلك النهي لغيره مع أن هذا الأمر له.

الثاني: أنه مجاز معناه: ولا تحسبن الله مهمل الظالمين وتاركهم سدى، أي لكون هذا من لوازم الغفلة عنهم.

الثالث: أن النهي وإن كان حقيقة والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام فالمراد به دوامه وثباته على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلًا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[القصص: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[القصص: ٨٨]، ونظير هذا النهي من الأمر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[النساء: ١٣٦] وقول بعض المفسرين: إن معنى الآية يا أيها الذين آمنوا بموسى أو بعيسى آمِنوا بمحمّد عليه الصلاة والسلام لا يخرج الآيةَ عن كونها نظيرًا؛ لأن الاستبدالَ بالإيمان بالله باق، فتأمل.

سورة الحجر(١)

٥٢٩- **فإن قيل:** كيف قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] اعترفوا بنبوته، إذ الذكر هو القرآن الذي نزل عليه، ثم وصفوه بالجنون؟

قلنا: إنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية، لا تصديقًا واعترافًا؛ كما قال فرعونُ لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وكما قال قوم شعيب؛ عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] ونظائره كثيرة.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: يا أيها الذي تدعي أنك نزل عليك الذكر.

٥٣٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣]، والوارث هو الذي يتجدد له الملك بعد فناء المورث، والله تعالى إذا مات الخلائق لم يتجدد له ملك؛ لأنه لم يزل مالكًا للعالم بجميع ما فيه وَمَنْ فيه؟

قلنا: الوارث في اللغة عبارة عن الباقي بعد فناء غيره، سواء تجدد له من بعده ملك أو لا؛ ولهذا يصح أن يقال لمن أخبر أن زيدًا مات وترك ورثة، هل ترك لهم مالًا أو لا؟ فيكون معنى الآية: ونحن الباقون بعد فناء الخلائق.

الثاني: أن الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون يسمون بذلك أيضًا، إما مجازًا أو خلافة عن الله تعالى: كالعبد المأذون والمكاتَب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] فإذا مات الخلائقُ كلهم سلمت الأملاكُ كلها لله تعالى عن ذلك القدر من التعلق، فبهذا الاعتبار كانت الوراثة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] والملك له أزلًا وأبدًا.

٥٣١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٠] دل على الشمول والإحاطة وأفاد التوكيد؛ فما فائدة قوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠] ؟

---

(١) سميت هذه السورة: الحجر، ولا يعرف لها اسم غيره. ووجه التسمية أن اسم الحجر لم يذكر في غيرها، والحجر اسم البلاد المعروفة به وهو حجر ثمود، وثمود هم أصحاب الحجر. اهـ. من التحرير (ص ٢٢٩٠).

قلنا: قال سيبويه والخليل[١]: هو توكيد بعد توكيد، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن، فلا يكون تحصيل الحاصل؛ بل تكون نسبة أجمعون كنسبة كلهم إلى أصل الجملة. وقال المبرد: قوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠] يدل على اجتماعهم في زمان السجود، وكلهم يدل على وجود السجود من الكل، فكأنه قال: فسجد الملائكةُ كلهم معًا في زمن واحد. واختار ابن الأنباري هذا القول، واختار الزَّجَّاج وأكثر الأئمة قول سيبويه وقالوا: لو كان الأمرُ كما زعم المبرد[٢] لكان أجمعون حالًا لوجود حد الحال فيه، وليس بحال لأنه مرفوع، ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التوكيد.

٥٣٢- **فإن قيل:** ما وجه ارتباط قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١] بما قبله من قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي﴾ [الحجر: ٤٩] الآيتين؟

قلنا: لما أنزل الله عز وجل: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي﴾ [الحجر: ٤٩] الآيتين ولم يعين أهل المغفرة وأهل العذاب غلب الخوف على الصحابة رضي الله عنهم فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصة ضيف إبراهيم عليه السلام ليزول خوف الصحابة وتسكن قلوبُهُم؛ فإن ضيف إبراهيم عليه السلام جاءوا ببشارة للولي وهو إبراهيم، وعقوبة للعدو وهم قوم لوط عليه السلام وكذلك تنزل الآيتين المتقدمتين على الولي والعدو لا على الولي وحده.

الثاني: أن وجه الارتباط أن العبد وإن كان كثير الذنوب والخطايا غير طامع في المغفرة لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه، كما رزق إبراهيم الولد على يأسه بعد ما شاخ وبلغ مائة سنة أو قريبًا منها.

٥٣٣- **فإن قيل:** كيف قالت الملائكةُ: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠] أي قضينا، والقضاء لله تعالى لا لهم؟

قلنا: إسناد التقدير للملائكة هو مجاز، كما يقول خواص الملك، دبرنا كذا

---

(١) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي إمام اللغة والأدب وواضع علم العروض، وسيبويه من أشهر تلاميذه توفي سنة ١٧٠هـ.

(٢) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي إمام العربية والأدب في زمنه واشتهر بالمبرد وتوفي في بغداد سنة ٢٨٦هـ.

وأمرنا بكذا ونهينا عن كذا، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك.

٥٣٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر: ٨٠] وأصحاب الحجر قوم صالح، والحجر اسم واديهم أو مدينتهم على اختلاف القولين؛ وقوم صالح لم يرسل إليهم غير صالح فكيف يكذبون المرسلين؟

قلنا: مَنْ كذب رسولًا واحدًا فكأنما كذب الكل؛ لأن كل الرسل متفقون في دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى.

٥٣٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى هنا: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وقال في سورة الرحمن: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]؟

قلنا: الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: قد ذكرناه في مثل هذا السؤال في سورة هود.

والثاني: أن المراد هنا أنهم يُسألون سؤال توبيخ وهو سؤال لم فعلتم؟ والمراد ثُمَّ إنهم لا يُسألون سؤال استعلام واستخبار وهو سؤال هل فعلتم؟

أو يقال: إن في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها يُسألون، وفي بعضها لا يُسألون، وتقدم نظيره.

* * *



سورة النحل[1]

٥٣٦- **فإن قيل:** لم قدمت الإراحة وهي مؤخرة في الواقع على السروح وهو مقدم في الواقع في قوله تعالى: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]؟

قلنا: لأن الأنعام في وقت الإراحة وهي ردها عشيًّا إلى المراح تكون أجمل وأحسن، لأنها تقبل ملأى البطون حاملة الضروع متهادية في مشيها يتبع بعضها بعضًا، بخلاف وقت السروح وهو إخراجها إلى المرعى فإن كل هذه الأمور تكون على ضد ذلك.

٥٣٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]، إن أريد به لم تكونوا بالغيه عليها إلا بشق الأنفس فلا امتنان فيه، وإن أريد به لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بشق الأنفس فهم لا يبلغونه عليها أيضًا إلا بشق الأنفس، فما فائدة ذلك؟

قلنا: معناه وتحمل أثقالكم، أي أجسامكم وأمتعتكم معكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بدونها بأنفسكم من غير أمتعتكم إلا بجهد ومشقة، فكيف لو حملتم أمتعتكم على ظهوركم؟ والمراد بالمشقة: المشقة التي تنشأ من المشي، أو من المشي مع الحمل على الظهر لا مطلق مشقة السفر، وهذا مخصوص بحال فقد الإبل، فظهر فائدة ذلك.

٥٣٨- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، يقتضي حرمة أكل الخيل كما اقتضاه في البغال والحمير من حيث إنه لم ينص على منفعة أخرى فيها غير الركوب والزينة، ومن حيث إن التعليل بعلة يقتضي الانحصار فيها كقولك: فعلت هذا لكذا، فإنه يناقضه أن تكون فعلته لغيره أو له مع غيره، إلا إذا

---

(١) سميت هذه السورة عند السلف: سورة النحل، وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة، ووجه تسميتها بذلك أن لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى، وعن قتادة: أنها تسمى سورة «النعَم» أي بكسر النون وفتح العين. قال ابن عطية: لما عدد الله فيها من النعم على عباده. اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٢٣٢٣).

كان أحدهما جهة في الآخر.

قلنا: ينتقض بالحمل عليها والحراثة بها، فإن ذلك مباح؛ مع أنه لم ينص عليه.

٥٣٩- **فإن قيل:** إنما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام، فإنه منصوص عليه فيها بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ [النحل: ٥] والمراد به كل منفعة معهودة منها عرفًا لا كل منفعة، فثبت مثل ذلك في الخيل والبغال والحمير.

قلنا: لو كان ثبوته فيها بالقياس على ثبوته في الأنعام لثبت حل الأكل في الخيل بالقياس على ثبوته في الأنعام أيضًا؛ ولو ثبت حل الأكل في الخيل بالقياس لثبت في البغال والحمير، كما ثبت الحمل والحراثة ثبوتًا شاملًا للكل بالقياس على ثبوته في الأنعام.

والجواب عن الجهة الثانية في أصل السؤال أن هذه اللام ليست لام التعليل بل لام التمكين، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ومع هذا يجوز في الليل غير السكون.

٥٤٠- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى في وصف ماء السماء: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل: ١١] ولم يقل كل الثمرات؛ مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء؟

قلنا: كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما ينبت في الدنيا بعض منها أنموذجًا وتذكِرة فالتبعيض بهذا الاعتبار، فيكون المراد بالثمرات ما هو أعم من ثمرات الدنيا، وَمَنْ يُجوِّز زيادة «من» في الإثبات يحتمل أن يجعلها زائدة هنا.

٥٤١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ ﴾ [النحل: ١٧] ، المراد بمن لا يخلق الأصنام بدليل قوله تعالى بعده: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠] فكيف جيء بمن المختصة بأولي العلم والعقل؟

قلنا: خاطبهم على معتقدهم؛ لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم، ونظير هذا قوله تعالى في الأصنام أيضًا: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ ﴾ [الأعراف: ١٩٥] الآية، فأجرى عليهم ضمير أولي العلم والعقل لما قلناه.

ويرد على هذا الجواب أن يقال: إذا كان معتقدهم خطأ وباطلًا فالحكمة تقتضي

أن ينزعوا عنه ويقلعوا، لا أن يبقوا عليه ويقروا في خطابهم على معتقدهم إيهامًا لهم أن معتقدهم حق وصواب.

وجوابه: أن الغرض من الخطاب الإفهام، ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ومفهومهم فقال: أفمن يخلق كما لا يخلق، لاعتقدوا أن المراد مِن الثاني غير الأصنام مِن الجماد.

الثاني: قال ابن الأنباري: إنما جاز ذلك لأنها ذكرت مع العالم فغلب عليها حكمه في اقتضاء «مِن» كما غلب على الدواب في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] الآية، وكما في قول العرب: اشتبه عليَّ الراكب، وجمله: فما أدري مَنْ ذا ومَنْ ذا.

٥٤٢- فإن قيل: هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام وسموها آلهة تشبيهًا بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فظاهر الإلزام يقتضي أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟

قلنا: لما سووا بين الأصنام وخالقها سبحانه وتعالى في تسميتها باسمه وعبادتها كعبادته فقد سووا بينها وبين خالقها قطعًا، فصح الإنكار بتقديم أيهما كان، وإنما قدم في الإنكار عليهم ذكر الخالق، إما لأنه أشرف، أو لأنه هو المقصود الأصلي مِن هذا الكلام تنزيهًا له وإجلالًا وتعظيمًا.

٥٤٣- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى في وصف الأصنام ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾[النحل: ٢١] بعد قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾[النحل: ٢١] ؟

قلنا: فائدته أنها أموات لا يعقب موتها حياة احترازًا عن أموات يعقب موتها حياة. كالنطف والبيض والأجساد الميتة، وذلك أبلغ في موتها، كأنه قال: أموات في الحال غير أحياء في المآل.

الثاني: أنه ليس وصفًا لها بل لعبادها؛ معناه: وعبادها غير أحياء القلوب.

الثالث: أنه إنما قال غير أحياء، ليعلم أنه أراد أمواتًا في الحال، لا أنها ستموت كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠] .

٥٤٤- فإن قيل: كيف عاب الأصنام وعبادها بأنهم لا يعلمون وقت البعث فقال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النحل: ٢١] والمؤمنون الموحدون كذلك؟

قلنا: معناه وما يشعر الأصنام متى يبعث عبادها، فكيف تكون آلهة مع الجهل؟ أو معناه: وما يشعر عبادها وقت بعثهم لا مفصلًا ولا مجملًا؛ لأنهم ينكرون البعث، بخلاف الموحدين فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجملًا أنه يوم القيامة وإن لم يشعروه مفصلًا.

٥٤٥- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤]، كيف يعترفون بأنه مِنْ عند الله تعالى بالسؤال المعاد في ضمن الجواب ثم يقولون هو أساطير الأولين؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

٥٤٦- فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥] وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؟

قلنا: معناه ومِن أوزار إضلال الذين يضلونهم، فيكون عليهم وزر كفرهم مباشرة ووزر كفر مَنْ أضلوهم تسببًا، فقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ﴾ [النحل: ٢٥] يعني أوزار الذنوب التي باشروها. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فمعناه: وزر لا مدخل لها فيه ولا تعلق له بها مباشرة ولا تسببًا، ونظير هاتين الآيتين الأخريان في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ [العنكبوت: ١٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وجوابهما مثل جواب هاتين الآيتين.

٥٤٧- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠] الآية، يدل على أن المعدوم شيء، ويدل على أن خطابَ المعدومَ جائزٌ، والأول منتف عند أكثر العلماء، والثاني منتف بالإجماع؟

قلنا: أما تسميته شيئًا فمجاز باعتبار ما يئول إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] وأما الثاني فإن هذا خطاب تكوين يظهر به أثر القدرة فيمتنع أن يكون المخاطب به موجودًا قبل

الخطاب، لأنه إنما يكون بالخطاب فلا يسبقه، بخلاف خطاب الأمر والنهي.

٥٤٨- **فإن قيل**: قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾ [النحل: ٤٩]، كيف لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ [النور: ٤٥] الآية، بل أولى لأنه ثم وصف ما لا يعقل بخصوصه بلفظ «مَنْ» وهو الحية والأنعام، وهنا لو قال مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض لا يلزم وصف ما لا يعقل بخصوصه وتعيينه بلفظة «من» بل المجموع؟

قلنا: لأنه أراد عموم كل دابة وشمولها، فجاء بما التي تعم النوعين وتشملهما، ولو جاء بمن لخصَّ العقلاء.

٥٤٩- **فإن قيل**: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ [النحل: ٦١]، يقتضي أنه لو آخذ الظالمين بظلمهم لأهلك غير الظالمين من الناس، ولأهلك جميع الدواب غير الناس، ومؤاخذة البريء بسبب ظلم الظالم لا يحسن بالحكيم؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الكفر، وبالدابة الظالمة وهي الكافر، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل معناه: لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء.

الثاني: يجوز أن يهلك الجميع بشؤم ظلم الظالمين مبالغة في إعدام الظلم ونفي وجود أثره حتى لا يوجد بعد ذلك من بقية الناس ظلم موجب للإهلاك، كما وجد من الذين أهلكهم بظلمهم، ودليل جواز ذلك ما وجد في زمن نوح عليه السلام، فإنه أهلك بشؤم ظلم قوم نوح جميع دواب الأرض، وما نجا إلا مَنْ في السفينة ولم يبق على ظهر الأرض دابةٌ، ولذا قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ثم إذا فعل ذلك للحكمة والمصلحة التي اقتضت فعله عوض البريء في الآخرة ما هو خير وأبقى.

الثالث: أن كل إنسان مكلف فهو ظالم إما لنفسه أو لغيره؛ لأنه لا يخلو عن ذنب صغير أو كبير، فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدواب أيضًا؛ لأنه إنما خلق الدواب لمصالح الناس وإذا عدم الناس وقع استغناؤهم عن الدواب كلها.

٥٥٠- **فإن قيل**: لا نسلم أن غير الإنسان مِن الحيوان مخلوق لمصالح الإنسان،

ومستنده أنه كان مخلوقًا قبل خلق الإنسان بالنقل عن الكتب الشرعية وغيرها، وقد جاء مصرحًا به في الحديث في باب الخلق من جامع الأصول سلمنا أنه مخلوق لمصلحة الإنسان، لكن هلاك غير الإنسان معه يخفف عنه ألم المصيبة، لا سيما إذا كان الهالك معه مِنْ جنسه، ولهذا قيل: المصيبة إذا عمت طابت. سلمنا أن إهلاك غيره معه مؤلم له، لكن لو كان إهلاكه معه لأنه خلق لمصلحته أَفَنَهْلَكُ تبعًا له لاستغنائه عنه أو لزيادة الإيلام فالبار أيضًا خلق لمصحلته على قولكم، فلم كان إهلاك الحيوان عقوبة للإنسان أولى من إهلاك النبات، ولم يقل: ما ترك عليها من دابة ونبات أو من شيء؟

قلنا: الجواب عن الأول قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وخلقه قبل الإنسان لا ينفي خلقه لمصلحة الإنسان، كما يعد عظماء الناس الدور والقصور والخدم والحشم والدواب والثياب لأولادهم وأولاد أولادهم قبل وجودهم، وعن الثاني أنا لا ندعي أنه يهلك مع الإنسان بل قبله لتألمه بمشاهدة هلاك محبوبه ومألوفه، وعن الثالث أن المراد ما ترك عليها من دابة بواسطة منع المطر فيعدم النبات، ثم يعدم بواسطة عدمه غير الإنسان من الحيوان، ثم يعدم الإنسان، كذا جاء في تفسير هذه الآية والآية التي في آخر سورة فاطر، وهذا الترتيب أبلغ في العذاب وأعظم في العقاب مِنْ تقديم إهلاك الحيوان على النبات؛ لأن الإنسان إذا بقي حيوانه بلا علف كان أوجع مما إذا بقي علفه بلا حيوان.

٥٥١- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ [النحل: ٦٨]، ولم يقل في الجبال وفي الشجر، والاستعمال وإنما هو بفي يقال اتخذ فلان بيتًا في الجبل أو في الصحراء أو نحو ذلك؟

قلنا: قال الزمخشري رحمه الله: إنما أتى بلفظة مِنْ لأنه أراد معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر ولا في كل مكان من الجبل والشجر. وأنا أقول: إنما ذكره بلفظة «مِنْ» لأنه أراد كون البيت بعض الجبل وبعض الشجر كما نشاهد ونرى مِنْ بيوت النحل، لأنه يتخذ من طين أو عيدان في الجبل والشجر كما تتخذ الطيور، فلو أتى بلفظة «في» لم تدل على هذا المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ

مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

٥٥٢- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [النحل: ٧٢]، وأزواجنا لسن مِنْ أنفسنا، لأنهن لو كُنَّ من أنفسنا لَكُنَّ حرامًا علينا، فإن المتفرعة مِن الإنسان لا يحل له نكاحها؟

قلنا: المراد بهذا أنه خلق آدمَ ثم خلق منه حواءَ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١].

الثاني أن المراد مِنْ خلقكم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٥٥٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣]، فَعَبَّرَ بالواو والنون وهما من خواص من يعقل؟

قلنا: كان فيمن يعبدونه مِن دون الله مَن يعقل كالعزير وعيسى والملائكة عليهم الصلاة والسلام فغلبهم.

٥٥٤- **فإن قيل:** لم أفرد في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ ثم جمع في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾؟ [النحل: ٧٣].

قلنا: أفرد نظرًا إلى لفظ ما، وجمع نظرًا إلى معناها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [النحل: ١٢، ١٣]، أفرد الضمير نظرًا إلى لفظها، وجمع الظهور نظرًا إلى معناها.

٥٥٥- **فإن قيل:** ما فائدة نفي استطاعة الرزق بعد نفي ملكه والمعنى واحد؛ لأن نفي ملك الفعل هو نفي استطاعته، والرزق هنا اسم مصدر بدليل إعماله في «شيئًا»؟

قلنا: ليس في يستطيعون ضمير مفعول هو الرزق؛ بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقًا؛ معناه لا يملكون أن يرزقوا، ولا استطاعة لهم أصلًا في رزق أو غيره لأنهم جماد.

الثاني: أنه لو قدر فيه ضمير مفعول على معنى ولا يستطيعونه كان مفيدًا أيضًا على اعتبار كون الرزق اسمًا للعين؛ لأن الإنسان يجوز أن لا يملك الشيء ولكن يستطيع أن يملكه بخلاف هؤلاء فإنهم لا يملكون ولا يستطيعون أن يملكوا.

٥٥٦- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿مَّمْلُوكًا﴾ بعد قوله: ﴿عَبْدًا﴾ وما فائدة قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بعد قوله: ﴿مَّمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥]؟

قلنا: لفظ العبد يصلح للحر والمملوك؛ لأن الكل عبيد الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠] فقال مملوكًا لتمييزه عن الحر، وقال: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] لتمييزه عن المأذون والمكاتب فإنهما يقدران على التصرف والاستقلال.

٥٥٧- **فإن قيل:** المضروب به المثل اثنان وهما المملوك والمرزوق رزقًا حسنًا فظاهره أن يقال هل يستويان، فكيف قال تعالى: ﴿يَسْتَوُونَ﴾ [النحل: ٧٥]؟

قلنا: لأنه أراد جنس المماليك وجنس المالكين لا مملوكًا معينًا ولا مالكًا معينًا.

الثاني: أنه أجرى الاثنين مجرى الجمع.

الثالث: أن «مَنْ» تقع على الجمع، ولقائل أن يقول على الوجه الثالث يلزم منه أن يصير المعنى ضرب الله مثلًا عبدًا مملوكًا وجماعة مالكين هل يستوون إنه لا يحسن مقابلة الفرد بالجمع في التمثيل.

٥٥٨- **فإن قيل:** «أو» في الخبر للشك، والشك على الله تعالى محال، فما معنى قوله: ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ [النحل: ٧٧]؟

قلنا: قيل «أو» هنا بمعنى بل كما في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة: ٧٤] وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] ويرد على هذا أن بل للإضراب، والإضراب رجوع عن الإخبار وهو على الله محال.

وقيل: هي بمعنى الواو في هذه الآيات.

وقيل: أو للشك في الكل لكن بالنسبة إلينا لا إلى الله تعالى، وكذا في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] يعني بالنسبة إلى نظر النبي ﷺ.

وقال الزّجّاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب مِن لمح البصر؛ ولكن المراد وصف قدرة الله على سرعة الإتيان بها متى شاء.

٥٥٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ولم يقل

والبرد؛ مع أن السرابيل وهي الثياب تلبس لدفع الحر والبرد وهي مخلوقة لهما؟

قلنا: حذف ذكر أحدهما لدلالة ضده عليه كما في قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولم يقل والشر، وكما قال الشاعر:

وَمَا أدرِي إذَا يَمَّمْتُ أرْضًا ... أرِيدُ الخَيرَ أيُّهُمَا يَلِينِي[1]

أي أريد الخير لا الشر، أو أريد الخير وأحذر الشر.

٥٦٠- **فإن قيل:** لم كان ذكر الخير والحر أولى من ذكر الشر والبرد؟

قلنا: لأن الخير مطلوب العباد من ربهم ومرغوبهم إليه، أو لأنه أكثر وجودًا في العالم من الشر، وأما الحر فلأن الخطاب بالقرآن أول ما وقع مع أهل الحجاز، والوقاية من الحر أهم عنده لأن الحر في بلادهم أشد من البرد.

٥٦١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[النحل: ٨٣]، مع أن كلهم كافرون؟

قلنا: قال الزمخشري: الأحسن أن المرادَ بالأكثر هنا الجمع، وفي هذا نظر؛ لأن بعض الناس لا يجوز إطلاقُ اسم البعض على الكل؛ لأنه ليس لازمًا له بخلاف عكسه.

٥٦٢- **فإن قيل:** ما فائدة قول المشركين عند رؤية الأصنام ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾[النحل: ٨٦] والله تعالى عالم بذلك؟

قلنا: لما أنكروا الشركَ بقولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٢٣] عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم وأنطق جوارحهم، فقالوا عند معاينة آلهتهم ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾[النحل: ٨٦]، أي قد أقررنا بعد الإنكار وصدقنا بعد الكذب طلبًا للرحمة وفرارًا من الغضب، فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب لا على وجه إعلام مَنْ لا يعلم.

الثاني: أنهم لما عاينوا عظيم غضب الله تعالى وعقوبته قالوا: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾[النحل: ٨٦]، رجاء أن يلزم الله الأصنام ذنوبهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون لها

---

(١) من الوافر – للمثقب العبدي والشاهد فيه قوله: «أريد الخير» يريد: أريد الخير وأحذر الشر وانظر (ديوانه ٢١٢ وخزانة الأدب ٦/ ٣٧ وشرح شواهد المغني ١/ ١٩١ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ١٠٤٧).

العقلَ والتمييز فيخف عنهم العذاب.

٥٦٣- فإن قيل: لم قالت الأصنام للمشركين: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦] وكانوا صادقين فيما قالوا؟

قلنا: إنما قالت لهم ذلك لتظهر فضيحتهم، وذلك أن الأصنام كانت جمادًا لا تعرف من يعبدها، فلم تعلم أنهم عبدوها في الدنيا فظهرت فضيحتهم حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

٥٦٤- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فإذا كان القرآن تبيانًا لكل شيء من أمور الدين، فمن أين وقع بين الأمة في أحكام الشريعة هذا الخلافُ الطويلُ العريضُ؟

قلنا: إنما وقع الخلاف بين الأمة لأن كل شيء يحتاج إليه من أمور الدين ليس مبينًا في القرآن نصًّا، بل بعضه مبين وبعضه مستنبط بيانه منه بالنظر والاستدلال، وطريق النظر والاستدلال مختلفة فلذلك وقع الخلافُ.

٥٦٥- فإن قيل: كثير مِن أحكام الشريعة لم تعلم مِن القرآن نصًّا ولا استنباطًا كعدد ركعات الصلاة، ومقادير باقي الأعضاء، ومدة السفر والمسح والحيض، ومقدار حد الشرب، ونصاب السرقة، وما أشبه ذلك مما يطول ذكره؟

قلنا: القرآن تبيان لكل شيء من أمور الدين؛ لأنه نص على بعضها، وأحال على السنة في بعضها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] وأحال على الإجماع أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] الآية، وأحال على القياس أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] والاعتبار: النظر والاستدلال، فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلها مذكورة في القرآن فصح كونه تبيانًا لكل شيء.

٥٦٦- فإن قيل: كيف وُحِّدت القدم ونُكِّرت في قوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤]، ولم يقل القدم أو الأقدام، وهو أشد مناسبة لجمع الإيمان؟



قلنا: وُحِّدت ونُكِّرت في قوله تعالى لاستعظام أن تزل قدم واحدة على طريق الجنة فكيف بأقدام كثيرة؟

٥٦٧- **فإن قيل:** «مَنْ» تتناول الذكر والأنثى لغة، ويؤيده قوله تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ [الأنعام ١٦٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ونظائره كثيرة، فكيف قال تعالى هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [النحل: ٩٧]؟

قلنا: إنما صرح بذكر النوعين هنا لسبب اقتضى ذلك، وهو أن النساءَ قُلْنَ: ذكر الله تعالى الرجالَ في القرآن بخير ولم يذكر النساء بخير، فلو كان فينا خير لذكرنا به، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية، وأنزل ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] فذهب عن النساء وهم تخصيصهن عن العمومات.

٥٦٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (١) [النحل: ٧٩]، وقد رأينا كثيرًا من الصلحاء والأتقياء قطعوا أعمارهم في المصائب والمحن وأنواع البلايا باعتبار الأمثل فالأمثل إلى الأنبياء؟

قلنا: المراد بالحياة الطيبة الحياة في القناعة. وقيل: في الرزق الحلال. وقيل: في رزق يوم بيوم. وقيل: التوفيق للطاعات. وقيل: في حلاوة الطاعات. وقيل: في الرضا بالقضاء، وقيل المراد به الحياة في القبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقيل: المراد به الحياة في الدار الآخرة، وهي الحياة الحقيقية لأنها حياة لا موت بعدها دائمة في النعيم المقيم، والظاهر أن المراد به الحياة في الدنيا لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ [النحل: ٩٧] وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

---

(١) كذا بالأصل والظاهر أن السؤال هو: كيف قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] كما يقتضيه بقية السؤال والجواب عنه.

٥٦٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، وكثير من الصحابة وغيرهم كانوا كافرين فهداهم الله تعالى إلى الإيمان؟

قلنا: المراد من هذا الكافرون الذين علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر ويؤيده ما بعد ذلك من الآيتين.

٥٧٠- **فإن قيل:** ما معنى إضافة النفس إلى النفس في قوله تعالى: ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: ١١١] والنفس ليس لها نفس أخرى؟

قلنا: النفس اسم للروح وللجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير.

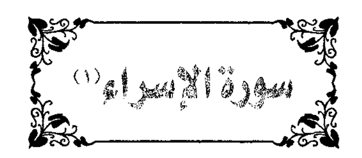
وقيل: هي اسم لجملة الإنسان لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥] والنفس أيضًا اسم لعين الشيء وذاته، كما يقال: نفس الذهب والفضة محبوبة، أي عينهما وذاتهما، فالمراد بالنفس الأولى الإنسان وبالثانية ذاته، فكأنه يوم يأتي كل إنسان يجادل عن نفسه، أي ذاته لا يهمه شأن غيره، كل يقول: نفسي نفسي، فاختلف معنى النفسين.

٥٧١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ [النحل: ١١٢]، والإذاقة لا تناسب اللباسَ وإنما تناسبه الكسوةَ؟

قلنا: الإذاقة تناسب المستعار له وهو الجوع من حيث أن الجوع يقتضي الأكل فيقتضي الذوق، وإن كانت لا تناسب المستعار وهو اللباس والكسوة تناسب المستعار وهو اللباس، ولا تناسب المستعار له وهو الجوع، وكلاهما من دقائق علم البيان، يسمى الأول تجريد الاستعارة، والثاني ترشيح الاستعارة فجاء القرآن العزيز في هذه الآية بتجريد الاستعارة، وقد ذكرنا تمام هذا في كتابنا «روضة الفصاحة» ولباس الجوع والخوف استعارة لما يظهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف من الصفرة والنحول، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٦] استعار اللباس لما يظهر على المتقي من أثر التقوى.

وقيل: إن فيه إضمارًا تقديره: فأذاقها الله طعم الجوع، وكساها لباس الخوف.

* * *



سورة الإسراء(١)

٥٧٢- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بصفيه ونحو ذلك، مع أن المقصود من ذلك الإسراء تعظيمه وتبجيله؟

قلنا: إنما سماه عبدًا في أرفع مقاماته وأجله وهو هذا، وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، كيلا يغلط فيه أمته وتضل به كما ضلت أمة المسيح به فدعته إلهًا.

وقيل: كيلا يتطرق إليه العجب والكبر.

٥٧٣- فإن قيل: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما فائدة ذكر الليل؟

قلنا: فائدته أنه ذكر منكرًا ليدل على قصر الزمان الذي كان فيه الإسراء والرجوع، مع أنه كان من مكة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة، وذلك لأن التنكير يدل على البعضية، ويؤيده قراءة عبد الله وحذيفة من الليل، أي بعض الليل كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] فإنه أمر بالقيام في بعضه.

٥٧٤- فإن قيل: أي حكمة في نقله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، ثم العروج به من بيت المقدس إلى السماء، وهلا عرج به من مكة إلى السماء دفعة واحدة؟

قلنا: لأن بيت المقدس محشر الخلائق، فأراد الله تعالى أن يطأها قدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم عليها ببركة أثر قدمه ﷺ.

الثاني: أن بيت المقدس مجمع أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأراد الله تعالى أن يشرفهم بزيارته ﷺ.

---

(١) صرح الآلوسي بأنها سميت بسورة الإسراء لاختصاصها بذكر الإسراء بالنبي ﷺ في أولها، وسميت أيضًا بسورة بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي. وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير، والترمذي في أبواب التفسير. ووجه ذلك أنها ذكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها. وهو استيلاء قوم أولي بأس «الآشوريين» عليهم ثم استيلاء قوم آخرين وهم «الروم» عليهم وتسمى أيضًا سورة «سبحان»؛ لأنها افتتحت بهذه الكلمة، انظر: تفسير الآلوسي وبصائر ذوي التمييز والتحرير والتنوير.

الثالث: أنه أسرى به إلى البيت المقدس ليشاهد من أحواله وصفاته ما يخبر به كفار مكة صبيحة تلك الليلة، فيدلهم إخباره بذلك مطابقًا لما رأوا وشاهدوا على صدقه في حديث الإسراء.

٥٧٥- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل باركنا عليه أو باركنا فيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله خصوصًا المسجد الأقصى؟

قلنا: أراد البركةَ الدنيويةَ بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة وذلك حوله لا فيه.

وقيل: أراد البركة الدينية فإنه مقرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومتعبدهم ومهبط الوحي والملائكة، وإنما قال: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ ليكون بركته أعم وأشمل، فإنه أراد بما حوله ما أحاط به من أرض بلاد الشام وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس، ولأنه إذا كان هو الأصل وقد بارك في لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مباركًا فيه بالطريق الأولى، بخلاف العكس.

وقيل: المراد البركة الدنيوية والدينية ووجههما ما مرّ.

وقيل: المراد ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ من بركة نشأت منه فعمت جميع الأرض، فإن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت الصخرة التي في بيت المقدس!

٥٧٦- **فإن قيل:** ما وجه ارتباط قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[الإسراء: ٣] بما قبله ومناسبته له؟

قلنا: معناه لا تتخذوا من دوني ربًّا فتكونوا كافرين، ونوح كان عبدًا شكورًا وأنتم ذرية مَنْ آمن به وحمل معه، فتأسوا به في الشكر كما تأسى به آباؤكم.

٥٧٧- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾[الإسراء: ٧] ، ولم يقل: فعليها، كما قال الله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾[فصلت: ٤٦] .

قلنا: اللام هنا بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾[الصافات: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾[الإسراء: ١٠٩] .

وقيل: معناه: فلها رجاء بالرحمة، أو فلها مخلص بالتوبة والاستغفار. والصحيح أنّ اللام هنا على بابها؛ لأنّها للاختصاص، وكل عامل مختص بجزاء عمله حسنة

كانت أو سيئة، وقد سبق مثل هذا مستوفى في آخر سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦].

٥٧٨- فإن قيل: كيف قال الله تعالى، هنا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾[الإسراء: ١٢]، وقال في قصة مريم وعيسى عليهما السلام، ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ٩١]، ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[المؤمنون: ٥٠] مع أن عيسى كان وحده آيات شتى؛ حيث كلَّم الناس في المهد، وكان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق الطير وغير ذلك وأمه وحدها كانت آية حيث حملت من غير فحل؟

قلنا: إنما أراد به الآية التي كانت مشتركة بينهما ولم تتم إلا بهما، وهي ولادة ولد من غير فحل، بخلاف الليل والنهار والشمس والقمر.

الثاني: أن فيه آية محذوفة إيجازًا واختصارًا تقديره: وجعلناها آية وابنها آية، وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية.

٥٧٩- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء: ١٢]، والإبصار مِنْ صفات ما له حياة، والمراد بآية النهار إما الشمس أو النهار نفسه؛ وكلاهما غير مبصر؟

قلنا: المبصرة في اللغة بمعنى المضيئة، نقله الجوهري.

وقال غيره: معناه بينة واضحة ومنه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء: ٥٩]، أي آية واضحة مضيئة، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾[النمل: ١٣].

الثاني: معناه: مبصرًا بها إن كانت الشمس، أو فيها إن كانت النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[يونس: ٦٧] أي مبصرًا فيه، ونظيره قولهم: ليلٌ نائمٌ ونهار صائمٌ: أي يُنام فيه ويُصام فيه.

الثالث: أنه فعل رباعي منقول بالهمزة عن الثلاثي الذي هو بصر بالشيء؛ أي علم به، فهو بصير، أي عالم معناه أنه يجعلهم بصراء، فيكون أبصره بمعنى بصره، وعلى هذا حمل الأخفش[1] قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي تبصِّرهم

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي الأخفش، اختلف في تاريخ وفاته فقيل: سنة ٢١٠هـ وقيل: ٢١٥هـ، وقيل: ٢٢١هـ.

فتجعلهم بصراء.

الرابع: أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر وقدرة، وهو متحرك بإرادته امتثال أمر الله تعالى كما يتحرك الإنسان!

٥٨٠- **فإن قيل:** ما الفائدة في ذكر عدد السنين؛ مع أنه لو اقتصر على قوله لتعلموا الحساب دخل فيه عدد السنين إذ هو مِن جملة الحساب؟

قلنا: العدد كله موضوع الحساب كبدن الإنسان فإنه موضوع الطب، وأفعال المكلفين موضوع الفقه، وموضوع كل علم مغاير له وليس جزءًا منه، كبدن الإنسان ليس جزءًا من الطب، ولا أفعال المكلفين جزءًا من الفقه؛ فكذا العدد ليس جزءًا من الحساب، وإنما ذكر عدد السنين وقدمه على الحساب، لأن المقصود الأصلي من محو الليل وجعل آية النهار مبصرة علم عدد الشهور والسنين، ثم يتفرع من ذلك علم حساب التاريخ وضرب المدد والآجال.

٥٨١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى هنا: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال في موضع آخر ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؟

قلنا: مواقف القيامة مختلفة، ففي موقف يكل الله حسابهم إلى أنفسهم وعلمه محيط به، وفي موقف يحاسبهم هو.

وقيل: هو الذي يحاسبهم لا غيره، وقوله تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها عالم بذلك، فهو توبيخ وتقريع لا أنه تفويض لحساب العبد إلى نفسه.

وقيل: مَن يريد مناقشته في الحساب يحاسبه بنفسه، ومَن يريد مسامحته فيه يكل حسابه إليه.

٥٨٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الإسراء: ١٥]، يرد ما جاء في الأخبار أن في يوم القيامة يؤخذ من حسنات المغتاب والمديون ويزاد في حسنات رب الدين والشخص الذي اغتيب، فإن لم تكن لهما حسنات يوضع عليهما من سيئات خصميهما، وكذلك جاء هذا في سائر المظالم؟

قلنا: المراد من الآية أنها لا تحمله اختيارًا ردًّا على الكافرين حيث قالوا للذين

آمنوا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَـٰيَـٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢] الآيتين، والمراد من الخبر أنها تحمله كرها فلا تنافي، وقد سبق هذا مرة في آخر سورة الأنعام.

٥٨٣- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال في آية أخرى ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]؟

قلنا: فيه إضمار تقديره أمرناهم بالطاعة ففسقوا، وقال الزّجّاج: ومثله قولهم أمرته فعصاني، وأمرته فخالفني؛ لا يفهم الأمر بالمعصية، ولا الأمر بالمخالفة.

الثاني: أن معناه كثرنا مترفيها، يقال أمرته وآمرته بالمد والقصر يعني كثرته، وقد قرئ بهما، ومنه الحديث: «**خَيْرُ الْمَالِ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ وَسِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ**»[1]، أي كثيرة النتاج والنسل.

الثالث: أن معناه أمرنا مترفيها بالتشديد، يقال أمرت فلانًا بمعنى أمرته: أي جعلته أميرًا، فمعنى الآية سلطانهم بالإمارة، ويعضد هذا الوجه قراءة من قرأ ﴿أَمَّرۡنَا﴾ بالتشديد.

وقال الزمخشري رحمه الله: لا يجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؛

---

(١) ضعيف الإسناد: رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٦٨) ولفظه: عَنْ سُوَيْدِ بْنِ هُبَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ مَالِ الْمَرْءِ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ**»، وهذا مرسل، فسويد بن هبيرة تابعي على الراجح قال الحافظ في تعجيل المنفعة ص ١٧٢: يقال: إن له صحبة، وقال أبو حاتم: تابعي ليست له صحبة روى عنه إياس بن زهير، قلت: إنما هو العبدي منسوب إلى بني الديل بن عمرو بطن من عبد القيس نبه عليه ابن الأثير في الصحابة وقد وقع حديثه في ثاني المكيين قال أحمد: ثنا روح بن عبادة، ثنا أبو نعامة العدوي، عن مسلم بن نذير، عن إياس بن زهير، عن سويد بن هبيرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير المال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة**» قال أبو حاتم الرازي: لم يقل أحد عن أبي نعامة سمعت إلا روح وقال: غلط فيه روح، وإنما هو تابعي وذكر البخاري أن معاذ بن معاذ رواه عن أبي نعامة بسنده إلى سويد فقال: بلغني عن النبي ﷺ، وقال: عبد الوارث عن أبي نعامة بسنده إلى سويد يرفع الحديث، – وهو كذلك في الطبراني – وجزم ابن حبان بأنه يروي المراسيل، وانظر: الإصابة (٣/ ٢٢٩)، وقوله: «**مهرة مأمورة**» أي: كثيرة النتاج، انظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٥)، قال ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٣): وفي الخبر: «**خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة**» السكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: الملقحة يقال: أبرت النخلة وأبرتها فهي مأبورة ومؤبرة وقيل: السكة سكة الحرث، والمأبورة: المصلحة له، أراد خير المال نتاج أو زرع.

لأن حذف ما لا دليل عليه في اللفظ غير جائز، فكيف يقدر حذف ما قام الدليل في اللفظ على نقيضه؛ وذلك لأن قوله: ﴿فَفَسَقُواْ﴾ يدل على أن المأمور به المحذوف هو الفسق وهو كلام مستفيض، يقال: أمرته فقام وأمرته فقعد وأمرته فقرأ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به القيام والقعود والقراءة، بخلاف قولهم أمرته فعصاني وأمرته فخالفني، حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية والمخالفة؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر وينافيه مأمورًا به، فيكون المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي، والمتكلم بمثل هذا لا ينوي لأمره مأمورًا به، بل كأنه قال: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، أو كانت منه مخالفة، كما تقول: مر زيدًا يطعك، وكما تقول: فلان يأمر وينهى، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويضر وينفع، فإنك لا تنوي مفعولًا.

٥٨٤- **فإن قيل:** على هذا حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا، وهذا لا يكون من الله، فلا يقال يقدر الفسق محذوفًا ولا مأمورًا به.

قلنا: الفسق المحذوف المقدر مجاز عن إترافهم وصب النعم عليهم صبًّا أفضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصي ووسيلة إلى اتباع الشهوات؛ فكأنهم أمروا بذلك لما كان السبب في وجوده الإتراف وفتح باب النعم.

٥٨٥- **فإن قيل:** لم لا يكون ثبوت العلم بأن الله لا يأمرُ بالفحشاءِ، وإنما يأمرُ بالطاعة والعدل والخير دليلًا على أن المرادَ أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟.

قلنا: لو جاز مثلُ هذا الإضمار والتقدير لكان المتكلم مريدًا مِن مخاطبه علم الغيب؛ لأنه أضمر ما لا دلالة عليه في اللفظ بل أبلغ؛ لأنه أضمر في اللفظ ما يناقضه وينافيه، وهو قوله: ﴿فَفَسَقُواْ﴾؛ فكأنه أظهر شيئًا وادعى إضمار نقيضه فكان صرف الأمر إلى ما ذكرنا من المجاز هو الوجه. هذا كله كلام الزمخشري، ولا أعلم أحدًا من أئمة التفسير صار إليه غيره؛ ثم إنه أيده فقال: ونظير أَمَر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده تقول: لو شاء فلان لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان لأحسن ولو شاء الإساءة إليك لأساء، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت وتعني ولو شاء الإساءة لأحسن إليك، ولو شاء الإحسان لأساء

إليك، وتقول قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان دائمًا ومن أهل الإساءة دائمًا، فيترك الظاهر المنطوق به ويضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم تكن على سداد.

٥٨٦- **فإن قيل:** على الوجه الأول لو كان المضمر المحذوف الأمر بالطاعة، كان مخصوصًا بالمترفين، لأن أمر الله تعالى بالطاعة عام للمترفين وغيرهم.

قلنا: أمر اللهُ بالطاعة وإن كان عامًّا ولكن لما كان صلاحُ الأمراء والرؤساء وفسادهم مستلزمًا لصلاح الرعية وفسادها غالبًا خصهم بالذكر، ويؤيد هذا ما جاء في الخبر: «**صَلَاحُ الْوَالِي صَلَاحُ الرَّعِيَّةِ، وَفَسَادُ الْوَالِي فَسَادُ الرَّعِيَّةِ**»(١).

٥٨٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: ١٨] الآية، يدل على أنْ من لم يزهد في الدنيا ولم يتركها كان من أهل النار، والأمر بخلافه.

قلنا: المراد مَن كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدنيا لا غير، ومثل هذا لا يكون إلا كافرًا أو منافقًا، ولهذا قال ابن جرير: هذه الآية لمن لا يؤمن بالمعاد، وأما من أراد من الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة فكيف يكون مذمومًا، مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكلية وعن جميع ما فيها لا يتصور في حق البشر ولو كانوا أنبياء، فعلم أن المراد ما قلنا.

٥٨٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] أي ممنوعًا، ونحن نرى ونشاهد في الواقع أن واحدًا أعطاه قناطير مقنطرة وآخر منعه العطاء حتى الدانق والحبة؟

قلنا: المراد بالعطاء هنا الرزق، والله تعالى سوى في ضمان الرزق وإيصاله بين البر والفاجر والمطيع والعاصي، ولم يمنع الرزق عن العاصي بسبب عصيانه، فلا تفاوت بين العباد في أصل الرزق، وإنما التفاوت بينهم في مقادير الأملاك.

٥٨٩- **فإن قيل:** كيف منع الله تعالى الكفارَ التوفيقَ والهداية ولم يمنعهم الرزقَ؟

قلنا: لأنه لو منعهم الرزق لهلكوا وصار ذلك حجة لهم يوم القيامة، بأن يقولوا لو

---

(١) لم أقف عليه مرفوعًا وروي من قول الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ، انظر: كشف الخفاء (٢/ ٤١٣).

أمهلتنا ورزقتنا لبقينا أحياء فآمنا.

الثاني: أنه لو أهلكهم بمنع الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة، فيتعطل معنى اسمه الحليم عن معناه؛ لأن الحليم هو الذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه.

الثالث: أن منع الطعام والشراب مِن صفات البخلاء الأخساء، والله تعالى منزه عن ذلك.

وقيل: إعطاء الرزق لجميع العبيد عدل، وعدل الله عام، وهبته التوفيق والهداية فضل، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

٥٩٠- **فإن قيل:** ما فائدة قوله: «عندك» في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣].

قلنا: فائدته أنهما يكبران في بيته وكنفه ويكونان كَلًّا عليه لا كافل لهما غيره، وربما تولى منهما من المشاق ما كانا يتوليان منه في حال الطفولية.

٥٩١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يقل ولا تزنوا؟

قلنا: لو قال ولا تزنوا كان نهيًا عن الزنا لا عن مقدماته كاللمس والمعانقة والقبلة ونحو ذلك، ولما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ كان نهيًا عنه وعن مقدماته، لأن فعل المقدمات قربان للزنا.

٥٩٢- **فإن قيل:** الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٨] على ماذا تعود؟

قلنا: الإشارة إلى كل ما هو منهي عنه من جميع ما ذكر من قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى هذه الآية؛ لا إلى جميع ما ذكر فإن فيه حسنًا وسيئًا.

وقال أبو علي: هو إشارة إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ [الإسراء: ٣٦] وما بعده؛ لأنه لا حسن فيه.

٥٩٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فقوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يتناول أهل الأرضين كلهم، والمراد به العموم كما هو

مقتضى الصيغة بدليل تأكيده بقوله تعالى بعده ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] والتسبيح هو التنزيه عن كل ما لا يليق بصفات جلاله وكماله، والكفار يضيفون إليه الزوج والولد والشريك وغير ذلك، فأين تسبيحهم؟

قلنا: الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ راجع إلى السموات فقط.

الثاني: أنه راجع إلى السموات والأرض، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يعني من المؤمنين، فيكون عامًّا أريد به الخاص، وعلى هذا يكون المراد بالتسبيح إلى من فيهن التسبيح بلسان المقال.

الثالث: أن المراد به التسبيح بلسان الحال حيث تدل على وجود الصانع وعظيم قدرته ونهاية حكمته، فكأنها تنطق بذلك وتنزهه عما لا يجوز عليه وما لا يليق به من السوء، ويؤيده قوله تعالى بعده ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ والتسبيح العام لجميع الموجودات إنما هو التسبيح بلسان الحال.

٥٩٤- **فإن قيل:** لو كان المراد هو التسبيح بلسان الحال لما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ لأن التسبيح بلسان الحال مفقوه لنا، أي مفهوم ومعلوم؟

قلنا: الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ للكفار، وهم مع تسبيحهم بلسان الحال لا يفقهون تسبيح الموجودات على ما ذكرنا من التفسير؛ لأنهم لما جعلوا لله شركاء وزوجًا وولدًا دل ذلك على عدم فهمهم التسبيح للموجودات وتنزيهها وعدم إيضاح دلائل الوحدانية لهم؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم.

٥٩٥- **فإن قيل:** ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ وهم الملائكة والثقلانِ يسبحون حقيقة والسموات والأرض والجمادات تسبح مجازًا، فكيف جمع بين إرادة الحقيقة والمجاز من لفظ واحد وهو قوله: ﴿تُسَبِّحُ﴾؟

قلنا: التسبيح المجازي بلسان الحال حاصل من الجميع، فيحمل عليه دفعًا لما ذكرتم من المجاز.

٥٩٦- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢] والمستعمل الشائع دعاه فاستجاب لأمره أو بأمره، أي أجاب؟

قلنا: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: المراد بقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ بأمره.

وقال سعيد بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا دعا الله الخلائق للبعث يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، وقال غيره وهم يقولون: الحمد لله الذي صدقنا وعده، فعلى هذا تكون الباء بمعنى مع كما في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠].

٥٩٧- **فإن قيل:** كيف أجمل ذكر الأنبياء كلهم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ [الإسراء: ٥٥]، ثم خص داود بالذكر فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥]؟.

قلنا: لأنه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الأنبياء، وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء في زمن واحد، قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦].

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ إشارة إلى تفضيل محمد ﷺ، وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داود عليه الصلاة والسلام وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يعني محمدًا ﷺ وأمته.

٥٩٨- **فإن قيل:** لم نكر الزبور هنا وعرفه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؟

قلنا: يجوز أن يكون الزبور من الأعلام التي تستعمل بالألف واللام وبغيرهما كالعباس والفضل والحسن ونحوها.

الثاني: أنه نكَّره هنا لأنه أراد وآتينا داود بعض الزبور وهي الكتب.

الثالث: أنه نكَّره لأنه أراد به ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبورًا؛ لأنه بعض الزبور، كما سمى بعض القرآن قرآنًا، فقال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] الآية، وقال: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: ٣] وأراد به سورة يوسف عليه السلام، وقال: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي القرآن المتلو في صلاة الفجر.

٥٩٩- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الإسراء: ٤٨] ﴿كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٦]، مغن عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] لأنهم إذا لم يستطيعوا كشف الضر لا يستطعون تحويله، لأن تحويل الضر نقله من محل وإثباته في محل آخر، ومنه تحويل الفراش والمتاع وغيرهما، وكشف الضر مجرد إزالة، وَمَنْ لا يقدر على الإزالة وحدها فكيف يقدر على الإزالة مع الإثبات؟ والمراد بالآية كشف الضر والمرض والقحط ونحوها؟

قلنا: التحويل له معنيان: أحدهما ما ذكرتم، والثاني التبديل، ومنه قولهم: حولت القميص قباء، والفضة خاتمًا؛ وأريد بالتبديل هنا الكشف؛ لأن في الكشف المنفي في الآية تبديلًا؛ فإن المرض متى كشف يبدل بالصحة، والفقر متى كشف يبدل بالغنى، والقحط متى كشف يبدل بالخصب، وكذا جميع الأضداد، فأطلق التبديل وأراد به الكشف، إلا أنه لم يرد به كشف الضر لئلا يلزم التكرار، بل أراد به مطلق الكشف الذي هو الإزالة، يعني فلا يستطيعون كشفَ الضر عنكم ولا كشفًا ما، ولهذا لم يقل ولا تحويله. وهذا الجواب مما فتح اللهُ عَلَيَّ به مِن خزائن جوده، ونظيره ما ذكرناه في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

٦٠٠- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] الآية فيها أسئلة:

أولها: أن الله تعالى لا يمنعه عما يريده مانع، فإن أراد إرسال الآيات فكيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية؟ وإن لم يرد إرسالها كان وجود تكذيبهم وعدمه سواء. وكان عدم الإرسال لعدم الإرادة.

الثاني: أن الإرسالَ يتعدى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١] فأي حاجة إلى الباء؟

الثالث: أن المراد بالآيات هنا ما اقترحه أهل مكة على رسول الله ﷺ من جعل الصفا ذهبًا، وإزالة جبال مكة ليتمكنوا من الزراعة، وإنزال مكتوب من السماء ونحو ذلك، وهذه الآيات ما أرسلت إلى الأولين ولا شاهدوها فكيف كذبوا بها؟

الرابع: أن تكذيبَ الأولين لا يمنعُ إرسالها إلى الآخرين لجواز أن لا يكذب الآخرون.

الخامس: أي مناسبة وارتباط بين صدر الآية وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾؟

السادس: ما معنى وصف الناقة بالإبصار؟

السابع: أن الظلم يتعدى بنفسه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء: ١١٠]، فأي حاجة إلى الياء، وهلا قال فظلموها يعني العقر والقتل؟

الثامن: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] يدل على الإرسال بها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ [الإسراء: ٥٩] يدل على عدم الإرسال بها؟

قلنا: الجواب عن الأول: أن المنع مجاز عبر به عن ترك الإرسال بالآيات، كأنه تعالى قال: وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا أن كذب بها الأولون.

وعن الثاني: أن الباء لتعدية الإرسال إلى المرسل به لا إلى المرسل، لأن المرسل محذوف وهو الرسول، تقديره: وما منعنا أن نرسل الرسل بالآيات، والإرسال يتعدى إلى المرسل بنفسه، وإلى المرسل به بالباء، وإلى المرسل إليه بإلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ [هود: ٩٦، ٩٧].

وعن الثالث: أن الضمير في قوله تعالى: «بها» عائد إلى جنس الآيات المقترحة لا إلى هذه الآيات المقترحة، كأنه تعالى قال: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة إلا تكذيب مَنْ قبلهم بالآيات المقترحة، يريد المائدة والناقة ونحوهما مما اقترحه الأولون على أنبيائهم.

وعن الرابع: أن سنة الله تعالى في عباده أن مَن اقترح على الأنبياء آية وأتوه بها فلم يؤمن عجل الله هلاكه، والله تعالى لم يرد هلاك مشركي مكة؛ لأنه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن، أو لأنه قضى وقدر في سابق علمه بقاء مِن بعث إليهم محمدﷺ إلى يوم القيامة، فلو أرسل بالآيات التي اقترحوها فلم يؤمنوا لأهلكهم وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم، فلذلك لم يرسلها، فيصير معنى الآية: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك إلا أن كذب بالآيات المقترحة الأولون فأهلكوا، فربما كذب بها قومك فأهلكوا.

وعن الخامس: أنه تعالى لما أخبر أن الأولين كذبوا بالآيات المقترحة عَيَّنَ منها

واحدة وهي ناقة صالح عليه السلام؛ لأن آثار ديارهم المهلكة في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم.

وعن السادس: أن معنى مبصرة دالة، كما يقال الدليل مرشد وهادٍ. وقيل: مبصرًا بها، كما يقال: ليل نائمٌ ونهار صائمٌ: أي يُنام فيه ويُصام فيه. وقيل: معناه مبصرة، يعني أنها تبصر الناس صحة نبوة صالح عليه السلام، ويعضد هذا قراءة مَنْ قرأ (مَبصَرة) بفتح الميم والصاد: أي تبصرة. وقيل: مبصرة صفة لآية محذوفة، تقديره: آية مبصرة: أي مضيئة بينة.

وعن السابع: أن الباء ليست لتعدية الظلم إلى الناقة؛ بل معناه: فظلموا أنفسهم بقتلها أو بسببها. وقيل: الظلم هنا الكفر، فمعناه: فكفروا بها؛ فلما ضُمِّن الظلم معنى الكفر عداه تعديته.

وعن الثامن: أن المراد بالآيات ثانيًا العبر والدلالات لا الآيات التي اقترحها أهل مكة.

٦٠١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وليس في القرآن لعن شجرة ما؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن.

الثاني: أن معناه: الملعون آكلوها وهم الكفرة.

الثالث: أن الملعونة يعني المذمومة كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما، وهي مذمومة في القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤] وبقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥].

الرابع: أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار ملعون، وفي القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها.

الخامس: أن اللعن في اللغة الطرد والإبعاد، والملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى المبعد، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة لأنها في قعر جهنم وهذا الإبعاد والطرد مذكور في القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤]، وقال ابن الأنباري: سميت ملعونة لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل.

٦٠٢- **فإن قيل:** كيف خَصَّ أصحابَ اليمين بقراءة كتبهم بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ

كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ ﴾ [الإسراء: ٧١] ولم خصهم بنفي الظلم عنهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧١] مع أن أصحاب الشمال يقرؤون كتابهم ولا يظلمون أيضًا؟

قلنا: إنما خص أصحاب اليمين بذكر القراءة؛ لأن أصحاب الشمال إذا رأوا ما في كتبهم من الفضائح والقبائح أخذهم من الحياء والخجل والخوف ما يوجب حبسة اللسان وتتعتُعِ الكلام والعجز عن إقامة الحروف، فتكون قراءتهم كلا قراءة؛ فأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩] وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ فهو عائد إلى كل الناس لا إلى أصحاب اليمين.

الثاني: أنه عائد إلى أصحاب اليمين خاصة، وإنما خصصهم بذلك لأنهم يعلمون أنهم لا يظلمون، ويعتقدون ذلك بخلاف أصحاب الشمال فإنهم يعتقدون أو يظنون أنهم يظلمون، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴾ [طه: ١١٢].

٦٠٣- **فإن قيل:** كيف قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] يعني الآيات، ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] يعني بينات وحججًا واضحات، وفرعون لم يعلم ذلك؛ لأنه لو علم ذلك لم يقل لموسى عليه السلام ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٠١] أي مخدوعًا، أو قد سحرت أو ساحرًا مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال، بل كان يؤمن به، وكيف يعلم ذلك وقد طبع الله على قلبه وأضله وحال بينه وبين الهدى والرشاد، ولهذا قرأ علي كرم الله وجهه (لَقَد عَلِمتُ) بضم التاء وقال: والله ما علم عدو الله ولكن موسى عليه السلام هو الذي علم. واختار الكسائي وثعلب قراءة علي رضي الله عنه ونصراها بأنه لما نسبه إلى أنه مسحور أعلمه بصحة عقله بقوله: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ ﴾؟

قلنا: معناه لقد علمت لو نظرتَ نظرًا صحيحًا إلى الحجة والبرهان، ولكنك معاند مكابر تخشى فوات دعوى الإلهية لو صدقتني فكان فرعون ممن أضله الله على علم، ولهذا بلغ ابن عباس قراءة علي رضي الله عنهما ويمينه فاحتج بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا

وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

٦٠٤- **فإن قيل:** كيف قال موسى عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وموسى عليه السلام كان عالمًا بذلك لا شك عنده فيه؟

قلنا: قال أكثر المفسرين: الظن هنا بمعنى العلم كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦] وإنما أتى بلفظ الظن ليعارض ظن فرعون بظنه، كأنه قال: إن ظننتني مسحورًا فأنا أظنك مثبورًا والمثبور الهالك والمصروف عن الخيرات أو الملعون والخاسر.

٦٠٥- **فإن قيل:** كيف كرر تعالى الإخبار بالخرور؟

قلنا: كرره ليدل على تكرار الفعل منهم.

الثاني: أنه كرره لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين وفي حال كونهم باكين.

الثالث: أنه أراد بالخرور الأول الخرور في حالة سماع القرآن وقراءته، وبالخرور الثاني الخرور في سائر الحالات وباقيها.

٦٠٦- **فإن قيل:** الحمد إنما يكونُ على نعمة أنعم الله تعالى بها على العبد، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١] لأن فيها من المنافع لنا ما لا يعد ولا يحصى، فأي نعمة حصلت لنا من كون الله تعالى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولا ناصر حتى قال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء: ١١١] الآية؟

قلنا: النعمة في ذلك أن المَلِكَ إذا كان له ولدٌ وزوجٌ فإنما ينعم على عبيده بما يفضل عن ولده وزوجه، وإذا لم يكن له ولدٌ وزوج كان جميع إنعامه وإحسانه مصروفًا إلى عبيده، فكان نفي اتخاذ الولد مقتضيًا مزيد الإنعام عليهم، وأما نفي الشريك فلأنه يكون أقدر على الإنعام على عبيده لعدم المزاحم، وأما نفي النصير فلأنه يدل على القوة والاستغناء، وكلاهما يقتضي القدرة على زيادة الإنعام، والله أعلم وأحكم.

* * *

سورة الكهف(١)

٦٠٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ يعني مستقيمًا، وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، مُغْنٍ عن قوله قيمًا لأنه متى انتفى العوج ثبتت الاستقامة، لأن العوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد به هنا نفي الاختلاف والتناقض في معانيه، وأنه لا يخرج منه شيء عن الصواب والحكمة. وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيمًا ولم يجعل له عوجًا.

قلنا: قال الفراء: معنى قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ قائمًا على الكتب السماوية كلها مصدقًا لها شاهدًا بصحتها ناسخًا لبعض شرائعها، فعلى هذا لا تكرار فيه، وعلى القول المشهور يكون الجمع بُينهما للتأكيد سواء قدر قيمًا مقدمًا أو أقر في مرتبته، ونصب بفعل مضمر تقديره: ولكن جعله قيمًا. ولابد من هذا الإضمار أو من التقديم والتأخير وإلا يصير المعنى: ولم يجعل له عوجًا مستقيمًا والعوج لا يكون مستقيمًا.

٦٠٨- **فإن قيل:** اتخذ الله تعالى ولدًا محال فكيف قال: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الكهف: ٥] وإنما يستقيم أن يقال فلان ما له علم بكذا إذا كان ذلك الشيء مما يعلمه غيره أو مما يصح أن يعلم، كقولنا زيد ماله علم بالعربية أو بالحساب أو بالشعر ونحو ذلك.

قلنا: معناه ما لهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وهذا لأن انتفاء العلم بالشيء تارة يكون للجهل بالطريق الموصل إليه، وتارة يكون لاستحالة العلم به؛ لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. وما نحن فيه من هذا القبيل.

---

(١) سماها رسول الله ﷺ سورة الكهف كما روى مسلم وأبو داود عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف**»، وفي رواية لمسلم: «**من آخر الكهف عصم من فتنة الدجال**» وكذلك وردت تسميتها عن البراء بن عازب في صحيح البخاري (٤٦٢٥). قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «**تلك السكينة تنزلت بالقرآن**».

٦٠٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢] وهو عالم بذلك في الأزل؟

قلنا: معناه لنعلم ذلك علم مشاهدة كما عَلِمْنَاهُ علم غيب.

٦١٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم ﴾ [الكهف: ١٩]، ولم يقل واحدكم؟

قلنا: لأنه أراد فردًا منهم أيهم كان، ولو قال واحدكم لدلّ على بعث رئيسهم ومقدمهم، فإن العرب تقول: رأيت أحد القوم، أي فردًا منهم ولا تقول: رأيت واحدًا لقوم إلا إذا أردت المقدم المعظم.

٦١١- **فإن قيل:** كيف جاء تعالى بسين الاستقبال في الفعل الأول دون الآخرين في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢] الآية؟

قلنا: أراد دخولَ الفعلين الآخرين في حكم الأول بمقتضى العطف، فاقتصر على ذكر السين في الأول إيجازًا واقتصارًا كما تقول: زيد قد يخرج ويركب، تريد وقد يركب.

٦١٢- **فإن قيل:** كيف دخلت الواوُ في الجملة الثالثة دون الأولين، وهي قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]؟

قلنا: قال بعضُ المفسرين هي واو الثمانية، وقد ذكرنا مثلها في آخر سورة التوبة.

وقال الزّجّاج: دخول هذه الواو وخروجها سواء في صفة النكرة، وجاء القرآن بهما.

وقال غيره: الواو مرادة في الجملتين الأوليين وإنما حذفت فيهما تخفيفًا، وأتى بها في الجملة الثالثة دلالة على إرادتها فيهما. ويرد على هذا القول، أنه لو كان كذلك لكانت مذكورة في الجملة الأولى، محذوفة في الجملة الثانية والثالثة، ليدل ذكرها أولًا على حذفها بعد ذلك، كما سبق في سين الاستقبال.

وقال الزمخشري وغيره: هي الواو التي تدخلُ على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الصفة الواقعة حالًا من المعرفة، تقول: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ

مَّعۡلُومٞ﴾ [الحجر: ٤] وفائدتها توكيد اتصال الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي أذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [الكهف: ٢٢] وأتبع القول الثالث قوله: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ [الكهف: ٢٢].

وقال ابن عباس: وقعت الواو لقطع العدد: أي لم يبق بعدها عددٌ عاد يلتفت إليه، ويثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبتات.

وقال الثعلبي[1]: هذه واو الحكم والتحقيق، كأن الله حكى اختلافهم فتم الكلامُ عند قوله سبعة، ثم حكى بأن ثامنهم كلبهم باستئنافه الكلام، فحقق ثبوت العدد الأخير، لأن الثامن لا يكون إلا بعد السبعة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ [الكهف: ٢٢] من كلام الله تعالى حقيقة أو تقديرًا.

ويرد على هذا أن قوله تعالى بعد هذه الواو ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ [الكهف: ٢٢] يدل على بقاء الإبهام وعدم زوال اللبس بهذه الواو.

٦١٣- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ [النحل: ١٠١] ويلزم مِن تبديل الآية بالآية تبديل الكلمات فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: معنى الأول لا مغير للقرآن من البشر، وهو جواب لقولهم للنبي ﷺ: ائت بقرآن غير هذا أو بدله.

الثاني: أن معناه لا خلف لمواعيده ولا مغير لحكمه، ومعنى الثاني النسخ والتبديل من الله تعالى فلا تنافي بينهما.

٦١٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩] إباحة وإطلاق للكفر؟

---

(١) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المفسر توفي سنة ٤٢٧هـ.

قلنا: قال ابن عباس ﵄ معناه: فَمَنْ شاء ربكم فليؤمن وَمَنْ شاء ربكم فليكفر، يعني لا إيمان ولا كفر إلا بمشيئته.

الثاني: أنه تهديد ووعيد.

الثالث: أن معناه لا تنفعون الله بإيمانكم ولا تضرونه بكفركم، فهو إظهار للغنى لا إطلاق للكفر.

٦١٥- **فإن قيل:** لبس الأساور في الدنيا عيبٌ للرجال، ولهذا لا يلبسها مَن يلبس الذهبَ والحريرَ مِن الرجال، فكيف وعدها الله تعالى المؤمنين في الجنة في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]؟

قلنا: كانت عادة ملوك الفرس والروم لبس الأساور والتيجان مخصوصين بها دون من عداهم، فلذلك وعدها الله تعالى المؤمنين؛ لأنهم ملوك الآخرة.

٦١٦- **فإن قيل:** كيف أفرد الله تعالى الجنة بعد التثنية فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ [الكهف: ٣٥]؟

قلنا: أفردها ليدل على الحصر، معناه: ودخل ما هو جنته لا جنة له غيرها ولا نصيب له في الجنة التي وُعِد المتقون، بل ما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد جنة معينة منهما بل جنس ما كان له.

٦١٧- **فإن قيل:** كيف قال الأخ المؤمن لأخيه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨] وهذا تعريض بأن أخاه مشرك وليس في كلام أخيه ما يقتضي الشرك بل الكفر وهو قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦]؟

قلنا: إشراك أخيه الذي عرض له به هو اعتقاده أن زكاة جنته ونماءها بحوله وقوته، ولهذا قال له: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] ولهذا قال هو أيضًا لما أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] فاعترف بالشرك.

٦١٨- **فإن قيل:** ما فائدة أنا في قوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ﴾ [الكهف: ٣٩]؟

قلنا: أنا في مثل هذا الموضع تفيد حصر الخبر في المخبر عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] ونظائره كثيرة.

٦١٩- **فإن قيل:** ما معنى قوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٤٣]،

وكذلك كل ما أشبهه مما جاء في القرآن العزيز ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الشورى: ٦]، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧] وكيف تحقيق معناه؟

قلنا: «دون» يستعمل في كلام العرب بمعنى غير، كقولهم: لفلان مال دون هذا، ومن دون هذا، أي غير هذا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، أي من غيره، وتستعمل أيضًا بمعنى قبل، كقولهم المدينة دون مكة، أي قبلها، ومن دونه خرط القتاد، ولا أقوم من مجلسي دون أن تجيء، ولا أفارقك دون أن تعطيني حقي، وما أعلم أنها جاءت في القرآن العزيز بمعنى «قبل» بل بمعنى «غير» فقط.

٦٢٠- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] يعني في يوم الآخرة أو في يوم القيامة، والولاية بكسر الواو السلطان والملك، وبفتح الواو التولي والنصرة، وكل ذلك لله تعالى في الدنيا والآخرة يعز مَنَ يشاء ويذل مَن يشاء، وينصر مَن يشاء، ويخذل مَن يشاء، ويتولى من يشاء بحراسته وحفظه، فما فائدة تخصيص يوم القيامة؟

قلنا: فائدته أن الدعاوى المجازية كثيرة في الدنيا ويوم القيامة تنقطع كلها، ويسلم الملك لله تعالى عن كل منازع، وقد سبق نظير هذا السؤال في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

٦٢١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]، أي عاقبة، وغير الله تعالى لا يثيب ليكون الله خيرًا منه ثوابًا؟

قلنا: هذا على الفرض والتقدير معناه: لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل، ولكانت طاعته أحمد عاقبة وخيرًا من طاعة غيره.

٦٢٢- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧]، بلفظ الماضي وما قبله مضارعان وهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] أي لا شيء عليها يسترها كما كان في الدنيا؟

قلنا: للدلالة على أن حشرهم كان قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوالَ والعظائم كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك.

٦٢٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]، مع أنه أخبر أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر بقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؟

قلنا: الآية الأولى في حق الكافرين بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الكهف: ٤٩] والمراد بهم هنا الكافرون، كذا قال مجاهد، وقال غيره: كل مجرم في القرآن فالمراد به الكافر، والآية الثانية المراد بها المؤمنون؛ لأن اجتناب الكبائر لا يكون متحققًا مع وجود الكفر.

الثاني: لو ثبت أن المراد بالمجرم مطلق المذنب لم يلزم التناقض لجواز أن تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه فيعلم قدر نعمة العفو فإن أكثر ذنوب العبد ينساها خصوصًا الصغائر.

٦٢٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، يدل على أنه من الجن وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: ٥٠] يدل على أنه من الملائكة، فكيف الجمعُ بينهما؟

قلنا: فيه قولان:

أحدهما: أنه من الجن حقيقة عملًا بظاهر هذه الآية، ولأن له ذرية قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠] والملائكة لا ذرية لهم، ولأنه أكفر الكفرة وأفسق الفسقة، والملائكة معصومون عن الكبائر لأنهم رسل الله، وعن المعاصي مطلقًا لأنهم عقول مجردة بغير شهوة، ولا معصية إلا عن شهوة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٩] يعني الملائكة: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] فكيف يكون إبليسُ منهم ويؤمر بالسجود فيمتنع، فعلى هذا يكون استثناؤه من الملائكة استثناء من غير الجنس؛ أو يكون استثناء من جنس المأمورين بالسجود لا من جنس الملائكة، ويكون التقدير: وإذا قلنا للملائكة وإبليس اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كما تقول: أمرت إخوتي وعبدي بكذا فأطاعوني إلا عبدي، والعبد ليس من الإخوة ولا داخلًا فيهم إلا من

حيث شمله الأمر بالفعل معهم، فهذا كذلك.

القول الثاني: أنه كان من الملائكة قبل أن يعصي الله تعالى، فلما عصاه مسخه شيطانًا. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] لمخالفته، فتكون «كان» بمعنى «صار»، وقيل معناه: أنه كان من الجن في سابق علم الله تعالى وهذان القولان يدلان على أنه كان من الملائكة قبل المعصية. وروي عنه أيضًا أنه كان من خزان الجنة، وهم جماعة من الملائكة يسمون الجن، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: من الملائكة الذين هم خزان الجنة ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] بمخالفته فيكون استثناء من الجنس، وقال الزمخشري في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] هو استثناء متصل، لأنه كان جنيًا واحدًا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورًا بهم، فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ قلت: وفي هذا التعليل نظر؛ ثم قال بعده: ويجوز أن يجعل منقطعًا.

٦٢٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠]، والأولياء: الأصدقاء والأحباب وهم ضد الأعداء، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الكهف: ٥٠] وليس من الناس أحد يحب إبليس وذريته ويصادقهم؟

قلنا: المراد بالموالاة هنا إجابة الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصي ويوسوسون في صدورهم وطاعتهم إياهم، فالموالاة مجاز عن هذا لأنه من لوازمها.

٦٢٦- **فإن قيل:** قال تعالى هنا: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ [الكهف: ٥٢] أي فلم يجب الأصنام المشركين، فنفى عن الأصنام النطق، وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦] يعني فكذبتهم الأصنام فيما قالوا، فأثبت لهم النطق فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: المراد بقوله هنا: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ [الكهف: ٥٢] أي نادوهم للشفاعة لكم أو لدفع العذاب عنكم، فدعوهم فلم يجيبوهم لذلك، فنفى عنهم النطق بالإجابة إلى الشفاعة ودفع العذاب عنهم، وفي سورة النحل أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادته، فلا تناقض بين المنفي والمثبت.

٦٢٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ [الكهف: ٥٢]، وقال في سورة النحل: ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ [النحل: ٨٦]؟؟، قلنا: قوله تعالى: ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ [الكهف: ٥٢] معناه في زعمكم واعتقادكم، ولهذا قال: ﴿شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف: ٥٢] وأخرجه مخرج التهكم بهم، كما قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] وقوله تعالى: ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ [النحل: ٨٦] يعني آلهتهم التي جعلوها شركاء، فإضافتها إلى الله تعالى لجعلهم إياها شركاء، والإضافة تصح بأدنى ملابسة لفظية أو معنوية فصحت الإضافتان.

٦٢٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١]، والناسي إنما كان يوشع وحده بدليل قوله لموسى عليه الصلاة والسلام معتذرًا ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣] أي قصة الحوت وخبره ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]؟

قلنا: أضيف النسيان إليهما مجازًا، والمراد أحدهما. قال الفراء: نظيره قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرجُ مِن الملح لا مِن العذب.

وقيل: نسي موسى عليه السلام تفقد الحوت ونسي يوشع أن يخبره خبره، وذلك أنه كان حوتًا مملوحًا في مكتل قد تزوداه، فلما أصابه من ماء عين الحياة رشاش حيي وانسل، وكان قد ذهب لقضاء حاجة فعزم يوشع أن يخبره بما رأى من أمر الحوت، فلما جاء موسى نسي أن يخبره، ونسي موسى تفقد الحوت والسؤال عنه.

٦٢٩- **فإن قيل:** هذا التفسير يدل على أن النسيان من يوشع أو منهما كان بعد حياة الحوت وذهابه في البحر، وظاهر الآية يدل على أن النسيان كان سابقًا على ذهابه في البحر متصلًا ببلوغ مجمع البحرين لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١].

قلنا: في الآية تقديم وتأخير تقديره: فلما بلغ مجمع بينهما اتخذ الحوت سبيله في البحر سربًا فنسيا حوتهما.

٦٣٠- **فإن قيل:** كيف نسي يوشع مثل هذه الأعجوبة العظيمة في مدة يسيرة؛ بل في لحظة؛ واستمر به النسيان يومه ذلك وليلته إلى وقت الغداء من اليوم الثاني؛ ومثل ذلك لا ينسى مع تطاول الزمان كيف وقد كان الله تعالى جعل فقدان الحوت علامة

لهما على وجدان الخضر عليه السلام، على ما نقل أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى علامة على موضع وجدانه، فأوحى إليه أن خذ معك حوتًا في مكتل فحيثما فقدت الحوتَ فهو ثَمَّ؟

قلنا[١]: سبب نسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى عليه السلام واستأنس بها فكان إلفه لمثلها من خوارق العادات سببًا لقلة اهتمامه بتلك الأعجوبة وعدم اكتراثه لها.

٦٣١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١]، بغير فاء، و ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٤] بالفاء؟

قلنا: جعل خرقها جزءًا للشرط فلم يحتج إلى الفاء كقولك إذا ركب زيد الفرس عقره، وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء والجزاء قال أقتلت، كقولك: إذا ركب زيد الفرس فعقره، قال له صاحبه أعقرته؟

٦٣٢- **فإن قيل:** كيف خُولف بين القصتين؟

قلنا: لأن خرق السفينةَ لم يتعقب الركوب، وقتل الغلام تعقب لقاءه.

٦٣٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى في قصة الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، وفي قصة السفينة ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] ؟؟؟.

قلنا: قيل إمرًا معناه نكرًا، فعلى هذا لا فرق في المعنى؛ لأن الإمر والنكر بمعنى واحد.

وقيل: الإمر العجب أو الداهية وخرق السفينة كان أعظم من قتل نفس واحدة، لأن في الأول هلاك كثيرين.

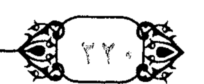
وقيل: النكر أعظم من الإمر فمعناه: جئت شيئًا أنكر من الأول؛ لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسد وهذا لا يمكن تداركه.

٦٣٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى، في قصة السفينة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ [الكهف: ٧٢]، وفي قصة الغلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ﴾ [الكهف: ٧٥] ؟

قلنا: لقصد زيادة المواجهة بالعتاب على رفض الوصية مرة ثانية والتنبية على

---

(١) وأحسن منه جوابًا أن الله جل ذكره يفعل ما يشاء وقد قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].



تكرر ترك الصبر والثبات.

٦٣٥- **فإن قيل:** ما فائدة إعادة ذكر الأهل في قوله: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾[الكهف: ٧٧] وهلا قال استطعماهم، لأنه قد سبق ذكر الأهل مرة؟

قلنا: فائدة إعادته التأكيد لا غير.

٦٣٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[الكهف: ٧٧]، نسب الإرادة إلى الجماد وهي من صفات مَن يعقل؟

قلنا: هذا مجاز بطريق المشابهة؛ لأن الجدار بعد مشارفته ومداناته للانقضاض وللسقوط شابه مَن يعقل، ويريد في تهيئه للسقوط فظهر منه هيئة السقوط كما تظهر مِمَّن يعقل، ويريد فنسبت إليه الإرادة مجازًا بطريق المشابهة في الصورة، وقد أضافت العرب أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل مجازًا قال الشاعر:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ ... ويَعْدِلُ عَنْ دِماءِ بَنِي عَقِيلِ[١]

وقال حسان:

إِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ ... لَزَمَانٌ يَهُمُّ بالإِحْسَانِ[٢]

ومن أمثاله «تَمَرَّدَ مَارِدٌ، وعزَّ الأبلق»[٣] ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾[الأعراف: ١٥٤] وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾[محمد: ٢١] وقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت: ١١] ونظائره كثيرة.

٦٣٧- **فإن قيل:** لأي سبب لم يفارقه الخضرُ عليه السلام عند الاعتراض الأول والثاني وفارقه عند الثالث؟

قلنا: لوجهين:

أحدهما: أن موسى عليه السلام شرط على الخضر ترك مصاحبته على تقدير

---

(١) من الوافر - بلا نسبة في لسان العرب ٣/ ١٨٩ - رود - وانظر (المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٦/ ٥٨٥).

(٢) من الخفيف - لحسان بن ثابت في أساس البلاغة لفف - وبلا نسبة في لسان العرب ٤/ ٢٩٣ وتاج العروس ١١/ ٣٤٦ - دهر - وانظر المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٨/ ١٦٦.

(٣) انظر (مجمع الأمثال للميداني ١/ ١٢٦).

وجود الاعتراض الثالث وقد وجد، فكان راضيًا به.

الثاني: أن اعتراض موسى عليه السلام في المرة الأولى والثانية كان تورعًا وصلابة في الدين، واعتراضه في المرة الثالثة لهوى نفسه وشهوة بطنه فأعقبه هواه هوانًا.

٦٣٨- **فإن قيل:** قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] علته خوف الغصب، فكان حقه أن يتأخر عن علته فلم قدم عليها؟

قلنا: هو متأخر عنه، لأن علة تعييبها أو علة إرادته تعييبها خوف الغصب، وخوف الغصب سابق؛ لأنه الحامل للخضر عليه السلام على ما فعله، وفي قراءة أبي وعبد الله رضي الله عنهما (**كل سفينة صالحة**) ولا بد من إضمار هذه الزيادة على قراءة الجمهور وإلا لم يفد الخرق.

٦٣٩- **فإن قيل:** الشمس في السماء الرابعة وهي بقدر كرة الأرض مائة وستين مرة، وقيل: مائة وخمسين، وقيل: مائة وعشرين، فكيف تسعها عين في الأرض حتى أخبر الله تعالى عن ذي القرنين أنه ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أو (**حمائة**) على اختلاف القراءتين؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا﴾ أي في زعمه وظنه، كما يرى راكب البحر إذا لجَّ فيه وغابت عنه الأطرافُ والسواحلُ أن الشمس تطلع من البحر وتغرب فيه، فذو القرنين انتهى إلى آخر البنيان في جهة المغرب فوجد عينًا حمئة واسعة عظيمة فظن أن الشمس تغرب فيها.

٦٤٠- **فإن قيل:** ذو القرنين كان نبيًّا أو تقيًّا حكيمًا على اختلاف القولين، فكيف خفي عليه هذا حتى وقع في الظن المستحيل الذي لا يقبله العقلُ؟

قلنا: الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا معصومين عن ظن الغلط الخطأ، وإن كانوا معصومين عن الكبائر. ألا ترى إلى ظن موسى عليه السلام فيما أنكره على الخضر عليه السلام في القضايا الثلاث، وظنه أنه يرى الله تعالى في الدنيا وهو من كبار الأنبياء، وكذلك يونس عليه السلام على ما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وكان الواقع بخلاف ظنه.

الثاني: أن الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض بحيث تسع عين الماء عين الشمس، فَلِمَ لَا يَجوز أن يكونَ قد وقع ذلك ولم نعلم به لقصور علمنا عن الإحاطة بذلك!!.

٦٤١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[الكهف: ٨٦]، يدل على أنه كان نبيًّا، لأن الله تعالى خاطبه.

قلنا: من قال إنه ليس نبيًّا يقول هذا الخطاب له كان بواسطة النبي الموجود في زمانه كما في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[البقرة: ٤٩] وما أشبه.

٦٤٢- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى هنا، في حق الكفار: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[الكهف: ١٠٥]، أي: فلا ننصب لهم ميزانًا؛ لأن الميزان إنما ينصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئات، والكافر لا حسنة له ولا طاعة لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣] وقال في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[القارعة: ٨، ٩] أي فمسكنه النار فأثبت له ميزانًا؟؟.

قلنا: معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[الكهف: ١٠٥] أي: لا يكون لهم عندنا قدر ولا خطر لخستهم وحقارتهم، ولو كان معناه ما ذكرتم يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[القارعة: ٨، ٩] مَنْ غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين فإنه يستكين في النار، ولكن لا يخلد فيها بل بقدر ما يمحص عنه ذنوبه فلا تنافي بينهما.

* * *

سورة مريم عليها السلام(١)

٦٤٣- **فإن قيل:** النداء الصوت والصياح، يقال ناداه نداء، أي صاح به، فكيف وصفه تعالى بكونه ﴿خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]؟

قلنا: النداء هنا عبارة عن الدعاء، وإنما أخفاه ليكون أقرب إلى الإخلاص، أو لئلا يلام على طلبه الولد بعد الشيخوخة، أو لئلَّا يعاديه بنو عمه ويقولوا: كره أن نقوم مقامه بعده فسأل ربه الولد لذلك.

٦٤٤- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] والنبي لا يورث، لقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، ما تركناه صدقة**»؟(٢).

قلنا: المراد بقوله يرثني: أي يرثني العلم والنبوة، ويرث من آل يعقوب الملك، وقيل: الأخلاق، فأجابه الله تعالى إلى وراثته العلم والنبوة والأخلاق دون الملك، والمراد بقوله ﷺ: «**لا نورث**» المال ويؤيده قوله: «**ما تركناه صدقة**» ويعقوب هنا أبو يوسف عليهما السلام. وقيل: لا؛ بل هو أخو زكريا، وقيل: لا بل هو أخو عمران الذي هو أبو مريم.

٦٤٥- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] فعدَّى الفعلَ في الأول بنفسه والثاني بحرف الجر وهو واحد؟

قلنا: يقال ورثه وورث منه، فجمع بين اللغتين، وقيل: «مِن» هنا للتبعيض لا

---

(١) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (ص ٢٥٨٣): اسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنة سورة مريم. ورويت هذه التسمية عن النبي ﷺ في حديث رواه الطبراني والديلمي وابن منده وأبو نعيم وأبو أحمد الحاكم: عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده أبي مريم قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنه ولدت لي الليلة جارية فقال: «**والليلة أنزلت علي سورة مريم فسمها مريم**» فكان يكنى أبا مريم واشتهر بكنيته. واسمه نذير ويظهر أنه أنصاري. اهـ. قلت: وهذا إسناد ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، وقال ابن عاشور أيضًا: وابن عباس سماها سورة كهيعص، وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحها. ولم يعدها جلال الدين في الإتقان في عداد السور المسماة باسمين ولعله لم ير الثاني اسما. ا هـ.

(٢) البخاري (٢٨٦٢)، ومسلم (٣٣٠٣).

للتعدية، لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء.

٦٤٦- **فإن قيل:** كيف طلب الولد بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] أي ولدًا صالحًا، فلما بشره الله تعالى بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧] الآية استبعد ذلك وتعجب منه وأنكره بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]؟

قلنا: لم يقل ذلك على طريق الإنكار والاستبعاد، بل ليجاب بما أجيب به عن طلبه الولد وهو قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧] فيزداد الموقنون إيقانًا ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولًا وآخرًا كان على منهاج واحد في أن الله تعالى غني عن الأسباب.

والثاني: أنه قال ذلك تعجب فرح وسرور، لا تعجب إنكار واستبعاد.

الثالث: قيل إنه قال ذلك استفهامًا عن الحالة التي يهبه الله تعالى فيها الولد، هل يهبه في حال الشيخوخة أم يرده إلى حالة الشباب ثم يهبه ولكن هذا الجواب لا يناسبه ما أجيب به زكريا عليه السلام بعد استفهامه.

٦٤٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [مريم: ١٠] والآية العلامة، فطلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشره الله تعالى به، أكان عنده شك بعد بشارة الله تعالى في وجوده حتى طلب العلامة؟

قلنا: إنما طلب العلامة على وجود الحمل ليبادر إلى الشكر ويتعجل السرور، فإن الحمل لا يظهر في أول العلوق بل بعد مدة، فأراد معرفته أول ما يوجد، فجعل الله آية وجود الحمل عجزه عن الكلام وهو سوي الجوارح ما به خرس ولا بكم.

٦٤٨- **فإن قيل:** كيف قالت مريم: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]؛ وإنما يتعوذ من الفاسق لا من التقي؟؟؟.

قلنا: معناه إن كنت ممن يتقي الله ويخشاه فانته عني بتعوذي به منك. فمعنى أعوذ أحصل على ثمرة التعوذ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي، ولم يكن تقيًّا بل كان فاجرًا، فظنته إياه فتعوذت منه[1]. والقول الأول هو الذي عليه المحققون.

---

(١) لا يثبت: تاريخ دمشق (٤٧/ ٣٤٨) بإسناد واه.

وقيل: هو على المبالغة معناه: إني أعوذ منك إن كنت تقيًّا فكيف يكون حالي في القرب منك إلى الله تعالى إذا لم تكن تقيًّا؟ قالوا: ونظير هذا ما جاء في الخبر: «**نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه**»[١]. معناه: أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لا يوجد منه عصيان، فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى. وفي قراءة أبي رجاء[٢] وابن مسعود «إلا أن تكون تقيًّا».

٦٤٩- **فإن قيل:** اتفق العلماءُ على أن الوحيَ لم ينزلْ على امرأةٍ ولم يرسل جبريلُ عليه السلام برسالة إلى امرأة قط، ولهذا قالوا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] أنه كان وحي إلهام، وقيل: وحي منام، فكيف قال تعالى هنا ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]؟

قلنا: لا نسلم أن الوحي لم ينزل على امرأة قط، فإن مقاتلًا قال في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] أنه كان وحيًا بواسطة جبريل[٣] عليه السلام، وإنما المتفق عليه بين العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بوحي الرسالة على امرأة لا بمطلق الوحي، وهنا لم ينزل على مريم بوحي الرسالة؛ بل بالبشارة بالولد، ولهذا جاء على صورة البشر ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

٦٥٠- **فإن قيل:** ما وجه قراءة الجمهور ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩] والواهب للولد هو الله تعالى لا جبريل عليه السلام؟

قلنا: قال ابن الأنباري: معناه إنما أنا رسولُ ربك بقوله لك أرسلت رسولي إليك لأهب لك، فيكون حكاية عن الله تعالى لا عن قول جبريل عليه السلام، فيكون فعل الهبة مسندًا إلى الله تعالى لا إليه.

---

(١) قال الإمام السيوطي في شرح نظم التلخيص: كثر سؤال الناس عن هذا الحديث ونسبه بعضهم إلى النبي ﷺ وبعضهم إلى عمر. قال السبكي: لم أر هذا الكلام في شيء من كتب الحديث لا مرفوعًا ولا موقوفًا لا عن عمر ولا عن غيره مع شدة التفحص عنه. اهـ. كشف الخفاء (٢/ ٣٢٣) بتصرف واختصار.

(٢) هو محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان بن أبي مريم، أبو رجاء الأسواني المتوفى سنة ٣٣٥هـ.

(٣) قلت: وهذا يحتاج إلى دليل.

الثاني: أن معناه لأكون سببًا في هبة الولد بواسطة النفخ في الدرع، فالإضافة إليه بواسطة السببية.

٦٥١- فإن قيل: كيف قالت: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] ولم تقل بغية؛ مع أنه وصف مؤنث؟

قلنا: قال ابن الأنباري: لما كان هذا الوصف غالبًا على النساء، وقلما تقول العرب رجل بغي، لم يلحقوا به علامة التأنيث إجراء له مجرى حائض وعاقر. وقال الأزهري[1]: لا يقال رجل بغي، بل هو مختص بالمؤنث، ولام الكلمة ياء يقال بغت تبغي. وهي فعول عند المبرد أصلها بغوي قلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين إتباعًا، فهو كصبور وشكور في عدم دخول التاء. وقال ابن جني في كتابه التمام: هي فعيل، ولو كان فعولًا لقيل بغو، كما قيل هو نهو عن المنكر. ثم قيل: هي فعيل بمعنى فاعل، فهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال الأخفش: هي مثل ملحفة جديد فجعلها بمعنى مفعول. وقيل: إنما لم يقل بغية مراعاة لبقية رؤوس الآيات.

٦٥٢- فإن قيل: ما كان حزن مريم وقولها: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] أَلِفَقْدِ الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب، أم كان لخوف أن يتهمها قومها بفعل الفاحشة؟

قلنا: كان حزنها لمجموع الأمرين، وهو ما ذكرتم، وجدب مكانها الذي ولدت فيه، فإنه لم يكن فيه طعامٌ ولا شرابٌ ولا ماء تتطهر به، وكان إجراء النهر في المكان اليابس الذي لم يعهد فيه ماء، وإخراج الرطب من الشجرة اليابسة دافع لجهتي الحزن، أما دفع الجدب فظاهر، وأما دفع حزن التهمة فمن حيث أنهما معجزتان تدلان قومها على عصمتها وبراءتها من السوء وأن الله تعالى قد خصها بأمور إلهية خارجة عن العادة خارقة لها، فتبين لهم أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع مِن شأنها ولا بعيد في قدرة الله تعالى، المخرج في لحظة واحدة الرطب الجنيّ من النخلة اليابسة، والمجري للماء بغتة في مكان لم يعهد فيه.

---

(١) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الهروي أحد أئمة اللغة والأدب المتوفى بخراسان سنة ٣٧٠هـ.

٦٥٣- **فإن قيل:** كيف أمرها جبريل عليه السلام إذا رأت إنسانًا أن تكلمه بعد النذر بالسكوت بقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦] الآية، وذلك خلف في النذر؟

قلنا: إنما أمرها بذلك؛ لأنه تمام نذرها، فإنها لم تكن مأمورة بنذر مطلق السكوت حتى يندرج فيه الكف عن الذكر والتسبيح والدعاء ونحوها، بل بنذر السكوت عن تكليم الإنس، وإذا كان تمام نذرها بقولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] لا تكون مكلمة لإنسي بعد تمام النذر.

٦٥٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] وكل أحد كان، في المهد صبيًّا؟

قلنا: كان هنا زائدة، وصبيًّا منصوب على الحال لا على أنه خبر كان تقديره: كيف نكلم من في المهد في حال صباه. وقيل: «كان» بمعنى وقع ووجد، و«صبيًّا» منصوب على الوجه الذي مر.

٦٥٥- **فإن قيل:** خطاب التكليف في جميع الشرائع إنما يكون بعد البلوغ أو بعد التمييز والقدرة على فعل المأمور به، وعيسى عليه السلام كان رضيعًا في المهد فكيف خوطب بالصلاة والزكاة حتى قال: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم: ٣١] ؟

قلنا: تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ وغيرها إنما كان ليحصل العقل والتمييز، وعيسى عليه السلام كان واجد العقل والتمييز التام في تلك الحالة فتوجه نحوه الخطاب أن يفعلهما إذا قدر على ذلك، ولهذا قيل: إنه أُعْطِيَ النبوة في صباه أيضًا.

٦٥٦- **فإن قيل:** الزكاة إنما تجبُ على الأغنياء، وعيسى عليه السلام لم يزلْ فقيرًا لابس كساء مدة مقامه في الأرض، وعلم الله تعالى ذلك من حاله، فكيف أوصاه بالزكاة؟

قلنا: المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصي لا زكاة المال!!

٦٥٧- **فإن قيل:** كيف جاء السلامُ في قصة يحيى عليه السلام مُنكرًا، وفي قصة عيسى عليه السلام مُعرفًا؟

قلنا: قد قيل إن النكرة والمعرفة في مثل هذا سواء لا فرق بينهما في المعنى.

الثاني: أنه سبق ذكره في قصة يحيى عليه السلام مرة فلما أعيد ذكره أعيد معرفًا

كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] كأنه قال ذلك السلام الموجه إلى يحيى عليه السلام في المواطن الثلاثة موجه إليَّ.

٦٥٨- **فإن قيل:** كيف تكون الألف واللام في السلام للعهد، والأول سلام مِن الله تعالى على يحيى عليه السلام، والثاني سلام مِن عيسى على نفسه؟

قلنا: التعريف راجع إلى ماهية السلام ومواطنه لا إلى كونه واردًا من عند الله تعالى.

٦٥٩- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [مريم: ٤١]، وما أشبهه، ومثل هذا إنما يستعمل إذا كان المأمور مختارًا في الذكر وعدمه، كما تقول لصاحبك وهو يكتب كتابًا اذكرني في الكتاب، أو اذكر فلانًا في الكتاب؛ والنبي عليه السلام ما كان على سبيل من الزيادة والنقصان في الكتابة ليوصي بمثل ذلك؟

قلنا: هذا على طريق التأكيد في الأمر بالإبلاغ، كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فصول الرسالة وتخصيصها بالأمر بالإبلاغ.

٦٦٠- **فإن قيل:** الاستغفار للكافر لا يجوزُ، فكيف وعد إبراهيمُ أباه بالاستغفار له بقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ [مريم: ٤٧] مع أنه كافر؟

قلنا: معناه: سأسأل الله تَعالى توبة تنال بها مغفرته يعني الإسلام.

والاستغفار للكافر بهذا الطريق جائز، وهو أن يقال: اللهم وفقه للإسلام أو اللهم تب عليه واهده وأرشده وما أشبه ذلك.

الثاني: أنه وعده ذلك بناء على أنه يسلم فيستغفر له بعد الإسلام.

الثالث: أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر، فإن تحريم ذلك قضية شرعية إنما تعرف بالسمع لا عقلية، فإن العقل لا يمنع ذلك.

٦٦١- **فإن قيل:** الطور وهو الجبل ليس له يمين، ولا شمال، فكيف قال تعالى: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]؟

قلنا: خاطب الله تعالى العرب بما هو معروف في استعمالهم، فإنهم يقولون عن يمين القبلة وشمالها، يعنون ما يلي يمين المستقبل لها وشماله؛ لأن القبلة لا بد لها لتكون لها يمين وشمال. وهذا اتساع منهم في الكلام لعدم اللبس. فالمراد بالأيمن

هنا ما عن يمين موسى عليه السلام من الطور؛ لأن النداء جاءه من قبل يمينه، هذا إن كان الأيمن ضد الأيسر من اليمين، وإن كان من اليمن وهو البركة من قولهم: يمن فلان قومه فهو يامن، أي كان مباركًا عليهم. فلا إشكال؛ لأنه يصير معناه: من جانب الطور المبارك.

٦٦٢- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، وهارون كان أكبر مِن موسى عليهما السلام فما معنى هبته له؟

قلنا: معناه أن الله تعالى أنعم على موسى عليه الصلاة والسلام بإجابة دعوته فيه حيث قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩، ٣٠] الآية فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] فالمراد بالهبة أنه جعله عضدًا له وناصرًا ومعينًا كذا فسره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٦٦٣- فإن قيل: كيف وصف الله تعالى النبيين المذكورين في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [مريم: ٥٨] الآية بقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨] والمراد بآيات الرحمن القرآن، والقرآن لم يتل على أحد من الأنبياء المذكورين؟

قلنا: آيات الرحمن غير مخصوصة بالقرآن؛ بل كل كتاب أنزله الله تعالى ففيه آياته، ولو سلمنا أن المراد بها القرآن فنقول: إن المراد بقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم: ٥٨] محمد ﷺ وأمته.

٦٦٤- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠]، يدل على أن ترك الصلاة وإضاعتها كفر؛ لأنه شرط في توبة مضيعها الإيمان؟

قلنا: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: المراد بهؤلاء الخلف هنا اليهود تركوا الصلاةَ المفروضةَ وشربوا الخمرَ واستحلوا نكاحَ الأخت من الأب.

٦٦٥- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]، ولم يقل آتيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]؟

قلنا: المراد بوعده هنا موعده وهو الجنة، وهي مأتية يأتيها أولياؤه.

الثاني: أن مفعولًا هنا بمعنى فاعل، كما في قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] أي ساترًا.

٦٦٦- **فإن قيل**: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يدل من حيث المفهوم أن غير المتقين لا يدخلون الجنة؟

قلنا: المراد بالتقوى هنا التقوى من الشرك، وكل المؤمنين سواء في ذلك.

٦٦٧- **فإن قيل**: ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال من دعوتهم الولد لله تعالى، ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟

قلنا: معناه أن الله تعالى يقول: كدت أفعلُ هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبًا على قائلها لولا حلمي وإمهالي وأن لا أعجل العقوبةَ، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] يعني أن تخر على المشركين وتنشق الأرضُ بهم، ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

الثاني: أن يكون استعظامًا لقبح هذه الكلمة وتصويرًا لأثرها في الدين وهدمًا لأركانه وقواعده وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجسام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر.

٦٦٨- **فإن قيل**: كيف قال تعالى هنا، في صفة الشرك: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]، وهذا يدل على قوة كلمة الشرك وشدتها، وقال تعالى في سورة إبراهيم - صلوات الله عليه - في صفة كلمة الشرك: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، والمراد بالكلمة الخبيثة كلمة الشرك، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما، أو بالشجرة الخبيثة شجرة الحنظل، كذا قاله رسول الله ﷺ[1]، وهذا يدل على ضعف كلمة الشرك وتلاشيها

---

(١) صحيح موقوفًا، ضعيف مرفوعًا: قال الإمام الترمذي في سننه (٣٠٤٤): حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا أَبو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ شُعَيْبِ بْنِ الْحَبْحَابِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقِنَاعٍ عَلَيْهِ رُطَبٌ فَقَالَ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ

واضمحلالها، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: وصفت كلمة الشرك في سورة إبراهيم عليه السلام بالضعف وهنا بالقبح، فهي في غاية الضعف وفي غاية القبح والفظاعة فلا تنافي بينهما.

٦٦٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤]، والإحصاء العد على ما نقله الجوهري، أو الحصر على ما نقله بعض أئمة التفسير، كما سبق ذكره في سورة إبراهيم صلوات الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فإن كان الإحصاء العد فهو تكرار، وإن كان الحصر فذكره مغن عن ذكر العد؛ لأن الحصر لا يكون إلا بعد معرفة العدد؟

قلنا: الإحصاء قد جاء بمعنى العلم أيضًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨] أي علم عدد كل شيء، قال الشاعر:

وَكُنْ لِلَّذِي لَمْ تُحْصِهِ مُتَعَلِّمًا ... وَأَمَّا الَّذِي أَحْصَيْتَ مِنْهُ فَعَلِّمِ

وهو المراد هنا، فيصير المعنى لقد علمهم، أي علم أفعالهم وأقوالهم وكل ما يتعلق بذواتهم وصفاتهم وعددهم، فلا تكرار ولا استغناء عن ذكر العد.

❊ ❊ ❊

= حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] قَالَ: «هِيَ الْحَنْظَلُ» قَالَ: فَأَخْبَرْتُ بِذَلِكَ أَبَا الْعَالِيَةِ فَقَالَ: صَدَقَ وَأَحْسَنَ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ شُعَيْبِ بْنِ الْحَبْحَابِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ نَحْوَهُ بِمَعْنَاهُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ وَلَمْ يَذْكُرْ قَوْلَ أَبِي الْعَالِيَةِ وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيث حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، وَرَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ مِثْلَ هَذَا مَوْقُوفًا، وَلاَ نَعْلَمُ أَحَدًا رَفَعَهُ غَيْرَ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، وَرَوَاهُ مَعْمَرٌ وَحَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ وَلَمْ يَرْفَعُوهُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدَةَ الضَّبِّيُّ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ الْحَبْحَابِ عَنْ أَنَسٍ نَحْوَ حَدِيثِ قُتَيْبَةَ وَلَمْ يَرْفَعْهُ. اهـ.

سورة طه عليه السلام[1]

٦٧٠- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ [طه: ٩، ١٠] الآية؛ كيف حكى الله تعالى قول موسى عليه السلام لأهله عند رؤية النار في هذه السورة وفي سورة النمل وفي سورة القصص بعبارات مختلفة، وهذه القضية لم تقع إلا مرة واحدة، فكيف اختلفت عبارةُ موسى عليه السلام فيها؟

قلنا: قد سبق في سورة الأعراف في قصة موسى عليه السلام مثل هذا السؤال والجواب المذكور، ثم هو الجواب هنا.

٦٧١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ [طه: ١٦]، ظاهر اللفظ نهي مَنْ لا يؤمن بالساعة عن صد موسى عن الإيمان بها، والمقصود هو نهي موسى عن التكذيب بها، فكيف تنزيله؟؟.

قلنا: معناه كن شديد الشكيمة[2] في الدين، صليب المعجم لئلا يطمع في صدك عن الإيمان بها مَنْ لا يؤمن بها، وهذا كقولهم: لا أرينك ها هنا؛ معناه: لا تدن مني ولا تقرب من حضرتي لئلا أراك؛ ففي الصورتين النهي متوجه إلى المسبب، والمراد به النهي عن السبب، وهو القرب منه والجلوس بحضرته فإنه سبب رؤيته، وكذلك لين موسى عليه السلام في الدين وسلاسة قياده سبب لصدهم إياه.

٦٧٢- **فإن قيل:** ما فائدة السؤال في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٧] وهو أعلم بما في يده جملة وتفصيلًا؟

قلنا: فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده مِنْ دهشة الخطاب وهيبة الإجلال وقت التكلم معه، كما يرى أحدنا طفلًا قد داخلته هيبة وإجلال وخوف وفي يده فاكهة

---

(١) قال ابن عاشور: سميت سورة «طاها» باسم الحرفين المنطوق بهما في أولها، ورسم الحرفان بصورتهما لا بما ينطق به الناطق من اسميهما تبعا لرسم المصحف. انظر: التحرير والتنوير (ص ٢٦٢٦).

(٢) يقال: فلان شديدُ الشَّكيمة إذا كان ذا عارضة وَجِدٍّ والشَّكِيمَةُ قُوَّةُ القلب ويقال: شديدُ الشَّكِيمةِ إذا كان شديدَ النَّفْسِ أَنِفًا أَبِيًّا. انظر: لسان العرب (١٢/ ٣٢٣).

أو غيرها فيلاطفه ويؤانسه بقوله ما هذا الذي في يدك؟ مع أنه عالم به.

الثاني: أنه أراد بذلك أن يقر موسى عليه السلام ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بكونها عصا رسوخًا في قلبه فلا يحوم حوله شك إذا قلبها ثعبانًا أنها كانت عصا ثم انقلبت ثعبانًا بقدرة الله تعالى، وأن يقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه فيتنبه على القدرة الباهرة، ونظيره أن يريك الزراد[1] زبرة من حديد ويقول لك ما هذه؟ فتقول زبرة من حديد، ثم يريك بعد أيام درعًا سابغة مسرودة ويقول هذه تلك الزبرة صيرتها إلى ما تراه من عجيب الصنعة وأنيق السرد.

٦٧٣- **فإن قيل:** كيف زاد موسى على حرف الجواب وليس ذلك من شيمة البلغاء خصوصًا في مخاطبة الملك الأعلى؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما إنه لَمَّا قال عصاي سُئِل سؤالًا ثانيًا؛ فقيل ما تصنع بها؟ فأجاب بباقي الآية.

الثاني: أنه إنما عدد فوائدها وبين حاجته إليها خوفًا من أن يؤمر بإلقائها كما أمر بإلقاء النعلين!!.

الثالث: أنه ذكر ذلك لئلا ينسب إلى العبث في حملها.

٦٧٤- **فإن قيل:** قد نقل أنها كانت تضيء له بالليل وتدفع عنه الهوام، وتثمر له إذا اشتهى الثمار فيغرسها في الأرض فتثمر من ساعتها، ويركزها فينبع الماء من مركزها، فإذا رفعها نضب، وكان يستقي بها فتطول بطول البئر وتقصر بقصرها، فهلا عدد هذه المنافع؟؟؟.

قلنا: كره أن يشتغل عن سماع كلام الله تعالى بتفصيل منافعها، ففصل البعض وأجمل الباقي بقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[طه: ١٨] والله أعلم بما أجمله.

الثاني: أنه ذكر المنافع التي هي ألزم له وحاجته إليها أمس، وإن كانت المنافع التي أجملها أعجب وأغرب.

---

(١) الزَّرْد والزَّرَد: حِلَقُ المِغْفَر والدرع، والزَّرَدَةُ: حَلْقَة الدرع والسَّرْدُ ثقبها والجمع زرود والزَّرَّادُ: صانعها. انظر: لسان العرب (٣/ ١٩٤).



٦٧٥- فإن قيل: قد ذكر الله تعالى عصا موسى عليه السلام بلفظ الحية والثعبان والجان، وبين الثعبان والجان تناف؛ لأن الجان الحية الصغيرة كذا قاله ابن عرفة، والثعبان الحية العظيمة، كذا نقله الأزهري عن الزجاج وقطرب.

قلنا: أراد أنها في صورة الثعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها ويؤيد قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠].

الثاني: أنها كانت في أول انقلابها تنقلب حية صغيرة صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانًا؛ فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها.

٦٧٦- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٨]، وهذا لا بيان فيه؛ لأنه مجمل، فما فائدته؟

قلنا: فائدته الإشارة إلى أنه ليس كل الأمور مما يوحى إلى النساء كالنبوة ونحوها؛ بل بعضها.

الثاني: أنه للتأكيد كقوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤] كأنه قال: إذ أوحينا إلى أمك إيحاء.

الثالث: أنه أبهمه أولًا للتفخيم والتعظيم، ثم بينه وأوضحه بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ [طه: ٣٩] الآية.

٦٧٧- فإن قيل: كيف قدم هارون على موسى عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠] وهارون كان وزيرًا لموسى عليهما السلام وتبعًا له، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥].

قلنا: إنما قدمه ليقع موسى مؤخرًا في اللفظ فيناسب الفواصل أعني رؤوس الآيات.

٦٧٨- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] والموت والحياة صفتان من صفات الإنسان وهما نقيضان، فكيف يرتفعان؟

قلنا: المراد لا يموت فيها موتا يستريح به، ولا يحيا حياة تنفعه ويستلذ بها.

الثاني: أن المراد لا يموت فيها موتًا متصلًا ولا يحيا حياة متصلة؛ بل كلما مات،

من شدة العذاب أعيد حيًّا، ليذوق العذاب هكذا سبعين مرة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا.

٦٧٩- **فإن قيل:** الخوف والخشية واحد في اللغة، فكيف قال تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]؟

قلنا: معناه لا تخاف دركًا: أي لحاقًا من فرعون، ولا تخشى غرقًا في البحر، كما تقول: لا تخاف زيدًا ولا تخشى عمرًا، ولو قلت ولا عمرًا صح وكان أوجز، ولكن إذا أعدت الفعل كان آكد. وأما في الآية فلما لم يكن مفعول الخشية مذكورًا ذكر الفعل ثانيًا ليكون دليلًا عليه، وخولف بين اللفظين رعاية للبلاغة.

وقيل معناه: لا تخاف دركًا على نفسك، ولا تخشى دركًا على قومك، والأول عندي أرجح.

٦٨٠- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ﴾[طه: ٧٩] ، يغني عن قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾[طه: ٧٩] ومفيد فوق فائدته فكيف ذكر معه؟

قلنا: معناه: وما هداهم بعد ما أضلهم، فإن المضل قد يُهدي بعد إضلاله.

الثاني: أن معناه: وأضل قومه وما هدى نفسه.

الثالث: أن معناه: وأضل فرعون قومه عن الدين وما هداهم طريقًا في البحر.

الرابع: أن قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾[طه: ٧٩] تهكم به في قوله لقومه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[غافر: ٢٩] .

٦٨١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾[طه: ٨٠] ، أضاف المواعدة إليهم، والمواعدة إنما كانت لموسى عليه السلام، واعده الله تعالى جانب الطور الأيمن لإتيانه التوراة؟

قلنا: المواعدة وإن كانت لموسى عليه السلام ولكنها لما كانت لإنزال كتاب بسبب بني إسرائيل، وفيه بيان شريعتهم وأحكامهم وصلاح معاشهم ومعادهم، أضيفت إليهم المواعدة بهذه الملابسة والاتصال.

٦٨٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ٨٣] ، سؤال عن سبب العجلة، فإن موسى عليه السلام لما واعده الله تعالى بإنزال التوراة عليه بجانب

الطور الأيمن وأراد الخروج إلى ميعاد ربه اختار من قومه سبعين رجلًا يصحبونه إلى ذلك المكان ثم سبقهم شوقًا إلى ربه وأمرهم بلحاقه، فعوتب على ذلك وكان الجواب المطابق أن يقول: طلبت زيادة رضاك أو الشوق إلى لقائك، وتنجيز وعدك، فكيف قدم ما لا يطابق السؤال وهو قوله: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ [طه: ٨٤]؟

قلنا: ما واجهه ربه به تضمن شيئين: إنكار العجلة في نفسها والسؤال عن سببها، فبدأ موسى عليه السلام بالاعتذار عما أنكره تعالى عليه بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير لا يعتد به في العادة؛ كما يتقدم المقدم جماعته وأتباعه، ثم عقب العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

٦٨٣- **فإن قيل:** أليس أن أئمة اللغة قالوا: العِوج بالكسر في المعاني، وبالفتح في الأعيان، ولهذا قال ثعلب: وتقول في الأمر والدين عوج وفي العصا ونحوها عوج، كالجبال والأرض، فكيف صح فيها المكسور في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]؟

قلنا: قال ابن السكيت[1]: كل ما كان مما ينتصب كالحائط والعود قيل فيه عوج بالفتح، والعوج بالكسر ما كان في أرض أو دين أو معاش، فعلى هذا لا إشكال.

الثاني: أنه أراد به نفي الاعوجاج الذي يدرك بالقياس الهندسي ولا يدرك بحاسة البصر، وذلك اعوجاج لاحق بالمعاني، فلذلك قال فيه عوج بالكسر، ومما يوضح هذا أنك لو سويت قطعة أرض غاية التسوية بمقتضى نظر العين بموافقة جماعة من البصراء، واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط، ثم أمرت المهندس أن يعتبرها بالمقاييس الهندسية وجد فيها عوجًا في غير موضع؛ ولكنه عوج لا يدرك بحاسة البصر. فنفى الله تعالى ذلك العوج لما لطف ودق عن الإدراك، فكان لدقته وخفائه ملحقًا بالمعاني.

٦٨٤- **فإن قيل:** إن الله تعالى أخبر أن آدمَ عليه السلام نسي عهد الله ووصيته، وأكل من الشجرة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥] وإذا كان فعل

---

(١) هو إمام اللغة والأدب أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المتوفى سنة ٢٤٤هـ.

ذلك ناسيًا فكيف وصفه بالعصيان والغواية بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] فعاقبه عليه بأعظم أنواع العقوبة، وهو الإخراج من الجنة؟

قلنا: النسيان هنا بمعنى الترك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]، أي تركناكم في العذاب، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] فمعناه أنه ترك عهدَ الله ووصيته، فكيف يكون من النسيان الذي هو ضد الذكر، وقد جرى بينه وبين إبليس من المجادلة والمناظرة في أكل الشجرة فصول كثيرة منها قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠] الآية فكيف يبقى مع هذا نسيان؟

٦٨٥- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، ولم يقل فتشقيا، والخطاب لآدم وحواء عليهما السلام؟

قلنا: لوجوه:

أحدها: أن الرجل قَيِّم أهله وأميرهم، فشقاؤه يتضمن شقاءهم كما أن معاداته تتضمن معاداتهم، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما كان متضمنًا له.

الثاني: أنه إنما أسنده إليه دونها للمحافظة على الفاصلة.

الثالث: أنه أراد بالشقاء: الشقاء في طلب القوت وإصلاح المعاش، وذلك وظيفة الرجل دون المرأة، قال سعيد بن جبير أهبط إلى آدم عليه السلام ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فذلك شقاؤه.

٦٨٦- **فإن قيل:** هل يجوز أن يقال: كان آدم عاصيًا غاويًا أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[طه: ١٢١] ؟

قلنا: يجوز أن يقال عصى آدمُ كما قال الله تعالى، ولا يجوز أن يقال كان آدمُ عاصيًا: لأنه لا يلزم مِن جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل؛ ألا ترى أنه يجوز أن يقال تبارك الله، ولا يجوز أن يقال الله تبارك ويجوز أن يقال تاب الله على آدم، ولا يجوز أن يقال الله تائب، ونظائره كثيرة.

٦٨٧- **فإن قيل:** أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية لا مدخل للقياس فيها؛ ولهذا يقال الله عالم، ولا يقال علامة؛ وإن كان هذا اللفظ أبلغ في الدلالة على معنى العلم، فأما أسماء البشر وصفاتهم فقياسية؛ فلم لا يجري فيها على القياس المطرد؟

قلنا: هذا القياس ليس بمطرد في صفات البشر أيضًا ألا ترى أنهم قالوا ذره ودعه بمعنى اتركه؛ وفلان يذر ويدع، ولم يقولوا منهما وذر ولا واذر، ولا ودع ولا وادع، فاستعملوا منها الأمر والمضارع فقط.

ولقائل أن يقول: هذا شاذ في كلام العرب ونادر، فلا يترك لأجله القياس المطرد، بل يجري على مقتضى القياس.

٦٨٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾[طه: ١٢٤]، أي عن موعظتي أو عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه: ١٢٤] أي حياة في ضيق وشدة، ونحن نرى المعرضين عن الإيمان والقرآن في أخصب معيشة وأرغدها؟

قلنا: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: المراد بالمعيشة الضنك الحياة في المعصية وإن كان في رخاء ونعمة. وروي عن النبي ﷺ أنها عذاب القبر(١).

الثاني: أن المراد بها عيشته في جهنم في الآخرة.

الثالث: أن المراد بها عيشة مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها، وهذه الآية في مقابلة قوله في سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[النحل: ٩٧]، فكل ما ذكرناه في تفسير الحياة الطيبة فضده وارد في المعيشة الضنك.

٦٨٩- **فإن قيل:** أي الكلمات التي سبقت من الله فكانت مانعة من تعذيب هذه الأمة في الدنيا عذاب الاستئصال، حتى قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾[طه: ١٢٩]؟؟.

---

(١) حسن بشواهده: رواه أبو يعلى في مسنده (٦٦٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٣١٢٢) من طريق عمرو ابن الحارث أن أبا السمح حدثه، عن ابن حجيرة عن أبي هريرة به مرفوعًا وهذا إسناد ضعيف لضعف دراج لكنه توبع كما في صحيح ابن حبان (٣١١٩) من طريق حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به مرفوعًا، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الحاكم (٣٤٣٩) وغيره من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسناد رجاله ثقات لكنه معلول بالوقف كما في تفسير الصنعاني (٣/ ٢١) ومصنفه (٦٧٤١)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٤٨٣٧)، وله شواهد أخرى لا يخلو أحدها من مقال.

قلنا: قيل هي قوله تعالى: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[١] ويرد عليه أنه لا اختصاص لهذه الأمة بهذه الكلمة، وقيل هي قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] يعني لعالمي أمته بتأخير العذاب عنهم، وقيل في الآية تقديم وتأخير تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمّى، وهو الأجل الذي قدر الله تعالى بقاء العالم وأهله إلى انقضائه لكان العذاب لزامًا، أي لازمًا لهم كما لزم الأمم التي قبلهم.

٦٩٠- فإن قيل: أصحاب الصراط السوي والمهتدون واحد، فما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥]؟

قلنا: المراد بأصحاب الصراط السوي السالكون الصراطَ المستقيمَ السائرون عليه، والمراد بالمهتدين الواصلون إلى المنزل. وقيل: أصحاب الصراط السوي هم الذين ما زالوا على الصراط المستقيم، والمهتدون هم الذين لم يكونوا على الطريق المستقيم ثم صاروا عليه، وقيل: المراد بأصحاب الصراط السوي أهل دين الحق في الدنيا، والمراد بمن اهتدى المهتدون إلى طريق الجنة في العقبى؛ فكأنه قال: فستعلمون من المحق في الدنيا والفائز في الآخرة.

* * *

(١) البخاري (٧١١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لما قضى الله الخلق كتب كتابًا عنده غلبت – أو قال: سبقت – رحمتي غضبي فهو عنده فوق العرش».



سورة الأنبياء[(١)]

٦٩١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١]، ووصفه بالقرب وقد مضى من وقت هذا الإخبار أكثر من ستمائة عام، ولم يوجد يوم الحساب بعد؟

قلنا: معناه أنه قريب عند الله تعالى وإن كان بعيدًا عند الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦، ٧] وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

الثاني: أن معناه أنه قريب بالنسبة إلى ما مضى من الزمان، كما قال ﷺ: «**إن مثل ما بقي من الدنيا في جنب ما مضى كمثل خيط في ثوب**»[(٢)].

الثالث: أن المراد به قرب حساب كل واحد في قبره إذا مات، ويؤيده قوله ﷺ: «**مَنْ مات فقد قامت قيامته**»[(٣)].

---

(١) قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: سماها السلف: سورة الأنبياء، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: «بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي».
ولا يعرف لها اسم غير هذا، ووجه تسميتها سورة الأنبياء: أنها ذكر فيها أسماء ستة عشر نبيًّا ومريم ولم يأت في سور القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام.
فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبيًّا في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٦] فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء وإلا فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية على أن من الحقائق المسلمة أن وجه التسمية لا يوجبها، وهي مكية بالاتفاق اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٢٦٨٨).

(٢) منكر: الحاكم (٤/ ٥٥١)، والجامع لمعمر بن راشد (٢٠٧٢٠)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٧٢٠)، وشعب الإيمان (٨٢٩٢) وغيرهم من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها كمثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى**» ولم أقف على اللفظ الذي ذكره المصنف فيما لدي من مصادر، وحديث أبي سعيد المتقدم تفرد به علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(٣) ضعيف: قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٥٦ – طبع الحلبي): رواه ابن أبي الدنيا في «كتاب =

الرابع: أن كل آتٍ قريب وإن طالت أوقات استقباله وترقبه، وإنما البعيد الذي وجد وانقرض، ولهذا يقول الناس إذا سافروا من بلد إلى بلد بعد ما ولوا ظهورهم البلد الأول: البلد الثاني أقرب وإن كان أبعد مسافة.

٦٩٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، والذكر الآتي من الله تعالى هو القرآن وهو قديم لا محدث؟

قلنا: المراد محدث إنزاله.

الثاني: أن المراد به ذكر يكون غير القرآن مِن مواعظ الرسول ﷺ وغيره؛ ونسب إلى الله تعالى؛ لأن موعظةَ كل واعظ بإلهامه وهدايته.

الثالث: أن المراد بالذكر الذاكر وهو الرسول ﷺ، ويؤيده قوله تعالى في سياق الآية: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء: ٢] أي إلا استمعوا ذكره وموعظته.

٦٩٣- **فإن قيل:** النجوى المسارة، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [طه: ٦٢]؟

قلنا: معناه بالغوا في إخفاء المسارة بحيث لم يفطن أحدٌ لتناجيهم ومسارتهم تفصيلًا ولا إجمالًا، فإن الإنسان قد يرى اثنين يتساران فيعلم من حيث الإجمال أنهما يتساران، وإن لم يعلم تفصيل ما يتساران به، وقد يتساران في مكان لا يراهما أحد.

٦٩٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى لمشركي مكة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧] يعني فاسئلوا أهل الكتاب عمن مضى من الرسل، هل كانوا بشرًا أم ملائكة؟ مع أن المشركين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]؟

قلنا: هم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل الكتاب، ولكن النقل المتواتر مِن أهل الكتاب في القضية العقلية يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمن به.

٦٩٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٩]، والاستحسار مبالغة في الحسور وهو الإعياء، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور أو

= الموت» من حديث أنس بسند ضعيف. ومن حديثه رواه العسكري والديلمي كما في «المقاصد الحسنة» (ص ٧٥، ٤٢٨) بلفظ: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته». وسكت عليه. اهـ. من الضعيفة (٣/ ٣٠٩).

مطلقه لا أقصاه؟

قلنا: إنما ذكر الاستحسارَ إشارة إلى أن ما هم فيه مِن التسبيح الدائم والعبادة المتصلة يوجب غاية الحسور وأقصاه.

٦٩٦- **فإن قيل:** قوله تعالى في وصف الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، إلى قوله تعالى: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ يدل على أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، فإذا كانوا لا يعصون الله تعالى فلم يخافون حتى قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؟

قلنا: لما رأوا ما جرى على إبليس وعلى هاروت وماروت من القضاء والقدر خافوا من مثل ذلك.

الثاني: أن زيادة معرفتهم بالله وقربهم في محل كرامته يوجب مزيد خوفهم؛ ولهذا قال أهل التحقيق: من كان بالله أعرف كان من الله أخوف، ومن كان إلى الله أقرب كان من الله أرهب، وقال بعضهم: يا عجبًا مِنْ مطيع آمن ومِنْ عاص خائف.

٦٩٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وهم لم يروا ذلك؟

قلنا: معناه أولم يعلموا ذلك بأخبار من قبلهم أو بوروده في القرآن الذي هو معجزة في نفسه، ونظيره قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] الآية، ونظائره كثيرة.

٦٩٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، مع أن الملائكة أحياء والجن أحياء، وليسوا مخلوقين من الماء بل من النور والنار كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] وكذا آدم مخلوق من التراب وناقة صالح مخلوقة من الحجر؟

قلنا: المراد به البعض وهو الحيوان كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢] ونظائره كثيرة.

الثاني: أن الكل مخلوقون من الماء، ولكن البعض بواسطة والبعض بغير واسطة، ولهذا قيل إنه تعالى خلق الملائكة مِن ريح خلقها مِن الماء، وخلق الجن مِن نار خلقها مِنْ الماء، وخلق آدم مِنْ تراب خلقه مِنْ الماء.

٦٩٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، بعد قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وكأنه تكليف بما لا يطاق؟

قلنا: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها؛ لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة.

٧٠٠- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، مع أن الصّمّ لا يسمعون الدعاء إذا ما يبشرون أيضًا؟؟؟.

قلنا: اللام في الصم إشارة للمنذرين السابق ذكرهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] فهي لام العهد لا لام الجنس.

٧٠١- فإن قيل: كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] أحال كسر الأصنام على الصنم الكبير، وكان إبراهيم هو الكاسر لها؟

قلنا: قاله على طريق الاستهزاء والتهكم بهم، لا على طريق الجد.

الثاني: أنه لما كان الحامل له على كسرها اغتياظه من رؤيتها مصفوفة مرتبة للعبادة مبجلة معظمة، وكان اغتياظه من كبيرها أعظم لمزيد تعظيمهم له أسند الفعل إليه كما أسند إلى سببه، وإلى الحامل عليه.

الثالث: أنه أسنده إليه معلقًا بشرط منتف، لا مطلقًا؛ تقديره: فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم.

٧٠٢- فإن قيل: كيف صح مخاطبة النار بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الأنبياء: ٦٩] والخطاب إنما يكون مع من يعقل؟

قلنا: خطاب التحويل والتكوين لا يختص بمن يعقل، قال الله تعالى: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[سبأ: ١٠] وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[فصلت: ١١] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾[هود: ٤٤] .

٧٠٣- فإن قيل: كيف وصف اللهُ تعالى الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام بكونهم مِن الصالحين بقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾[الأنبياء: ٨٥] الآية، مع أن أكثر المؤمنين صالحون خصوصًا في الزمن الأول؟

قلنا: معناه أنهم من الصالحين للإدخال في الرحمة التي أريد بها النبوة على ما

فسره مقاتل، أو الجنة على ما فسره ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا، ويؤيد ذلك قول سليمان صلوات الله عليه: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] أي الصالحين للعمل المرضي الذي سبق سؤاله.

٧٠٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى هنا: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]؟

قلنا: حيث أَنَّثَ أرادَ النفخَ في ذاتها، وإن كان مبدأ النفخ مِن الفرج الذي هو مخرج الولد أوجيب درعها على اختلاف القولين، لأنه فرجة، وكل فرجة بين شيئين تسمى فرجًا في اللغة، وهذا أبلغ في الثناء عليها؛ لأنها إذا منعت جيب درعها مما لا يحل كانت لنفسها أمنع، وحيث ذكر فظاهر.

٧٠٥- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، يدل على أنه يجب أن يرجعوا؛ لأن كُلَّ ما حرم أن لا يوجد وجب أن يوجد فكيف معنى الآية؟

قلنا: معناه وواجب على أهل قرية عزمنا على إهلاكهم أو قدرنا إهلاكهم أنهم لا يرجعون عن الكفر إلى الإيمان، أو أنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدنيا، فالحرام هنا بمعنى الواجب، كذا قاله ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا ويؤيده قول الشاعر:

فَإِنَّ حَرَامًا لا أَرَى الدَّهرَ باكِيًا ... عَلَى شَجْوَةٍ إلاَّ بكَيْتُ على عمْرِو[1]

وقيل: لفظ الحرام على ظاهره، و«لا» زائدة، والمعنى ما سبق ذكره، والحرمة هنا بمعنى المنع كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

٧٠٦- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وواردها يكون

---

(١) من الطويل - لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي في لسان العرب ١٢/ ١٢٧ حرم وتاج العروس - حرم - والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٣/ ٥٣٩.

قريبًا منها لا بعيدًا.

قلنا: معناه مبعدون عن ألمها وعذابها مع كونهم وارديها، أو معناه مبعدون عنها بعد ورودها بالإنجاء المذكور بعد الورود، فلا تنافي بينهما.

٧٠٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين الذين ماتوا على كفرهم بل نقمة؛ لأنه لولا إرساله إليهم لما عذبوا بكفرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

قلنا: بل كان رحمة للكافرين أيضًا من حيث أن عذاب الاستئصال أخر عنهم بسببه.

الثاني: أنه كان رحمة عامة مِنْ حيث أنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومَن لم يتبعه فهو الذي قصر في حق نفسه وضيع نصيبه من الرحمة؛ ومثله ﷺ كمثل عين ماء عذبة فجرها الله تعالى، فسقى ناس زروعهم ومواشيهم منها فأفلحوا وفرط ناس في السقي منها فضيعوا، فالعين في نفسها نعمة من الله تعالى للفريقين ورحمة، وإن قصر البعض وفرطوا.

الثالث: أن المراد بالرحمة الرحيم؛ وهو ﷺ كان رحيمًا للفريقين؛ ألا ترى أنهم لما شجوه يوم أحد وكسروا رباعيته حتى خر مغشيًا عليه، فلما أفاق قال: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»؟[1].

---

(١) في صحيح البخاري (٣٢١٨)، ومسلم (٣٣٤٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**» قال الحافظ في الفتح: وَقَدْ ذَكَرَ مُسْلِم بَعْد تَخْرِيج هَذَا الْحَدِيث حَدِيث أَنَّهُ ﷺ قَالَ فِي قِصَّة أُحُد: «**كَيْف يُفْلِح قَوْم دَمَّوْا وَجْه نَبِيّهمْ**» فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيّ: إِنَّ النَّبِيّ ﷺ هُوَ الْحَاكِي وَالْمَحْكِيّ مَا سَيَأْتِي. وَأَمَّا النَّوَوِيّ فَقَالَ: هَذَا النَّبِيّ الَّذِي جَرَى لَهُ مَا حَكَاهُ النَّبِيّ ﷺ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَقَدْ جَرَى لِنَبِيِّنَا نَحْو ذَلِكَ يَوْم أُحُد. قَوْله: وَهُوَ يَمْسَح الدَّم عَنْ وَجْهه: يَحْتَمِل أَنَّ ذَلِكَ لَمَّا وَقَعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ذَكَرَ لِأَصْحَابِهِ أَنَّهُ وَقَعَ لِشَيْء آخَر قَبْله، وَذَلِكَ فِيمَا وَقَعَ لَهُ يَوْم أُحُد لَمَّا شُجَّ وَجْهه وَجَرَى الدَّم مِنْهُ. فَاسْتَحْضَرَ فِي تِلْكَ الْحَالَة قِصَّة ذَلِكَ النَّبِيّ الَّذِي كَانَ قَبْله فَذَكَرَ قِصَّته لِأَصْحَابِهِ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ. وَأَغْرَبَ الْقُرْطُبِيّ فَقَالَ: إِنَّ النَّبِيّ ﷺ هُوَ الْحَاكِي وَهُوَ الْمَحْكِيّ عَنْهُ، قَالَ: وَكَأَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ =

٧٠٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، مع إخباره تعالى إياهم بقرب الساعة بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ونحوهما؟

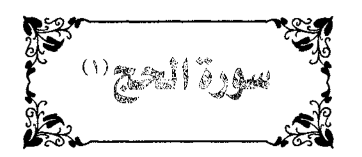
قلنا: معناه ما أدري أن العذاب الذي توعدونه وتهددون به ينزل بكم عاجلًا أو آجلًا وليس المراد به قيام الساعة. ويرد على هذا الجواب أنه قريب على كل تقدير؛ لأنه إن كان قبل قيام الساعة فظاهر، وإن كان بعد قيام الساعة فهو كالمتصل بها لسرعة زمن الحساب، فيكون قريبًا أيضًا.

٧٠٩- **فإن قيل:** إذا كان المؤمنون يعتقدون أن اللهَ تعالى لا يحكم إلا بالحق، فما فائدة الأمر والإخبار المتعلق بهما بقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]؟

قلنا: ليس المراد بالحق هنا ما هو نقيض الباطل؛ بل المراد به ما وعده الله تعالى إياه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، ووعده لا يكون إلا حقًّا، فكأنه قال: عَجِّل لنا وعدَكَ وأنجزه، ونظيره قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

الثاني: أنه تأكيد لما في التصريح بالصفة من المبالغة وإن كانت لازمة للفعل، ونظيره في عكسه من صفة الذم قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢].

= قَبْل وُقُوع الْقِصَّة، وَلَمْ يُسَمِّ ذَلِكَ النَّبِيّ، فَلَمَّا وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّهُ هُوَ الْمَعْنِيّ بِذَلِكَ. قُلْت: وَيُعَكِّر عَلَيْهِ أَنَّ التَّرْجَمَة لِبَنِي إِسْرَائِيل فَيَتَعَيَّن الْحَمْل عَلَى بَعْض أَنْبِيَائِهِمْ، وَفِي صَحِيح اِبْن حِبَّانَ مِنْ حَدِيث سَهْل بْن سَعْد: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**» قَالَ اِبْن حِبَّانَ: مَعْنَى هَذَا الدُّعَاء الَّذِي قَالَ يَوْم أُحُد لَمَّا شُجَّ وَجْهه: أَيْ اِغْفِرْ لَهُمْ ذَنْبهمْ فِي شَجّ وَجْهِي، لا أَنَّهُ أَرَادَ الدُّعَاء لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ مُطْلَقًا؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأُجِيبَ وَلَوْ أُجِيبَ لَأَسْلَمُوا كُلّهمْ -كَذَا قَالَ- وَكَأَنَّهُ بَنَاهُ عَلَى أَنَّهُ لا يَجُوز أَنْ يَتَخَلَّف بَعْض دُعَائِهِ عَلَى بَعْض أَوْ عَنْ بَعْض وَفِيهِ نَظَر لِثُبُوتِ: «**أَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة**» وَقَدْ سَبَقَ فِي تَفْسِير سُورَة الْأَنْعَام، ثُمَّ وَجَدْت فِي مُسْنَد أَحْمَد مِنْ طَرِيق عَاصِم عَنْ أَبِي وَائِل مَا يَمْنَع تَأْوِيل الْقُرْطُبِيّ، وَيُعَيِّن الْغَزْوَة الَّتِي قَالَ فِيهَا رَسُول الله ﷺ ذَلِكَ وَلَفْظه: قَسَمَ رَسُول الله ﷺ غَنَائِم حُنَيْنٍ بِالْجِعْرَانَةِ قَالَ: فَازْدَحَمُوا عَلَيْهِ فَقَالَ: «**إِنْ عَبْدًا مِنْ عِبَاد الله بَعَثَهُ الله إِلَى قَوْمه فَكَذَّبُوهُ وَشَجُّوهُ، فَجَعَلَ يَمْسَح الدَّم عَنْ جَبِينه وَيَقُول: رَبِّ اِغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**» قَالَ عَبْد الله: فَكَأَنِّي أَنْظُر إِلَى رَسُول الله ﷺ يَمْسَح جَبْهَته يَحْكِي الرَّجُل. قُلْت: وَلا يَلْزَم مِنْ هَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْد الله أَنْ يَكُون النَّبِيّ ﷺ مَسَحَ أَيْضًا، بَلْ الظَّاهِر أَنَّهُ حَكَى صِفَة مَسْح جَبْهَته خَاصَّة كَمَا مَسَحَهَا ذَلِكَ النَّبِيّ، وَظَهَرَ بِذَلِكَ فَسَاد مَا زَعَمَهُ الْقُرْطُبِيّ.اهـ.



سورة الحج[1]

٧١٠- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، يدل على أن المعدوم شيء؟؟.

قلنا: لا نسلم، ومستنده أن المرادَ أنها إذا وجدت كانَتْ شيئًا لا أنها شيء الآن، ويؤيد هذا قولُه تعالى: ﴿عَظِيمٌ﴾ مع أن المعدوم لا يوصف بالعظم.

٧١١- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ [الحج: ٢]، بلفظ الجمع، ثم أفرد فقال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ [الحج: ٢]؟

قلنا: لأن الرؤية أولًا علقت بالزلزلة، فجعل الناس كلهم رائين لها وعلقت آخرًا بكون الناس على هيئة السكارى، فلابد أن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم.

٧١٢- فإن قيل: كيف قال تعالى في حق النضر بن الحارث: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣] إلى أن قال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٩] وهو ما كان غرضه في جداله الضلال عن سبيل الله، فكيف علل جداله به وما كان أيضًا مهتديًا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال؟

قلنا: هذه لام العاقبة والصيرورة، وقد سبق ذكرها غير مرة، ولما كان الهدى معرضًا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال.

---

[1] قال ابن عاشور: سميت هذه السورة الحج في زمن النبي ﷺ أخرج أبو داود والترمذي عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم». وأخرج أبو داود وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان، وليس لهذه السورة اسم غير هذا، ووجه تسميتها سورة الحج: أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام، بالدعوة إلى حج البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحج وما فيه من فضائل ومنافع وتقريعًا للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام، وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٢٧٥٢).

٧١٣- **فإن قيل:** النفع والضر منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: معناه يعبد من دون الله ما لا يضره بنفسه إن لم يعبده ولا ينفعه بنفسه إن عبده ثم قال: يعبدُ مَن يضره الله بسبب عبادته، وإنما أضاف الضرر إليه لحصوله بسببه.

٧١٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الحج: ١٣]، يدل على أن في عبادة الصنم نفعًا وإن كان فيها ضرر؟

قلنا: معناه أقرب من النفع المنسوب إليه في زعمهم، وهو اعتقادهم أنه يشفع لهم.

٧١٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩]، أي بسبب كونهم مظلومين، ولم يبين ما الشيء الذي أذن لهم فيه؟

قلنا: تقديره: أذن للذين يقاتلون في القتال، وإنما حذف لدلالة يقاتلون عليه ولدلالة الحال أيضًا، فإن كفار مكة كانوا يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى وهم يستأذنون النبي ﷺ في قتالهم، فيقول: لم يؤذن لي في ذلك، حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية، وهي أول آية نزلت في الإذن في القتال، فنسخت سبعين آية ناهية عن القتال، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما؛ فكان المأذون فيه ظاهرًا لكونه مترقبًا منتظرًا.

٧١٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ)[الحج: ٣٩]، مع أنهم ما كانوا يقاتلون قبل نزول هذه الآية؟

قلنا: معناه أذن للذين يريدون أن يقاتلوا، سماهم مقاتلين مجازًا باعتبار ما يؤولون إليه كما في النظائر، وقرئ: ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ بفتح التاء، ولا إشكال على تلك القراءة.

٧١٧- **فإن قيل:** كيف صح الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[الحج: ٤٠] ؟

قلنا: هو استثناء منقطع تقديره: لكن أخرجوا بقولهم ربنا الله.

الثاني: أنه بمنزلة قول الشاعر:

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيرَ أَنّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ[1]

---

(١) البيت سبق تخريجه والحديث عنه ص١٦٩ وانظر المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية.

تقديره: إن كان فيهم عيب فهو هذا، وليس بعيب فلا يكون هذا فيهم عيبًا.

٧١٨- فإن قيل: أي مِنَّةٍ على المؤمنين في حفظ الصوامع والبيع والصلوات، أي الكنائس عن الهدم حتى امتن عليهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠] الآية؟

قلنا: المنة في ذلك أن الصوامع والبيع والكنائس في حرم المسلمين وحراستهم وحفظهم؛ لأن أهلها ذمة للمسلمين.

الثاني: أن المراد به لهدمت صوامعُ وبيعٌ في زمن عيسى ﷺ، وصلوات، أي كنائس في زمن موسى ﷺ، ومساجد في زمن النبي ﷺ، فالامتنان على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة.

٧١٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الحج: ٤٤]، ولم يقل وقوم موسى، كما قال الله تعالى فيما قبله؟

قلنا: لأن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط.

الثاني: أن يكون التنكير والإبهام للتفخيم والتعظيم كأنه قال تعالى بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره.

٧٢٠- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]؟

قلنا: فائدته المبالغة في التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ [الفتح: ١١] وما أشبه ذلك.

الثاني: أن القلب هنا يستعمل بمعنى العقل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي عقل في أحد قولين، فكان التقييد احترازًا على قول من زعم أن العقل في الرأس.

٧٢١- فإن قيل: المغفرة إنما تكون لمن يعمل السيئات لا لمن يعمل الصالحات والحسنات، فكيف قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [فاطر: ٧]؟

قلنا: المراد بالعمل الصالح هنا الإخلاص في الإيمان. قال الكلبي: كل موضع جاء في القرآن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٢] فالمراد به الإخلاص في

الإيمان، فيصير المعنى: فالذين آمنوا عن إخلاص تغفر لهم سيئاتهم.

٧٢٢- فإن قيل: ما الفرق بين الرسول والنبي؛ مع أن كليهما مرسل بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾[الحج: ٥٢] ؟؟؟.

قلنا: الفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مَنْ جمع له بين المعجزة وأنزل الكتاب عليه، والنبي فقط مَنْ لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو أمته إلى شريعة من قبله، وقيل: الرسول مَنْ كانت له معجزة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والنبي مَنْ لم تكن له منهم معجزة، وفي هذا نظر. وقيل: الرسول مَنْ كان مبعوثًا إلى أمة، والنبي فقط من لم يكن مبعوثًا إلى أحد مع كونه نبيًّا.

والجواب عن الآية على هذا القول أن فيه إضمارًا تقديره: وما أرسلنا من رسول ولا نبأنا من نبي، أو ولا كان من نبي، ونظيره قول الشاعر:

ورأيتُ زوجَكِ في الوغى ... متقلّدًا سيفًا ورمحا[(١)]

أي ومتعلقًا رمحًا أو حاملًا رمحًا.

٧٢٣- فإن قيل: أين المثل المضروب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾[الحج: ٧٣] والمذكور بعده وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الحج: ٧٣] إلى آخره ليس بمثل، بل هو كلام مبتدأ مستقل بنفسه؟

قلنا: الصفة والقصة الغريبة أو المستحسنة تسمى مثلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾[البقرة: ١٧] فالمعنى يثبت بصفة، وهي عجز الصنم عن خلق الذباب واستنقاذ ما يسلبه، وقيل: هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾[العنكبوت: ٤١] وإنما

---

(١) من مجزوء الكامل - بلا نسبة - والشاهد فيه قوله: «ورمحًا» حيث نصب بعامل محذوف تقديره متعلقًا، لأنه لا يجوز القول: تقلّد الرمح، ويجوز تضمين «متقلدًا» معنى «حاملاً» حين ذاك يصلح تسليطه على «رمحًا». والبيت له رواية أخرى:

ياليت زوجك قَدْ غدا ... متقلدًا سيفًا ورمحًا

وانظر (الإنصاف ٢/ ٦١٢ وخزانة الأدب ٢/ ٢٣١ والمقتضب ٢/ ٥١ وابن يعيش ٢/ ٥٠ والمعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية ١/ ١٦٢).

أبهمه هنا لأنهم كانوا لا يصغون إلى سماع القرآن، ولهذا قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وكانوا يحبون الأمثال، فذكر لفظ المثل استدراجًا لهم إلى سماع القرآن والإصغاء إليه.

٧٢٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، مع أن قطع اليد التي تساوي خمسة آلاف درهم بسبب سرقة عشرة دراهم حرج في الدين؛ وكذا رجم المحصن بسبب الوطء مرة واحدة، ووجوب صوم شهرين متتابعين بسبب إفطار يوم واحد من رمضان بوطء، والمخاطرة بالنفس والمال في الحج والعمرة، كل ذلك حرج بيِّن؟

قلنا: المراد بالدين كلمة التوحيد، فإنها تُكفِّر شرك سبعين سنة، ولا يتوقف تأثيرها على الإيمان والإخلاص سبعين سنة، ولا على أن يكون الإتيان بها في بيت الله تعالى أو في زمان أو مكان معين، وقيل: المراد به أن كل ما يقع فيه الإنسانُ مِن الذنوب والمعاصي يجد له مخرجًا في الشرع بتوبة أو كفارة أو رخصة، وقيل: المراد به فتح باب التوبة للمذنبين، وفتح أبواب الرخص للمعذورين، وشروع الكفارات والأروش والديات. وقيل: المراد به نفي الحرج الذي كان على بني إسرائيل من الإصر والتشديد.

٧٢٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وإبراهيم صلوات الله عليه لم يكن أبًا للأمة كلها؟

قلنا: هو أبو رسول الله ﷺ فكان أبًا لأمته؛ لأن أمة الرسول بمنزلة أولاده من جهة العطف والشفقة، هذا إن كان الخطاب لعامة المسلمين، وإن كان للعرب خاصة فإبراهيم أبو العرب قاطبة.

٧٢٦- **فإن قيل:** متى سمانا إبراهيم صلوات الله عليه المسلمين من قبلُ حتى قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]؟

قلنا: وقت دعائه عند بناء الكعبة حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فكل مَنْ أسلم مِنْ هذه الأمة فهو ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام، وهذا السؤال سئلت عنه في المنام وأجبت بهذا الجواب في المنام إلهامًا من الله سبحانه وتعالى.



سورة المؤمنون(١)

٧٢٧- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]، وحفظ الفرج إنما يعدى بعن لا بعلى، يقال فلان يحفظ فرجه عن الحرام، ولا يقال على الحرام؟

قلنا: «على» هنا بمعنى عن، كما في قول الشاعر:

إذا رَضِيَتْ عليَّ بَنُو قُشيرٍ   لَعمرُ اللهِ أعْجَبَني رِضاها(٢)

الثاني: أنه متعلق بمحذوف تقديره: فلا يرسلونها إلا على أزواجهم.

٧٢٨- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، ولم يقل أو من ملكت أيمانهم، مع أن المراد مَن يعقل؟

قلنا: لأنه أراد مِنْ جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث.

٧٢٩- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]، كيف خص الإخبار عن الموت الذي لم ينكره الكفار بلام التأكيد دون الإخبار عن البعث الذي أنكروه، والظاهر يقتضي عكس ذلك؟

---

(١) في التحرير والتنوير (٢٨١٤): سورة المؤمنين، ويقال: سورة المؤمنون، الأول: على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنين لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنهم أفلحوا. ووردت تسميتها بمثل هذا فيما رواه النسائي: عن عبد الله بن السائب قال: حضرت رسول الله يوم الفتح فصلى في قبل الكعبة فخلع نعليه فوضعهما عن يساره فافتتح سورة المؤمنين فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سعلة فركع. والثاني: على حكاية لفظ: «المؤمنون» الواقع أولها في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] فجعل ذلك اللفظ تعريفًا للسورة، ومما جرى على الألسنة أن يسموها سورة: «قدأفلح» ووقع ذلك في كتاب الجامع من العتبية في سماع ابن القاسم. قال ابن القاسم: أخرج لنا مالك مصحفًا لجده فتحدثنا أنه كتبه على عهد عثمان بن عفان وغاشيته من كسوة الكعبة فوجدنا.. إلى أن قال: وفي قد أفلح كلها الثلاث لله أي خلافًا لقراءة ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٥]. ويسمونها أيضًا: سورة الفلاح، وهي مكية بالاتفاق.

(٢) من الوافر - للقحيف العقيلي والشاهد فيه قوله: «رضيت عليَّ» حيث جاءت «على» بمعنى «عن» وانظر (خزانة الأدب ١٠/ ١٣٢ والدرر ٤/ ١٣٥ وأوضح المسالك ٣/ ٤١ والخصائص ٢/ ٣١١ والمقتضب ٢/ ٣٢٠ والهمع ٢/ ٢٨ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ١٠٥١).

قلنا: لما كان العطف يقتضي الاشتراك في الحكم استغنى به عن إعادة لفظ اللام الموجبة لزيادة التأكيد، فإنها ثابتة معنى بقضية العطف، ولا يلزم على هذا عدم إعادة أن؛ لأنها الأصل في التأكيد، ولأنها أقوى والحاجة إليها أمس.

٧٣٠- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، والمراد بها شجرة الزيتون، وهي تخرج من الجبل الذي يسمى طور سيناء ومن غيره؟

قلنا: قيل إن أصل شجرة الزيتون من طور سيناء: ثم نقلت إلى سائر المواضع.

وقيل: إنما أضيفت إلى ذلك الجبل؛ لأن خروجها فيه أكثر من خروجها في غيره من المواضع.

٧٣١- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ خبر عن كفار مكة، فكيف قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالتوحيد أو بالقرآن ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، ولم يقل وكلهم، مع أن كلهم كانوا للتوحيد كارهين بدليل قولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

قلنا: كان فيهم مَنْ ترك الإيمان به أنفة واستنكافًا من توبيخ قومه؛ لئلا يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبي طالب وغيره.

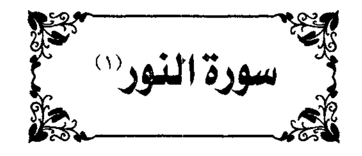
٧٣٢- فإن قيل: كيف جَمَع فقال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[المؤمنون: ٩٩] ولم يقل أرجعني، والمخاطب واحد وهو الله تعالى؟

قلنا: هو جمع للتفخيم والتعظيم كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[يس: ١٢] وأشباهه.

٧٣٣- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[المؤمنون: ١٠١]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[الصافات: ٢٧].

قلنا: يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة، ففيه أحوال مختلفة، ففي بعضها يتساءلون وفي بعضها لا ينطقون لشدة الهول والفزع.

* * *



سورة النور[1]

٧٣٤- **فإن قيل:** كيف قُدِّمت المرأة في آية حدِّ الزنا، وقُدِّم الرجل في حد السرقة؟

قلنا: لأن الزنا إنما يتولد من شهوة الوقاع، وشهوة المرأة أقوى وأكثر، والسرقة إنما تتولد من الجسارة والجراءة والقوة، وذلك في الرجل أكثر وأقوى.

٧٣٥- **فإن قيل:** كيف قدم الرجل في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣]؟؟.

قلنا: لأن الآية الأولى سبقت لعقوبتهما على ما جَنَيا، والمرأة هي الأصل في تلك الجناية لما ذكرنا. والآية الثانية سبقت لذكر النكاح، والرجل هو الأصل فيه عرفًا؛ لأنه هو الراغب والخاطب والبادئ بالطلب، بخلاف الزنا فإن الأمر فيه بالعكس غالبًا.

٧٣٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، أي لا يتزوج ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣]، ونحن نرى الزاني ينكحُ العفيفةَ والمسلمةَ، والزانيةَ ينكحها العفيفُ والمسلمُ؟

قلنا: قال عكرمة: نزلت هذه الآية في بغايا موسرات كنّ بمكة، وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية المرضية، وكان لا يدخل عليهن إلا زانٍ من أهل القبلة، أو مشرك من أهل الأوثان، فأراد جماعة من فقراء المهاجرين أن ينكحوهن فنزلت هذه الآية زجرًا لهم عن ذلك.

٧٣٧- **فإن قيل:** ما فائدة دخول «مِنْ» في غض البصر دون حفظ الفرج في قوله

---

(١) سميت هذه السورة: «سورة النور» من عهد النبي ﷺ. روي عن مجاهد قال: قال رسول الله: «علموا نساءكم سورة النور» ولم أقف على إسناده. وعن حارثة بن مضر: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور. وهذه تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة ولا يعرف لها اسم آخر. ووجه التسمية: أن فيها الآية: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وهي مدنية باتفاق أهل العلم ولا يعرف مخالف في ذلك اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٢٨٦٨).

تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

قلنا: فائدته الدلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفرج، ولهذا يحل النظر في ذوات المحارم والإماء المستعرضات إلى عدة من أعضائهن، ولا يحل شيء من فروجهن.

٧٢٨- فإن قيل: ما حكمة ترك الله ذكر الأعمام والأخوال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني الزينة الخفية ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية، وهم من المحارم وحكمهم حكم مَن استثنى في الآية؟

قلنا: سئل الشعبي عن ذلك فقال: لئلا يصفها العم عند ابنه وهو ليس بمحرم لها، وكذا الحال فيفضي إلى الفتنة، والمعنى فيه أن كل مَن استثنى يشترك هو وابنه في المحرمية، إلا العم والخال، وهذا مِن الدلالة البليغة على وجوب الاحتياط في سترهن، ولقائل أن يقول: هذه المفسدة محتملة في آباء بعولتهن، لاحتمال أن يذكرها أبو البعل عند ابنه الآخر، وهو ليس بمحرم لها، وأبو البعل أيضًا نقض على قولهم إن كل من استثنى يشترك هو وابنه في المحرمية.

٧٢٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، مع أن إكراههن على الزنا حرام في كل حال؟

قلنا: لأن سبب نزول الآية أن الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا مع إرادتهن التحصن، فورد النهي على السبب وإن لم يكن شرطًا فيه.

الثاني: أنه تعالى إنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن، لأن الأمة إذا لم ترد التحصن فإنها تزني بالطبع؛ لأن إرادتها الجماع مستمرة في جميع الأحوال طبعًا، ولابد لها من أحد الطريقين.

الثالث: أن «إن» بمعنى «إذ» كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

الرابع: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا تقديره: وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن أردن تحصنًا ويبقى قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور: ٣٣] مطلقًا غير معلق.



٧٤٠- فإن قيل: كيف مثل الله تعالى نوره، أي معرفته وهداه في قلب المؤمن بنور المصباح في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] ولم يمثله بنور الشمس مع أن نورها أتم وأكمل؟

قلنا: المراد تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر في البدن بالمصباح: وهو الضوء أو الفتيلة في الزجاجة، والزجاجة في الكوة التي لا منفذ لها، وهذا التمثيل لا يستقيم إلا فيما ذكر.

الثاني: أن نور المعرفة له آلات يتوقف على اجتماعها كالذهن والفهم والعقل واليقظة وانشراح القلب وغير ذلك من الخصال الحميدة، كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة، وغير ذلك.

الثالث: أن نورَ الشمس يشرقُ متوجهًا إلى العالم السفلي لا إلى العالم العلوي، ونور المعرفة يشرق متوجهًا إلى العالم العلوي كنور المصباح.

الرابع: أن نور الشمس لا يشرق إلا بالنهار ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار كنور المصباح.

الخامس: أن نور الشمس يعم جميع الخلائق، ونور المعرفة لا يصل إليه إلا بعضهم كنور المصباح الموصوف.

٧٤١- فإن قيل: إنه تعالى لم يمثله بنور الشمس لما ذكرتم فكيف لم يمثله بنور الشمع مع أنه أتم وأكمل وأشرق من نور المصباح؟

قلنا: إنما لم يمثله بنور الشمع لأن في الشمع غشًّا لا محالة بخلاف الزيت الموصوف، ولو مثله تعالى بنور الشمع لتطاول المنافقُ المغشوشُ إلى استحقاق نصيب في المعرفة.

الثاني: أنه تعالى إنما لم يمثله بنور الشمع لأنه مخصوص بالأغنياء، بخلاف نور المعرفة فإنه في الفقراء أغلب.

٧٤٢- فإن قيل: التجارة تشمل الشراءَ والبيعَ، فما فائدة عطف البيع عليها في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٧] ؟؟؟.

قلنا: التجارة هي الشراء والبيع الذي يكون صناعة للإنسان مقصودًا به الربح،

وهو حرفة الشخص الذي يسمى تاجرًا، والبيع أعم من ذلك، وقيل: المراد بالتجارة هنا مبادلة الآخرة بالدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [البقرة: ١٦] والمراد بالبيع مبادلة الدين بالدنيا كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾ [الجمعة: ٩]، وقيل: إنما عطف البيع على التجارة لأنه أراد بالتجارة الشراء إطلاقًا لاسم الجنس على النوع. وقيل: إنما عطف عليها للتخصيص والتمييز من حيث إنَّه أبلغ في الإلهاء؛ لأن البيعَ الرابحَ يعقبه حصولُ الربح، بخلاف الشراء الرابح فإن الربح فيه مظنون مع كونه مترقبًا منتظرًا. وقيل: التجارة مخصوصة بأهل الجلب بخلاف البيع.

٧٤٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ ﴾ [النور: ٤٥] وبعض الدواب ليس مخلوقًا من الماء كآدم عليه السلام وناقة صالح وغيرهما؟

قلنا: المراد بهذا الماء: الماء الذي هو أصل جميع المخلوقات، وذلك أن الله تعالى خلق قبل خلق الإنسان جوهرة ونظر إليها نظر هيبة فاستحالت ماء، فخلق مِن ذلك الماء جميع الموجودات، وقد سبق مثل هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ ﴾[الأنبياء: ٣٠] .

٧٤٤- **فإن قيل:** إذا كان الجوابُ هذا فما فائدة تخصيص الدابة بالذكر أو تخصيص الشيء الحي؟

قلنا: إنما خص الدابة بالذكر؛ لأن القدرة فيه أظهر وأعجب منها في الجماد وغيره.

٧٤٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ ﴾[النور: ٤٥] ، وهي مما لا يعقل؟

قلنا: لما كان اسم الدابة يتناولُ المُميِّز وغيره غلب المُميِّز على غيره فأجرى عليه لفظه.

٧٤٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ ﴾[النور: ٤٥] ، وذلك إنما يسمى زحفًا لا مشيًا، ولا يسمى مشيًا إلا ما كان بالقوائم؟

قلنا: هو مجاز بطريق المشابهة، كما يقال: مشى هذا الأمر، وفلان لا يتمشى له أمر، وفلان ماشي الحال.

٧٤٧- **فإن قيل:** كيف أمر الله تعالى بالاستئذان للأطفال الذين لم يبلغوا الحلم

بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ [النور: ٥٨] أي من الأحرار؟

قلنا: هو في المعنى أمر للآباء والأمهات بتأديب الأطفال وتهذيبهم لا للأطفال.

٧٤٨- فإن قيل: كيف أباح تعالى للقواعد من النساء وهن العجائز التجرد من الثياب بحضرة الرجال بقوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٦٠] الآية؟؟؟.

قلنا: المراد بالثياب هنا الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار لا جميع الثياب، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠] أي غير قاصدات بوضع الثياب الظاهرة إظهار زينتهن ومحاسنهن؛ بل التخفيف، ثم أعقبه بأن التعفف بترك الوضع خير لهن.

٧٤٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، مع أن انتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيته معلوم لا شك فيه ولا شبهة؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿مِن بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي مِن بيوت أولادكم، لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه، فلهذا عبر عنه به، وفي الحديث: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا يَأْكُلُ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ**»[1]. ويؤيد ذلك أنه ذكر بيوت جميع الأقارب ولم يذكر بيوت الأولاد، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، أي من مال أولادكم وأزواجكم الذين هم في بيوتكم ومن جملة عيالكم. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿مِن بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:٦١] البيوت التي يسكنونها وهم فيها عيال لغيرهم، كبيت ولد الرجل وزوجته وخادمه ونحو ذلك.

٧٥٠- فإن قيل: معنى السلام هو السلامةُ والأمنُ، فإذا قال الرجلُ لغيره السلام عليك؛ كان معناه سلمت مني وأمنت، فما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]؟؟؟.

قلنا: المراد به فإذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلكم وعيالكم، وقيل: معناه إذا دخلتم المساجدَ أو بيوتًا ليس فيها أحدٌ فقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، يعني من ربنا.

---

(١) صحيح: أحمد (٢٢٩٠٤)، وأبو داود (٣٠٦١)، والنسائي (٤٣٥٧)، وابن ماجة (٢١٢٨) بإسناد صحيح وهو في صحيح ابن ماجة (٢١٣٧).

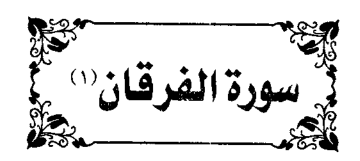
٧٥١- **فإن قيل**، كيف قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣]، وإنما يقال خالف أمره؟

قلنا، «عن» زائدة؛ كذا قاله الأخفشُ.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: فليحذر الذين يخالفون الله تعالى ويعرضون عن أمره، أو ضمن المخالفة معنى الإعراض فعدي تعديته.

* * *





سورة الفرقان[1]

٧٥٢- فإن قيل: الخلق هو التقدير؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠]، أي تقدر؛ فما معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فكأنه تعالى قال: وقدر كل شيء فقدره تقديرًا؟

قلنا: الخلق سن الله تعالى بمعنى الإيجاد والإحداث، فمعناه: وأوجد كل شيء مقدرًا مسوى مهيأ لما يصلح له، لا زائدًا على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة؛ ولا ناقصًا عن ذلك.

الثاني: أن معناه: وقدر له ما يقيمه ويصلحه؛ أو قدر له رزقًا وأجلًا وأحوالًا تجري عليه.

٧٥٣- فإن قيل: كيف قالُ تعالى في وصف الجنة: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥] وهي ما كانت بعد وإنما تكون كذلك بعد الحشر والنشر؟

قلنا: إنما قال كانت لأن ما وعده الله تعالى فهو في تحققه كأنه قد كان؛ أو معناه كانت في علم الله مكتوبة في اللوح المحفوظ أنها جزاؤهم ومصيرهم.

٧٥٤- فإن قيل: ما فائدة تأخير الهوى في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] والأصل اتخذ الهوى إلهًا كما تقول: اتخذ الصنم معبودًا؟

قلنا: هو من باب تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية به، كما تقول علمت

---

(١) سميت هذه السورة: «سورة الفرقان» في عهد النبي ﷺ وبمسمع منه. ففي صحيح البخاري عن عمر ابن الخطاب أنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلبيته بردائه فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها.. الحديث. ولا يعرف لهذه السورة اسم غير هذا. والمؤدبون من أهل تونس يسمونها: «تبارك الفرقان» كما يسمون «سورة الملك»: تبارك وتبارك الملك، ووجه تسميتها «سورة الفرقان»: لوقوع لفظ الفرقان فيها. ثلاث مرات في أولها ووسطها وآخرها اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٢٩٤٢).

منطلقًا زيدًا؛ لفضل عنايتك بانطلاقه.

٧٥٥- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]؟؟

قلنا: قد مر مثل هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

٧٥٦- فإن قيل: كيف شبههم سبحانه وتعالى بالأنعام في الضلال بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤] مع أن الأنعام تعرف الله سبحانه وتعالى وتسبحه بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١]؟؟؟.

قلنا: المراد تشبيههم بالأنعام في الضلال عن فهم الحق ومعرفة الله تعالى بواسطة دعوة الرسول ﷺ.

الثاني: أن المرادَ تشبيههم في الضلال والعمى عن أمر الدين بالأنعام في ضلالها وعماها عن أمر الدين.

٧٥٧- فإن قيل: إن كانوا كالأنعام في الضلال؛ فكيف قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] وإن كانوا أضل من الأنعام فكيف قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤] وإن كانوا كالأنعام في الضلال وأضل منها أيضًا فكيف يجتمع الوصفان؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤] التشبيه في أصل الضلال لا مقداره، والثاني: بيان لمقداره، وقيل: المراد بالأول التشبيه في المقدار أيضًا؛ ولكن المراد بالأول طائفة وبالثاني طائفة أخرى، ووجه كونهم أضل مِنَ الأنعام أن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف مَنْ يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم مِنْ إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العذاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الرَّوي.

٧٥٨- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً

مَّيْتًا﴾[الفرقان: ٤٨، ٤٩]، كيف ذكر الصفة والموصوف مؤنث ولم يؤنثها كما أنثها في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[يس: ٣٣]؟؟؟.

قلنا: إنما ذكرها نظرًا إلى معنى البلدة وهو البلد والمكان لا إلى لفظها.

٧٥٩- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾[الفرقان: ٤٨، ٤٩]، فإنزاله موصوفًا بالطهورية، وتعليل ذلك بالإحياء والسقي يشعر بأن الطهورية شرط في حصول تلك المصلحة، كما تقول: حملني الأمير على فرس سابق لأصيد عليه الوحش وليس كذلك؟؟؟.

قلنا: وصف الطهورية ذكر إكرامًا للأناسي الذين شربهم من جملة المصالح التي أنزل لها الماء، وإتمامًا للمنة والنعمة عليهم، لا لكونه شرطًا في تحقق تلك المصالح والمنافع، بخلاف النظير فإنه قصد بكونه سابقًا الشرطية؛ لأن صيد الوحش على الفرس لا يتم إلا بها.

٧٦٠- **فإن قيل:** كيف خَصَّ تعالى الأنعامَ بذكر السقي دون غيرها مِن الحيوان الصامت؟

قلنا: لأن الوحوشَ والطير تَبعدُ في طلب الماء ولا يعوزها الشربُ بخلاف الأنعام.

الثاني: أن الأنعام قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها، فكأن الأنعام يسقي الأنعام، كالأنعام يسقي الأناسي، فلذلك خصها بالذكر.

٧٦١- **فإن قيل:** كيف قَدَّم تعالى إحياءَ الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟

قلنا: لأن حياةَ الأناسي بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم ما هو سببُ حياتهم ومعاشهم.

الثاني: أن سقيَ الأرض بماء المطر سابق في الوجود على سقي الأناسي به.

٧٦٢- **فإن قيل:** ما وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[الفرقان: ٥٧]؟؟؟.

قلنا: هو استثناء منقطع تقديره: لكن مَنْ شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا فأنا أدله على ذلك وأهديه إليه. وقيل تقديره: لكن مَنْ شاء أن يتخذَ إلى ربه سبيلًا بإنفاق ماله في مرضاته فليفعل ذلك.

٧٦٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى هنا: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[الفرقان: ٥٧]، أي

أجرًا؛ لأن «من» لتأكيد النفي وعمومه، وقال في آية أخرى ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] فأثبت سؤال الأجر عليه؟

قلنا: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: ٤٧] رواه مقاتل والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما. والصحيح الذي عليه المحققون أنها غير منسوخة؛ بل هو استثناء من غير الجنس تقديره: لكن أذكركم المودة في القربى.

٧٦٤- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ولم يقل أئمة؟

قلنا: مراعاة لفواصل الآيات، وقيل تقديره: واجعل كل واحد منا إمامًا.

٧٦٥- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وهما بمعنى واحد ويؤيده قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقوله ﷺ: «**تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ سَلامٌ**»[1] ؟؟؟.

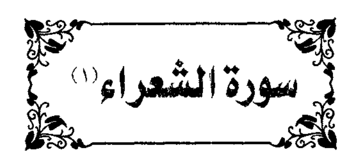
قلنا: قال مقاتل: المراد بالتحية سلام بعضهم على بعض أو سلام الملائكة عليهم، والمراد بالسلام أن الله تعالى سَلَّمهم مما يخافون وسلم إليهم أمرهم.

وقيل: التحية من الملائكة أو من أهل الجنة، والسلام من الله تعالى عليهم لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]. وقيل: التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف والسلام بالقول. وقيل: التحية الدعاء بالتعمير، والسلام الدعاء بالسلامة فمعناه أنهم يلقون ذلك من الملائكة أو بعضهم من بعض، أو يلقون ذلك من الله تعالى، فيعطون البقاء والخلود مع السلامة مِنْ كل آفة.

* * *

(١) حسن الإسناد: أحمد (٤/ ٣٨١) رقم (١٨٥٩١) من حديث معاذ بإسناد حسن ولفظه: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبْدَلَنَا خَيرًا مِنْ ذَلِكَ السَّلامَ تَحِيَّةَ أَهْلِ الجنَّةِ».





سورة الشعراء[1]

٧٦٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، والأعناق لا تخضع؟

قلنا: قيل أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين فاقتحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله، كقولهم ذهبت أهل اليمامة، كأنّ الأهل غير المذكور، ومثله قول الشاعر:

رَأَتْ مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنِّي ... كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلَالِ[2]

أو لما وُصفَتْ الأعناقُ بالخضوع الذي هو مِن صفات العقلاء جُمعتْ جمع العقلاء كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. وقيل: الأعناق رؤساء الناس ومقدموهم شبهوا بالأعناق، كما قيل لهم الرؤوس والنواصي والوجوه.

وقيل: الأعناق الجماعات؛ يقال: جاءني عنقٌ من الناس، أي جماعة. وقيل: إن ذلك لمراعاة الفواصل.

٧٦٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فأفرد، وقال تعالى في موضع آخر ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] فثنّى؟

قلنا: الرسول يكون بمعنى المرسل فيلزم تثنيته، ويكون بمعنى الرسالة التي هي

---

(١) اشتهرت عند السلف بسورة الشعراء؛ لأنها تفردت من بين سور القرآن بذكر كلمة الشعراء. وكذلك جاءت تسميتها في كتب السنة. وتسمى أيضًا سورة طسم، وفي أحكام ابن العربي أنها تسمى أيضًا: الجامعة، ونسبه ابن كثير والسيوطي في الإتقان إلى تفسير مالك المروي عنه. ولم يظهر وجه وصفها بهذا الوصف. ولعلها أول سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية ا. هـ. من التحرير والتنوير (ص ٢٩٩٣).

(٢) من الوافر للجرير - وانظر ديوانه ص ٥٤٦ والدرر ١/ ١٣٥ والمقتضب ٤/ ٢٠٠ والهمع ١/ ٤٧ والمعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية ٢/ ٧٥٣.

المصدر فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر، والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر:

لَقَدَ كَذَبَ الواشون ما بحْتُ عندَهُمْ   بِسِرٍّ وَلا أرْسلتُهُم بِرَسُولِ

أي برسالة.

الثاني: أنهما لاتفاقهما في الأخوة والشريعة والرسالة جعلا كنفس واحدة.

الثالث: أن تقديره: إن كل واحد منا رسول رب العالمين.

الرابع: أن موسى عليه السلام كان الأصل، وهارون عليه السلام كان تبعًا له، فأفرد إشارة إلى ذلك.

٧٦٨- **فإن قيل:** كيف قال موسى عليه السلام معتذرًا عن قتل القبطي ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] والنبي لا يكون ضالًّا؟

قلنا: أراد به وأنا من الجاهلين، وكذا قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وقيل: أراد من المخطئين، لأنه ما تعمد قتله، كما يقال: ضل عن الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ. وقيل: من الناسين كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٧٦٩- **فإن قيل:** كيف قال فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ولم يقل وَمَن رب العالمين؟

قلنا: هو كان أعمى القلب عن معرفة الله سبحانه وتعالى، منكرًا لوجوده فكيف ينكر عليه العدول عن «من» إلى «ما».

الثاني: أن «ما» لا تختصُّ بغير المُميِّز؛ بل تطلق عليهما؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] وقال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٥].

٧٧٠- **فإن قيل:** كيف قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] علق كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما بشرط كون فرعون وقومه موقنين، وهذا الشرط منتف والربوبية ثابتة فكيف صح التعليقُ؟

قلنا: معناه إن كنتم موقنين أن السمواتِ والأرضَ وما بينهما موجودات وهذا الشرط موجود.

الثاني: أن «إن» نافية لا شرطية.



٧٧١- فإن قيل: كيف ذكر السمواتِ والأرض وما بينهما قد استوعب ذكر المخلوقات كلها فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾؟ [الشعراء: ٢٨]؟؟؟.

قلنا: أعاد ذكرها تخصيصًا لها وتمييزًا، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والنقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ولادته إلى وقت وفاته، ثم خص المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحدهما وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما يستدل به على وجود الصانع، ولظهوره انتقل خليل الله صلوات الله عليه وسلامه إلى الاحتجاج به عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٧٧٢- فإن قيل: كيف قال أولًا ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] وقال آخرًا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟ [الشعراء: ٢٨].

قلنا: لاينهم ولاطفهم أولًا، فلما رأى عنادهم وإصرارهم خاشنهم وعارض قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٧٧٣- فإن قيل: قوله: لأسجننك أخصر من قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] فكيف عدل عنه؟

قلنا: كان مراده تعريف العهد، فكأنه قال لأجعلنك واحدًا مِمَّنْ عرفت حالهم في سجني، وكان إذا سجن إنسانًا طرحه في هوة عميقة جدًّا مظلمة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أوجع من القتل وأشد نكاية.

٧٧٤- فإن قيل: قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة ذكرت في سورة الأعراف ثم في سورة طه ثم في هذه السورة، فما فائدة تكرارها وتكرار غيرها من القصص؟

قلنا: فائدته تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز كما أن المبارز إذا خرج من الصف قال: «نزال نزال هل مِن مبارز هل مِن مبارز» مكررًا ذلك، يقال: ولهذا سمى الله تعالى القرآن مثاني؛ لأنه ثنيت فيه الأخبار والقصص.

الثاني: أن أصحاب النبي ﷺ كان بعضهم حاضرين وبعضهم غائبين في الغزوات، وكانوا يحبون حضور مهبط الوحي، وكانوا إذا رجعوا من غزوهم أكرمهم الله تعالى في بعض الأوقات بإعادة الوحي تشريفًا لهم وتفصيلًا.

٧٧٥- **فإن قيل:** كيف كرر اللهُ تعالى ذكرَ قصة موسى عليه السلام أكثر من قصص غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

قلنا: لأن أحوالَه كانت أشبه بأحوال النبي ﷺ مِن أحوال غيره منهم في إقامته الحجج وإظهاره المعجزات لأهل مصر وإصرارهم على تكذيبه والجفاء عليه كما كان حال النبي ﷺ مع أهل مكة.

٧٧٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الشعراء: ٦١]، والترائي تفاعل مِن الرؤية، فيقتضي وجود رؤية كل جمع الجمع الآخر والمنقول أنهم لم ير بعضُهُم بعضًا، فإن الله تعالى أرسلَ غيمًا أبيض فحال بين العسكرين حتى منع رؤية بعضهم بعضًا؟[١].

قلنا: الترائي يستعملُ بمعنى التداني والتقابل أيضًا، كما قال ﷺ: «**المؤْمِنُ وَالْكَافِرُ لاَ يَتَرَاءَيَانِ**»[٢]، أي لا يتدانيان، ويقال: دورنا تتراءى، أي تتقارب وتتقابل.

٧٧٧- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [الشعراء: ٨٠] ولم يقل وإذا أمرضني، كما قال، قبله: (خلقني ويهدين)؟

قلنا: لأنه كان في معرض الثناء على الله تعالى وتعديد نعمه، فأضاف إليه الخير المحض حفظًا للأدب، وإن كان الكل مضافًا إليه، ونظيره قول الخضر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

٧٧٨- **فإن قيل:** هذا الجواب يبطل بقوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ [الشعراء: ٨١] وبقول الخضر ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ [الكهف: ٨١].

قلنا: إنما أضاف الموت إلى الله تعالى؛ لأنه سبب لقائه إياه وانتقاله إلى دار كرامته، فكان نعمة من هذا الوجه. وقيل: إنما أضاف المرض إلى نفسه؛ لأن أكثر

---

(١) من أين هذا؟ ثم إنه أبلغ في الإعجاز أن يحدث الترائي ولا يحدث الإدراك.

(٢) لم أقف عليه فيما لدى من مصادر.

الأمراض تحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه.

٧٧٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨]، والمال الذي أنفق في طاعة الله تعالى وسبيله ينفع، والولد الصالح ينفع، والولد الذي مات صغيرًا يشفع، وشواهد ذلك كثيرة من الكتاب والسنة خصوصًا قوله ﷺ: «**إِذا مَاتَ ابْنُ آدَمَ يَنْقَطِعُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ**»[1] الحديث؟

قلنا: المراد بالآية أنهما لا ينفعان غير المؤمن، فإن هو الذي يأتي بقلب سليم من الكفر، أو المراد بهما مال لم ينفق في طاعة الله تعالى وولد بالغ غير صالح.

٧٨٠- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، أي قربت، والجنة لا تنقل من مكانها ولا تحول؟

قلنا: فيه قلب معناه: وأزلفت المتقون إلى الجنة، كما يقول الحجاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا، وقيل معناه: أنها كانت محجوبة عنهم؛ فلما رفعت الحجب بينهم وبينها كان ذلك تقريبًا لها.

٧٨١- **فإن قيل:** كيف جَمَع الشافعَ وَوَحَّد الصديقَ في قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]؟؟.

قلنا: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، ولهذا روي أن بعض الحكماء سئل عن الصديق؟ فقال: هو اسم لا معنى له، أراد بذلك عزة وجوده، ويجوز أن يراد بالصديق الجمع كالعدو.

٧٨٢- **فإن قيل:** كيف قرن بين الأنعام والبنين في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٣]؟

قلنا: لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها، فلهذا قرن بينهما.

٧٨٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: (أوعظت أو لم تعظ) أخصر من قوله: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] فكيف عدل عنه؟

---

(١) صحيح بشواهده: مسلم (٣٠٨٤) بلفظ: «**إذا مات الإنسان**» وباللفظ المذكور رواه الترمذي (١٢٩٧)، والنسائي (٣٥٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد صحيح بشواهده.

قلنا: مرادهم سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلًا، وهذا أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولهم أو لم تعظ.

٧٨٤- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨]، كيف أخذهم العذاب بعد ما ندموا على جنايتهم، وقد قال ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»؟[1].

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ندموا حين رأوا العذاب، وذلك ليس وقت التوبة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النساء: ١٧] الآية. وقيل: كان ندمهم ندم خوف مِن العذاب العاجل لا ندم توبة فلذلك لم ينفعهم.

٧٨٥- فإن قيل: كيف طلب لوطٌ عليه السلام تنجيته مِن اللواطة بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء] واللواطة كبيرة، والأنبياء معصومون مِن الكبائر؟

قلنا: مراده رب نجني وأهلي من عقوبة عملهم أو من شؤمه، والدليل على ذلك ضمه أهله إليه في الدعاء، واستثناء الله تعالى امرأته مِن قبول الدعوة[2].

٧٨٦- فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة شعيب عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٧] ولم يقل أخوهم، كما قال تعالى في حق غيره هنا، وكما قال في حقه في موضع آخر؟

قلنا: لأنه هنا ذكر مع أصحاب الأيكة وهو لم يكن منهم، وإنما كان مِن نسل مدين، كذا قال مقاتل. وفي الحديث أن شعيبًا عليه السلام أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة. وقال ابن جرير الطبري: أهل مدين هم أصحاب الأيكة، فعلى هذا يكون حذف الأخ تخفيفًا.

٧٨٧- فإن قيل: ما الفرق بين حذف الواو في قصة صالح عليه السلام وإثباتها في قصة شعيب في قولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٦]؟

---

(١) صحيح: أحمد (٣٣٨٧، ٣٥٠٧، ٣٨١١، ٣٩١٤)، وابن ماجه (٤٢٤٢) بإسناد صحيح.

(٢) وأفضل منه أن يقال: إن لوطًا عليه السلام يطلب من الله حفظه، فالمحفوظ من حفظه الله، ولا معنى للسؤال المطروح.

قلنا: الفرق بينهما أنه عند إثبات الواو المقصود معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم التسخير والبشرية، وعند حذف الواو المقصود معنى واحد مناف لها وهو كونه مسخرًا ثم قرروا التسخير بالبشرية، كذا أجاب الزمخشري رحمه الله.

٧٨٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في وصف الكهنة والمتنبئة كشق وسطيح ومسيلمة ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٣] بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك أثيم، والأفاك الكذاب، والأثيم الفاجر، ويلزم من هذا أن يكون كلهم كذابين؟

قلنا: الضمير في قوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ عائد إلى الشياطين لا إلى كل أفاك.

* * *



سورة النمل(١)

٧٨٩- **فإن قيل:** ما فائدةُ تنكير الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]؟

قلنا: فائدته التفخيم والتعظيم كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

٧٩٠- **فإن قيل:** العطف يقتضي المغايرة، فكيف عطف الكتاب المبين على القرآن والمراد به القرآن؟

قلنا: قيل إن المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ، فعلى هذا لا إشكال؛ وعلى القول الآخر فنقول: العطف يقتضي المغايرة مطلقًا إما لفظًا وإما معنى؛ بدليل قول الشاعر:

فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا(٢)

وقولهم: جاءني الفقيه والظريف، والمغايرة لفظًا ثابتة.

٧٩١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤]، وقال تعالى في موضع آخر ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤].

قلنا: تزيين الله تعالى لهم الأعمال بخلقه الشهوة والهوى وتركيبها فيهم، وتزيين

---

(١) قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: أشهر أسمائها: «سورة النمل» وكذلك سميت في صحيح البخاري وجامع الترمذي. وتسمى أيضًا: «سورة سليمان»، وهذان الاسمان اقتصر عليهما في الإتقان وغيره، وذكر أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن أنها تسمى: «سورة الهدهد». ووجه الأسماء الثلاثة: أن لفظ النمل ولفظ الهدهد لم يذكرا في سورة من القرآن غيرها، وأما تسميتها: «سورة سليمان» فلأن ما ذكر فيها من ملك سليمان مفصلًا لم يذكر مثله في غيرها، وهذه السورة مكية بالاتفاق كما حكاه ابن عطية والقرطبي والسيوطي وغير واحد اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٣٠٥٢).

(٢) عجز بيت من الوافر - لعدي بن زيد وصدره:

وقَدَّمْتِ الأديمَ لراحشيه وألفى قولها..........

والشاهد فيه قوله: «كذبًا ومينا» حيث عطفت الواو قوله: «مينا» على مرادفه «كذبا» وانظر الدرر ٦/ ٧٣ وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٧٦ ومغني اللبيب ١/ ٣٥٧ وهمع الهوامع ٢/ ١٢٩ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٩٩١).

الشيطان بالوسوسة والإغواء والغرور والتمنية، فصحت الإضافتان.

٧٩٢- **فإن قيل:** كيف قال هنا ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النمل: ٧] وقال في سورة طه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠] وأحدهما قطع والآخر ترجّ والقصة واحدة؟

قلنا: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

٧٩٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٨]، مع أنه لم يكن في النار أحد[1] بل لم يكن المرئي نارًا، وإنما كان نورًا في قول الجمهور، وقيل: كان نارًا ثم انقلب نورًا؟

قلنا: قال ابن عباس والحسن رضي الله عنهما: معناه قَدَّسَ من ناداه من النار وهو الله عز وجل، لا على معنى أن الله تعالى يحل في شيء؛ بل على معنى أنه أسمعه النداء من النار في زعمه.

الثاني: أن «مِنْ» زائدة؛ والتقدير بورك في النار وفيمن حولها، وهو موسى عليه السلام والملائكة.

الثالث: أن معناه بورك من في طلب النار؛ وهو موسى عليه السلام.

٧٩٤- **فإن قيل:** إنما يقال بارك الله على كذا، ولا يقال بارك الله كذا؟

قلنا: قال الفراء: العرب تقول باركه الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٣] ولفظ التحيات: «وبارك على محمد وعلى آل محمد».

٧٩٥- **فإن قيل:** ما وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠، ١١] الآية؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه استثناء منقطع بمعنى لكن.

الثاني: أنه استثناء متصل، كذا قاله الحسن وقتادة ومقاتل رحمهم الله، ومعناه: إلا مَنْ ظلم منهم بارتكاب الصغيرة كآدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف وموسى

---

(١) في القلب شيء من هذا الكلام لمخالفته ظاهر الآية الكريمة.

وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم، فإنه يخاف مما فعل مع علمه أني غفور رحيم، فيكون تقدير الكلام: إلا مَنْ ظلم منهم فإنه يخاف فمن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم؛ ولهذا قال بعضهم: إن هنا وقفًا على قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ وابتداء الكلام الثاني محذوف كما قدرنا.

الثالث: أن «إلا» بمعنى «ولا» كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي ولا الذين ظلموا منهم.

الرابع: أن تقديره: أني لا يخاف لدي المرسلون ولا غير المرسلين ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ الآية.

٧٩٦- **فإن قيل:** كيف قال سليمان عليه السلام ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا﴾ [النمل: ١٦] بنون العظمة وهو من كلام المتكبرين؟

قلنا: لم يرد به نون العظمة، وإنما أراد به نون الجمع وعنى نفسه وأباه.

الثاني: أنه كان ملكًا مع كونه نبيًّا فراعى سياسة الملك وتكلم بكلام الملوك.

٧٩٧- **فإنه قيل:** كيف حل له تعذيبُ الهدهد حتى قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١]؟

قلنا: لعل ذلك أبيح له خاصة كما خص بفهم منطق الطير وتسخيره له وغير ذلك.

٧٩٨- **فإن قيل:** كيف استعظم الهدهدُ عرشها مع ما كان يرى مِن ملك سليمان عليه السلام حتى قال ولها عرشٌ عظيمٌ؟

قلنا: يجوز أنه استصغر حالها بالنسبة إلى حال سليمان، فاستعظم لها ذلك العرش.

الثاني: أنه يجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض الأمراء شيء لا يكون للملك مثله.

٧٩٩- **فإن قيل:** كيف قال الهدهدُ ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] مع قول سليمان صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] فكأنه سوّى بينهما؟

قلنا: بينهما فرق؛ وهو أن الهدهد أراد به، وأوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا؛ لأنه عطف على الملك، وسليمان أراد به وأوتينا من كل شيء من أسباب الدين والدنيا ويؤيد ذلك عطفه على المعجزة وهي منطق الطير.

٨٠٠- **فإن قيل:** كيف سوى الهدهد بين عرشها وعرش الله تعالى في الوصف بالعظم

حتى قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] وقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٦]؟

قلنا: بين الوصفين بَونٌ عظيم؛ لأنه وصف عرشها بالعظم بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله تعالى بالعظم بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض وما بينهما.

٨٠١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨] إذا تولى عنهم، فكيف يعلم جوابهم؟

قلنا: معناه ثُمَّ تول عنهم مستترًا مِن حيث لا يرونك فانظر ماذا يرجعون.

الثاني: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره: فانظر ماذا يرجعون ثُمَّ تول عنهم.

٨٠٢- **فإن قيل:** كيف استجاز سليمان عليه السلام تقديم اسمه في الكتاب على اسم الله تعالى حتى كتب فيه ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

قلنا: لأنه عرف أنها لا تعرف الله تعالى وتعرف سليمان، فخاف أن تستخف باسم الله تعالى إذا كان أول ما يقع نظرها عليه، فجعل اسمه وقاية لاسم الله تعالى.

وقيل: إن اسم سليمان كان على عنوانه، واسم الله تعالى كان في أول طيه.

٨٠٣- **فإن قيل:** كيف يجوز أن يكون آصف وهو كاتب سليمان عليه السلام ووزيره وليس بنبي يقدر على ما لا يقدر عليه النبي، وهو إحضار عرش بلقيس في طرفة عين؟

قلنا: يجوز أن يخص غير الرسول بكرامة لا يشاركه فيها الرسول، كما خصت مريم بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة وزكريا لم يرزق منها، وكما أن سليمان صلوات الله عليه خرج مع قومه يستسقون فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تستسقي، فقال لقومه: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم، ولم يلزم من ذلك فضلها على سليمان. وقد نقل أن النبي ﷺ كان إذا أراد الخروجَ إلى الغزوات قال لفقراء المهاجرين والأنصار: «**ادعوا لنا بالنصرة، فإن الله تعالى ينصرنا بدعائكم**»، ولم يكونوا أفضل منه ﷺ، مع أن كرامة التابع مِن جملة كرامات المتبوع، قالوا: والعلم الذي كان عنده هو اسم الله الأعظم، فدعا به فأجيب في الحال، وهو عند أكثر العلماء كما قال البندنيجي اسم الله، ثم، قيل: هو يا حي يا قيوم، وقيل: يا ذا

الجلال والإكرام، وقيل: يا الله يا رحمن، وقيل: يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت، فمن أخلص النية ودعا بهذه الكلمات مع استجماع شرائط الدعاء المعروفة فإنه يجاب لا محالة.

٨٠٤- فإن قيل: كيف قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وهي إنما أسلمَتْ بعده على يده لا معه؛ لأنه كان مسلمًا قبلها؟

قلنا: إنما عدلت عن تلك العبارة إلى هذه لأنها كانت ملكة، فلم تر أن تذكر عبارة تدل على أنها صارت مولاة له بإسلامها على يده وإن كان الواقعُ كذلك.

٨٠٥- فإن قيل: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟

قلنا: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا جمعوا بين البيانين ثم قالوا: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ [النمل: ٤٩] يعنون ما شهدناه وحده كانوا صادقين، لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله.

٨٠٦- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] ونحن نعلم الجنة والنار وأحوال القيامة وكلها غيب؟

قلنا: معناه لا يعلمُ الغيبَ بلا دليل إلا الله أو بلا معلم إلا الله، أو جميع الغيب إلا الله، وقيل معناه: لا يعلم ضمائر السموات والأرض إلا الله.

٨٠٧- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦] أو (أدرك) على اختلاف القراءتين، هل مرجع الضمير فيه وفيما قبله واحد أم لا؟ وكيف مطابقة الإضراب لما قبله، ومطابقته لما بعده من الإضرابين؟ وكيف وصفهم بنفي الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى؟

قلنا: مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ هو الكفار فقط، وفيما قبله جميع مَن في السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ معناه بل تتابع وتلاحق واجتمع كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وأصله تدارك، فأدغم التاء في الدال، وقوله تعالى: (بل أدرك) معناه بل كمل وانتهى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ما جهلوه في الدنيا علموه في الآخرة. وقال السدي[1]: يريد اجتمع علمهم يوم

---

(١) هو المفسر الإخباري إسماعيل بن عبد الرحمن السدي المتوفى سنة ١٢٨هـ.

القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا، وقال مقاتل: يريد علموا في الآخرة ما شكوا فيه وعموا عنه في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٦٦] معناه: بل هم اليوم في شك من الساعة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] جمع عمٍ وهو أعمى القلب. ومطابقة الإضراب الأول لما قبله أن الذين لا يشعرون وقت البعث لما كانوا فريقين: فريق منهم لا يعلمون وقت البعث مع علمهم أنه يوجد لا محالة وهم المؤمنون، وفريق منهم لا يعلمون وقته لإنكارهم أصل وجوده أفرد الفريق الثاني بالذكر بقوله تعالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ تأكيدًا لنفي علمهم في الدنيا، كأنه تعالى قال: بل فريق منهم لا يعلمون شيئًا من أمر البعث في الدنيا أصلًا، ثم أضرب عن الإخبار بتتابع علمهم وتلاحقه بحقيقة البعث في الآخرة إلى الإخبار عن شكهم في الدنيا في أمر البعث والساعة؛ مع قيام الأدلة الشرعية على وجودها لا محالة وأما وصفهم بنفي الشعور ثمَّ بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى فلا تناقض فيه، لاختلاف الأزمنة، أو لاختلاف متعلقات تلك الأمور الأربعة، وهي الشعور والعلم والشك والعمى.

٨٠٨- **فإن قيل:** قضاء الله تعالى وحكمه واحد فما معنى قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ﴾ [النمل: ٧٨] وهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بقضائه أو يحكم بينهم بحكمه.

قلنا: معناه بما يحكم به، وهو عدله المعروف المألوف؛ لأنه لا يقضي إلا بالحق وبالعدل، فسمى المحكوم به حكمًا. وقيل: معناه بحكمته؛ ويدل عليه قراءة مَنْ قرأ بحِكَمِهِ جمع حكمة.

٨٠٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [النمل: ٨٦] ولم يراع المقابلة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ فيه؟

قلنا: راعي المقابلة المعنوية دون اللفظية؛ لأن معنى مبصرًا ليبصروا فيه، وقد سبق ما يشبه هذا في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ٥٩].

٨١٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٦] مع أن في ذلك علامات على وحدانية الله تعالى لجميع العقلاء؟

قلنا: إنما خصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم.

٨١١- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ ﴾ [النمل: ٨٧] ولم يقل فيفزعُ وهو أظهر مناسبة؟

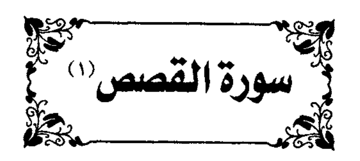
قلنا: أراد بذلك الإشعارَ بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة؛ لأن الفعل الماضي يدل على الثبوت والتحقق قطعًا.

٨١٢- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧] أي صاغرين أذلاء بعد البعث، مع أن النبيين والصديقين والشهداء يأتونه عزيزين مكرمين؟

قلنا: المراد به صغار العبودية والرق وذلهما لا ذل الذنوب والمعاصي، وذلك يعم الخلق كلهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

* * *





سورة القصص(١)

٨١٣- **فإن قيل:** ما فائدة وحي الله تعالى إلى أم موسى عليه السلام بإرضاعه وهي ترضعه طبعًا سواء أمرت بذلك أم لا؟

قلنا: أمرها بإرضاعه ليألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها بعد وقوعه في يد فرعون، فلو لم يأمرها بإرضاعه ربما كانت تسترضع له مرضعة فيفوت ذلك المقصود.

٨١٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ [القصص: ٧] والشرط الواحد إذا تعلق به جزاءان صدق مع كل واحد منهما وحده، فيئول هذا إلى صدق قوله: فإذا خفت عليه فلا تخافي، وأنه يشبه التناقض؟؟؟.

قلنا: معناه فإذا خفت عليه من القتل فألقيه في اليم ولا تخافي عليه من الغرق، ولا تناقض بينهما.

٨١٥- **فإن قيل:** ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧]؟

قلنا: الخوف غم يصيب الإنسان لأمر يتوقعه في المستقبل، والحزن غم يصيبه لأمر قد وقع ومضى.

٨١٦- **فإن قيل:** كيف جعل موسى عليه السلام قتلَه القبطي الكافر مِن عمل الشيطان، وسمى نفسه ظالمًا واستغفر منه؟

قلنا: إنما جعله مِن عمل الشيطان لأنه قتله قبل أن يؤذن له في قتله، فكان ذلك

---

(١) سميت سورة القصص ولا يعرف لها اسم آخر. ووجه التسمية بذلك وقوع لفظ: «القصص» فيها عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] فالقصص الذي أضيفت إليه السورة هي قصص موسى الذي قصه على شعيب عليهما السلام فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها. فلما حكي في السورة ما قصه موسى كانت هذه السورة ذات قصص لحكاية قصص فكان القصص متوغلا فيها. وجاء لفظ القصص في سورة يوسف ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة وهي مكية في قول جمهور التابعين. اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٣١١٢).

ذنبًا يستغفر منه مثله. قال ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر.

٨١٧- فإن قيل: إن موسى عليه السلام ما سقى لابنتي شعيب عليه السلام طلبًا للأجر، فكيف أجاب دعوتها لما قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]؟

قلنا: يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى على سبيل البر والمعروف ابتداء لا على سبيل الإجزاء وإن سمته هي إجزاء ويؤيد هذا ما روي أنه لما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبًا، ولا نأخذ على المعروف أجرًا حتى قال له شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا.

٨١٨- فإن قيل: كيف قال له شعيب عليه السلام: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧] ومثل هذا النكاح لا يصح لجهالة المنكوح، والنبي عليه السلام لا ينكح نكاحًا فاسدًا، ولا يُعتدَ به؟

قلنا: إنما كان ذلك وعدًا بنكاح معينة عند الواعد وإن كانت مجهولة عند الموعود ومثله جائز، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد كما وقع منه.

٨١٩- فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] فجعل الجناح هنا مضمومًا وقال في سورة طه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] فجعل الجناح هناك مضمومًا إليه والقصة واحدة؟

قلنا: المراد بالجناح المضموم هنا هو اليد اليمنى، والمراد بالجناح المضموم إليه في سورة طه ما بين العضد إلى الإبط من اليد اليسرى فلا تناقض بينهما.

٨٢٠- فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾؟

قلنا: لما رهب مِن الحية أمره اللهُ تعالى أن يضم إليه جناحه ليذهب عنه الفزع، وإنما قال تعالى: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾؛ لأنه جعل الرهب الذي أصابه علة وسببًا لما أمر به من ضم الجناح، قال مجاهد: كل من فزع من شيء فضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع. وقيل: حقيقة ضم الجناح غير مرادة؛ بل هو مجاز عن تسكين الروع وتثبيت الجأش. قال أبو علي: لم يرد به الضم بين شيئين، وإنما أمر بالعزم والجد في الإتيان بما طلب

منه، ومثله قولهم:

اشْـــدُدْ حيَازِيمَـــكَ للمـــوْ تِ.......................

فليس فيه شد حقيقة.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره: وَلَّى مدبرا من الرّهب.

٨٢١- **فإن قيل:** أي فائدة في تصديق هارون لموسى عليهما السلام؛ حتى قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤] ؟

قلنا: ليس مراده بقوله ردءًا يصدقني أن يقول له صدقت في دعوى الرسالة فإن ذلك لا يفيده عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآية الباهرة والمعجزات الظاهرة؛ بل مراده أن يلخص حججه بلسانه، ويبسط القول فيها ببيانه، ويجادل عنه بالحق، فيكون ذلك سببًا لتصديقه، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ [القصص: ٣٤]. وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لما قلنا لا لقوله صدقت، فإن سحبان وائل وباقلًا في ذلك سواء.

٨٢٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] أي أحكمنا إليه الوحي مغن عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤] أي من الحاضرين عند ذلك؟

قلنا: معناه وما كنت مِن الشاهدين قصته مع شعيب عليه السلام فاختلفت القضيتان.

٨٢٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] وكم رأينا من الظالمين بالكفر والكبائر مَنْ قد هداه اللهُ للإسلام والتوبة؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة المائدة.

٨٢٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤] وإنما يرى العذاب مَنْ كان ضالًّا لا مهتديًا؟؟؟.

قلنا: جواب «لو» محذوف تقديره ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون لما اتبعوهم أو لما رأوا العذاب.

٨٢٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في آخر آية الليل ﴿بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص: ٧١] وقال في آخر آية النهار ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٢] ؟

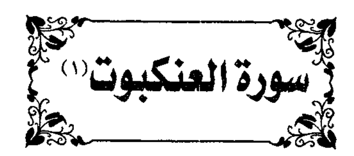
قلنا: السماع والإبصار المذكوران لا تعلق لهما بظلمة الليل ولا بضياء النهار، فلذلك لم يقرن الإبصار بالضياء؛ وبيانه أن معنى الآيتين أفلا يسمعون القرآن سماع تأمل، وتدبر فيستدلوا بما فيه من الحجج على توحيد الله تعالى، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة.

٨٢٦- **فإن قيل:** كيف وجه صحةَ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] ؟

قلنا: قال الفراء: هو استثناء منقطع تقديره رحمة من ربك، أي للرحمة.

*** *** ***





سورة العنكبوت[١]

٨٢٧- **فإن قيل:** قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت: ١٢] ثم قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؟

قلنا: معناه وما الكافرون بحاملين شيئًا من خطايا المؤمنين التي ضمنوا حملها، وليحملن الكافرون أثقال أنفسهم وهي ذنوب ضلالهم، وأثقالًا مع أثقالهم وهي ذنوب إضلالهم غيرهم من الكفار، لا خطايا المؤمنين التي نفى عنهم حملها؛ وقد سبق نظير هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] في سورة الأنعام وفي سورة بني إسرائيل.

٨٢٨- **فإن قيل:** ما فائدة العدول عن قوله «تسعمائة وخمسين عامًا» إلى قوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] مع أن عادة أهل الحساب هو اللفظ الأول؟

قلنا: لما كانت القصة مسوقة لتسلية النبي ﷺ بذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وكابده من طول مصابرتهم، كان ذكر أقصى العدد الذي لا عقد أكثر منه في مراتب العدد أفخم وأعظم إلى الغرض المقصود، وهو استطالة السامع مدة صبره.

وفيه فائدة أخرى وهي نفي وَهَم إرادة المجاز بإطلاق لفظ التسعمائة والخمسين على أكثرها، فإن هذا الوهم مع ذكر الألف والاستثناء منتف أو هو أبعد.

٨٢٩- **فإن قيل:** كيف جاء المميز أولًا بلفظ السنة والثاني بلفظ العام؟

قلنا: لأن تكرار اللفظ الواحد مجتنب في مذهب الفصحاء والبلغاء إلا أن يكون لغرض تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك.

٨٣٠- **فإن قيل:** كيف نكر الرزقَ ثم عرفه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]؟

---

(١) اشتهرت هذه السورةُ بسورة العنكبوت من عهد رسول الله ﷺ، ووجه إطلاق هذا الاسم على هذه السورة أنها اختصت بذكر مثل العنكبوت في قوله تعالى فيها: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]. اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٣١٧٥).

قلنا: لأنه أراد أنهم لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئًا مِن الرزق فابتغوا عند الله الرزق كله، فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره.

٨٣١- **فإن قيل:** كيف أضمر اسمه تعالى في قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] ثم أظهره في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وكان القياس كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟

قلنا: إنما عدل إلى ما ذكر لتأكيد الإخبار عن الإعادة التي كانت هي المنكرة عندهم بالإفصاح باسمه تعالى في ذكرها وجعله مبتدأ لزيادة الاهتمام بشأنها؟

٨٣٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧] في معرض المدح أو في معرض الامتنان عليه، وأجر الدنيا فَانٍ منقطع، بخلاف أجر الآخرة فإنه النعيم المقيم الباقي، فكان الأولى بالذكر؟

قلنا: المراد به: وآتيناه أجره في الدنيا مضمومًا إلى أجره في الآخرة من غير أن يُنقص مِن أجر الآخرة شيئًا، قال ابن جرير: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] يعني له في الآخرة جزاء الصالحين وافيًا كاملًا.

وأجره في الدنيا، قيل: هو الثناء الحسن مِن الناس والمحبة مِن أهل الأديان. وقيل: هي البركة التي بارك الله فيه وفي ذريته.

٨٣٣- **فإن قيل:** كيف قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] يعنون مدينةَ قوم لوط عليه السلام، ولم يقولوا تلك القرية، مع أن مدينةَ قوم لوط كانت بعيدةً عن موضع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، غائبة عند وقت هذا الخطاب؟

قلنا: إنما قالوا هذه القرية لأنها كانت قريبة حاضرة بالنسبة إليهم وإن كانت بعيدة بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام.

٨٣٤- **فإن قيل:** كيف قالوا: ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] ولم يقولوا أهل هذه القرى؟ مع أن مدائن قوم لوط كانت خمسًا فأهلكوا منها أربعًا؟

قلنا: إنما اقتصر في الذكر على قرية واحدة لأنها كانت أكبر وأقرب وهي سدوم مدينة لوط عليه السلام، فجعلوا ما وراءها تبعًا لها في الذكر.

٨٣٥- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] أي ذوي

بصائر، يقال فلان مستبصر: إذا كان عاقلًا لبيبًا صحيح النظر، ولو كانوا كذلك لما عدلوا عن طريق الهدى إلى طريق الضلال؟

قلنا: معناه وكانوا مستبصرين في أمور الدنيا، وقيل: معناه وكانوا عارفين الحق بوضوح الحجج والدلائل؛ ولكنهم كانوا ينكرونه متابعة للهوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وقيل: معناه وكانوا مستبصرين لو نظروا نظر تدبر وتفكر.

٨٣٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وكل أحد يعلم أن أضعف بيوت يتخذها الهوامُ بيت العنكبوت؟

قلنا: معناه لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام أولياء مِن دون الله مثل اتخاذ العنكبوت بيتًا لما اتخذوها.

٨٣٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وكل أهل الكتاب ظالمون؛ لأنهم كافرون، ولا ظلم أشد من الكفر، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؟؟.

قلنا: المراد بالظلم هنا الامتناع عن قبول عقد الذمة وأداء الجزية أو نقض العهد بعد قبوله.

الثاني: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] الآية.

٨٣٨- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]؟

قلنا: فائدته تأكيد النفي، كما يقال في الإثبات للتأكيد: هذا الكتاب مما كتبه فلان بيده وبيمينه، ورأيت فلانًا بعيني، وسمعت هذا الحديث بأذني ونحو ذلك.

٨٣٩- **فإن قيل:** كيف لم يؤكد سبحانه وتعالى في التلاوة ولم يقل وما كنت تتلو من قبله من كتاب بلسانك؟

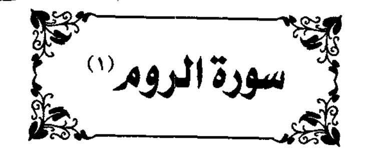
قلنا: الأصل في الكلام عدم الزيادة، وكل ما جاء على الأصل لا يحتاج إلى العلة؛ إنما يحتاج إلى العلة ما جاء على خلاف الأصل.

٨٤٠- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ومعلوم أن المجاهدة في دين الله تعالى، أو في حق الله تعالى مع النفس الأمارة بالسوء أو مع الشيطان أو مع أعداء الدين، كل ذلك إنما يكون بعد تقدم الهداية من الله تعالى، فكيف جعل الهداية من ثمرات المجاهدة؟

قلنا: معناه والذين جاهدوا في طلب التعلم لنهدينهم سبلنا بمعرفة الأحكام وحقائقها. وقيل: معناه لنهدينهم طريق الجنة. وقيل: معناه والذين جاهدوا لتحصيل درجة لنهدينهم إلى درجة أخرى أعلى منها. وحاصله: لنزيدنهم هداية وتوفيقًا للخيرات كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه: معناه والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا. وعن بعض الحكماء: مَنْ عمل بما علم وفق لما لا يعلم. وقيل: إن الذي نرى مِنْ جهلنا بما لا نعلم هو من تقصيرنا فيما نعلم.

❊ ❊ ❊





سورة الروم(١)

٨٤١- **فإن قيل:** كيف ذَكَّر الضميرَ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، والمراد به الإعادة لسبق قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]؟

قلنا: معناه: ورجعه أو: ردُّه أهون عليه، فأعاد الضمير على المعنى لا على اللفظ، كما في قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان: ٤٩] أي بلدًا أو مكانًا.

٨٤٢- **فإن قيل:** كيف أخرت الصلة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقدمت في قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١]؟

قلنا: لأن هناك قصد الاختصاص وهو يحسن الكلامَ، فقيل هو عَلَيَّ هين وإن كان مستصعبًا عندكم أن يولد بين هِمٍّ وعاقر، وأما هنا فلا معنى للاختصاص فجرى على أصله، والأمر مبني على ما يعقل الناس من أن الإعادة أسهل مِنَ الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى.

٨٤٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى في السهولة سواء، وإنما تتفاوت في السهولة والصعوبة بالنسبة إلى قدرتنا؟

قلنا: معناه وهو هين عليه، وقد جاء في كلام العرب «أفعل» بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل، ومنه قولهم في الأذان الله أكبر، أي الله كبير في قول بعضهم، وقال الفرزدق:

إنَّ الَّذِي سَمكَ(٢) السَّماءَ بَنى لَنَا ... بَيْتًا دَعائِمُهُ أعزُّ وأطْوَلُ(٣)

---

(١) هذه السورة تسمى سورة الروم في عهد النبي ﷺ وأصحابه، ووجه ذلك أنه ورد فيها ذكر اسم الروم ولم يرد في غيرها من القرآن، وهي مكية كلها بالاتفاق حكاه ابن عطية والقرطبي ولم يذكرها صاحب الإتقان في السور المختلف في مكيتها ولا في بعض آيها. اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٣٢١٨).

(٢) أي: رفع.

(٣) من الكامل – للفرزدق والشاهد فيه قوله: «أعز وأطول» حيث استعمل صيغتي التفضيل في غير التفضيل وانظر (خزانة الأدب ٦/ ٥٣٩، وابن يعيش ٦/ ٩٧ والمقاصد النحوية ٤/ ٤٢ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٧٢٠).

أي عزيزة طويلة، وقال معن بن أوس المزني:

لَعَمْـــرُكَ مَـــا أدرِي وإني لأَوْجَـــلُ عَلَـــى أيِّنَـــا تَعْـــدُو المنِيَـــةُ أَوَّلُ(١)

أي وإني لوجل. وقال آخر:

أصـبْحتُ أمنَحُـكَ الـصُّدودَ وإنَّنـي قَـسَمًا إليـكَ مـعَ الـصُّدودِ لأميْـل(٢)

أي لمائل، وقال آخر:

تَمَنَّـى رجـالٌ أنْ أمـوتَ وإنْ أمُـتْ فتلـكَ سـبيلٌ لـستُ فيهَـا بأوحـدِ(٣)

أي بواحد.

الثاني: أن معناه، وهو أهون عليه في تقديركم وحكمكم؛ لأنكم تزعمون وتعتقدون فيما بينكم أن الإعادة أهون من الابتداء، كيف وأن الابتداء مِن ماء والإعادة مِنْ تراب، وتركيب الصورة مِن التراب أهون عندكم.

الثالث: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] راجع إلى المخلوق لا إلى الله تعالى، معناه: أنه لا صعوبة على المخلوق فيه ولا إبطاء؛ لأنه يعاد دفعة واحدة بقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وفي الابتداء خلق نطفة، ثم نقل إلى مضغة، ثم إلى عظام، ثم إلى كسوة اللحم.

الرابع: أن الابتداء من قبيل التفضل الذي لا مقتضى لوجوبه، والإعادة من قبيل الواجب؛ لأنها لابدّ منها لجزاء الأعمال. وجزاؤها واجب بحكم وعده سبحانه وتعالى.

٨٤٤- فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ [الروم: ٣٩] الآية؛ على اختلاف القراءتين بالمد والقصر؟؟.

قلنا: قال الحسن رحمه الله: المراد به الربا المحرم والخطاب لدافعي الربا لا

(١) من الطويل لمعن بن أوس والشاهد فيه ما ذكره المؤلف - وانظر (المقتضب ٣/ ٢٤٦ والخزانة ٦/ ٥٠٥ وابن يعيش ٤/ ٧٨ والمعجم المفصل في شواهد النحول ٢/ ٧١٣).

(٢) من الكامل للأحوص - والشاهد ما ذكره المؤلف وانظر (الكتاب ١/ ٣٨٠ والمقتضب ٣/ ٢٣٣ والخزانة ٨/ ١٧٧ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٧٣٠).

(٣) من الطويل - للإمام الشافعي في ملحق ديوانه ص ١٥٩ وتاج العروس ٩/ ٢٧١ وللإمام علي في ديوانه ص ٦٧ وبلا نسبة في كتاب العين - وحد - وانظر (المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٢/ ٣٧٣).

لآخذيه. معناه: وما أعطيتم أكلة الربا من زيادة لتربو وتزكو في أموالهم فلا تزكو عند الله ولا يبارك فيها، ونظيره قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] لا فرق بينهما. وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا والجمهور: المراد به أن يهب الرجل غيره هبة أو يهدي إليه هدية على قصد أن يعوِّضه أكثر منها. وقالوا: وليس في ذلك أجر ولا وزر، وإنما سماه ربا لأنه مدفوع لاجتلاب الربا وهو الزيادة فكان سببًا لها فسمي باسمها، ومعنى قراءة المد ظاهر، وأما قراءة القصر فمعناها: وما جئتم، أي وما فعلتم من إعطاء ربا، كما تقول أتيت خطأ وأتيت صوابًا، أي فعلت؛ وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩] أي ذَوُو الأضعاف مِن الحسنات، وهو التفات عن الخطاب إلى الغيبة.

٨٤٥- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٩] بعد قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾ [الروم: ٤٩]؟

قلنا: فائدته التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] وقيل: الضمير لإرسال الرياح أو السحاب فلا تكرار.

٨٤٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم: ٥٤] والضعف صفة الشيء الضعيف، فكيف يخلق الإنسان من تلك الصفة؛ مع علمنا أنه خلق من عين وهو الماء أو التراب لا من صفة؟؟؟.

قلنا: أطلق المصدر وهو الضعف وأراد به اسم الفاعل وهو الضعيف كقولهم رجل عدل، أي عادل ونحوه؛ فمعناه من ضعيف وهو النطفة. وقيل: معناه على ضعف، فَمِن بمعنى «على»، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٧] والمراد به ضعف جثة الطفل حال طفوليته.

٨٤٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ ﴾ [الروم: ٥٦] وهم إنما لبثوا في الأرض في قبورهم؟

قلنا: معناه لقد لبثتم في قبوركم على ما في علم كتاب الله أو في خبر كتاب الله. وقيل: معناه في قضاء الله. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: وقال الذين أتوا العلم في كتاب الله الذين علموه وفهموه، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠٠].

٨٤٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى هنا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[الروم: ٥٧] وقال في

موضع آخر ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[فصلت: ٢٤] فجعلهم مرة طالبين الإعتاب ومرة مطلوبًا منهم الإعتاب؟

قلنا: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[الروم: ٥٧] أي ولا هم يقالون عثراتهم بالرد إلى الدنيا، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[فصلت: ٢٤]، أي وإن يستقيلوا فما هم مِن المقالين، هذا ملخص الجواب وحاصله، وقد أوضحنا معناه في شرح غريب القرآن.

* * *



سورة لقمان (١)

٨٤٩- **فإن قيل:** كيف يحل الغناءُ بعد قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [لقمان: ٦] الآية، وقد قال الواحدي في تفسير وسيطه: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء. وروى هو أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا رَفَعَ رَجُلٌ قَطُّ عَقِيرَتَهُ يَتَغَنَّى إِلاَّ ارْتَدَّ فِيهِ**(٢) **شَيْطَانَانِ يَضْرِبَانِ بِأَرْجُلِهِمَا عَلَى ظَهْرِهِ وَصَدْرِهِ حَتَّى يَسْكُتَ**»(٣). وقال سعيد بن جبير ومجاهد وابن مسعود رضي الله عنهم(٤): لهو الحديث هو والله الغناء واشتراء المغني والمغنية بالمال. وروى أيضًا حديثًا آخر عن النبي ﷺ مسندًا «أنه قال في هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [لقمان: ٦] **اللَّعِبُ وَالْبَاطِلُ كَثِيرُ النَّفَقَةِ سَمْحٌ فِيهِ؛ لا تَطِيبُ نَفْسُهُ بِدِرْهم يَتَصَدَّقُ بِهِ**»(٥)،

وروى أيضًا حديثًا آخر مسندًا عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ مَلأَ سَمْعَهُ مِنْ غِنَاءٍ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ الرُّوحَانِيينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». قِيلَ: وَمَا الرُّوحَانِيُونَ؟ قَالَ: «**قُرَّاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(٦).

قال أهل المعاني: ويدخل في هذا كلّ مَنِ اختار اللهوَ واللعبَ والمزاميرَ والمعازفَ على القرآن وإن كان اللفظُ ورد بالاشتراء، لأن هذا اللفظ يذكر في الاستبدال، والاختيار كثيرًا. وقال قتادة رحمه الله: حسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق. هذا كله نقله الواحدي رحمه الله، وكان مِن كبار السلف في العلم والعمل.

وقال غيره: قال ابنُ عباس وابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة:

---

(١) سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان؛ لأن فيها ذكر لقمان وحكمته وجملا من حكمته التي أدب بها ابنه. وليس لها اسم غير هذا الاسم وبهذا الاسم عرفت بين القراء والمفسرين. ولم أقف على تصريح به فيما يروى عن رسول الله ﷺ بسند مقبول. اهـ، من التحرير والتنوير (ص ٣٢٦٣).

(٢) كذا في الأصل وصوابه: «ارتدفه» انظر: زوائد مسند الحارث للهيثمي (٨٩٢).

(٣) ضعيف جدًّا: مسند الحارث «زوائد الهيثمي» (٨٩٢)، والمحلي لابن حزم (٩/ ٥٨) بإسناد واه.

(٤) قلت: السند إلى ابن مسعود فيه كلام.

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٠٧) إلى ابن مردويه من حديث ابن عمر مرفوعًا.

(٦) ضعيف: أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٨٧) عن سهل بن ولد أبي موسى عن رسول الله ﷺ فذكره هكذا مرسلًا.

المراد بلهو الحديث الغناء. وعن الحسن رحمه الله تعالى أنه كل ما ألهى عن الله تعالى.
وفي معنى يشتري قولان: أحدهما: أنه الشراءُ بالمال. والثاني، أنه الاختيارُ كما مر.

وقيل: الغناء منفدة للمال، مفسدة للقلب، مسخطة للرب.

قلنا: جوابه أنهم يؤولون هذه الآيةَ ونظائرَهَا، وهذه الأحاديث ونظائرها، فيصرفونها عن ظاهرها متابعة للهوى وميلًا إلى الشهوات، ولو نظروا بعقولهم فيما ينشأ عن جمعيات السماع في زماننا هذا مِنَ المفاسد لعلموا حرمته بلا خلاف بين المسلمين، فإن شروط إباحة السماع عند مَنْ أباحه لا تجتمع في زماننا هذا على ما هو مسطور في كتب المشايخ وأرباب الطريق، ولو اشتغلنا بتفصيل مفاسده وعدد شروطه عند من أباحه لخرجنا عن مقصود كتابنا هذا.

٨٥٠- **فإن قيل:** كيف وقع قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ [لقمان: ١٤] الآيتين، في أثناء وصية لقمان لابنه، وما الجامع بينهما؟

قلنا: هي جملة وقعت معترضة على سبيل الاستطراد تأكيدًا لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك.

٨٥١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] كيف اعترض بين الوصية ومفعولها؟

قلنا: لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم خاصة وتعانيه من المشاق والمتاعب تخصيصًا لها بتأكيد الوصية وتذكير تعظيم حقها بإفرادها بالذكر، ومن هنا قال رسول الله ﷺ لمن قال له: من أبر؟ قال: «**أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ**»، ثم قال بعد ذلك «**ثُمَّ أَبَاكَ**»[(١)].

٨٥٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصواتَ وأفرد صوتَ الحمير؟؟؟.

قلنا: ليس المراد ذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس، حتى يجمع، وإنما المراد أن كُلَّ جنس مِن الحيوان الناطق وغيره له صوت؛ وأنكر الأصوات مِن هذه الأجناس صوتُ هذا الجنس؛ فوجب إفراده لئلا يظن أن الاجتماعَ شرط في ذلك.

٨٥٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] يطابقه

---

(١) البخاري (٥٥١٤)، ومسلم (٤٦٢٢).

وما في الأبحر من ماء مداد فكيف عدل عنه إلى قوله: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]؟

قلنا: استغنى عن ذكر المداد بقوله يمده، لأنه مِن قولك مد الدواة وأمدها: أي زادها مدادًا، فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواة، والأبحر السبعة مملوءة مدادًا تصب فيه أبدًا صبًّا لا ينقطع، فصار نظير ما ذكرتم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] الآية.

٨٥٤- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ [لقمان: ٢٧] ولم يقل مِن شجر؟

قلنا: لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد بريت أقلامًا.

٨٥٥- **فإن قيل:** الكلمات جمع قِلَّة والمقصود التفخيم والتعظيم، فكان جمع الكثرة وهو الكلم أشد مناسبة؟

قلنا: جمع القِلَّة هنا أبلغ فيما ذكرتم من المقصود؛ لأن جمع القلة إذا لم يفن بتلك الأقلام وذلك المداد، فكيف يفني جمع الكثرة.

٨٥٦- **فإن قيل:** في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية كيف أضاف فيها العلم إلى نفسه في الأمور الثلاثة من الخمسة المغيبات، ونفى العلم عن العباد في الأمرين الآخرين، مع أنه الأمور الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء علم العباد بها؟

قلنا: إنما خَصَّ الأمورَ الثلاثة الأول بالإضافة إليه تعظيمًا لها وتفخيمًا؛ لأنها أجل وأعظم، وإنما خَصَّ الأمرين الآخرين بنفي علميهما عن العباد، لأنهما من صفاتهم وأحوالهم، فإذا انتفى علم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الأمور الخمسة أولى.

٨٥٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] ولم يقل بأي وقت تموت وكلاهما غير معلوم، بل نفي العلم بالزمان أولى، لأن مِن الناس مَن يدعي علمه وهم المنجمون، بخلاف المكان فإن أحدًا لا يدعي علمه؟

قلنا: إنما خص المكان بنفي علمه لوجهين:

أحدهما: أن الكون في مكان دون مكان في وسع الإنسان واختياره، فيكون اعتقاده علم مكان الموت أقرب بخلاف الزمان، الثاني: أن للمكان تأثيرًا في جنب الصحة والسقم بخلاف الزمان، أو تأثير المكان في ذلك أكثر.

سورة السجدة[1]

٨٥٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] وقال تعالى، في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟

قلنا: المراد بالأول مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى السطح الأعلى من سماء الدنيا وذلك ألف سنة، خمسمائة سنة مسافة ما بين السماء والأرض وخمسمائة سنة مسافة سمك سماء الدنيا، والمراد بالثاني مسافة عروج الملائكة مِن الأرض إلى العرش.

الثاني: أن المراد به في الآيتين يوم القيامة، ومقداره ألف سنة مِنْ حساب أهل الدنيا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ومعنى قوله تعالى: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أي لو تولى فيه حساب الخلق غير الله تعالى.

الثالث: أنه كألف سنة في حق عوام المؤمنين، والخمسين ألف سنة في حق الكافرين لشدة ما يكابدون فيه من الأهوال والمحن، وكساعة من أيام الدنيا في حق خواص المؤمنين، ويؤيده ما روي أنه قيل: «يا رسول الله يوم مقداره خمسون ألف سنة ما أطوله، فقال: «**والذي نفسي بيده ليخفف على المؤمنين حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا**»[2]. وروي أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن هاتين الآيتين؟ فقال: يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، وإني أكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم.

٨٥٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] أو (كُلَّ

---

(١) قال ابن عاشور: أشهر أسماء هذه السورة هو: «سورة السجدة» وهو أخص أسمائها وهو المكتوب في السطر المجعول لاسم السورة من المصاحف المتداولة. وبهذا الاسم ترجم لها الترمذي في جامعه وبذلك بإضافة كلمة: «سورة» إلى كلمة: «السجدة»: ولابد من تقدير كلمة: ﴿الٓمٓ﴾ محذوفة للاختصار؛ إذ لا يكفي مجرد إضافة سورة إلى السجدة في تعريف هذه السورة، فإنه لا تكون سجدة من سجود القرآن إلا في سورة من السور، وتسمى أيضًا: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾؛ وتسمى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة: كان النبي ﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾.

(٢) إسناده ضعيف جدًا: أحمد (٣/ ٧٥)، وأبو يعلي (١٣٩٠)، وابن حبان (٧٣٣٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بإسناد واه.

شيءٍ خَلْقَهُ) على اختلاف القراءتين، ومقتضى القراءتين أن لا يكون في مخلوقات الله تعالى شيء قبيح والواقع خلافه، ولو لم يكن إلا الشرور والمعاصي فإنها مخلوقة لله تعالى عند أهل السنة والجماعة مع أنها قبيحة؟

قلنا: أحسن بمعنى أحكم وأتقن، وهذا الجواب يعم القراءتين.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: أحسن إلى كل شيء خلقه.

الثالث: أن أحسن بمعنى «علم» كما يقال فلان لا يحسن شيئًا: أي لا يعلم شيئًا.

وقال علي كرم الله وجهه: «قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ»، أي ما يعلمه، فمعناه أنه علم خلق كل شيء، أو علم كل شيء خلقه ولم يتعلمه من أحد؛ وهذان الجوابان يخصان بقراءة فتح اللام.

٨٦٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى هنا: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، وقال في موضع آخر: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

قلنا: المذكور هنا صفة ذرية آدم، والمذكور هناك صفة آدم عليه السلام يعلم ذلك من أول الآيتين فلا تنافي.

٨٦١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩] والله تعالى منزه عن الروح؟

قلنا: معناه نفخ فيه من روح مضافة إلى الله بالخلق والإيجاد لا بوجه آخر.

٨٦٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى هنا: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: في موضع آخر: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]؟

قلنا: الله تعالى هو المتوفي بخلق الموت وأمر الوسائط بنزع الروح، والملائكة المتوفون أعوان ملك الموت، وهم يجذبون الروح من الأظفار إلى الحلقوم، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم فصحت الإضافات كلها.

٨٦٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥] الآية، وليس المؤمنون منحصرين فيمن هو موصوف بهذه الصفة ولا هذه الصفة شرط في تحقق الإيمان؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ [السجدة: ١٥] أي وعظوا، والمراد

بالسجود الخشوع والخضوع والتواضع في قبول الموعظة بآيات الله تعالى، وهذه الصفة شرط في تحقق الإيمان. ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧] الآية.

الثاني: أن معناه إنما يؤمن بآياتنا إيمانًا كاملًا من اتصف بهذه الصفة، وقيل المراد بالآيات فرائض الصلوات الخمس، والمراد التذكير بها بالأذان والإقامة.

٨٦٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، يدل على أن الفاسق لا يكون مؤمنًا؟

قلنا: الفاسق هنا بمعنى الكافر بدليل قوله تعالى بعده ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، والتقسيم يقتضي كون الفاسق المذكور هنا كافرًا، لا كون كل فاسق كافرًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] ولم يلزم مِن ذلك أن كل مجرم كافر، ولا أن كُلَّ مسيءٍ كافرٌ.

٨٦٥- **فإن قيل:** ما فائدة العدول عن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف: ٤١] في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ [السجدة: ٢٢] الآية؟

قلنا: لما جعله أظلم الظلمة ثُمَّ توعد كل المجرمين بالانتقام منه دل على أن الأظلم يصيبه النصيب الأوفر مِن الانتقام، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدةَ.

٨٦٦- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾ [السجدة: ٢٨]، سؤال عن وقت الفتح، وهو يوم القضاء بين المؤمنين والكافرين، يعني يوم القيامة، فكيف طابقه ما بعده جوابًا؟

قلنا: لما كان سؤالهم سؤال تكذيب واستهزاء بيوم القيامة لا سؤال استفهام أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء لا ببيان حقيقة الوقت.

٨٦٧- **فإن قيل:** على قول مَن فسر الفتح بفتح مكة أو بفتح يوم بدر، كيف وجه الجواب عن قوله: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [السجدة: ٢٩] الآية، وقد نفع بعض الكفار إيمانهم في ذينك اليومين وهم الطلقاء الذين آمنوا؟

قلنا: المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق.

سورة الأحزاب(١)

٨٦٨- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾[الأحزاب: ٢٨]، ولم يقل يا محمدُ كما قال تعالى يا موسى، يا عيسى، يا داود ونحوه؟

قلنا: إنما عدل عن ندائه باسمه إلى ندائه بالنبي والرسول إجلالًا له وتعظيمًا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾[التحريم: ١] ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ ﴾[المائدة: ٦٧].

٨٦٩- فإن قيل: لو كان ذلك كما ذكرتم لعدل عن اسمه إلى نعته في الإخبار عنه كما عدل في النداء في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ ﴾[الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ ﴾[آل عمران: ١٤٤].

قلنا: إنما عدل عن نعته في هذين الموضعين لتعليم الناس أنه رسول الله وتلقينهم أن يسموه بذلك ويدعوه به، ولذلك ذكره بنعته لا باسمه في غير هذين الموضعين من مواضع الإخبار، كما ذكره في النداء ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾[التوبة: ١٢٨] ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ ﴾[الفرقان: ٣٠]، ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾[الأحزاب: ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ ﴾[التوبة: ٦٢]، ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾[الأحزاب: ٦]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾[الأحزاب: ٥٦]، ﴿ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ ﴾[المائدة: ٨١] ونظائره كثيرة.

٨٧٠- فإن قيل: ما فائدة ذكر الجوف في قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ ﴾[الأحزاب: ٤]؟

قلنا: قد سبق مثلُ هذا السؤال وجوابه في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

---

(١) هكذا سميت «سورة الأحزاب» في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وكذلك رويت تسميتها عن ابن عباس وأبي بن كعب بأسانيد مقبولة، ولا يعرف لها اسم غيره. ووجه التسمية أن فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش وَمَنْ تحزب معهم أرادوا غزو المسلمين في المدينة فرد الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال وهي مدنية بالاتفاق. اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٣٣١١).

٨٧١- فإن قيل: ما معنى قولهم: أنت عليّ كظهر أمي؟ (١).

قلنا: أرادوا أن يقولوا أنت عليّ حرام كبطن أمي، فكَنُّوا عَن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطنَ الذي يقارب ذكره ذكر الفرج، وإنما كنوا عن البطن بالظهر لوجهين:

أحدهما: أنه عمود البطن، ويؤيِّده قول عمر رضي الله عنه: «يجيء به أحدهم على عمود بطنه» أي على ظهره.

الثاني: إتيان المرأة من قبل ظهرها كان محرمًا عندهم، وكانوا يعتقدون أنها إذا أتيت من قبل ظهرها جَاء الولدُ أحول، فكان المطلق في الجاهلية إذا قصد تغليظ الطلاق قال أنت عليّ كظهر أمي.

٨٧٢- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] جعل أزواج النبي ﷺ بمنزلة أمهات المؤمنين حكمًا، أي في الحرمة والاحترام وما جعل النبي ﷺ بمنزلة أبيهم حتى قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؟

قلنا: أراد الله بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] أن أمته يدعون أزواجه بأشرف الأسماء، وأشرف أسماء النساء الأمّ وأشرف أسماء النبي ﷺ رسول الله لا الأب.

الثاني: أنه تعالى جعلهن أمهات المؤمنين تحريمًا لهن، إجلالًا وتعظيمًا له ﷺ كيلا يطمع أحد في نكاحهن بعده. فلو جعل النبي ﷺ أبا للمؤمنين لكان أبا للمؤمنات أيضًا؛ فلم يجعل له نكاح امرأة من المؤمنات؛ بل يحرمن عليه، وذلك ينافي إجلاله وتعظيمه. وقد جعله أعظم من الأب في القرب والحرمة بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فجعل ﷺ أقرب إليهم من أنفسهم، وكثير من الآباء يتبرأ من ابنه ويتبرأ منه ابنه أيضًا، وليس أحد يتبرأ من نفسه.

٨٧٣- فإن قيل: كيف قُدِّمَ النبيُّ ﷺ على نوح ومن بعده في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]؟

قلنا: لأن هذا العطفَ من باب عطف الخاص على العام الذي هو جزء منه لبيان

---

(١) هذا ليس موطن.

التفضيل والتخصيص بذكر مشاهير الأنبياء وذراريهم، فلما كان النبي ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين قُدِّم عليهم، وفي الميثاق المأخوذ قولان:

أحدهما: أنه تعالى أخذ منهم الميثاق يوم أخذ الميثاق بأن يصدق بعضهم بعضًا.

والثاني: أخذ منهم الميثاق أن يوحدوا الله تعالى ويدعوا إلى توحيده ويصدق بعضهم بعضًا.

٨٧٤- فإن قيل: فكيف قُدِّم نوحٌ عليه السلام في نظير هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [الشورى: ١٣]؟

قلنا: لأن تلك الآية سيقت لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة، كأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح عليه السلام في العهد القديم، وبعث عليه محمد ﷺ في العهد الحديث، وبعث عليه مَنْ توسطهما مِن الأنبياء المشاهير، فكان تقديم نوح عليه السلام أشد مناسبة بالمقصود من سوق الآية.

٨٧٥- فإن قيل: ما فائدة إعادة أخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧]؟

قلنا: فائدته التأكيد ووصف الميثاق المذكور أولًا بالجلالة والعظم استعاذة من وصف الأجرَام به. وقيل: إن المراد بالميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا، فلا إعادة لاختلاف الميثاقين.

٨٧٦- فإن قيل: كيف قال تعالى وصف حال المؤمنين التي امتن عليهم فيها: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠] ولو بلغت القلوبُ الحناجرَ لماتوا ولم يبق للامتنان وجه؟

قلنا: قال ابن قتيبة: معناه كادت القلوبُ تبلغ الحناجر من الخوف، فهو مثل في اضطراب القلوب ووجيبها. ورده ابن الأنباري فقال: العرب لا تضمن «كاد» ولا تعرف معناه ما لم تنطق به. وقال الفراء: معناه أنهم جبنوا وجزعوا، والجبان إذا اشتد خوفه انتفخت رئته فرفعت قلبه إلى حنجرته، وهي جوف الحلقوم وأقصاه؛ وكذلك إذا اشتد الغضبُ أو الغمُّ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومِن هنا قيل للجبان: انتفخ منخره.

٨٧٧- فإن قيل: كيف علق اللهُ تعالى عذابَ المنافقين بمشيئته بقوله تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ [الأحزاب: ٢٤] وعذابهم متيقن مقطوع به لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]؟

قلنا: إن شاء تعذيبهم بإماتتهم على النفاق. وقيل: معناه إن شاء ذلك وقد شاءه.

٨٧٨- **فإن قيل:** ما حقيقة قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أنه نفسه أسوة حسنة، أي قدوة، والأسوة اسم للمتأسي به، أي المقتدي به، كما تقول: في البيضة عشرون منًّا حديدًا، أي هي في نفسها هذا المقدار.

الثاني: أن في خصلة من حقها أن يُتَأَسَّى بها وتتبع، وهي مواساته بنفسه أصحابه وصبره على الجهاد وثباته يوم أحد حين كسرت رباعيته وشُجَّ وجهه.

٨٧٩- **فإن قيل:** كيف أظهر تعالى الاسمين؛ مع تقدم ذكرهما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢]؟

قلنا: لئلا يكون الضمير الواحد عائدًا على الله تعالى وغيره.

٨٨٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في وصف بني قريظة: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] والله تعالى إنما ملكهم أرضهم بعد ما وطئوها وظهروا عليها؟

قلنا: معناه ويورثكم بطريق وضع الماضي موضع المستقبل مبالغة في تحقيق الموعود وتأكيده.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: وأرضًا لهم تطئوها سيورثكم إياها، يعني أرض مكة، وقيل أرض فارس والروم، وقيل أرض خيبر، وقيل كل أرض ظهر عليها المسلمون بعد ذلك إلى يوم القيامة.

الثالث: أن معناه وأورثكم ذلك كله في الأزل بكتابته لكم في اللوح المحفوظ.

٨٨١- **فإن قيل:** كيف خص الله تعالى نساء النبي ﷺ بتضعيف العقوبة على الذنب والمثوبة على الطاعة في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٠] الآية؟

قلنا: أما تضعيف العقوبة فلأنهن يشاهدن مِن الزواجر الرادعة عن الذنوب ما لا يشاهد غيرهن.

الثاني: أن في معصيتهن أذى لرسول الله ﷺ وذنب من آذى رسول الله ﷺ أعظم من ذنب غيره، والمراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما.
وأما تضعيف المثوبة فلأنهن أشرف مِنْ سائر النساء بقربهن مِن رسول الله ﷺ، فكانت الطاعة منهن أشرف كما كانت المعصية منهن أقبح، ونظير ذلك الوزير والنواب في طاعتهما للملك ومعصيتهما.

٨٨٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[الأحزاب: ٣٢]، ولم يقل كواحدة من النساء؟

قلنا: قد سبق نظير هذا مرة في آخر سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥].

٨٨٣- **فإن قيل:** كيف أمر الله تعالى نساء النبي بالزكاة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[الأحزاب: ٣٣] ولم يملكن نصابًا حولًا كاملًا؟

قلنا: المراد بالزكاة هنا الصدقة النافلة، والأمر أمر ندب.

٨٨٤- **فإن قيل:** ما الفرق بين المسلم والمؤمن حتى عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[الأحزاب: ٣٥] مع أنهما متحدان شرعًا؟

قلنا: المراد بالمسلم الموحد بلسانه، وبالمؤمن المصدق بقلبه.

٨٨٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾[الأحزاب: ٤٠]، مع أنه كان أبًا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم عليهم السلام؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾[الأحزاب: ٤٠] يخرجهم مِنْ حكم النفي من وجهين:

أحدهما: أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال بل ماتوا صبيانًا.

والثاني: أنه أضاف الرجال إليهم، وهم كانوا رجاله لا رجالهم.

٨٨٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠]، وعيسى عليه

السلام ينزل بعده وهو نبي؟

قلنا: معنى كونه خاتم النبيين أنه لا يتنبأ أحدٌ بعده، وعيسى ممن نُبِّئ قبله؛ وحين ينزل ينزل عاملًا بشريعة محمدﷺ مصليًا إلى قبلته كأنّه بعض أمته.

٨٨٧- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾[الأحزاب: ٤٣]، معناه يرحمكم ويغفر لكم فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾[الأحزاب: ٤٣] والرحمة والمغفرة منهم محال.

قلنا: جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة بالرحمة والمغفرة كأنهم فاعلو الرحمة والمغفرة، ونظيره قولهم: حياك الله، أي أحياك وأبقاك، وحيا زيد عمرًا: أي دعا له بأن يحييه الله اتكالًا منه على إجابة دعوته، ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾[الأحزاب: ٥٦].

٨٨٨- فإن قيل: قد فهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الأحزاب: ٤٥، ٤٦] أنه مأذون له في الدعاء إلى الله تعالى، فما فائدة قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؟

قلنا: معناه بتسهيله وتيسيره، وقيل: معناه بأمره لا أنك تدعوهم من تلقاء نفسك.

٨٨٩- فإن قيل: كيف شبه اللهُ تعالى النبيَّﷺ بالسراج دون الشمس، والشمس أتم وأكمل في قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٦] ؟

قلنا: قيل إن المراد بالسراج هنا الشمس كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وقيل: إنما شبه بالسراج لأن السراج يتفرع ويتولد منه سرج لا تعد ولا تحصى بخلاف الشمس، والنبيﷺ تفرع منه بواسطة إرشاده وهدايته جميع العلماء من عصره إلى يومنا هذا وهلم جر إلى يوم القيامة وقيل: إنما شبهه بالسراج لأنه بعثه في زمان يشبه الليل بظلمات الكفر والجهل والضلال.

٨٩٠- فإن قيل: كيف شبهه بالسراج دون الشمع، والشمع أشرف ونوره أتم وأكمل؟

قلنا: قد سبق الجوابُ عن مثل هذا في قولهِ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥].

٨٩١- **فإن قيل:** كيف خص تعالى المؤمنات بعدم وجوب العدة في الطلاق قبل المسيس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾[الأحزاب: ٤٩] الآية، مع أن حكم الكتابية كذلك أيضًا؟

قلنا: هذا خرج مخرج الأغلب والأكثر لا تخصيص.

٨٩٢- **فإن قيل:** كيف أفرد سبحانه العم وجَمَعَ العمات، وأفرد الخالَ وجَمَعَ الخالاتِ في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ؟

قلنا: لأن العم اسم على وزن المصدر الذي هو الضم ونحوه، وكذا الخال على وزن القال ونحوه، فيستوي فيه المفرد والتثنية والجمع، بخلاف العمّة والخالة، ونظيره قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[البقرة: ٧] .

٨٩٣- **فإن قيل:** هذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة النور: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾[النور: ٦١] ؟

قلنا: العم والخال ليسا مصدرين حقيقة، بل على وزن المصدر، فاعتبر هنا شبههما بالمصدر، وهناك حقيقتهما عملًا بالجهتين، بخلاف السمع، فإنه لما كان مصدرًا حقيقة ما جاء قط في الكتاب العزيز إلا مفردًا.

٨٩٤- **فإن قيل:** كيف ذَكَرَ الأقاربَ في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥] الآية، ولم يذكر العمَّ والخالَ وحكمهما حكم من ذكر في رفع الجناح؟

قلنا: سبق مثلُ هذا السؤال وجوابه في سورة النور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[النور: ٣١] فالأولى أن تستتر المرأةُ عن عمها وخالها لئلا يصف محاسنها عند ابنه فيفضي إلى الفتنة.

٨٩٥- **فإن قيل:** السادة والكبراء بمعنى واحد، فكيف عطف أحدهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾[الأحزاب: ٦٧] ؟

قلنا: هو من باب عطف اللفظ على اللفظ المغاير له؛ مع اتحاد معناهما، كقولهم: فلان عاقل لبيب، وهذا حسن جميل، وقول الشاعر:

مَعَـــاذَ الله مِـــنْ كـــذِبٍ ومَـــينِ [١]

٨٩٦- **فإن قيل:** المراد بالإنسان آدم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فكيف قال سبحانه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وفعول مِن أوزان المبالغة فيقتضي تكرار الظلم والجهل منه وأنه منتف؟

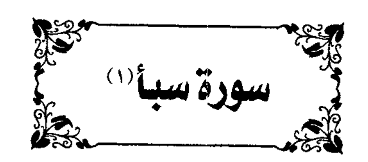
قلنا: لما كان عظيم القدر رفيع المحل كان ظلمه وجهله لنفسه أقبح وأفحش، فقام عظيم الوصف مقام الكثرة، وقد سبق نظيرُ هذا في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]. وقيل: إنما سماه ظلومًا جهولًا لتعدي ضرر ظلمه وجهله إلى جميع الناس، فإنهم أخرجوا مِن الجنة بواسطته وتسلط عليهم إبليس وجنوده.

* * *

---

(١) سبق تخريج هذا البيت والحديث عنه.





سورة سبأ[1]

٨٩٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [سبأ: ٩]، ولم يقل إلى ما فوقهم وما تحتهم من السماء والأرض؟

قلنا: ما بين يدي الإنسان هو كل شيء يقع نظره عليه من غير أن يحول وجهه إليه، وما خلفه هو كل شيء لا يقع نظره عليه حتى يحول وجهه إليه فكان اللفظ المذكور أتم مما ذكر.

٨٩٨- **فإن قيل:** هلا ذكر سبحانه الأيمانَ والشمائلَ هنا كما ذكرها في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧]؟

قلنا: لأنه وجد هنا ما يغني عن ذكرها، وهو لفظ العموم وذكر السماء والأرض ولا كذلك ثمة.

٨٩٩- **فإن قيل:** كيف استجاز سليمانُ عليه السلام عملَ التماثيل وهي التصاوير؟

قلنا: قيل إن عمل الصور لم يكن محرمًا في شريعته، ويجوز أن يكون صور غير الحيوان كالأشجار ونحوها، وذلك غير محرم في شريعتنا أيضًا.

٩٠٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ﴾ [سبأ: ١٥]، ولم يقل آيتان جنتان، وكل جنة كانت آية، أي علامة على توحيد الله تعالى؟

قلنا: لما تماثلتا في الدلالة واتحدت جهتهما فيها جعلهما آية واحدة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

٩٠١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [سبأ: ٢٢]، أي الذين زعمتموهم آلهة مِن دون الله، مع أن المشركين ما زعموا غير الله إلهًا دون الله، بل مع الله على وجه الشركة؟

---

(١) قال ابن عاشور رَحِمَهُ الله: هذا اسمها الذي اشتهرت به في كتب السنة وكتب التفسير وبين القراء، ولم أقف على تسميتها في عصر النبوة، ووجه تسميتها به: أنها ذكرت فيها أهل سبأ وهي مكية وحكي اتفاق أهل التفسير عليه.

قلنا: النص لا يدل على زعمهم حصر الآلهة في غير الله نصًّا، بل يوهم ذلك، ولو دل فنقول: فيه تقديم وتأخير تقديره: ادعوا الذين مِن دون الله زعمتم أنهم شركاء لله.

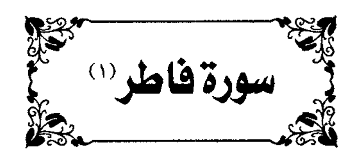
٩٠٢- **فإن قيل:** ما معنى التشكيك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؟

قلنا: قيل إن «أو» هنا بمعنى الواو في الموضعين، فيصير المعنى: نحن على الهدى وأنتم في الضلال. وقيل معناه: وإنا لضالون أو مهتدون وإنكم لكذلك، وهو من التعريض بضلالهم كما يقول الرجل لصاحبه إذا أراد تكذيبه: والله إن أحدنا لكاذب، ويعني به صاحبه.

٩٠٣- **فإن قيل:** كيف قالت الملائكة عليهم السلام في حق المشركين ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١] ولم ينقل عن أحد من المشركين أنه عبد الجن؟

قلنا: معناه كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به مِن عبادتنا أكثرهم بهم مؤمنون: أي أكثر المشركين مصدقون بالشياطين فيما يخبرونهم به مِن الكذب أن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك فالمراد بالجن الشياطين.

* * *



سورة فاطر[1]

٩٠٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [فاطر: ٩]، كيف جاء فتثير مضارعًا دون ما قبله وما بعده؟

قلنا: هو مضارع وضع موضع الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

٩٠٥- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ [فاطر: ١١]؟

قلنا: معناه وما يعمر مِن أحد، وإنما سماه معمرًا بما هو سائر إليه.

٩٠٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وكم من أمة كانت في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ولم يخل فيها نذير؟

قلنا: إذا كان آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث محمد عليهما الصلاة والسلام.

٩٠٧- **فإن قيل:** كيف اكتفى سبحانه وتعالى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد سبق ذكرهما في أولها؟

قلنا: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة استغنى بذكر أحدهما عن الآخر بعد سبق ذكرهما.

٩٠٨- **فإن قيل:** ما الفرق بين النَّصَبِ واللغوب حتى عطف أحدهما على الآخر؟

قلنا: النصب المشقة والكلفة، واللغوب الفتور الحاصل بسبب النَّصبِ فهو نتيجة النَّصبِ، كذا فرق بينهما الزمخشري رحمه الله، ويرد على هذا أن يكون انتفاء

---

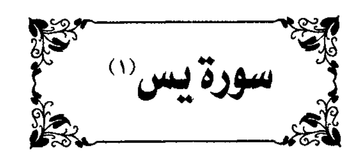
(١) سميت «سورة فاطر» في كثير من المصاحف في المشرق والمغرب وفي كثير من التفاسير، وسميت في صحيح البخاري وفي سنن الترمذي وفي كثير من المصاحف والتفاسير «سورة الملائكة» لا غير. وقد ذكر لها كلا الاسمين صاحب الإتقان فوجه تسميتها «سورة فاطر»: أن هذا الوصف وقع في طالعة السورة ولم يقع في أول سورة أخرى. ووجه تسميتها «سور الملائكة»: أنه ذكر في أولها صفة الملائكة ولم يقع في سورة أخرى، وهي مكية بالاتفاق اهـ من التحرير والتنوير (ص ٣٤٥٩).

الثاني معلومًا من انتفاء الأول.

٩٠٩- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[فاطر: ٣٧] مع أنه يوهم أنهم يعملون صالحًا آخر غير الصالح الذي عملوه، وهم ما عملوا صالحًا قط؛ بل سيئًا؟

قلنا: هم كانوا يحسبون أنّهم على سيرة صالحة، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٤] ؛ فمعناه غير الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله.

* * *



سورة يس(١)

٩١٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾[يس: ١٤]، وقال سبحانه، ثانيًا: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾[يس: ١٦]؟

قلنا: لأنّ الأول ابتداء إخبار فلم يحتج إلى التأكيد باللام، بخلاف الثاني، فإنه جواب بعد الإنكار والتكذيب فاحتاج إلى التأكيد.

٩١١- **فإن قيل:** كيف أضافَ الفطرَ إلى نفسه بقوله: ﴿فَطَرَنِي﴾[يس: ٢٢]، وأضاف البعث إليهم بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[يس: ٨٣] مع علمه أن الله تعالى فطره وفطرهُم، وسوف يبعثه ويبعثهم، فهلا قال فطرنا وإليه نرجع أو فطركم وإليه ترجعون؟

قلنا: لأن الخلق والإيجاد نعمة من الله تعالى توجب الشكر، والبعث بعد الموت وعيد وتهديد، يوجب الزجر؛ فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر في الشكر، وإضافته البعثَ إليهم أبلغ في الزجر.

٩١٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾[يس: ٣٠]، والتّحسّر على الله تعالى محال؟

قلنا: هو تحسير للخلق، معناه: قولوا يا حسرتنا على أنفسنا، لا تحسر مِن الله تعالى.

٩١٣- **فإن قيل:** كيف نفى الله سبحانه وتعالى الإدراك عن الشمس للقمر دون عكسه وهو: ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس؟

قلنا: لأن سيرَ القمر أسرع، فإنه يقطع فلكَهُ في شهر والشمس لا تقطع فلكها إلا

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة «يس» بمسمى الحرفين الواقعين في أولها في رسم المصحف؛ لأنها انفردت بهما فكانا مميزين لها عن بقية السور فصار منطوقهما علما عليها، وكذلك ورد اسمها عن النبي ﷺ، روى أبو داود عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: **«اقرؤوا يس على موتاكم»**. وبهذا الاسم عنون البخاري والترمذي في كتابي التفسير اهـ. قلت: والحديث المذكور في كلام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضعيف على الراجح.

في سنة؛ فكانت الشمس جديرة بأن توصف بنفي الإدراك لبطء سيرها، والقمر خليقًا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره، هذا سؤال الزمخشري رحمه الله وجوابه، ويرد عليه أن سرعة سير القمر يناسب أن ينفي الإدراك عنه؛ لأنه إذا قيل: لا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس، مع سرعة سيره، علم بالطريق الأولى أن الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر مع بطء سيرها، فأمّا إذا قيل: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر أمكن أن يقال إنما لم تدركه لبطء سيرها، فأما القمر فيجوز أن يدركها لسرعة سيره.

٩١٤- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾[يس: ٤١]، أي لأهل مكة ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[يس: ٤١] أي ذرية أهل مكة أو ذرية قوم نوح عليه السلام ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[يس: ٤١] والذرية اسم للأولاد، والمحمول في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام آباء أهل مكة لا أولادهم؟

قلنا: الذرية من أسماء الأضداد تطلق على الآباء والأولاد بدليل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤] وصف جميع المذكورين بكونهم ذرية، وبعضهم آباء، وبعضهم أبناء؛ فمعناه حملنا آباء أهل مكة أو حملنا أبناءهم؛ لأنهم كانوا في ظهور آبائهم المحمولين.

٩١٥- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[يس: ٤٨]، يعنون الوعد بالبعث والجزاء والوعد كان واقعًا لا منتظرًا؟

قلنا: معناه متى إنجاز هذا الوعد وصدقه، بحذف المضاف أو بإطلاق اسم الوعد على الموعود، كضرب الأمير ونسج اليمن.

٩١٦- فإن قيل: قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[يس: ٥٢] سؤال عن الباعث فكيف طابقه ما بعده جوابًا؟

قلنا: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل؛ إلا أنه جيء به على هذه الطريقة تبكيتًا لهم وتوبيخًا.

٩١٧- فإن قيل: كيف قال تعالى، في صفة أهل الجنة: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾[يس: ٥٦]، والظل إنما يكون حيث تكون الشمس، ولهذا لا يقال لما في الليل ظل والجنة لا

يكون فيها شمس لقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[الإنسان: ١٣] ؟

قلنا: ظل أشجار الجنة مِن نور العرش لئلا تبهر أبصار أهل الجنة فإنه أعظم مِن نور الشمس، وقيل: مِن نور قناديل العرش.

٩١٨- **فإن قيل:** كيف سمى سبحانه وتعالى نطق اليد كلامًا ونطق الرجل شهادة في قوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾[يس: ٦٥] ؟

قلنا: لأن اليد كانت مباشرة والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه ليس بشهادة؛ بل إقرار بما فعل. قلت: وفي الجواب نظر.

٩١٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾[يس: ٦٩] مع أنه ﷺ قد روي عنه ما هو شعر، وهو قوله ﷺ:

«أَنَـــا النَّبِـــيُّ لا كَــذِبْ أَنَـــا ابْـــنُ عَبْــدِ المُطَّلِــبْ»[(١)]

وقوله ﷺ:

«هَــلْ أنْــتِ إِلَّا أصْــبُعٌ دَمِيــتِ وفي سَــبِيلِ الله مَــا لَقِيــتِ»[(٢)]

قلنا: هذا ليس بشعر[(٣)]، لأن الخليل لم يعد مشطور الرجز شعرًا، وقوله:«هَل أَنْتِ

---

(١) البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٣٣٢٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٣٣٥٣) من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٣) قال الإمام النووي رحمه الله في المنهاج: قَوْله ﷺ: «**أَنَا النَّبِيّ لا كَذِب، أَنَا اِبْن عَبْد الْمُطَّلِب**» قَالَ الْقَاضِي عِيَاض: قَالَ الْمَازِرِيُّ: أَنْكَرَ بَعْض النَّاس كَوْن الرَّجَز شِعْرًا لِوُقُوعِهِ مِنَ النَّبِيّ ﷺ مَعَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] وَهَذَا مَذْهَب الْأَخْفَش، وَاحْتُجَّ بِهِ عَلَى فَسَاد مَذْهَب الْخَلِيل فِي أَنَّهُ شِعْر، وَأَجَابُوا عَنْ هَذَا بِأَنَّ الشِّعْر هُوَ مَا قُصِدَ إِلَيْهِ، وَاعْتَمَدَ الْإِنْسَان أَنْ يُوقِعَهُ مَوْزُونًا مُقَفًّى يَقْصِدُه إِلَى الْقَافِيَة، وَيَقَع فِي أَلْفَاظ الْعَامَّة كَثِير مِنَ الْأَلْفَاظ الْمَوْزُونَة، وَلَا يَقُول أَحَد: إِنَّهَا شِعْر، وَلَا صَاحِبهَا شَاعِر، وَهَكَذَا الْجَوَاب عَمَّا فِي الْقُرْآن مِنَ الْمَوْزُون كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وَلَا شَكّ أَنَّ هَذَا لَا يُسَمِّيه أَحَدٌ مِنَ الْعَرَب شِعْرًا، لِأَنَّهُ لَمْ تُقْصَدْ تَقْفِيَتُهُ وَجَعْلُهُ شِعْرًا. قَالَ: وَقَدْ غَفَلَ بَعْض النَّاس عَنْ هَذَا الْقَوْل، فَأَوْقَعَهُ ذَلِكَ فِي أَنْ قَالَ الرِّوَايَة: «**أَنَا النَّبِيّ لَا كَذِبَ**» بِفَتْحِ الْبَاء حِرْصًا مِنْهُ عَلَى أَنْ يُفْسِد الرَّوِيّ، فَيَسْتَغْنِي عَنِ الِاعْتِذَار، وَإِنَّمَا الرِّوَايَة بِإِسْكَانِ الْبَاء، هَذَا كَلَام الْقَاضِي عَنِ الْمَازِرِيّ. قُلْت: وَقَدْ قَالَ الْإِمَام أَبُو الْقَاسِم عَلِيّ بْن أَبِي جَعْفَر بْن عَلِيّ السَّعْدِيّ الصَّقَلِّيّ الْمَعْرُوف بِابْنِ الْقَطَّاع فِي كِتَابه «الشَّافِي فِي عِلْم =

إِلاَّ أَصْبُعٌ دَمِيتِ» من مشطور بحر الرجز؛ كيف وقد روي أنه ﷺ قال: «دميَت» و«لقيَت» بفتح الياء وسكون التاء وعلى هذا لا يكون شعرًا، وإنما الراوي حرَّفه فصار شعرًا.

الثاني: أن حد الشعر قول موزون مقفى مقصود به الشعر، والقصد منتف فيما روي عنه ﷺ فكان كما يتفق وجوده في كل كلام منثور من الخطب والرسائل ومحاورات الناس، ولا يعده أحد شعرًا.

٩٢٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]، والله تعالى منزه عن الجارحة؟

قلنا: هو كناية عن الانفراد بخلق الأنعام والاستبداد به بغير شريك، كما يقال في الحب وغيره من أعمال القلب هذا مما عملته يداك، ويقال لمن لا يد له يداك أو يديك، وكذا قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

٩٢١- **فإن قيل:** كيف سمى بقوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] مثلًا، وليس بمثل، وإنما هو استفهام إنكار؟

قلنا: سماه مثلًا لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهو إنكار الإنسان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى؛ مع أَنَّ العقل والنقلَ كليهما يشهد بقدرة الله على ذلك.

= الْقَوَافِي»: قَدَّر أَيْ قَوْم مِنْهُمْ الْأَخْفَش وَهُوَ شَيْخ هَذِهِ الصِّنَاعَة بَعْد الْخَلِيل أَنَّ مَشْطُور الرَّجَز وَمَنْهُوكه لَيْسَ بِشِعْرٍ، كَقَوْلِ النَّبِيّ ﷺ: «الله مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ»، وَقَوْله: «هَلْ أَنْتِ إِلَّا أُصْبُع دَمِيتِ وَفِي سَبِيل الله مَا لَقِيت»، وَقَوْله ﷺ: «أَنَا النَّبِيّ لا كَذِب أَنَا اِبْن عَبْد الْمُطَّلِب» وَأَشْبَاه هَذَا قَالَ ابْن الْقَطَّاع: وَهَذَا الَّذِي زَعَمَهُ الْأَخْفَش وَغَيْره غَلَط بَيِّن؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاعِر إِنَّمَا سُمِّيَ شَاعِرًا لِوُجُوهٍ مِنْهَا: أَنَّهُ شَعَرَ الْقَوْل وَقَصَدَهُ، وَأَرَادَهُ وَاهْتَدَى إِلَيْهِ وَأَتَى بِهِ كَلَامًا مَوْزُونًا عَلَى طَرِيقَة الْعَرَب مُقَفًّى فَإِنْ خَلَا مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَاف أَوْ بَعْضهَا لَمْ يَكُنْ شِعْرًا وَلَا يَكُون قَائِله شَاعِرًا بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَوْ قَالَ كَلَامًا مَوْزُونًا عَلَى طَرِيقَة الْعَرَب، وَقَصَدَ الشِّعْر أَوْ أَرَادَهُ وَلَمْ يُقَفِّهِ لَمْ يُسَمَّ ذَلِكَ الْكَلَام شِعْرًا، وَلَا قَائِله شَاعِرًا بِإِجْمَاع الْعُلَمَاء وَالشُّعَرَاء، وَكَذَا لَوْ قَفَّاهُ وَقَصَدَ بِهِ الشِّعْر وَلَكِنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ مَوْزُونًا لَمْ يَكُنْ شِعْرًا، وَكَذَا لَوْ أَتَى بِهِ مَوْزُونًا مُقَفًّى، وَلَكِنْ لَمْ يَقْصِدِ بِهِ الشِّعْر لَا يَكُون شِعْرًا وَيَدُلّ عَلَيْهِ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاس يَأْتُونَ بِكَلَامٍ مَوْزُون مُقَفًّى، غَيْر أَنَّهُمْ مَا قَصَدُوهُ وَلَا أَرَادُوهُ، وَلَا يُسَمَّى شِعْرًا، وَإِذَا تَفَقَّدَ ذَلِكَ وَجَدَ كَثِيرًا فِي كَلَام النَّاس، كَمَا قَالَ بَعْض السُّؤَال: اخْتِمُوا صَلَاتَكُمْ بِالدُّعَاءِ وَالصَّدَقَة، وَأَمْثَال هَذَا كَثِيرَة، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْكَلَام الْمَوْزُون لَا يَكُون شِعْرًا إِلَّا بِالشُّرُوطِ الْمَذْكُورَة، وَهِيَ الْقَصْد وَغَيْره مِمَّا سَبَق، وَالنَّبِيّ ﷺ لَمْ يَقْصِد بِكَلَامِهِ ذَلِكَ الشِّعْر، وَلَا أَرَادَهُ، فَلَا يُعَدّ شِعْرًا وَإِنْ كَانَ مَوْزُونًا. وَالله أَعْلَم.





سورة الصافات(١)

٩٢٢- فإن قيل: كيف جمع تعالى المشارق هنا وثناهما في سورة الرحمن، وكيف اقتصر هنا على ذكر المشارق وذكر ثَمَّةَ المغربين أيضًا وذكر المغارب مع المشارق، مجموعين في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] وذكرهما مفردين في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]؟

قلنا: لأن القرآنَ نزل بلغة العرب على المعهود مِن أساليب كلامهم وفنونه، ومِن أساليب كلامهم وفنونه الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز، فأجمل تارة بقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: ١٧] أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما على الإجمال، وفصل تارة بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] أراد جمع مشارق السنة ومغاربها وهي تزيد على سبعمائة، وبسط مرة بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

وأوجز واختصر مرة بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥] لدلالة المذكور وهي المشارق على المحذوف وهو المغارب، وكانت المشارق أولى بالذكر لأنها أشرف إما لكون الشروق سابقًا في الوجود على الغروب، أو لأن المشارق منبع الأنوار والأضواء.

٩٢٣- فإن قيل: كيف خَصَّ سبحانه وتعالى سماءَ الدنيا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦] مع أن غيرَ سماء الدنيا مزينة بالكواكب أيضًا؟

قلنا: إنما خَصَّها بالذكر لأنا نحن نرى سماء الدنيا لا غير.

٩٢٤- فإن قيل: كيف وجه قراءة الضم في قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ﴾ [الصافات: ١٢]

---

(١) قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اسمها المشهور المتفق عليه «الصافات» وبذلك سميت في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف كلها، ولم يثبت شيء عن النبي ﷺ في تسميتها، وقال في الإتقان: رأيت في كلام الجعبري أن سورة «الصافات» تسمى: «سورة الذبيح» وذلك يحتاج إلى مستند من الأمر، ووجه تسميتها باسم: «الصافات» وقوع هذا اللفظ فيها بالمعنى الذي أريد به أنه وصف الملائكة وإن كان قد وقع في سورة «الملك» لكن بمعنى آخر؛ إذ أريد هنالك صفة الطير على أن الأشهر أن «سورة الملك» نزلت بعد «سورة الصافات»، وهي مكية بالاتفاق.

وهي قراءة علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم واختيار الفرَّاء، والتعجّب روعة تعتري الإنسانَ عند استعظام الشيء، والله تعالى لا تجوز عليه الروعةُ؟

قلنا: أراد بالتعجب الاستعظام وهو جائز مِن الله تعالى، كما استعظم كيدَ النساء، وإنكار الكفار معجزات الأنبياء عليهم السلام.

الثاني: أن معناه قل يا محمد بل عجبت، وكان شريح يقرأ بالفتح يقول: إن الله تعالى لا يعجب مِن شيء وإنّما يعجب مَنْ لا يعلم، فقال إبراهيم النخعي: إنّ شريحًا كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم منه.

وكان يقرأ بالضم يريد عبد الله بن مسعود.

قال الزَّجّاج: وإنكار هذه القراءة غلط، لأن العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٥٤] وقوله: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ ﴾[التوبة: ٧٩] وما أشبهه، وفي الذي وقع منه العجب قولان: أحدهم كفرهم بالقرآن. والثاني: إنكارهم البعث.

٩٢٥- فإن قيل: كيف مدح سبحانه نوحًا عليه السلام بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الصافات: ٨١] ؛ مع أن مرتبةَ الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟

قلنا: إنما مدحه بذلك تنبيهًا لنا على جلالة محل الإيمان وشرفه، وترغيبًا في تحصيله والثبات عليه والازدياد منه، كما قال تعالى، في مدح إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[العنكبوت: ٢٧] .

٩٢٦- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴾[الصافات: ٨٨] ، والنظر إنما يعدى بإلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ ﴾[الأعراف: ١٤٣] وقال: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾[الروم: ٥٠] .

قلنا: «في» هنا بمعنى «إلى» كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾[إبراهيم: ٩] .

الثاني: أن المراد به نظر الفكر لا نظر العين، ونظر الفكر إنما يعدى «بفي» قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[الأعراف: ١٨٥] ، فصار المعنى ففكر في علم النجوم أو في حال النجوم.

٩٢٧- فإن قيل: كيف استجاز إبراهيم عليه السلام أن يقول: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ ﴾[الصافات: ٨٩] ولم يكن سقيمًا؟

قلنا: معناه سأسقم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] فهو مِن معاريض الكلام قاله ليتخلف عنهم إذا خرجوا إلى عيدهم فيكيد أصنامهم، وقال ابن الأنباري: أعلمه الله تعالى أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم كذا، فلما رآه علم أنه سيسقم. وقيل معناه: إني سقيم القلب عليكم إذ عبدتم الأصنام وتكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع. وقيل: إنه عرض له مرض وكان سقيمًا حقيقة. وقال الزمخشري: قد جَوَّز بعضُ الناس الكذبَ في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. قال: والصحيح أن الكذبَ حرامٌ إلا إذا عرّض وورّى، وإبراهيم صلوات الله عليه عرَّض بقوله وورَّى، فإنه أراد أن مَنْ في عنقه الموت سقيم، كما قيل في المثل: «كفى بالسلامة داء». وقال لبيد:

ودعوتُ ربي بالسَّلامة جاهدًا ... لِيُصِحَّني فإذَا السلامةُ داءُ[1]

وروي أن رجلًا مات فجأة فاجتمع عليه الناسُ وقالوا مات وهو صحيح. فقال أعرابي: أصحيح مَنِ الموت في عنقه؟

٩٢٨- **فإن قيل:** لم لا يجوز النظر في علم النجوم؛ مع أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد نظر فيه وحكم منه؟

قلنا: إذا كان المنجّم كإبراهيم في أن الله تعالى أراه ملكوت السموات والأرض أبيح له النظر في علم النجوم والحكم منه.

٩٢٩- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٣، ٩٤] أي يسرعون، يدل على أنهم عرفوا أنه هو الكاسر لها، وقوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٥٩] وما بعده يدل على أنهم ما عرفوا أنه الكاسر لها، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: يجوز أن يكون الذي عرفه وزفّ إليه بعضهم، والذي جهله وسأل عنه بعض آخر، ويجوز أن الكل جهلوه وسألوا عنه، فلما عرفوا أنه الكاسر لها زفوا إليه كلهم.

٩٣٠- **فإن قيل:** ما معنى قوله صلوات الله عليه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]؟

---

(١) من الكامل – للنمر بن تولب في ملحق ديوانه ص ٤٠٠ وللبيد بن ربيعة في نهاية الأرب ٣/ ٧٠ ولبعض شعراء الجاهلية في الكامل ١/ ٢٨٤ وانظر (المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ١/ ٢٨).

قلنا: معناه إلى حيث أمرني ربي بالمهاجرة وهو الشام. وقيل: إلى طاعة ربي ورضاه. وقيل: إلى أرض ربي؛ وإنما خصها بالإضافة إلى الله تعالى تشريفًا لها وتفضيلًا؛ لأنها أرض مقدسة مبارك فيها للعالمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٩٣١- فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] وهو كان مهتديًا؟ قلنا: معناه: سيثبتني على ما أنا عليه من الهدى ويزيدني هدى. وقيل: معناه: سيهدين إلى الجنة، وقيل: إلى الصواب في جميع أحوالي، ونظيره قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

٩٣٢- فإن قيل: كيف شاور إبراهيمُ ولدَه عليهما السلام في ذبحه بقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] مع أنه كان حتمًا على إبراهيم لأنه أمر به، لأن معنى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أنه أمر بذبحه في المنام، ورؤيا الأنبياء حق فإذا رأوا شيئًا من المنام فعلوه في اليقظة كذا قاله قتادة؛ والدليل على أن منامه كان وحيًا بالأمر بالذبح قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]؟

قلنا: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه في ذلك، ولكن ليعلم ما عنده مِن الصبر فيما نزل به من بلاء الله تعالى، فيثبت قدمه إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم، وليعلم القصة فيوطن نفسه على الذبح، ويهونه عليها فيلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب الثواب بالانقياد والصبر لأمر الله تعالى قبل نزوله، وليكون سنةً في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدمُ الملائكةَ في أكل الشجرة لما فرط منه ذلك.

٩٣٣- فإن قيل: كيف قال له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥] وإنما يكون مصدقًا لها لو وجد منه الذبح ولم يوجد؟

قلنا: معناه قد فعلت غاية ما في وسعك مما يفعله الذابح من إلقاء ولدك وإمرار الشفرة على حلقه؛ ولكن الله تعالى منع الشفرة أن تقطع. وقيل: إن الذي رآه في المنام معالجة الذبح فقط لا إراقة الدم، وقد فعل ذلك في اليقظة فكان مصدقًا للرؤيا.

٩٣٤- فإن قيل: أين جواب «لما» في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ [الصافات: ١٠٣]؟؟؟.

قلنا: قيل هو محذوف تقديره: استبشرا واغتبطا وشكرا الله تعالى على ما أنعم به عليهما من الفداء؛ أو تقديره: سعدا، أو أجزل ثوابهما. وقيل: الجواب هو قوله تعالى:

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ ﴾ [الصافات: ١٠٤] والواو زائدة كما في قول امرئ القيس:

فَلمَّـا أجزنـا سَـاحةَ الحـيِّ وانتحـى   بنـا بطـن خَبْـتٍ ذي خِفـافٍ عقنقِـلِ(١)

أي فلما أجزنا ساحة الحيّ انتحى، كذا نقله ابن الأنباري في شرحه.

٩٣٥- فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١١٠] وفي غيرها من القصص قبلها وبعدها ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الصافات: ٨٠]؟؟؟.

قلنا: لما سبق في قصة إبراهيم عليه السلام مرة ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الصافات: ٨٠] طرحه في الثاني تخفيفًا واختصارًا واكتفاء بذكره مرة، بخلاف سائر القصص.

٩٣٦- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٣، ١٣٤] وهو كان من المرسلين قبل زمان التنجية؟

قلنا: قوله: ﴿ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ ﴾ [الصافات: ١٣٤] لا يتعلق بما قبله بل يتعلق بمحذوف تقديره: واذكر لهم يا محمّد إذ نجيناه أو أنعمنا عليه إذ نجيناه، وكذا السؤال في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾ [الصافات: ١٣٩، ١٤٠].

٩٣٧- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧] و «أو» كلمة شك والشك على الله محال؟

قلنا: قيل «أو» هنا بمعنى «بل» فلا شك، وقيل بمعنى «الواو» كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [النساء: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ [المرسلات: ٦] وقيل: معناه أو يزيدون في تقديركم، فلو رآهم أحدٌ منكم لقال هم مائة ألف أو يزيدون، فالشك إنما دخل في حكاية قول المخلوقين، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴾ [النجم: ٩].

٩٣٨- فإن قيل: ما فائدة تكرار الأمر بالتولية والإبصار في قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾ وَأَبۡصِرۡهُمۡ ﴾ [الصافات: ١٧٤، ١٧٥] الآيات؟

قلنا: فائدته تأكيد التهديد والوعيد.

---

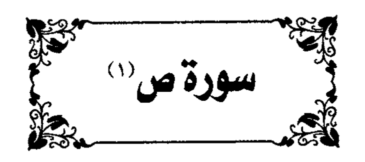
(١) أي: الوادي المتسع.

من الطويل - لامرئ القيس والشاهد فيه قوله: «وانتحى» حيث جاءت الواو مقحمة لأن «انتحى» جواب أجزنا وانظر (الأزهية ص ٢٣٤ والخزانة ١١/ ٤٣ والمنصف ٣/ ٤١ ورصف المباني ص ٤٢٥ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٧٨٧).

٩٣٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الصافات: ١٧٥] ثم قال ثانيًا: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ [الصافات: ١٧٩]؟.

قلنا: طرح ضميرَ المفعول تخفيفًا واختصارًا واكتفاء بسبق ذكره مرة، وقيل معنى الأول: وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب، ومعنى الثاني: وأبصر العذاب إذا نزل بهم، فلا فرق بينهما في المعنى.

❊ ❊ ❊



سورة ص[1]

٩٤٠- فإن قيل: أين جواب القسم في قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه لما ذكر حرفًا من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما قيل في كل سورة مفتتحة بحرف أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز، وكذلك إذا كان الحرف مقسمًا به كأنه قال: أقسمت بص والقرآن ذي الذكر إن هذا الكلام معجز.

الثاني: أن ﴿صٓۚ﴾ خبر مبتدأ محذوف على أنه اسم للسورة، كأنه قال هذه «ص»، يعني هذه السورة التي أعجزت العرب ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، كما تقول: هذا حاتم والله، تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله.

الثالث: أن جواب القسم ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾، وأصله لكم أهلكنا، فلمَّا طال الكلام حذفت اللام تخفيفًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

الرابع: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، وهو قول الكسائي، وقال الفرَّاء: وهذا لا يستقيم في العربية لتأخره جدًّا عن القسم.

٩٤١- فإن قيل: ما وجه المناسبة والارتباط بين قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧].

قلنا: وجه المناسبة بينهما أنه أمر أن يتقوى على الصبر بذكر قوة داود عليه السلام على العبادة والطاعة.

الثاني: أن المعنى عرفهم أن داودَ (عليه السلام) مع كرامته وشهرة طاعته وعبادته التي منها صوم يوم دون يوم، وقيام نصف الليل، كان شديد الخوف من عذابي، لا

---

(١) سميت في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة والآثار عن السلف «سورة صاد» كما ينطق باسم حرف الصاد تسمية لها بأول كلمة منها هي صاد (بصاد فألف فدال ساكنة سكون وقوف) شأن حروف التهجي عند التهجي بها أن تكون موقوفة أي ساكنة الإعجاز اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٣٦٠٣).

يزال باكيًا مستغفرًا، فكيف حال هؤلاء مع أفعالهم؟

٩٤٢- فإن قيل: كيف قال الملكان لما دخلا على داود عليه السلام: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢] والملائكة لا يوجد منهم البغي والظلم، وكيف قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص: ٢٣] إلى آخره، ولم يكن كما قال؟

قلنا: إنما قالا[1] ذلك على سبيل الفرض والتصوير للمسألة[2]، ومثل ذلك لا يعد كذبًا كما تقول في تصوير المسائل، زيد له أربعون شاة وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما، فخلطاها، وحال عليها الحول، كم يجب فيها وليس لهما شيء، وتقول لي أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكم شيء.

٩٤٣- فإن قيل: كيف حكم داودُ عليه السلام على المدعى عليه بكونه ظالمًا قبل أن يسمع كلامه؟

قلنا: لم يحكم عليه إلا بعد اعترافه كذا نقله السدي، إلا أنه حذف ذكر الاعتراف في القصة اختصارًا لدلالة الحال عليه، كما تقول العرب: أمرته بالتجارة فكسب الأموال، أي فاتجر فكسب الأموال.

٩٤٤- فإن قيل: ما معنى تكرار الحب في قوله عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢] وما معنى تعديته بعن وظاهره أحببت حبًّا مثل حب الخير، كما تقول أحببت حب زيد، أي أحببت حبًّا مثل حب زيد؟

قلنا: أحببت في الآية بمعنى آثرت، كما يقول المخيّر بين شيئين: أحببت هذا، أي آثرته، وقد جاء استحب بمعنى آثر، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي آثروه: لأن مَنْ أحب شيئًا فقد آثره على غيره، و«عن» بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨] فيصير المعنى أي آثرت حب الخير على ذكر ربي.

الثاني: وهو اختيار الجرجاني[3] صاحب معاني القرآن أن أحببت بمعنى قعدت

---

(١) قلت: هذا إن ثبت أنهما ملكين.

(٢) قلت: هذا إن ثبت أنهما ملكين.

(٣) هو إمام اللغة ومؤسس أصول البلاغة أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١هـ.

وتأخرت مأخوذ من أحب الجمل إذا برك، ومنه قول الشاعر:

دَعَتْـكَ إليهـا مُقْلتاهـا وجِيـدُها فمِلْـتَ كما مالَ المحب على عَمْـدِ

فالمحب هنا الجمل، والعمد علة تكون في سنام الجمل، وكل مَنْ ترك شيئًا وتجنب أن يفعله فقد قعد عنه، فتأويل الآية: إني قعدت عن ربي لحب الخير، فيكون انتصاب حب على أنه مفعول له.

٩٤٥- فإن قيل: كيف قال سليمان عليه السلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] وهذا أشبه بالحسد والبخل بنعم الله تعالى على عبيده بما لا يضر سليمان عليه السلام؟

قلنا: قال الحسن وقتادة رحمهما الله: المراد به لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني في حياتي كما فعله الشيطان الذي لبس خاتمه وجلس على كرسيه.

الثاني: أن الله تعالى علم أنه لا يقوم غيره من عباده بمصالح ذلك الملك، فاقتضت حكمته تخصيصه به فألهمه أن يسأله تخصيصه به.

الثالث: أنه أراد بذلك ملكًا عظيمًا فعبر عنه بتلك العبارة، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول لفلان: ما ليس لأحد مثله مِنَ الفضل أو مِنَ المال، وتريد بذلك عظم فضله أو ماله، وإن كان في الناس أمثاله.

٩٤٦- فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [ص: ٤٤] مع أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى على ما قيل، وهو قد شكا؟

قلنا: الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ولا تسمى جزعًا، لما فيها من إظهار الخضوع والعبودية لله تعالى، والافتقار إليه، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾[يوسف: ١٨] وقولهم: الصبر ترك الشكوى، يعني إلى العباد.

الثاني: أنه ﷺ إنما طلب الشفاءَ مِن الله تعالى بعد ما لم يبق منه إلا قلبه ولسانه خيفة على قومه أن يفتنهم الشيطان بما كان يوسوس إليهم به ويقول إنه لو كان أيوب نبيًّا لما ابتلي بما هو فيه ولدعا الله تعالى بكشف ضره. وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يلهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبت شبعان ولا

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الزمر: ٧١] الآيتين وفيه نوع إهانة؟

قلنا: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم حثًّا وإسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على السلطان، فشتان ما بين السوقين.

٩٥٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في وصف النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، بغير واو وقال، في صفة الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٥] بالواو؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنها زائدة قاله الفراء وغيره.

الثاني: أنها واو الثمانية وأبواب الجنة ثمانية.

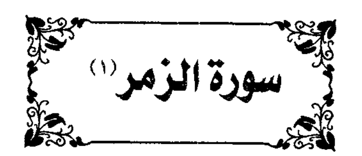
الثالث: أنها واو الحال معناه: جاؤوها وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم؛ بخلاف أبواب النار، فإنها إنما تفتح عند مجيئهم؛ والحكمة في ذلك من وجوه:

أحدها: أن يستعجل أهل الجنة الفرح والسرور إذا رأوا الأبواب مفتحة، وأهل النار يأتون النار وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها.

الثاني: أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل وهوان، فصِينَ عنه أهل الجنة لا أهل النار.

الثالث: أن الكريم يعجل المثوبة ويؤخر العقوبة، فلو وجد أهل الجنة بابها مغلقًا لأثر انتظار فتحه في كمال الكريم؛ بخلاف أهل النار.

* * *



سورة الزمر(١)

٩٤٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، وكم من كاذب كفار قد هداه الله تعالى فأسلم وصدق؟

قلنا: معناه لا يهديه إلى الإيمان ما دام على كفره وكذبه. وقيل معناه: لا يهديه إلى حجة يلزم بها المؤمنين.

٩٤٩- **فإن قيل:** كيف يصلح قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤]، ردًا لقول مَنِ ادعى أن له ولدًا وإبطالًا لذلك؛ مع أنه كل مَنْ نسب إليه ولدًا قال إنه اصطفاه من خلقه بجعله ولدًا، فاليهود يدعون أنه عزير، والنصارى يدعون أنه المسيح عليهما السلام، وطائفة من مشركي العرب يدَّعون أن الملائكة بنات الله تعالى؟

قلنا: هذا إن جعل ردًا على اليهود والنصارى كان معناه لاصطفى الولد مِن الملائكة لا من البشر؛ لأن الملائكة أشرف من البشر بلا خلاف بين اليهود ولا بين النصارى، وإن كان ردًا على مشركي العرب كان معناه لاصطفى له ولدًا مِن جنس يخلق كل شيء يريده، ليكون ولدًا موصوفًا لصفته، ولم يصطف من الملائكة الذين لا يقدرون على إيجاد جناح بعوضة ولا يرد على هذا خلق عيسى عليه السلام الطير؛ لأنه ليس بعام. أو لأن معنى خلقه التقدير من الطين، ثم الله تعالى يخلقه حيوانًا بنفخ عيسى عليه السلام وإظهارًا لمعجزته.

٩٥٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦]،

---

(١) قال ابن عاشور: سميت سورة الزمر من عهد النبي ﷺ فقد روى الترمذي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل. وإنما سميت سورة الزمر لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن، وفي تفسير القرطبي عن وهب بن منبه أنه سماها: «سورة الغرف» وتناقله المفسرون. ووجهه أنها ذكر فيها لفظ الغرف أي بهذه الصيغة دون الغرفات في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ الآية [الزمر: ٢٠].

وخلق حواء من آدم عليه السلام سابق على خلقنا منه، فكيف عطفه عليه بكلمة ثم؟

قلنا: ثم هنا للترتيب في الإخبار لا في الإيجاد، كما تقول لصاحبك أعطيتك اليوم كذا ثم أعطيتك أمس أكثر منه، أي ثم أخبرك بكذا، ومنه قول الشاعر:

إنَّ مَـنْ سـادَ ثـمَّ سـادَ أبُـوهُ ... ثـم قَـدْ سـادَ قَبْـلَ ذَلـكَ جـدُّهُ(1)

الثاني: أن ثم متعلقة بمعنى واحدة وعاطفة عليه لا على خلقكم، فمعناه خلقكم من نفس واحدة، وأفردت بالإيجاد ثم شفعت بزوج.

الثالث: أن ثم على ظاهرها، لأن الله تعالى خلق آدم ثم أخرج أولاده من ظهره كالذر، وأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم إلى ظهره ثم خلق منه حواء، فالمراد بقوله تعالى خلقكم خلقًا يوم أخذ الميثاق دفعة واحدة؛ لأن هذا الخلق الذي نحن فيه بالتوالد والتناسل.

٩٥١- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، مع أن الأنعام مخلوقة في الأرض لا منزلة من السماء؟

قلنا: قيل إن الله تعالى خلق الأزواج الثمانية في الجنة ثم أنزلها على آدم عليه السلام بعد إنزاله.

الثاني: أن الله تعالى أنزل الماء من السماء، والأنعام لا توجد إلا بوجود النبات، والنبات لا يوجد إلا بوجود الماء، فكأن الأنعام منزلة من السماء، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وإنما أنزل الماء الذي لا يوجد القطن والكتان والصوف إلا به.

٩٥٢- فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الذي جاء بالصدق وصَدَّق به: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]، مع أنه سبحانه وتعالى يكفر عنهم سيئ أعمالهم ويجزيهم بحسنها أيضًا؟

---

(١) من الخفيف - لأبي نواس - والتمثيل في مجيء «ثُمَّ» لا تفيد الترتيب. وانظر (ديوانه ١/ ٣٥٥ وخزانة الأدب ١١/ ٣٧ والدرر ٦/ ٩٣ ورصف المباني ص ١٧٤ ومغني اللبيب ١/ ١١٧ والمعجم المفصل في شواهد النحو ١/ ٢١٣).

على أن أبا عبيدة[١] قال: إنّ بعض في الآية بمعنى كل، واستدل ببيت لبيد، وأنكر الزمخشري على أبي عبيدة هذا التفسير. على أن غير أبي عبيدة قال في قوله تعالى، حكاية عن عيسى عليه السلام لأمته: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]، أن بعضًا فيه بمعنى كل.

الثالث: أنها على أصلها، ثم في ذلك وجهان:

أحدهما: أنه وعدهم النجاةَ إن آمنوا والهلاك إن كفروا، فذكر لفظَ بعض؛ لأنهم على إحدى الحالتين لا محالة.

الثاني: أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، وكان هلاكهم في الدنيا بعضًا، فمراده يصيبكم في الدنيا بعض الذي يعدكم.

الرابع: أنه ذكر البعض بطريق التنزيل والتلطف وإمحاض النصيحة من غير مبالغة ولا تأكيد ليسمعوا منه ولا يتَّهِموه؛ فيردوا عليه وينسبوه إلى ميل ومحاباة لموسى عليه السلام، كأنه قال: أقل ما يصيبكم البعض وفيه كفاية، ونظيره قول الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ[٢]

كأنه يقول أقل ما يكون في التأني إدراك بعض المطلوب وأقل ما يكون في الاستعجال الزلل فقد بان فضل التأني على العجلة بما لا يقدر الخصم على دفعه ورده. والوجه الرابع هو اختيار الزمخشري رحمة الله عليه.

٩٦٤- **فإن قيل:** التولي والإدبار واحد فما فائدة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣].

قلنا: هو تأكيد، كقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] ونظائره كثيرة.

الثاني: أنه استثارة لحميتهم واستجلاب لأنفتهم لما في لفظ «مدبرين» من التَّعريض بذكر الدبر، فيصير نظير قوله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

---

(١) هو معمر بن المثنى التيمي ولاء أحد أئمة النحو واللغة والأدب توفي سنة ٢٠٩هـ.

(٢) من البسيط - للقطامي - والشاهد فيه قوله: «بعض حاجته» حيث جاءت «بعض» بمعنى «كل» وانظر (خزانة الأدب ٥/ ٣٧٧ ولسان العرب ٧/ ١٢٠ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٧٠٤).

كاسيًا ومعي جائع أو عريان، فكشف الله تعالى ضره.

٩٤٧- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[ص: ٧٨] يدل على أن غاية لعنة الله لإبليس يوم القيامة ثم تنقطع؟

قلنا: كيف تنقطع وقد قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[الأعراف: ٤٤] وإبليس أظلم الظلمة، ولكن مراده في الآية أن عليه اللعنة في طول مدة الدنيا، فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعنة من أنواع العذاب ما تنسى عنده اللعنة وكأنها انقطعت.

* * *

سورة المؤمن (غافر) (١)

٩٥٩- فإن قيل، كيف قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، مع أن الذين آمنوا يجادلون أيضًا فيها، هل هي منسوخة أم محكمة؟ وهل فيها مجاز أم كلها حقيقة؟ وهل هي مخلوقة أم قديمة وغير ذلك؟

قلنا، المراد الجدال فيها بالتكذيب ودفعها بالباطل والطعن بقصد إدحاض الحق وإطفاء نور الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى عقيبه ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

٩٦٠- فإن قيل، ما فائدة قوله تعالى، في وصف حملة العرش: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]؛ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش يؤمنون بالله تعالى؟

قلنا، فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالصلاح والإيمان في غير موضع من كتابه لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧].

٩٦١- فإن قيل، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتًا إماتة؟

قلنا، هذا كما تقول: سبحان مَنْ صغر جسمَ البعوضة وكَبَّر جسمَ الفيل، وكما تقول للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس فيهما نقل من كبر إلى صغر ومن صغر إلى

---

(١) قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ تعالى: وردت تسمية هذه السورة في السنة «حم المؤمن» روي الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما» الحديث. وبذلك اشتهرت في مصاحف المشرق، وبذلك ترجمها البخاري في صحيحه، والترمذي في الجامع، ووجه التسمية: أنها ذكرت فيها قصة مؤمن آل فرعون ولم تذكر في سورة أخرى بوجه صريح، والوجه في إعراب هذا الاسم حكاية كلمة «حم» ساكنة الميم بلفظها الذي يُقرأ وبإضافته إلى لفظ: «المؤمن» بتقدير: سورة حم ذكر المؤمن أو لفظ المؤمن، وتسمى أيضًا: «سورة الطول» لقوله تعالى في أولها: ﴿ذِي ٱلطَّوْلِ﴾ وقد تنوسي هذا الاسم. وتسمى سورة غافر لذكر وصفه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ في أولها. وبهذا الاسم اشتهرت في مصاحف المغرب، وهي مكية بالاتفاق.

كبر، ولا من سعة إلى ضيق ولا من ضيق إلى سعة، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات، والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معًا على ذات المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة، وإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه.

٩٦٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦]، بيان وتقرير لبروزهم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ [غافر: ١٦] والله تعالى لا يخفى عليه شيء برزوا أو لم يبرزوا.

قلنا: معناه لا يخفى على الله منهم شيء في اعتقادهم أيضًا، فإنهم كانوا في الدنيا يتوهمون إذا تستروا بالحيطان والحجب لا يراهم الله، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

٩٦٣- **فإن قيل:** كيف قال المؤمن، في حق موسى عليه السلام: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، مع أنه صادق في زعم القائل لهذا القول وفي نفس الأمر أيضًا؛ ويلزم مِن ذلك أن يصيبهم جميع ما وعدهم لا بعضه فقط؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن لفظة بعض صلة.

الثاني: أنها بمعنى «كل» كما في قول الشاعر:

إن الأُمُورَ إذا الأحْداثُ دَبّرَها ... دُونَ الشُّيوخِ ترى في بعْضِها خَللا[1]

ومنه قول لبيد:

أَوَ لَمْ تكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بأنني ... وَصَّالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَذّامُها

تَرّاكُ أمْكنَةٍ إذَا لَمْ أرْضَها ... أو يرتبِط بعضُ النُّفوسِ حِمامُها

قلنا: ولقائل أن يقول: إن لفظة بعض في البيتين على حقيقتها، وكنى لبيد ببعض النفوس عن نفسه كأنه قال: أتركها إلى أن أموت، وكذا فسره ابن الأنباري.

(١) من البسيط - بلا نسبة في الإنصاف ٢/ ٧٦٧ والشاهد فيه قوله: «الأحداث دبَّرها» حيث ذكَّر الفعل رغم أنه مسند إلى مؤنث مجازي متصل به وذلك لأنه ذهب إلى معنى الحدث لأن الحدث ها هنا يؤدي عن الجمع. وانظر (المعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٦٥٧).

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة التوبة.

٩٥٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، مع أنه جاء في الأخبار أن للأنبياء والعلماء والشهداء والأطفال شفاعة يوم القيامة؟

قلنا: معناه أن أحدًا لا يملكها إلا بتمليكه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٩٥٤- **فإن قيل:** كيف ذكر الضمير في أوتيته وهو للنعمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩].

قلنا: إنما ذكره نظرًا إلى المعنى، لأن معنى نعمة شيئًا من النعمة وقسما منها، أو لأن النعمة والإنعام بمعنى واحد.

٩٥٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، والقرآن كله حسن؟

قلنا: معناه اتبعوا أحسن وحي أو كتاب أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن كله.

وقيل: أحسن القرآن الآيات المحكمات. وقيل: أحسنه كل آية تضمنت أمرًا بطاعة أو إحسان وقد سبق نظير هذه الآية في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] والأجوبة المذكورة ثم تصلح هنا، وكذا الأجوبة المذكورة هنا تصلح ثمة إلا الجواب الأول.

٩٥٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ [الزمر: ٦٥]، مع أن الموحي إليهم جماعة، ولما أوحى إلى من قبله لم يكن في الوحي إليهم خطابه؟

قلنا: معناه ولقد أوحى إلى كل واحد منك ومنهم لئن أشركت.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك التوحيد، ثم ابتدأ فقال لئن أشركت.

الثالث: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره: ولقد أوحي إليك لئن أشركت، وكذلك أوحي إلى الذين مِن قبلك.

٩٥٧- **فإن قيل:** كيف عبر سبحانه عن الذهاب بأهل الجنة والنار بلفظ السَّوق في

الثالث: أن «مثل» زائدة، فيصير المعنى ليس كهو شيء كما مر في الوجه الأول، والفرق بين الوجهين أن المثل في الوجه الأول كناية عن الذات، وفي الوجه الثالث زائد مطروح كأنه لم يذكر.

٩٨٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، ولم يقل إلا مودة القربى: أي القرابة، أو إلا المودة للقربى؟؟؟

قلنا: جعلوا محلًّا للمودة ومقرًّا لها للمبالغة، كأنه قال: إلا المودة الثابتة المستقرة في القربى، كما يقال: في آل فلان مودة، ولي فيهم هوى وحب شديد.

٩٨١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٢٩]، والدواب إنما هي في الأرض فقط؟

قلنا: فيهما بمعنى فيها، باعتبار إطلاق لفظ التثنية على المفرد كما في قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح، وقيل: إن الملائكة لهم دبيب مع طيرانهم أيضًا وهم مبثوثون في السماء، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣٨] فتقييده بالأرض يدل على وجود الدابة في غير الأرض من حيث المفهوم.

٩٨٢- **فإن قيل:** كيف قدم سبحانه وتعالى الإناث على الذكور في قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [الشورى: ٤٩] مع تقدمهم عليهن، ثم رجع فقدمهم عليهن، ولم نكَّر الإناثَ وعرَّفَ الذكورَ؟

قلنا: إنما قدم الإناث لأن الآية إنما سيقت لبيان عظمة ملكه ونفاذ مشيئته وأنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء عبيده، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه عبيده أهم، والأهم واجب التقديم، فلما قدمهن وأخر الذكور لذلك المعنى تدارك تأخيرهم، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم، لأن التعريف تنويه وتشهير، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المشهورين الذين لا يخفون على أحد، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، فعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال تعالى: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٥٠] كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣٩].





سورة فصلت(١)

٩٧١- فإن قيل: ما فائدة زيادة «من» في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] مع أن المعنى حاصل بقوله تعالى: ﴿بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]؟

قلنا: لو قيل كذلك لكان المعنى أن حجابًا حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة «من» فمعناه أن الحجاب ابتداؤه منا ومنك، فالمسافة المتوسطة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

٩٧٢- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، إلى قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢] يدل على أن السموات والأرض وما بينهما خلقت في ثمانية أيام. وقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الفرقان: ٥٩] فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: معنى قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ [فصلت: ١٠] في تتمة أربعة أيام، لأن اليومين اللذين خلق فيهما الأرض من جملة الأربعة، أو معناه كل ذلك في أربعة أيام يعني خلق الأرض وما ذكر بعدها فصار المجموع ستة، وهذا لا اختلاف فيه بين المفسرين.

٩٧٣- فإن قيل: السموات وما فيها أعظم من الأرض وما فيها بأضعاف مضاعفة فما الحكمة في أن الله خلق الأرض، وما فيها في أربعة أيام، والسموات وما فيها في

---

(١) قال ابن عاشور: تسمى «حم السجدة» بإضافة «حم» إلى «السجدة» كما قدمناه في أول سورة المؤمن، وبذلك ترجمت في صحيح البخاري، وفي جامع الترمذي؛ لأنها تميزت عن السور المفتتحة بحروف «حم» بأن فيها سجدة القرآن. وسميت هذه السورة في كثير من التفاسير «سورة السجدة» وهو اختصار قولهم: «حم السجدة»، وليس تمييزًا لها بذات السجدة، وسميت هذه السورة في كثير من التفاسير سورة «فصلت» واشتهرت تسميتها في تونس والمغرب «سورة فصلت» لوقوع كلمة: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في أولها فعرفت بها تمييزًا لها عن السور المفتتحة بحروف «حم» كما تميزت سورة المؤمن باسم «سورة غافر» عن بقية السور المفتتحة بحروف «حم».

يومين؟

قلنا: لأن السموات وما فيها مِن عالم الغيب ومِن عالم الملكوت ومِن عالم الأمر؛ والأرض وما فيها من عالم الشهادة والملك. وخلق الأول أسرع من الثاني، ووجه آخر وهو أنه فعل ذلك ليعلم أن الخلق على سبيل التدريج والتمهيل في الأرض وما فيها لم يكن للعجز عن خلقها دفعة واحدة؛ بل كان لمصالح لا تحصل إلا بذلك، ولهذه الحكمة خلق العالم الأكبر في ستة أيام، والعالم الأصغر وهو الإنسان في ستة أشهر.

٩٧٤- فإن قيل: كيف قال تعالى، في وصف أهل النار: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[فصلت: ٢٤]، مع أنهم إن لم يصبروا على عذاب النار وجزعوا فالنار مثوى لهم أيضًا؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: فإن يصبروا أو لا يصبروا فالنار مثوى لهم. على كل حال، ولا ينفعهم الصبر في الآخرة كما ينفع الصبر في الدنيا، ولهذا قيل: الصبر مفتاح الفرج، وقيل: مَنْ صبر ظفر.

الثاني: أن هذا جواب لقول المشركين في حث بعضهم لبعض على إدامة عبادة الأصنام ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾[ص: ٦] فقال الله تعالى فإن يصبروا على عبادة الأصنام في الدنيا فالنار مثوى لهم في العقبى.

٩٧٥- فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الكفار: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[فصلت: ٢٧]، أي بأسوإ أعمالهم، مع أنهم يجزون بسيئ أعمالهم أيضًا؟

قلنا: قد سبق نظير هذا السؤال في آخر سورة التوبة، والجواب الأول هناك يصلح جوابًا هنا.

٩٧٦- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾[فصلت: ٣٧] بعد قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾[فصلت: ٣٧] وهو مستفاد من الأول بالطريق الأولى؟

قلنا: فائدته ثبوت الحكم بأقوى الدليلين وهو النص، والله أعلم.

* * *

المراد به أن كل واحدة منهن أكبر من أخت معينة لها فأيتها هي الكبرى، وأيتها هي الصغرى؟

قلنا: المراد بذلك أنهن موصوفات بالكبرى لا يكدن يتفاوتن فيه، ونظيره بيت الحماسة:

مَنْ تَلْقَ مِنهُم تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مثلَ النُّجُوم التي يَسْرِي بها السارِي[1]

٩٨٨- فإن قيل: كيف قال عيسى عليه السلام لأمته: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]؟

قلنا: كانوا يختلفون فيما يعنيهم من أمر الديانات وفيما لا يعنيهم من أمور أخرى، فكان يبين لهم الشرائع والأحكام خاصة، وقيل: إن البعض هنا بمعنى الكل كما سبق في سورة المؤمن في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

٩٨٩- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ [الزخرف: ٦٦] أي فجأة.

قلنا: فائدته أنها تأتيهم وهم غافلون مشغولون بأمور دنياهم، كما قال تعالى ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] فلولا قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جاز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون حذرون مستعدون لها.

٩٩٠- فإن قيل: كيف وصف أهلَ النار فيها بكونهم مبلسين، والمبلس هو الآيس من الرحمة والفرج، ثم قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فطلبوا الفرج بالموت؟

قلنا: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف فيها أحوالهم، فيغلب عليهم اليأسُ تارةً فيسكنون، ويشتد ما بهم مِن ألم العذاب تارة فيستغيثون.

٩٩١- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] ظاهره يقتضي تعدد الآلهة، لأن النكرة إذا أعيدت تعددت كقوله: له علي درهم

---

(١) انظر: ديوان الحماسة ٢/ ٢٦٨ والبيت من البحر البسيط.

٩٦٥- **فإن قيل:** ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] وهلَّا قال: أبلغ أسباب السموات؟ أي أبوابها وطرقها.

قلنا: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لمكانه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها.

٩٦٦- **فإن قيل:** مثل السيئة سيئة فما معنى قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ [غافر: ٤٠]؟

قلنا: معناه أن جزاء السيئة له حساب وتقديره لا يزيد على المقدار المستحق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير حساب، كما قال تعالى في آخر الآية.

٩٦٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ينافي ذلك.

قلنا: ذلك لمنع النقصان لا لمنع الزيادة، كما قال الله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦].

٩٦٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٤٩]، ولم يقل: وقال الذين في النار لخزنتها مع أنه أخصر؟

قلنا: لأن في ذكر جهنم تهويلًا وتفظيعًا، وقيل: إن جهنمَ هي أبعد النار قعرًا، وخزنتها أعلى الملائكة الموكلين بالنار مرتبة، فإنما قصدهم أهل النار بطلب الدعاء منهم لذلك.

٩٦٩- **فإن قيل:** كيف قال المشركون ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [غافر: ٧٤]؛ مع قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ [النحل: ٨٦] ؟؟؟

قلنا: معناه أن الأصنام التي كنا نعبدها لم تكن شيئًا؛ لأنها لا تنفع ولا تضر.

الثاني: أنهم قالوا كذبًا وجحودًا كقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

٩٧٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠]، ولم يقل: وفي الفلك تحملون، كما قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [هود: ٤٠] ؟

قلنا: معنى الوعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما صحيح في الفلك؛ لأنه وعاء لمن يكون فيه وحمولة لمن يستعليه، فلما صح المعنيان استقامت العبارتان معًا.

٩٨٣- **فإن قيل:** قوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١] الآية؛ كيف يقال إن الله تعالى كلم محمدًا ﷺ ليلة المعراج[١] مواجهة بغير حجاب ولا واسطة، وقد خص الله تعالى تكليمه للبشر في طريق الوحي وهو الإلهام، كما كلم أم موسى، والإسماع من وراء حجاب كما كلَّم موسى عليه السلام، وإرسال الرسول كما كلَّم الأنبياء بواسطة جبريل عليه السلام، وكما كَلَّم الأمم بواسطة الرسل؟

قلنا: قيل المراد بالوحي الأول هنا الإشارة، ومنه قولهم وحي العين ووحي الحاجب، أي إشارتهما، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟﴾ [مريم: ١١] فتكليمه لمحمد ﷺ ليلة المعراج كان مواجهة بالإشارة.

٩٨٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] كيف كان لا يعلم الإيمان قبل أن يوحى إليه، والإيمان هو التصديق بوجود الصانع[٢] وتوحيده، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم كانوا مؤمنين بالله قبل أن يوحى إليهم بأدلة عقولهم؟

قلنا: المراد بالإيمان هنا شرائع الإيمان وأحكامه، كالصلاة والصوم ونحوهما.

وقيل المراد به الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي كما علم الكتاب وهو القرآن لا بالعقل.

* * *

---

(١) ذلك لا يخلو من نزاع والصواب ما ورد: «نور أنى أراه».

(٢) اسم الصانع: إطلاقه على الله عز وجل لم أره في آية ولا حديث فيما علمت.



سورة الزخرف(١)

٩٨٥- **فإن قيل**: كيف قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، ولم يقل قلناه أو أنزلناه، والقرآن ليس بمجعول، لأن الجعل هو الخلق، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] وقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣٩]؟

قلنا: الجعل أيضًا يأتي بمعنى القول، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾ [النحل: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [إبراهيم: ٣٠] أي قالوا ووصفوا، لا أنهم خلقوا كذلك هنا.

٩٨٦- **فإن قيل**: كيف قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، والنبي ﷺ ما لقيهم حتى يسألهم؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: واسأل أتباع مَنْ، أو أمة مَنْ أرسلنا مِن قبلك.

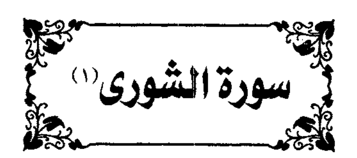
الثاني: أنه مجاز عن النظر في أديانهم والبحث عن مللهم هل فيها ذلك.

الثالث: أن النبي ﷺ حشر له الأنبياء عليهم السلام ليلة المعراج، فلقيهم وأمَّهُمْ في مسجد بيت المقدس، فلما فرغ من الصلاة نزلت عليه هذه الآيةُ والأنبياءُ حاضرون فقال: لا أسأل قد كفيت، وقيل: إنه خطاب له والمراد به أمته.

٩٨٧- **فإن قيل**: كيف قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف: ٤٨]، يعني الآيات التسع التي جاء بها موسى ﷺ، فإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر مما سواها لزم أن يكون كل واحدة فاضلة ومفضولة. وإن كان

---

(١) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ص ٣٨٩٩: سميت في المصاحف العتيقة والحديثة «سورة الزخرف»، وكذلك وجدتها في جزء عتيق من مصحف كوفي الخط مما كتب في أواخر القرن الخامس، وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وسميت كذلك في كتب التفسير، وسماها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه «سورة حم الزخرف» وإضافة كلمة «حم» إلى «الزخرف» على نحو ما بيناه في تسمية سورة «حم المؤمن»، روى الطبرسي عن الباقر أنه سماها كذلك، ووجه التسمية: أن كلمة ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ وقعت فيها ولم تقع في غيرها من سور القرآن فعرفوها بهذه الكلمة.



سورة الشورى(١)

٩٧٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ [الشورى: ٣]، بلفظ المضارع، والوحي إلى من قبل النبي ﷺ ماض؟

قلنا: قال الزمخشري: قصد بلفظ المضارع كون ذلك عادة وسنة الله تعالى، وهذا لا يوجد في لفظ الماضي. قلت: ويحتمل أن يكون باعتبار وضع المضارع موضع الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الجاثية: ٢٦]، أو بإضمار وأوحى إلى الذين من قبلك.

٩٧٨- **فإن قيل:** إلى ماذا يرجعُ الضميرُ في قوله تعالى: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١١]، أي يكثركم، وقيل: يخلقكم، وقيل: يعيشكم فيه؟

قلنا: معناه في هذا التدبير أو في الجعل المذكور، وقيل: في الرحم الذي دل عليه ذكرُ الأزواج.

٩٧٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، وظاهره يقتضي إثبات المثل ونفي مثل المثل، كما يقال: ليس كدار زيد دار. فإنه يقتضي وجود الدار لزيد؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن المثل في لغة العرب كناية عن الذات، ومنه قولهم: مثلي لا يقال له كذا، ومثلك لا يليق به كذا، فمعناه ليس كهو شيء.

الثاني: أن الكاف زائدة للتأكيد، والمعنى ليس كمثله شيء.

---

(١) اشتهرت تسميتها عند السلف «حم عسق» وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير، والترمذي في جامعه، وكذلك سميت في عدة من كتب التفسير وكثير من المصاحف وتسمى «سورة الشورى» بالألف واللام كما قالوا: «سورة المؤمن»، وبذلك سميت في كثير من المصاحف والتفاسير وربما قالوا: «سورة شورى» بدون ألف ولام حكاية للفظ القرآن وتسمى «سورة عسق» بدون لفظ: «حم» لقصد الاختصار، ولم يعدها في الإتقان في عداد السور ذات الاسمين فأكثر. ولم يثبت عن النبي ﷺ شيء في تسميتها. اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٣٨٣٩).

سورة الأحقاف(١)

٩٩٨- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ [الأحقاف: ١٦] مع أن حسن ما عملوا يتقبل عنهم أيضًا؟؟؟.

قلنا: أحسن بمعنى حسن، وقد سبق نظيره في سورة الروم.

٩٩٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في وصف الفريقين: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ ﴾ [الأحقاف: ١٩] مع أن أهل النار لهم دركات لا درجات؟

قلنا: الدرجات الطبقات من المراتب مطلقًا من غير اختصاص.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: ولكل فريق درجات أو دركات مما عملوا؛ إلا أنه حذفه اختصارًا لدلالة المذكور عليه.

١٠٠٠- **فإن قيل:** كيف طابق الجوابُ السؤالَ في قوله تعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٢، ٢٣] ؟

قلنا: طابقه مِن حيث إن قولهم ذلك استعجال للعذاب الذي توعدهم به بدليل قوله تعالى بعده: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ ﴾ [الأحقاف: ٢٤] فقال لهم لا علم لي بوقت تعذيبكم؛ بل الله تعالى هو العالم به وحده.

١٠٠١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى، في وصف الريح: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وكم مِن شيء لم تدمره؟

قلنا: معناه تدمر كل شيء مرت به مِن أموال قوم عاد وأملاكهم.

---

(١) سميت هذه السورة سورة الأحقاف في جميع المصاحف وكتب السنة، ووردت تسميتها بهذا الاسم في كلام عبد الله بن عباس، روى أحمد بن حنبل بسند جيد عن ابن عباس قال: «أقرأني رسول الله سورة من آل حم وهي الأحقاف». وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين، وكذلك وردت تسميتها في كلام عبد الله ابن مسعود، أخرج الحاكم بسند صححه عن ابن مسعود قال: «أقرأني رسول الله سورة الأحقاف..» الحديث. وحديث ابن عباس السابق يقتضي أنها تسمى ثلاثين، إلا أن ذلك لا يختص بها فلا يعد من أسمائها، ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم، ووجه تسميتها «الأحقاف»: ورود لفظ الأحقاف فيها ولم يرد في غيرها من سور القرآن اهـ. من التحرير والتنوير (ص ٣٩٩٤).

سورة الدخان(١)

٩٩٢- **فإن قيل:** الخلاف بين النبي ﷺ ومنكري البعث إنما كان في الحياة بعد الموت لا في الموت، فكيف قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥] ولم يقل إلا حياتنا، كما قال تعالى في موضع أخرى ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] وما معنى وصف الموتة بالأولى، كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الموتة الأولى؟

قلنا: لما وعدوا موتة تكون بعدها حياة نفوا ذلك، كأنهم قالوا لا تقع في الوجود موتة تكون بعدها حياة إلا ما كنا فيه من موتة العدم وبعثنا منه إلا حياة الوجود. وقيل: إنهم نفوا بذلك الموتة الثانية في القبر بعد إحيائهم لسؤال منكر ونكير.

٩٩٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]، والعذاب لا يصب، وإنما يصب الحميم كما قال في موضع آخر ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]؟؟؟.

قلنا: هو استعارة ليكون الوعد أهول وأهيب، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣] وقوله تعالى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠] وقول الشاعر:

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة «حم الدخان»، روى الترمذي بسندين ضعيفين يعضد بعضهما بعضًا: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة أو في ليلة الجمعة» الحديث. اهـ.
قلت: السندان أحدهما موضوع والآخر ضعيف جدًا فكيف يقوي أحدهما الآخر؟!!! قال ابن عاشور: واللفظان بمنزلة اسم واحد؛ لأن كلمة «حم» غير خاصة بهذه السورة فلا تعد علمًا لها؛ ولذلك لم يعدها صاحب الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم، وسميت في المصاحف وفي كتب السنة «سورة الدخان»، ووجه تسميتها بالدخان وقوع لفظ: «الدخان» فيها المراد به آية من آيات الله أيد الله بها رسوله ﷺ، فلذلك سميت به اهتمامًا بشأنه، وإن كان لفظ: «الدخان» بمعنى آخر قد وقع في سورة «حم تنزيل» في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وهي نزلت قبل هذه السورة على المعروف من ترتيب تنزيل سور القرآن عن رواية جابر بن زيد التي اعتمدها الجعبري وصاحب الإتقان على أن وجه التسمية لا يوجبها، وهي مكية كلها في قول الجمهور.

صُبَّتْ عَلَيهِم صُروفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبِ

٩٩٤- فإن قيل: كيف وعد اللهُ أهلَ الجنة بلبس الإستبرق وهو غليظ الديباج في قوله تعالى: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الدخان: ٥٣] مع أن لبس الغليظ من الديباج عند السعداء من أهل الدنيا عيب ونقص؟

قلنا: كما أن رقيق ديباج الجنة وهو السندس لا يماثل رقيق ديباج الدنيا إلا في الاسم فقط، فكذلك غليظ ديباج الجنة، وقيل: السندس لباس السادة من أهل الجنة، والإستبراق لباس العبيد والخدم إظهارًا لتفاوت المراتب.

٩٩٥- فإن قيل: كيف قال تعالى، في وصف أهل الجنة: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦] مع أن الموتة الأولى لم يذوقوها في الجنة؟

قلنا: قال الزّجّاج والفرّاء: «إلا» هنا بمعنى «سوى»، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧].

الثاني: أن «إلا» بمعنى «بعد» كما قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

الثالث: أن السعداء إذا حضرتهم الوفاة كشف لهم الغطاء وعرضت عليهم منازلهم ومقاماتهم في الجنة، وتلذذوا في حال النزع بروحها وريحانها، فكأنهم ماتوا في الجنة، وهذا قول ابن قتيبة رحمه الله.



١٠٠٦- **فإن قيل:** كيف قال تبارك وتعالى للنبي ﷺ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وهو عالم بذلك قبل أن يوحى إليه وبعده؟

قلنا: معناه أثبت على ذلك العلم. وقال الزّجّاج: الخطاب له ﷺ، والمراد أمته، كما ذكرنا في أول سورة الأحزاب.

❊ ❊ ❊

ودرهم، وأنت طالق وطالق، ولهذا قال ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا لن يغلب عسر يسرين؟

قلنا: الإله هنا بمعنى المعبود بالنقل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِۖ ﴾ [الأنعام: ٣] فصار المعنى: وهو الذي في السماء معبود وفي الأرض معبود، والمغايرة ثابتة بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض؛ لأن العبودية من الأمور الإضافية فيكفي في تغايرهما التغاير من أحد الطرفين فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض، مع أن المعبود واحد.

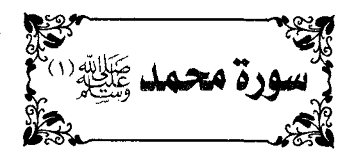
* * *



١٠٠٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[الأحقاف: ٣١]، ولم يقل يغفر لكم ذنوبكم؟

قلنا: لأن مِن الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كمظالم العباد ونحوها.

* * *



سورة محمد ﷺ(١)

١٠٠٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣]، ولم يسبق ضرب مثل؟

قلنا: معناه كذلك يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين، وقيل أراد به أنه جعل اتباع الباطل مثلًا لعمل الكفار، واتباع الحق مثلًا لعمل المؤمنين، أو أنه جعل الإضلال مثلًا لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلًا لفوز المؤمنين.

١٠٠٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في حق الشهداء بعد ما قتلوا في سبيل الله ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ [محمد: ٥] والهداية إنما تكون قبل الموت لا بعد؟

قلنا: معناه سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير. وقيل: سيهديهم يوم القيامة إلى طريق الجنة.

١٠٠٥- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [محمد: ١٥]، إلى قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ [محمد: ١٥]؟

قلنا: قال الفراء: معناه أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار. وقال غيره تقديره: مثل الجنة الموصوفة كمثل جزاء مَنْ هو خالد في النار، فحذف منه ذلك إيجازًا واختصارًا.

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة، في كتب السنة «سورة محمد» وكذلك ترجمت في صحيح البخاري من رواية أبي ذر عن البخاري، وكذلك في التفاسير قالوا: وتسمى «سورة القتال» ووقع في أكثر روايات صحيح البخاري «سورة الذين كفروا» والأشهر الأول ووجهه أنها ذكر فيها اسم النبي ﷺ في الآية الثانية منها فعرفت به قبل سورة آل عمران التي فيها ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وأما تسميتها «سورة القتال» فلأنها ذكرت فيها مشروعية القتال؛ ولأنها ذكر فيها لفظه في قوله تعالى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ مع ما سيأتي أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠] أن المعني بها هذه السورة فتكون تسميتها «سورة القتال» تسمية قرآنية وهي مدنية بالاتفاق.



سورة الجاثية[1]

٩٩٦- **فإن قيل:** كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٥، ٢٦] ؟

قلنا: وجه المطابقة أنهم ألزموا بما هم مقرون به من أن الله تعالى هو الذي أحياهم أولًا ثم يميتهم، وَمَنْ كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على جمعهم يوم القيامة، فيكون قادرًا على إحياء آبائهم.

٩٩٧- **فإن قيل:** كيف أضاف الكتاب إلى الأمة وإليه في قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨]، ثم قال: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ [الجاثية: ٢٩] ؟؟؟.

قلنا: الإضافة تصح بأدنى ملابسة وقد لابسهم الكتاب بكون أعمالهم مثبتة فيه، ولابسه بكونه مالكه وكونه آمرًا لملائكته أن يكتبوا فيه أعمالهم.

* * *

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة في كثير من المصاحف العتيقة بتونس وكتب التفسير وفي صحيح البخاري «سورة الجاثية» معرفًا باللام وتسمى «حم الجاثية» لوقوع لفظ «جاثية» فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن واقتران لفظ الجاثية بلام التعريف في اسم السورة مع أن اللفظ المذكور فيها خلى عن لام التعريف لقصد تحسين الإضافة والتقدير: سورة هذه الكلمة أي السورة التي تذكر فيها هذه الكلمة وليس لهذا التعريف فائدة غير هذه. وذلك تسمية «حم غافر» و «حم الزخرف» وتسمى «سورة شريعة» لوقوع لفظ «شريعة» فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن وتسمى «سورة الدهر» لوقوع: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فيها ولم يقع لفظ الدهر في ذوات حم الأخر.

مجلس النبي ﷺ ليس بكفر؛ كيف وقد روي أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لما رفعا أصواتهما بين يدي رسول الله ﷺ[١] وأنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان جهوري الصوت، فربما تأذى رسول الله ﷺ بصوته؟[٢].

قلنا: معناه لا تستخفوا به، فإن الاستخفاف به ربما أدى خطؤه إلى عمده، وعمده كفر يحبط العمل. وقيل: حبوط العمل مجاز عن نقصان المنزلة وانحطاط المرتبة.

١٠١٩- **فإن قيل:** ما وجه الارتباط والتعلق بين قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات: ٧] وبين ما قبله؟

قلنا: معناه فاتركوا عبادةَ الجاهلية فإن اللهَ تعالى لم يترككم عليها، ولكن اللهَ حبب إليكم الإيمانَ. وقيل: معناه فتثبتوا في الأمور كما يليق بالإيمان، فإن الله حبب إليكم الإيمانَ.

١٠٢٠- **فإن قيل:** إن كان الفسوق والعصيان بمعنى واحد، فما فائدة الجمع بينهما، وإن كان العصيان أعم من الفسوق فذكره مغن عن ذكر الفسوق لدخوله فيه فما فائدة الجمع بينهما؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد بالفسوق هنا الكذب، وبالعصيان بقية المعاصي، وإنما أفرد الكذب بالذكر، لأنه سبب نزول الآية؟؟؟.

١٠٢١- **فإن قيل:** كيف يقال إن الإيمان والإسلام بمعنى واحد، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]؟؟؟.

قلنا: المنفي هنا الإيمان بالقلب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤] يعني لم تصدقوا بقلوبكم ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي استسلمنا وانقدنا خوف السيف، ولا شك في الفرق بين الإيمان والإسلام بهذا التفسير، والذي يدعي اتحادهما لا يريد به أنهما حيث استعملا كانا بمعنى واحد؛ بل يريد به أن أحد معاني الإيمان هو الإسلام.

١٠٢٢- **فإن قيل:** كيف يقال إن العمل ليس من الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا

---

(١) البخاري (٤٤٦٧).

(٢) البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٧٠).

صراطًا مستقيمًا في كل أمر تحاوله.

١٠١٠- **فإن قيل:** كيف يقال إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وقد قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح: ٤]؟

قلنا: الإيمان الذي يقال إنه لا يقبلُ الزيادةَ والنقصانَ هو الإقرار بوجود الله تعالى، كما أن إلهيته لا تقبل الزيادة والنقصان، فأما الإيمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التصديق فإنه يقبلهما، وهو في الآية بمعنى التصديق؛ لأنهم بسبب السكينة التي هي الطمأنينة وبرد اليقين كلما نزلت فريضة وشريعة صدقوا بها فازدادوا تصديقًا مع تصديقهم.

١٠١١- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَهَاۚ﴾ [الفتح: ٢٦] بعد قوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ [الفتح: ٢٦]؟

قلنا: الضمير في بها لكلمة التوحيد، وفي أهلها للتقوى فلا تكرار.

١٠١٢- **فإن قيل:** ما وجه تعليق الدخول بمشيئة الله تعالى في إخباره سبحانه وتعالى، حتى قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن «إن» بمعنى إذ، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

الثاني: أنه استثناء مِن الله تعالى فيما يعلم تعليمًا لعباده أن يستثنوا فيما لا يعلمون.

الثالث: أنه على سبيل الحكاية لرؤيا النبي ﷺ، فإنه رأى أن قائلًا يقول له ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

الرابع: أن الاستثناء متعلق بقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فأما الدخول فليس فيه تعليق.

١٠١٣- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧] بعد قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]؟

قلنا: معناه آمنين في حال الدخول لا تخافون عدوكم أن يخرجكم منه في المستقبل.

١٠١٤- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: ٢٩] تعليل لماذا؟

قلنا: لما دل عليه تشبيههم بالزرع مِن نمائهم وقوتهم كأنه قال: إنما كثرهم

وقواهم ليغيظ بهم الكفار.

١٠١٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩] وكل أصحاب النبي ﷺ موصوفون بالإيمان والعمل الصالح وبغيرهما مِن الصفات الحميدة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية فما معنى التبعيض هنا؟

قلنا: مِنْ هنا لبيان الجنس لا التبعيض كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

* * *

وهو وصف للملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾[ق: ١٧] ؟

قلنا: معناه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، إلا أنه حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه كما قال الشاعر:

نحـــنُ بِمَــا عِنْــدَنَا وَأَنْــتَ بِمَــا عِنْــدَكَ رَاضٍ وَالــرَّأْيُ مُخْتَلِــفُ(١)

وقال آخر:

رَمــــاني بِـــأَمْرٍ كُنْــــتُ وَوَالِــدِي بَرِيئًــا وَمِــنْ أَجْــلِ الطَّــوِيِّ رَمَــانِي(٢)

الثاني: أنّ فعيلا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[التحريم: ٤] وقيل: إنما لم يقل قعيدان رعاية لفواصل السورة.

١٠٢٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾[ق: ٢٤]، والخطاب لواحد، وهو مالك خازن النار؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: ما قاله المبرد أن تثنية الفاعل أقيمت مقام تثنية الفعل للتأكيد باتحادهما حكمًا، كأنه قال: ألق ألق؛ ونظيره قول امرئ القيس:

ـــا نَبْــــــــــــــكِ *(٣)

أي قف قف.

الثاني: أن العرب كثيرًا ما يرافق الرجل منهم اثنين، على ألسنتهم خطاب الاثنين فقالوا: خليلي وصاحبي وقفا واسمدا وعوجا ونحو ذلك، قال الفراء: سمعت ذلك

---

(١) من المنسرح لقيس بن الخطيم - والشاهد فيه قوله: «نحن بما عندنا» حيث حذف الخير جوازًا لدلالة ما بعده عليه وانظر (الكتاب ١/ ٧٥ والمقاصد النحوية ١/ ٥٥٧ وخزانة الأدب ١٠/ ٢٩٥ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ٥٧٤).

(٢) من الطويل - لحمر بن أحمر. والشاهد فيه حذف خبر «كان» والتقدير «كنت منه بريئًا»، وعليه «فبريئًا» الموجود خبر لـ«كان» المحذوفة مع اسمها أي: وكان هو بريئًا يعني والده. وانظر (الكتاب ١/ ٧٥ وشرح أبيات سيبويه ١/ ٢٤٩ والدرر ٢/ ٦٢ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ١٠١٩).

(٣) صدر بيت لامرئ القيس وتمامه:

قفانبــك من ذكري حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحَوْمِل

وانظر (الكتاب ٤/ ٢٠٥، والمغني ١/ ١٦١ والهمع ٢/ ١٣١).

سورة الفتح(١)

١٠٠٧- **فإن قيل:** كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ١، ٢] الآية؟؟؟.

قلنا: لم يجعله علة للمغفرة؛ بل لاجتماع ما وعده من الأمور الأربعة، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، وقبل الفتح لم يكن إتمام النعمة والنصر العزيز حاصلًا، وإن كان الباقي حاصلًا، ويجوز أن يكون فتح مكة سببًا للمغفرة، من حيث إنه جهاد للعدو.

١٠٠٨- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ٢]، إن كان المراد بما تأخر ذنبًا يتأخر وجوده عن الخطاب بهذه الآية فهو معدوم عند نزولها، فكيف يغفر الذنب المعدوم، وإن كان المراد به ذنبًا وجد قبل نزولها فهو متقدم فكيف سماه متأخرًا.

قلنا: المراد بما تقدم قصة مارية، وبما تأخر قصة امرأة زيد. وقيل: المراد بما تقدم ما وجد منه، وبما تأخر ما لم يوجد منه على معنى أنه موعود بمغفرته على تقدير وجوده، أو على طريق المبالغة كقولهم: فلان يضرب مَن يلقاه ومَن لا يلقاه؛ بمعنى يضرب كل أحد، فكذا هنا معناه ليغفر لك الله كل ذنب: فالحاصل أن الذنب المتأخر متقدم على نزول الآية، وإن كان متأخرًا بالنسبة إلى شيء آخر قبله أو متأخرًا عن نزولها وهو موعود بمغفرته، أو على طريق المبالغة كما بينا.

١٠٠٩- **فإن قيل:** ما معنى قوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح: ٢] وهو مهدي إلى الصراط المستقيم، ومهدي به أمته أيضًا؟

قلنا: معناه ويزيدك هدى، وقيل: ويثبتك على الهدى، وقيل: معناه ويهديك

(١) سميت في كلام الصحابة «سورة الفتح» ووقع في صحيح البخاري عن عبد الله بن مغفل: بغين معجمة مفتوحة وفاء مشددة مفتوحة، قال: قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة: «سورة الفتح» فرجع فيها. وفيها حديث سهل بن حنيف: لقد رأيتنا يوم الحديبية ولو ترى قتالًا لقاتلنا. ثم حكى مقالة عمر إلى أن قال: فنزلت سورة الفتح ولا يعرف لها اسم آخر. اهـ. من التحرير والتنوير.

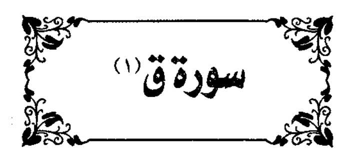
ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحجرات: ١٥] الآية؟

قلنا: معناه إنما المؤمنون إيمانًا كاملًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»[١].

وقولهم: الرجل مَن يصبر على الشدائد، ويرد على هذا الجواب أن المنفي في أول الآية عن الأعراب نفس الإيمان الكامل، فلا يناسب أن يكونَ المثبتُ بعد ذلك الإيمان الكامل؛ بل نفس الإيمان.

* * *

(١) البخاري (٩)، ومسلم (٥٨).



سورة ق[(١)]

١٠٢٣- **فإن قيل:** أين جواب القسم في قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه مضمر تقديره: إنهم مبعوثون بعد الموت.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ق: ٤] واللام محذوفة لطول الكلام تقديره: لقد علمنا كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

الثالث: أنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ [ق: ١٨].

١٠٢٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] وأراد به الحب الحصيد فأضاف الشيء إلى نفسه والإضافة تقتضي المغايرة بين المضاف والمضاف إليه؟

قلنا: معناه وحب الزرع الحصيد أو النبات الحصيد.

الثاني: أن إضافة الشيء إلى نفسه جائزة عند اختلاف اللفظين، كما في قوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، و﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ودار الآخرة و﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ [الأحقاف: ١٦].

١٠٢٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، ولم يقل قعيدان،

---

(١) سميت في عصر الصحابة «سورة ق» ينطق بحروف: قاف بقاف وألف وفاء، فقد روى مسلم عن قطبة ابن مالك: أن النبي ﷺ قرأ في صلاة الصبح سورة: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ وربما قال: ﴿قٓۚ﴾ ويعني في الركعة الأولى، وروى مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان: ما أخذت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم على المنبر إذا خطب الناس، وروى مسلم عن جابر بن سمرة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ «قاف والقرآن المجيد» هكذا رسم قاف ثلاثة أحرف، وقوله: «في الفجر» يعني به صلاة الصبح؛ لأنها التي يصليها في المسجد في الجماعة، فأما نافلة الفجر فكان يصليها في بيته، وفي الموطأ ومسلم: أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ «قاف» هكذا رسم قاف ثلاثة أحرف مثل ما رسم حديث جابر بن سمرة و﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ و ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ وهي من السور التي سميت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل: «طه» و «ص» و «ق» و «يس» لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها بحيث إذا دعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى. اهـ. من التحرير والتنوير.

سورة الحجرات(١)

١٠١٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] والمراد به نهيهم أن يتقدموا على رسول الله ﷺ بقول أو فعل، لا أن يقدموا غيرهم؟

قلنا: قدم هنا لازم بمعنى تقدم كما في قولهم بين وتبين، وفكر وتفكر، ووقف وتوقف، ومنه قول الشاعر:

إذا نَحنُ سِرْنا سَارَتِ النـاسُ خلْفَنـا وإنْ نحـنُ أوْمأْنـا إلـى النـاسِ وقّفُوا(٢)

أي توقفوا، وقيل معناه: لا تقدموا فعلًا قبل أمر رسول الله ﷺ.

١٠١٧- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢]، بعد قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]؟؟؟.

قلنا: فائدته تحريم الجهر في مخاطبته ﷺ باسمه نحو قولهم يا محمد ويا أحمد، فهو أمر لهم بتوقيره وتعظيمه ﷺ في المخاطبة، وأن يقولوا يا رسول الله ويا نبي الله ونحو ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

١٠١٨- **فإن قيل:** كيف قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]، أي مخافة أن تحبط أعمالكم؛ مع أن الأعمال إنما تحبط بالكفر لا بغيره من المعاصي، ورفع الصوت في

---

(١) سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير «سورة الحجرات» وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها: أنها ذكر فيها لفظ «الحجرات». ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله ﷺ من وراء حجراته فعرفت بهذه الإضافة، وهي مدنية باتفاق أهل التأويل. اهـ. من التحرير والتنوير.

(٢) من الطويل - للفرزدق في ديوانه ٢/ ٣٢ ونسب لغيره وله رواية أخرى:

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا وإن نحنُ وبَّأنا إلى الناس وقفوا

وانظر (لسان العرب ١/ ١٩٠ وبتاج العروس ٢٣/ ٤٧٤ وقف والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٥/ ٥٣).

من العرب كثيرًا. قال وأنشدني بعضهم:

فَقُلْتُ لِصَاحِبِيَّ لاَ تَحْبِسَانَا ... بِنَزْعِ أُصُولِهِ وَاجتزَّ شِيحَا[(١)]

فقال: لا تحبسانا والخطاب لواحد، بدليل قوله لصاحبي. قال: وأنشدني أبو ثور:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ ... وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا[(٢)]

وقال امرؤ القيس:

خَلِيلَيّ مَرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدُبٍ ... نَقْضِي لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المعَذَّبِ[(٣)]

ثم قال:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا ... وَجَدْتُ بِهَا طِيبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ[(٤)]

الثالث: أنه أمر للملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

١٠٢٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، ولم يقل غير بعيدة وهو وصف للجنة؟

قلنا: لأنه على زنة المصادر كالزبير والصليل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف، أي مكانًا غير بعيد، وكلا الجوابين للزمخشري رحمه الله تعالى.

---

(١) من الوافر - لمضرس بن ربعي. والشاهد ما ذكره المؤلف.
وانظر (خزانة الأدب ١١/ ١٧ وابن يعيش ١٠/ ٤٩ والمقرب ٢/ ١٦٦ والمعجم المفصل في شواهد النحو ١/ ١٦٣).

(٢) من الطويل - لسويد بن كراع العكلي. وانظر (لسان العرب ٥/ ٣٢٠ جزز وتاج العروس ١٥/ ٦٠ جزز والمخصص ٢/ ٥ والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٤/ ٢٤٢).

(٣) من الطويل - لامرئ القيس في ديوانه ص ٤١ والأشباه والنظائر ٨/ ٨٥ ولسان العرب - ندل - ١١/ ٦٥٥ والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ١/ ٥٠١).

(٤) من الطويل- لامرئ القيس. والشاهد فيه قوله: «ألم تر أني» حيث خاطب المثنى وهما الخليلان فيما سبق بصيغة المفرد - والرواية في الديوان «ألم ترياني» ولا شاهد فيها. وانظر (ديوانه ص ٤١ والأشباه والنظائر ٨/ ٨٥ والمعجم المفصل في شواهد النحو ١/ ١٣٣).

١٠٢٨- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ [ق: ٣١]، بمعنى قربت؟

قلنا: فائدته التأكيد، كقولهم: هو قريبٌ غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

١٠٢٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وكل إنسان له قلب؛ بل كل حيوان؟

قلنا: المراد بالقلب هنا العقل، كذا قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. قال ابن قتيبة: لما كان القلب موضعًا للعقل كنى به عن.

الثاني: أن المراد لمن كان له قلب واع؛ لأن مَن لا يعي قلبه، فكأنه لا قلب له؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية.

* * *

سورة الذاريات(١)

١٠٣٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥]، والصادق وصف القائل لا وصف الوعد؟

قلنا: قيل صادق بمعنى مصدوق كـ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] و ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] وقيل معناه لصدق، فإن المصدر قد جاء على وزن اسم الفاعل كقولهم: قمت قائمًا، وقولهم: لحقت بهم اللائمة، أي اللّوم.

١٠٣١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥]، والمتقون لا يكونون في الجنة في العيون؟

قلنا: معناه أنهم في الجنات والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية وهم في مجموعها لا في كل عين، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤] لأنه بمعنى أنهار، إلا أنه عدل عنها رعاية للفواصل.

١٠٣٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧]، أي في قرى قوم لوط، وقرى قوم لوط ليست موجودة، فكيف توجد فيها العلامة؟

قلنا: الضمير في قوله فيها عائد إلى تلك الناحية والبقعة لا إلى مدائن قوم لوط.

الثاني: أنه عائد إليها، ولكن «في» بمعنى «من»، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النحل: ٨٩] وقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: ٥] ويؤيد هذا الوجه مجيئه مصرحًا به في سورة العنكبوت بلفظ «من» في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ

---

(١) قال ابن عاشور رحمه الله: تسمى هذه السورة «والذاريات» بإثبات الواو تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أولها، وبهذا عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، وابن عطية في تفسيره، والكواشي في تلخيص التفسير، والقرطبي، وتسمى أيضًا: «سورة الذاريات» بدون الواو اقتصارًا على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن. وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وجمهور المفسرين، وكذلك هي في المصاحف التي وقفنا عليها من مشرقية ومغربية قديمة، ووجه التسمية: أن هذه الكلمة لم تقع بهذه الصيغة في غيرها من سور القرآن، وهي مكية بالاتفاق.

ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[العنكبوت: ٣٥] ثم قيل الآية آثار منازلهم الخربة. وقيل: هي الحجارة التي أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقيل: هي الماء الأسود الذي يخرج من الأرض.

١٠٣٣- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾[الذاريات: ٤٩]، أي صنفين، مع أن العرش والكرسي والقلم واللوح لم يخلق منها إلا واحد؟

قلنا: قيل معناه ومن كل حيوان خلقنا ذكرًا أو أنثى. وقيل معناه: ومن كل شيء تشاهدونه خلقنا صنفين كالليل والنهار، والصيف والشتاء، والنور والظلمة، والخير والشر، والحياة والموت، والبحر والبر، والسماء والأرض، والشمس والقمر، ونحو ذلك.

١٠٣٤- فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[الذاريات: ٥٠]، وقال سبحانه في موضع آخر ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[آل عمران: ٢٨] ؟

قلنا: معنى قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي الجئوا إليه بالتوبة. وقيل معناه: ففروا من عقوبته إلى رحمته، ومعنى قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ أي يخوفكم عذاب نفسه أو عقاب نفسه. وقال الزجاج: معنى نفسه إياه كأنه قال: ويحذركم الله إياه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾[الكهف: ٢٨]، أي إيَّاه؛ فظهر أنه لا تناقض بين الآيتين.

١٠٣٥- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، وإذا قلنا، خلقهم للعبادة كان مريدًا لها منهم؛ فكيف أرادها منهم ولم توجد منهم؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه عام أريد به الخاص وهم المؤمنون؛ بدليل خروج البعض منه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ ومن خلق لجهنم لا يكون مخلوقًا للعبادة.

الثاني: أنه على عمومه، والمراد بالعبادة التوحيد، وقد وحده الكل يوم أخذ الميثاق، وهذا الجواب يختص بالإنس، لأن أخذ الميثاق مخصوص بهم بالآية. وقيل معناه: إلا ليكونوا عبيدًا لي.

وقيل: معناه إلا ليذلوا ويخضعوا وينقادوا لما قضيته وقدَّرتُه عليهم فلا يخرج عنه أحد منهم.

وقيل: معناه إلا ليعبدون إن اختاروا العبادة لا قسرًا وإلجاء.

وقيل: إلا ليعبدون العبادة المرادة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] والعموم ثابت في الوجوه الخمسة.

١٠٣٦- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧]، بعد قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧] ؟

قلنا: معناه ما أريد منهم من رزق لأنفسهم، وما أريد أن يطعمون، أي أن يطعموا عبيدي؛ وإنما أضاف الإطعام إلى ذاته المقدسة؛ لأن الخلق عياله وعبيده، ومن أطعم عيال غيره فكأنه أطعمه، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي»(١)، أي استطعمك عبدي فلم تطعمه.

* * *

(١) مسلم (٤٦٦١).



سورة الطور[1]

١٠٣٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠]، مع أن الحورَ العين في الجنة مملوكات ملك يمين لا ملك نكاح؟

قلنا: معناه قرناهم بهن، منْ قولهم زوجت إبلي، أي قرنت بعضها إلى بعض؛ وليس من التزويج الذي هو عقد النكاح، ويؤيده أن ذلك لا يعدى بالباء؛ بل بنفسه، كما قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] ويقال زوجه امرأة. ولا يقال بامرأة.

١٠٣٨- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] أي مرهون في النار بعمله؟

قلنا: قال الزمخشري: كأن نفس كل عبد ترهن عند الله تعالى بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجلُ عبدَهُ بدين عليه، فإن عمل صالحًا فكها وخلصها وإلا أوبقها، وقال غيره: هذه جملة من صفات أهل النار وقعت معترضة في صفات أهل الجنة، ويؤيده ما روي عن مقاتل أنه قال معناه: كل امرئ كافر بما عمل

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة عند السلف «سورة الطور» دون واو قبل الطور، ففي جامع الطواف من الموطأ حديث مالك، عن أم سلمة قالت: فطفت ورسول الله إلى جنب البيت يقرأ بـ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١، ٢] أي: يقرأ بسورة الطور، ولم ترد يقرأ بالآية، لأن الآية فيها: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ بالواو وهي لم تذكر الواو، وفي باب القراءة في المغرب من الموطأ حديث مالك عن جبير بن مطعم: سمعت رسول الله ﷺ قرأ بالطور في المغرب، وفي تفسير سورة الطور من صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧] كاد قلبي أن يطير، وكان جبير بن مطعم مشركًا قدم على النبي ﷺ في فداء أسرى بدر وأسلم يومئذ، وكذلك وقعت تسميتها في ترجمتها من جامع الترمذي وفي المصاحف التي رأيناها وكثير من التفاسير، وهذا على التسمية بالإضافة أي: سورة ذكر الطور كما يقال: سورة البقرة، وسورة الهدهد، وسورة المؤمنين، وفي ترجمة هذه السورة من تفسير صحيح البخاري: سورة والطور، بالواو على حكاية اللفظ الواقع في أولها كما يقال سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. وهي مكية جميعها بالاتفاق. اهـ. من التحرير والتنوير..

من الكفر مرتهن في النار، والمؤمن لا يكون مرتهنًا لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٠].

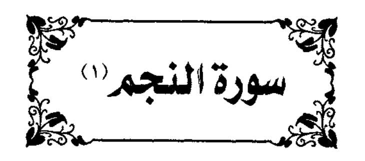
١٠٣٩- فإن قيل، كيف قال تعالى، في حق النبي ﷺ: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، وكل واحد غيره كذلك لا يكون كاهنًا ولا مجنونًا، بنعمة الله تعالى؟

قلنا: معناه فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بالصدق والنبوة بكاهن ولا مجنون كما يقول الكفار. وقيل: الباء هنا بمعنى مع، كما في قوله تعالى: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]. ويقال: أكلت الخبز بالتمر، أي معه.

١٠٤٠- فإن قيل: ما معنى الجمع في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]؟

قلنا: معناه التفخيم والتعظيم، والمراد بحيث نراك ونحفظك؛ ونظيره في معنى العين قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]؛ ونظيره في الجمع للتفخيم والتعظيم قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١].

* * *



سورة النجم(١)

١٠٤١- **فإن قيل:** الضلال والغواية واحدة، فما فائدة قوله تعالى: ﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ ﴾ [النجم: ٢]؟

قلنا: قيل إن بينهما فرقًا لأن الضلالَ ضد الهدى والغي ضد الرشد وهما مختلفتان مع تقاربهما، وقيل: معناه ما ضل في قوله ولا غوى في فعله، ولو ثبت اتحاد معنيهما يكون من باب التأكيد باللفظ المخالف، مع اتحاد المعنى.

١٠٤٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، أدخل كلمة الشك، والشك محال على الله تعالى؟

قلنا: «أو» هنا للتخيير لا للشك، كأنه قال سبحانه وتعالى: إن شئتم قَدِّروا ذلك القرب بقاب قوسين، وإن شئتم قَدِّروه بأدنى منهما. وقيل معناه: بل أدنى. وقيل: هو خطاب لهم بما هو معهود بينهم، وقيل: هو تشكيك لهم لئلا يعلموا قدر ذلك القرب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧] والكلام فيهما واحد.

١٠٤٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] من رؤية القلب لا مِن رؤية البصر، فأين مفعولها الثاني؟

قلنا: هو محذوف تقديره: أفرأيتموها بنات الله وأنداده، فإنهم كانوا يزعمون أن

---

(١) سميت «سورة النجم» بغير واو في عهد أصحاب النبي ﷺ ففي الصحيح عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلا سجد، فأخذ رجل كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه، وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قتل كافرًا، وهذا الرجل أمية بن خلف، وعن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون. فهذه تسمية لأنها ذكر فيها النجم وسموها: «سورة والنجم» بواو بحكاية لفظ القرآن الواقع من أوله، وكذلك ترجمها البخاري في التفسير والترمذي في جامعه، ووقعت في المصاحف بالوجه وهو من تسمية السورة بلفظ وقع في أولها وهو لفظ النجم أو حكاية لفظ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ وسموها: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ كما في حديث زيد بن ثابت في الصحيحين: أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فلم يسجد، أي: في زمن آخر غير الوقت الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس. وهذا كله اسم واحد متوسع فيه، فلا تعد هذه السورة بين السور ذوات أكثر من اسم، وهي مكية قال ابن عطية: بإجماع المتأولين. اهـ. من التحرير والتنوير.

الملائكة وهذه الأصنام بنات الله عز وجل.

١٠٤٤- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[النجم: ٢٠]، فوصف الثالثة بالأخرى والعرب إنما تصف بالأخرى الثانية لا الثالثة، فظاهر اللفظ يقتضى أن يكون قد سبق ثالثة أولى، ثم لحقتها الثالثة الأخرى فتكون ثالثتان؟

قلنا: الأخرى نعت للعزى، تقديره: أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة؛ لأنها ثالثة الصنمين في الذكر؛ وإنما أخر الأخرى رعاية للفواصل، كما قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[طه: ١٨]، ولم يقل أُخَر، رعاية للفواصل.

١٠٤٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[النجم: ٢٨]، أي لا يقوم مقام العلم، مع أنه يقوم مقام العلم في صورة القياس؟

قلنا: المراد به هنا الظن الحاصل مِن اتباع الهوى دون الظن الحاصل مِن النظر والاستدلال، ويؤيده قوله تعالى قبل هذا ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[النجم: ٢٣].

١٠٤٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[النجم: ٣٩]، وقد صح في الأخبار وصول ثواب الصدقة والقراءة والحج وغيرها إلى الميت؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: ما قاله ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الطور: ٢١]، معناه أنه أدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء، قالوا وهذا لا يصح؛ لأن الآيتين خبر ولا نسخ في الخبر.

الثاني: أن ذلك مخصوص بقوم إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام، وهو حكاية ما في صحفهم، فأمّا هذه الأمة فلها ما سعت وما سعي لها.

الثالث: أنه على ظاهره، ولكن دعاء ولده وصديقه وقراءتهما وصدقتهما عنه مِن سعيه أيضًا؛ بواسطة اكتسابه للقرابة أو الصداقة أو المحبة مِن الناس بسبب التقوى والعمل الصالح.

١٠٤٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى بعد تعديد النقم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[النجم: ٥٥]، والآلاء النعم؟

قلنا: إنما قال سبحانه بعد تعديد النعم والنقم، والنعم نعم لما فيها من الزواجر والمواعظ فمعناه: فبأي نعم ربك الدالة على وحدانيته تشك يا وليد بن المغيرة؟

سورة القمر(١)

١٠٤٨- **فإن قيل:** ما فائدة إعادة التكذيب في قوله تعالى: ﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩] وهلا قال تعالى كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا؟

قلنا: معناه كذبوا تكذيبًا بعد تكذيب. وقيل: إن التكذيب الأول منهم بالتوحيد، والثاني بالرسالة. وقيل: التكذيب الأول منهم لله تعالى، والثاني لرسوله ﷺ.

١٠٤٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في وصف ماء الأرض والسماء: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ [القمر: ١٢]، ولم يقل فالتقى الماءان؟

قلنا: أراد به جنس المياه.

١٠٥٠- **فإن قيل:** الجزاء إنما يكون للكافر لا للمكفور، فكيف قال تعالى: ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤].

قلنا: جزاء مفعول له فمعناه: ففتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان يسبب إغراقهم جزاء لله تعالى؛ لأنه مكفور به، فحذف الجار وأوصل الفعل بنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر.

الثاني: أنه نوح عليه السلام إما لأنه مكفور به بحذف الجار كما مَرَّ مِن الكفر الذي هو ضد الإيمان، أو لأن كل نبي نعمة مِن الله على قومه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال رجل للرشيد: الحمد لله عليك، فقال ما معنى هذا: فقال أنت نعمة حمدت الله عليها، فكأنه قال: جزاء لهذه النعمة المكفورة، وكفران النعمة يتعدى بنفسه قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

---

(١) اسمها بين السلف سورة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ ففي حديث أبي واقد الليثي: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ «قاف» و ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ في الفطر والأضحى، وبهذا الاسم عَنْون لها البخاري في كتاب التفسير وتسمى «سورة القمر» وبذلك ترجمها الترمذي. وتسمى «سورة اقتربت» حكاية لأول كلمة فيها وهي مكية كلها عند الجمهور. اهـ. من التحرير والتنوير.

الثالث: أن «من» بمعنى ما فمعناه: جزاء لما كان كفر من نعم الله تعالى على العموم. وقرأ قتادة كفر بالفتح، أي جزاء للكافرين.

١٠٥١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، أي منقلع، ولم يقل منقعرة؟

قلنا: إنما ذَكَّر الصفة؛ لأن الموصوف، وهو النخل، مُذَكر اللفظ ليس فيه علامة تأنيث، فاعتبر اللفظ وفي موضع آخر اعتبر المعنى وهو كونه جمعًا فقال: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾[الحاقة: ٧] ونظيرهما قوله تعالى: ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾[الواقعة: ٥٢-٥٤] وقال أبو عبيدة: النخل يذكر ويؤنث، فجمع القرآن اللغتين. وقيل: إنما ذَكَّر رعاية للفواصل.

* * *

سورة الرحمن عزّ وجلّ[(١)]

١٠٥٢- **فإن قيل:** أي مناسبة بين رفع السماء ووضع الميزان؛ حتى قرن بينهما؟

قلنا: لما صدر هذه السورة بتعديد نعمه سبحانه على عبيده، ذكر من جملتها وضع الميزان الذي به نظام العالم وقوامه؛ لا سيما أن المراد بالميزان العدل في قول الأكثرين، والقرآن في قول، وكل ما تعرف به المقادير في قول، كالمكيال والميزان والذراع المعروف ونحوها.

١٠٥٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٨]، أي لا تجاوزوا فيه العدلَ مغن عما بعده مِن الجملتين فما فائدتهما؟

قلنا: المراد بالطغيان فيه أخذ الزائد، وبالإخسار فيه إعطاء الناقص وأمر بالتوسط الذي هو إقامة الوزن بالقسط؛ ونهى عن الطرفين المذمومين.

١٠٥٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى هنا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤]، وهو الطين اليابس الذي لم يطبخ؛ لكن له صلصلة؛ أي صوت إذا نقر، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [الصافات: ١١]، وقال تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم: ٢٠]؟

قلنا: الآيات كلها متفقة في المعنى؛ لأنه تعالى خلقه مِن تراب ثم جعله طينًا ثم حمأ مسنونًا ثم صلصالًا.

١٠٥٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن: ١٧]، فكرر ذكر الرب ولم يكرره في سورة المعارج بل أفرده فقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠] وكذا في سورة المزمل ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [المزمل: ٩] ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩]؟

قلنا: إنما ذكرَ الرَّب تأكيدًا، فكان التأكيد بهذا الموضع أليق منه بذينك

(١) قال ابن عاشور: وردت تسميتها بسورة الرحمن.

الموضعين؛ لأنه موضع الامتنان وتعديد النعم، ولأن الخطاب فيه مع جنسين وهما الإنس والجن.

١٠٥٦- فإن قيل: بعض الجمل المذكورة في هذه السورة ليست من النعم كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] فكيف حسن الامتنان بعدها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

قلنا: من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير العقاب، فإبقاء من هو مخلوق للفناء نعمة. وتأخير العقاب عن العصاة أيضًا نعمة فلهذا امتن علينا بذلك.

١٠٥٧- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، والله تعالى لا يشغله شيء؟

قلنا: قال الزّجّاج: الفراغ في اللغة على ضربين: أحدهما الفراغ مَنْ شغل، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه، وهو تهديد ووعيد، ومنه قولهم: سأتفرغ لفلان، أي سأجعله قصدي؛ فمعنى الآية سنقصد لعقابكم وعذابكم وحسابكم.

١٠٥٨- فإن قيل: كيف وعد سبحانه الخائفَ جنتين فقط؟

قلنا: لأن الخطابَ للثقلين، فكأنه قيل لكل خائفين مِن الثقلين جنتان، جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجني، وقيل: المراد به أَنَّ لكل خائف جنتين، جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي. وقيل: جنة يثاب بها، وجنة يتفضل بها عليه زيادة لقوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي: الجنة وزيادة.

١٠٥٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ولم يقل فيهما، والضمير للجنتين؟

قلنا: الضمير لمجموع الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة وغيرهما مما سبق ذكره. وقيل: هو للجنتين، وإنما جمعه لاشتمال الجنتين على قصور ومنازل. وقيل: الضمير للمنازل والقصور التي دلّ عليها ذكر الجنتين. وقيل: الضمير لمجموع الجنان التي دل عليها ذكر الجنتين. وقيل: الضمير عائد إلى الفرش، لأنها أقرب؛ وعلى هذا القول «في» بمعنى «علي»، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ



﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨].

١٠٦٠- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، أي لم يفتضهن، ونساء الدنيا لا يفتضهن الجان، فما فائدة تخصيص الحور بذلك؟

قلنا: معناه أن تلك القاصرات الطرف إنسيات للإنس وجنيات للجن، فلم يطمث الإنسيات إنسي، ولا الجنيات جني، وهذه الآية دليل على أن الجن يواقعون كما يواقع الإنس. وقيل: فيها دليل على أن الجني يغشى الإنسيةَ في الدنيا.

* * *

سورة الواقعة(١)

١٠٦١- **فإن قيل:** ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أنه تأكيد مقابل لما سبقه من التأكيد في ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]؛ كأنه قال تعالى: والسابقون هم المعروف حالهم المشهور وصفهم، ونظيره قول أبي النجم:

* أنا أبُو النّجْم وشِعْري شِعري *(٢)

الثاني: أن معناه: والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى جنته وكرامته ثم قيل المراد بهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة وقيل: الذين صلوا إلى القبلتين.

وقيل: أهل القرآن. وقيل: السابقون إلى المساجد إلى الخروج في سبيل الله. وقيل: هم الأنبياء صلوات الله عليهم، فهذه خمسة أقوال.

١٠٦٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]، مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان في الجنة؛ بل كل أهل الجنة مخلدون فيها لا يشيبون ولا يهرمون؛ بل يبقى كل واحد أبدًا على صفته التي دخل الجنة عليها؟

قلنا: معناه أنهم لا يتحولون عن شكل الوالدان وهي الوصافة. وقيل: مقرطون. وقيل مسورون، ولا إشكال على هذين القولين.

١٠٦٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣ فَشَٰرِبُونَ

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة الواقعة بتسمية النبي ﷺ روى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. اهـ. قلت: وفي صحته نزاع.

(٢) الرجز لأبي النجم - والشاهد ما ذكره المؤلف. وانظر (خزانة الأدب ١/ ٤٣٩ والخصائص ٣/ ٣٣٧ والدرر ١/ ١٨٥ وابن يعيش ١/ ٩٨ والمغني ١/ ٣٢٩ والمعجم المفصل في شواهد النحو ٢/ ١١٦٩).

عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الواقعة: ٥٢- ٥٤]، أنث ضمير الشجر ثم ذكَّره؟

قلنا: قد سبق جوابه في سورة القمر.

١٠٦٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧]، أي فهلَّا تصدقون؛ مع أنهم مصدقون أنه خلقهم، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]؟؟؟.

قلنا: هم وإنْ كانوا مصدقين بألسنتهم إلا أنهم لما كان مذهبهم على خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به.

الثاني: أنه تخصيص على التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الأول، فكأنه قال تعالى: هو الذي خلقكم أولًا باعترافكم، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانيًا، فهلا تصدقون بذلك.

١٠٦٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى، في الزرع: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ [الواقعة: ٦٥]، باللام وقال تعالى في الماء: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ [الواقعة: ٧٠] بغير لام؟

قلنا: الأصل أن تذكر اللام في الموضعين؛ إذ لابد منها في جواب «لو» إلا أنها حذفت في الثاني اختصارًا، وهي مؤدية لدلالة الأولى عليها.

الثاني: أن أصل هذه اللام للتأكيد فذكرت مع المطعوم دون المشروب، لأن المطعوم مقدم وجودًا ورتبة، لأنه إنما لا يحتاج إلى الماء تبعًا له، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب، فلما كان الوعيدُ بفقد المطعوم أشد وأصعب أكد تلك الجملةَ مبالغة، في التهديد.

١٠٦٦- **فإن قيل:** التسبيح التنزيه عن السوء، فما معنى باسم في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧٤] وهلَّا قال تعالى فسبح ربك العظيم؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أن الباء زائدة والاسم بمعنى الذات، فصار المعنى ما قلتم.

الثاني: أن الاسم بمعنى الذكر، فمعناه فسبح بذكر ربك.

الثالث: أن الذكر فيه مضمر، فمعناه فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك.

الرابع: قال الضحاك: معناه فَصلِّ باسم ربك، أي افتتح الصلاة بالتكبير.

١٠٦٧- فإن قيل: إذا كان القرآن صفة من صفات الله تعالى قديمة[1] قائمة بذاته المقدسة، فكيف قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨] أي اللوح المحفوظ أو المصحف على اختلاف القولين؟

قلنا: معناه مكتوب في كتاب مكنون، ولا يلزم من كتابة القرآن في الكتاب أن يكون القرآن حالًا في الكتاب، كما لو كتب إنسان على كفه ألف دينار لا يلزم منه وجود ألف دينار في كفه، وكذا لو كتب في كفه العرش أو الكرسي، وكذا وكذا، قال تعالى في صفة النبي ﷺ: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

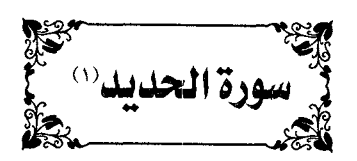
الثاني: أن القرآن لو كان حالًا في المصحف فإما أن يكونَ جميعُهُ حالًا في مصحف واحد؛ أو في كل مصحف، أو في بعضه، ولا سبيل إلى الأول، لأن المصاحف كلها سواء في الحكم في كتابته فيها؛ ولأن البعض ليس أَوْلَى بذلك من البعض، ولا سبيل إلى الثاني وإلا يلزم تعدد القرآن وأنه متحد، ولا سبيل إلى الثالث؛ لأنه كله مكتوب في كل مصحف، ولأن هذا المصحف ليس أولى بهذا البعض من ذلك المصحف، وكذا الباقي، فثبت أنه ليس حالًا في شيء منها؛ بل هو كلام الله تعالى وكلامه صفة قديمة قائمة به لا تفارقه!!.

١٠٦٨- فإن قيل: فإذا لم تفارقه فكيف سماه تعالى منزلًا وتنزيلًا، وقال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] ونظائره كثيرة، وإذا فارقه وباينه يكون مخلوقًا، لأن كل مباين له فهو غيره، وكل ما هو غيره فهو مخلوق؟

قلنا: معنى إنزاله أنه سبحانه وتعالى علمه لجبريل فحفظه، وأمره أن يعلمه للنبي ﷺ ويأمره أن يعلمه لأمته، مع أنه لم يزل ولا يزال صفة لله تعالى قائمة به لا تفارقه!!

* * *

(١) قلت: القديم في وصف القرآن لا أعلم لها أصلًا، وليس معنى هذا أن القرآن مخلوق.



سورة الحديد(١)

١٠٦٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الحديد: ٨]، ثم قال سبحانه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]؟

قلنا: معناه إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فإن شريعتهما تقتضي الإيمان بمحمد ﷺ.

الثاني: إن كنتم مؤمنين بالميثاق الذي أخذه عليكم يوم أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام.

الثالث: أن معناه، أي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقد ركب الله تعالى فيكم العقول ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر وأزاح عللكم، فما لكم لا تؤمنون إن كنتم مؤمنين بموجب ما، فإن هذا الموجب لا مزيد عليه.

---

(١) قال ابن عاشور: سميت بذلك في المصاحف وفي كتب السنة لوقوع لفظ الحديد فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وهذا اللفظ وإن ذكر في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار فلم تسم به؛ لأنها سميت باسم الكهف للاعتناء بقصة أهل الكهف، ولأن الحديد الذي ذكر هنا مراد به: حديد السلاح من سيوف ودروع وخوذ تنويهًا به إذ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته، وإلهام الناس صنعه لتحصل به منافع لتأييد الدين ودفاع المعتدين، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي لم يختلف مثله في غيرها فقال الجمهور: مدنية وحكى ابن عطية عن النقاش: أن ذلك إجماع المفسرين وقد قيل: إن صدرها مكي لما رواه مسلم في صحيحه والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] إلا أربع سنين، عبد الله بن مسعود أول الناس إسلامًا فتكون هذه الآية مكية. وأقول: الذي يظهر أن صدرها مكي كما توسمه ابن عطية وأن ذلك ينتهي إلى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وأن ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين، وبعضه نزل بمكة مثل آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية كما في حديث مسلم.

١٠٧٠- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]، ولم يذكر مع مَنْ لا يستوي، والاستواء لا يتم إلا بذكر اثنين، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قلنا: هو محذوف تقديره: وَمَنْ أنفق وقاتل مِن بعد الفتح، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه.

١٠٧١- فإن قيل: كيف يقال إن أعلى الدرجات بعد درجة الأنبياء درجةُ الصديقين، والله تعالى قد حكم لكل مؤمن بكونه صديقًا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩]؟

قلنا: قال ابن مسعود ومجاهد: كل مؤمن صديق.

الثاني: أن الصديق هو كثير الصدق، وهو الذي كل أقواله وأفعاله وأحواله صدق، فعلى هذا يكون المراد به بعض المؤمنين لا كلهم. وقد روي عن الضحاك أنها نزلت في ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام، وهم أبو بكر وعثمان وعلي وحمزة بن عبد المطلب وطلحة والزبير وسعد وزيد، وألحق بهم عمر رضي الله عنهم فصاروا تسعة.

١٠٧٢- فإن قيل: كيف ذكر سبحانه هؤلاء المذكورين بكونهم شهداء ومنهم مَن لم يُقتل؟

قلنا: معناه أن لهم أجر الشهداء.

الثاني: أنه جمع شهيد بمعنى شاهد، فمعناه أنهم شاهدون عند ربهم على أنفسهم بالإيمان.

الثالث: أنه مبتدأ منقطع عما قبله لا معطوف عليه؛ معناه: والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم.

١٠٧٣- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، والمسابقة من المفاعلة التي لا تكون إلا بين اثنين كقولك: سابق زيد عمرًا؟

قلنا: قيل معناه سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في الميدان، ويؤيد هذا القول مجيئه بلفظ المسارعة في سورة آل عمران. وقيل: سابقوا ملك الموت قبل أن



يقطعكم بالموت عن الأعمال التي توصلكم إلى الجنة. وقيل: سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك.

١٠٧٤- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فكيف يكون عرضها كعرض السماء الواحدة وكعرض السموات السبع؟

قلنا: المراد بالسماء جنس السموات لا سماء واحدة، كما أن المراد بالأرض في الآيتين جنس الأرضين، فصار التشبيه في الآيتين بعرض السموات السبع والأرضين السبع.

١٠٧٥- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، ولا أحدُ يملك نفَسَه عند مضرة تناله أن لا يحزن، ولا عند منفعة تناله أن لا يفرح وليرجع كل واحد منا في ذلك إلى نفسه؟

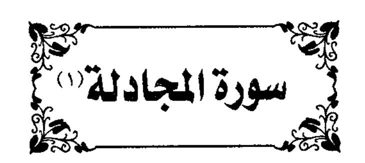
قلنا: ليس المراد بذلك الحزن والفرح الذي لا ينفك عنه الإنسان بطبعه قسرًا وقهرًا؛ بل المراد به الحزن المخرج لصاحبه إلى الذهول عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطغي الملهي عن الشكر، نعوذ بالله منهما.

١٠٧٦- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، والميزان لم ينزل من السماء؟

قلنا: قيل المراد بالميزان هنا العدل. وقيل العقل: وقيل السلسلة التي أنزلها الله تعالى على داود عليه السلام. وقيل: هو الميزان المعروف أنزله جبريل فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال له: مر قومك يزنوا به.

١٠٧٧- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، مع أن المؤمنين مؤمنون برسوله ﷺ؟

قلنا: معناه يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد ﷺ، فيكون خطابًا لليهود والنصارى خاصة، وعليه الأكثرون، وقيل معناه: يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق اتقوا الله وآمنوا برسوله اليوم. وقيل معناه: يا أيها الذين آمنوا بالله في العلانية باللسان اتقوا الله وآمنوا برسوله في السر بتصديق القلب.



سورة المجادلة(١)

١٠٧٨- فإن قيل: لأي معنى خصّ الله تعالى الثلاثة والخمسة بالذكر في النجوى، دون غيرهما من الأعداد، في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] الآية؟

قلنا: لأن قومًا من المنافقين تخلفوا للتناجي على هذين العددين مغايظة للمؤمنين، فنزلت الآية على صفة حالهم تعريضًا بهم وتسميعًا لهم وزيد فيها ما يتناول كل متناجيين غير تلك الطائفتين، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: ٧].

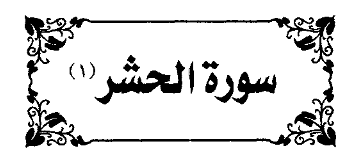
١٠٧٩- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]؟

قلنا: فائدته الإخبار عن المنافقين أنهم يحلفون على أنهم ما سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه مع اليهود كاذبين متعمدين للكذب فهي اليمين الغموس، فكان ذلك نهاية في بيان ذمهم.

---

(١) قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: سميت هذه السورة في كتب التفسير وفي المصاحف وكتب السنة «سورة المجادلة» بكسر الدال أو بفتحها كما سيأتي، وتسمى سورة «قد سمع» وهذا الاسم مشتهر في الكتاتيب في تونس وسميت في مصحف أبي بن كعب «سورة الظهار»، ووجه تسميتها: «سورة المجادلة»: لأنها افتتحت بقضية مجادلة امرأة أوس بن الصامت لدى النبي ﷺ في شأن مظاهرة زوجها، ولم يذكر المفسرون ولا شاركوا كتب السنة ضبطه بكسر الدال أو فتحها، وذكر الخفاجي في حاشية البيضاوي عن الكشف أن كسر الدال هو المعروف. ولم أدر ما أراد الخفاجي بالكشف الذي عزا إليه هذا، فكشف القزويني على الكشاف لا يوجد فيه ذلك، ولا في التفسير المسمى الكشف والبيان للثعلبي، فلعل الخفاجي رأى ذلك في الكشف الذي ينقل عنه الطيبي في مواضع تقريرات لكلام الكشاف وهو غير معروف في عداد شروح الكشاف وكسر الدال أظهر؛ لأن السورة افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، ورأيت في نسخة من حاشية محمد الهمذاني على الكشاف المسماة «توضيح المشكلات» بخط مؤلفها جعل علامة كسرة تحت دال المجادلة، وأما فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل «تجادلك» كما عبر عنها بالتحاور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١] وهذه السورة مدنية قال ابن عطية: بالإجماع.





سورة الحشر(١)

١٠٨٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، والإيمان ليس مكانًا يتبوأ لأن معنى التبوء اتخاذ المكان منزلًا؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: وأخلصوا الإيمان، كقول الشاعر:

* عَلَفْتها تِبْنًا وماءً بارِدًا(٢) *

أي وسقيتها ماء باردًا.

الثاني: أنه على ظاهره بغير إضمار ولكنه مجاز، فمعناه أنهم جعلوا الإيمانَ مستقرًّا وموطنًا لتمكنهم منه واستقامتهم عليه، كما جعلوا دار الهجرة كذلك وهي المدينة.

١٠٨١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ [الحشر: ١٢]، بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم وحرف الشرط إنما يدخل على ما يحتمل وجوده وعدمه؟؟؟.

---

(١) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: اشتهرت تسمية هذه السورة «سورة الحشر». وبهذا الاسم دعاها النبي ﷺ، روى الترمذي عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح ثلاث مرات **أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر..**» الحديث أي: الآيات التي أولها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] إلى آخر السورة، وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس «سورة الحشر»، قال: قل: «بني النضير» أي سورة «بني النضير»، فابن جبير سماها باسمها المشهور، وابن عباس يسميها سورة «بني النضير» ولعله لم يبلغه تسمية النبي ﷺ إياها «سورة الحشر»؛ لأن ظاهر كلامه أنه يرى تسميتها «سورة بني النضير» لقوله: أن جبير قال: «بني النضير» وتأويل ابن حجر كلام ابن عباس على أنه كما سميتها بـ «الحشر» لئلا يظن أن المراد بالحشر يوم القيامة، وهذا تأويل بعيد. وأحسن من هذا أن ابن عباس أراد أن لها اسمين وأن الأمر في قوله: قل للتخيير، فأما وجه تسميتها «الحشر» فلوقوع لفظ «الحشر» فيها، ولكونها ذكر فيها حشر بني النضير من ديارهم أي من قريتهم المسماة الزهرة قريبًا من المدينة. فخرجوا إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات وبعض بيوتهم خرجوا إلى خيبر وبعض بيوتهم خرجوا إلى الحيرة، وأما وجه تسميتها «سورة بني النضير» فلأن قصة بني النضير ذكرت فيها وهي مدنية بالاتفاق.

(٢) انظر: خزانة الأدب (١/ ٤٩٩) من الرجز التام لذى الرمة - وانظر الخزانة ٢/ ٢٣١.

قلنا: معناه ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] والله تعالى كما يعلم ما يكون قبل كونه، فهو يعلم ما لا يكون أن لو كان كيف يكون.

١٠٨٢- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى للمؤمنين: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]، أي في صدور المنافقين أو اليهود على اختلاف القولين، وظاهره لأنتم أشد خوفًا من الله؛ فإن كان «من» متعلقًا بأشد لزم ثبوت الخوف لله تعالى، كما تقول: زيد أشد خوفًا في الدار من عمرو، وذلك محال، وإن كان من الله متعلقًا بالخوف فأين الذي فضل عليه المخاطبون، وأيضًا فإن الآية تقتضي إثبات زيادة الخوف للمؤمنين، وليس المراد ذلك باتفاق المفسرين؟

قلنا: رهبة مصدر رهب مبنيًّا لما لم يسم فاعله، فكأنه قيل أشد مرهوبية، يعني أنكم في صدورهم أهيب من الله فيها، كذا فسره ابن عباس رضي الله عنهما، ونظيره قولك: زيد أشد ضربًا في الدار من عمرو، يعني مضروبية.

١٠٨٣- **فإن قيل:** كيف يستقيمُ التفضيلُ بأشدية الرهبة، مع أنهم كانوا لا يرهبون اللهَ، لأنهم لو رهبوه لتركوا النفاقَ والكفرَ؟

قلنا: معناه أن رهبتهم في السر منكم أشد مِن رهبتهم مِن الله التي يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون للمؤمنين رهبة شديدة من الله تعالى.

١٠٨٤- **فإن قيل:** كيف قال إبليس: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾[الحشر: ١٦] وهو لا يخاف الله تعالى، لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة الأنفال.

١٠٨٥- **فإن قيل:** ما فائدة تنكير النفس والغد في قوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[الحشر: ١٨] ؟

قلنا: أما تنكير النفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال: ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وأين تلك النفس. وأما تنكير الغد فلعظمته وإبهام أمره كأنه قال لغد لا يعرف كنهه لعظمه.

١٠٨٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وأراد به يوم القيامة، والغد عبارة عن يوم بينه وبيننا ليلة واحدة؟

قلنا: الغد له مفهومان: أحدهما ما ذكرتم. والثاني مطلق الزمان المستقبل، ومنه قول الشاعر:

وأعلَمُ ما في اليومِ والأمسِ قَبْلَهُ ... ولكنّني عَنْ عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِي[(١)]

وأراد به مطلق الزمان المستقبل، كما أراد بالأمس مطلق الزمان الماضي؛ فصار لكل واحد منهما مفهومان، ويؤيده أيضًا قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] وقيل: إنما أطلق على يوم القيامة اسم الغد تقريبًا له كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وكأنه تعالى قال: إن يوم القيامة لقربه يشبه ما ليس بينكم وبينه إلا ليلة واحدة، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اعْمَل لِلَيْلَةٍ صَبِيحَتُهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ»[(٢)]. قالوا أراد بتلك الليلة ليلة الموت.

١٠٨٧- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١]، الآية؟

قيل: معناه: أنه سبحانه لو جعل في جبل على قساوته تمييزًا، كما جعل في الإنسان ثم أنزل عليه القرآن، لتشقق خشية من الله تعالى وخوفًا أن لا يؤدي حقه في تعظيم القرآن، والمقصود توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن، وإعراضه عن تدبر قوارعه وزواجره.

١٠٨٨- **فإن قيل:** ما الفرق بين الخالق والبارئ حتى عطف تعالى أحدهما على الآخر؟

قلنا: الخالق هو المقدر لما يوجده، والبارئ هو المميز بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة. وقيل: الخالق المبدئ والبارئ المعيد.

---

(١) من الطويل - لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٢٩ ولسان العرب ١٥/ ٩٦ عمى وتهذيب اللغة ٣/ ٢٤٥ والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٧/ ٣٨٧.

(٢) لم أقف عليه مرفوعًا، وورد معناه في قول أنس رضي الله عنه والحسن رحمه الله. انظر: الزهد لأحمد (ص ٢٥٨)، والحلية (٢/ ١٤٣)، وشعب الإيمان (١٠٦٩٧).

سورة الممتحنة(١)

١٠٨٩- **فإن قيل:** مِن ماذا استثنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [الممتحنة: ٤]؟

قلنا: من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤]، لأنه سبحانه أراد بالأسوة الحسنة قوله الذي حكاه عنه وعن أتباعه وأشياعه ليقتدوا به ويتخذوه سنة يستنون بها، واستثنى سبحانه استغفارَه لأبيه، لأنه كان عن موعدة وعدها إياه.

١٠٩٠- **فإن قيل:** فإن كان استغفارُهُ لأبيه أو وعده لأبيه بالاستغفار مستثنى من الأسوة فكيف عطف عليه قوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ الممتحنة: ٤] وهو لا يصحُ استثناؤه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الفتح: ١١]؟

قلنا: المقصود بالاستثناء هو الجملة الأولى فقط، وما بعدها ذكر لأنه مِن تمام كلام إبراهيم صلوات الله عليه لا بقصد الاستثناء، كأنه قال: أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار.

١٠٩١- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، ومعلوم أن النبي ﷺ لا يأمرُ إلا بالمعروف، فهلا اقتصر على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾؟

قلنا: فائدته سرعة تبادر الأفهام إلى قبح المعصية منهن، لو وقعت، مِن غير توقف الفهم على المقدمة التي أوردتم في السؤال.

* * *

---

(١) عرفت هذه السورة في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف بـ «سورة الممتحنة». قال القرطبي: والمشهور على الألسنة النطق في كلمة «الممتحنة» بكسر الحاء وهو الذي جزم به السهيلي، ووجه التسمية أنها جاءت فيها آية امتحان إيمان النساء اللاتي يأتين من مكة مهاجرات إلى المدينة وهي آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فوصف الناس تلك الآية بالممتحنة؛ لأنها شرعت الامتحان ا. هـ. من التحرير والتنوير.

سورة الصف(١)

١٠٩٢- فإن قيل: ما فائدة «قد» في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ [الصف: ٥] ؟

قلنا: فائدتها التأكيد، كأنه قال: وتعلمون علمًا يقينًا لا شبهة لكم فيه.

هذا جواب الزمخشري. وقال غيره: فائدتها التكثير، لأن قد مع الفعل المضارع تارة تأتي للتقليل كقولهم: إن الكذوب قد يصدق، وتارة تأتي للتكثير كقول الشاعر:

قَدْ أَغْسَفَ النَّازِحُ المَجْهُودُ مَعْسِفَةً ... في ظِلِّ أَخْضَرَ يَدْعُو هَامَةَ الْبُومِ

وإنما يمتدح بما يكثر وجوده منه لا بما يقل.

١٠٩٣- فإن قيل: كيف قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦] ولم يقل محمّد ومحمّد أشهر أسماء النبي ﷺ ؟

قلنا: إنما قال أحمد، لأنه مذكور في الإنجيل بعبارة تفسيرها أحمد لا محمد، وإنما كان كذلك، لأنه اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمّد، فنزل في الإنجيل اسمه السماوي. وقيل: إن أحمد أبلغ في معنى الحمد من محمّد، من جهة كونه مبنيًّا على صيغة التفضيل. وقيل: محمد أبلغ مِن جهة كونه على صيغة التفضيل الذي هو للتكثير.

١٠٩٤- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦]، ولم يقل سبحانه هذه، والمشار إليه البينات وهي مؤنثة؟

---

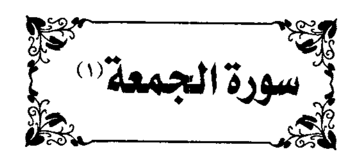
(١) قال ابن عاشور: اشتهرت هذه السورة باسم «سورة الصف» وكذلك سميت في عصر الصحابة، روى ابن أبي حاتم بسنده إلى عبد الله بن سلام أن ناسًا قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال.. إلى أن قال: فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر حتى جمعهم ونزلت فيهم «سورة سبح لله الصف» الحديث أورده ابن كثير، وبذلك عُنونت في صحيح البخاري، وفي جامع الترمذي وكذلك كتب اسمها في المصاحف، وفي كتب التفسير، ووجه التسمية: وقوع لفظ «صفًّا» فيها وهو صف القتال فالتعريف باللام تعريف العهد.

قلنا: معناه هذا الذي جئت به، فالإشارة إلى المأتيّ به.

١٠٩٥- **فإن قيل:** ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله بقول عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: ١٤]؟

قلنا: التشبيه محمول على المعنى تقديره: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصارًا لعيسى عليه السلام حين قال لهم من أنصاري إلى الله.

* * *



سورة الجمعة[(١)]

١٠٩٦- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الجمعة: ٩]، والسعي العَدْو، والعَدْو إلى صلاة الجمعة وإلى كلّ صلاة مكروه؟

قلنا: المراد بالسعي القصد. وقال الحسن: ليس هو السعي على الأقدام، ولكنه على النيات والقلوب. ويؤيد قول الحسن قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] وقول الداعي في دعاء القنوت: وإليك نسعى ونحفد، وليس المراد به العَدْو والإسراع بالقدم.

١٠٩٧- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾[الجمعة: ١١] والمذكور شيئان اللهو والتجارة؟

قلنا: قد سبق جوابُ هذا في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤] والذي يؤيده هنا ما قاله الزجاجُ معناه: وإذا رأوا تجارة انفضوا (إليها) أو لهوا انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه. وقرأ ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (إليهما) بضمير التثنية، وعليه فلا حذف.

* * *

(١) سميت هذه السورة عند الصحابة وفي كتب السنة والتفاسير «سورة الجمعة» ولا يعرف لها اسم غير ذلك. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: كنا جلوسًا عند النبي فأنزلت عليه سورة الجمعة. الحديث.



سورة المنافقون(١)

١٠٩٨- فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١]؟

قلنا: لو قال تعالى: قالوا نشهد إنك لرسول الله، ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] لكان يوهم أن قولهم هذا كذب، وليس المراد أن شهادتهم هذه كذب؛ بل المراد أنهم كاذبون في غير هذه الشهادة، وقال أكثر المفسرين: إنه تكذيب لهم في هذه الشهادة لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا ولم يعتقدوا أنه رسول الله بقلوبهم؛ فسماهم كاذبين لذلك، فعلى هذا يكون ذلك تأكيدًا.

١٠٩٩- فإن قيل: المنافقون ما برحوا على الكفر، فكيف قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: ٣] ؟؟؟

قلنا: معناه ذلك الكذب الذي حكم عليهم به، أو ذلك الإخبار عنهم بأنهم ساء ما كانوا يعملون بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: ٣] بقلوبهم ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [المنافقون: ٣] كما قال تعالى في وصفهم ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٤] الآية.

الثاني: أن المراد به أهل الرِّدّة منهم.

١١٠٠- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]، ولم يقل هي العدو؟

قلنا: عليهم هو ثاني مفعولي يحسبون تقديره: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم: أي لجبنهم وهلعهم، فالوقف على قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وقوله سبحانه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾[المنافقون: ٤] ابتداء كلام. وقيل: إن المفعول الثاني هو قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾[المنافقون: ٤] ولكن تقديره: يحسبون أهل كل صيحة عليهم هم العدو، والأول أظهر بدليل عدم نصب العدو.

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة في كتب السنة وكتب التفسير «سورة المنافقين» اعتبارًا بذكر أحوالهم وصفاتهم فيها ووقع هذا الاسم في حديث زيد بن أرقم عند الترمذي قوله: فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين، ووقع في صحيح البخاري وبعض كتب التفسير تسميتها «سورة المنافقون» على حكاية اللفظ الواقع في أولها وكذلك ثبت في كثير من المصاحف المغربية والمشرقية، وهي مدنية بالاتفاق.

سورة التغابن(١)

١١٠١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، قدم الكافر في الذكر؟

قلنا: الواو لا تعطي رتبة ولا تقتضي ترتيبًا كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] وقد ذكرنا في الآية الأخيرة معنى آخر في موضعها.

١١٠٢- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]، يوهم وجود التولي والاستغناء معًا بعد مجيء رسلهم إليهم؛ والله تعالى لم يزل غنيًّا؟

قلنا: معناه وظهر استغناء الله تعالى عن إيمانهم وعبادتهم؛ حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه؛ مع قدرته تعالى على ذلك.

١١٠٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، مع أن الهدايةَ سابقةٌ على الإيمان، لأنه لولا سبق الهداية لما وجد الإيمانُ؟

قلنا: ليس المراد يهد قلبه للإيمان، بل المراد يهد قلبه لليقين عند نزول المصائب، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

الثاني: يهد قلبه للرضا والتسليم عند نزول المصائب.

الثالث: يهد قلبه للاسترجاع عند نزول المصائب، وهو أن يقول: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

الرابع: يهد قلبه، أي يجعله ممن إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر.

---

(١) سميت هذه السورة «سورة التغابن» ولا تعرف بغير هذا الاسم، ووجه التسمية وقوع لفظ «التغابن» فيها ولم يقع في غيرها من القرآن، وهي مدنية في قول الجمهور.

الخامس: يهد قلبه لاتِّباع السنة إذا صح إيمانُه، وقرئ (يهدأ) بفتح الدال وبالهمز من الهدوّ وهو السكون، فمعناه: ومن يؤمن بالله إيمانًا خالصًا يسكن قلبه ويطمئن عند نزول المصائب والمحن ولا يجزع ويقلق.

*　*　*





سورة الطلاق(١)

١١٠٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، أفرد الخطاب أوَّلًا، ثم جمعه ثانيًا؟

قلنا: أفرد سبحانه النبي ﷺ أولًا بالخطاب؛ لأنه إمامُ أمته وقدوتهم، إظهارًا لتقدمه ورياسته؛ وأنه وحده في حكم كلهم وسادّ مسدَّ جميعهم.

الثاني: أن معناه: يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم النساء.

١١٠٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ونحن نرى كثيرًا من الأتقياء مضيقًا عليهم رزقهم؟

قلنا: معناه يجعل له مخلصًا من هموم الدنيا والآخرة، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**مخرجًا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة**»(٢). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة. والصحيح أن هذه الآية عامة، وأن الله يجعل لكل متق مخرج من كل ما يضيق على من لا يتقي؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنِّي

---

(١) قال ابن عاشور رحمه الله: شاعت تسميتها في المصاحف وفي كتب التفسير وكتب السنة: «سورة الطلاق» ولم ترد تسميتها بهذا في حديث عن رسول الله ﷺ موسوم بالقبول، وذكر في الإتقان أن عبد الله بن مسعود سماها: «سورة النساء القصرى» أخذًا مما أخرجه البخاري وغيره عن مالك بن عامر قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فذكر عنده أن الحامل المتوفى عنها تعتد أقصى الأجلين – أي أجل وضع الحمل – إن كان أكثر من أربعة أشهر وعشر وأجل الأربعة الأشهر وعشر فقال: أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة فنزلت سورة النساء القصري بعد الطولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. اهـ.

(٢) قال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٤/ ٥٠): رواه الثعلبي في تفسيره من طريق ابن وهب ثنا عبد الله بن إسحاق، ثنا عمرو بن الأشعث، ثنا سعيد بن راشد الحنفي، ثنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زيد بن أسلم، عن عطاء عن ابن عباس قال: قرأ رسول الله ﷺ: «﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] **من شبهات الدنيا..**» إلى آخره. رواه الواحدي في تفسيره الوسيط من حديث عمرو بن الحصين، ثنا سعيد بن راشد، عن عبد الله بن سعيد به، ورواه أبو نعيم في الحلية موقوفًا على قتادة ذكره في ترجمته.اهـ. قلت: وهو الأشبه لضعف الروايات المرفوعة.

لأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِهَا لَكَفَتْهُمْ ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾ [الطلاق: ٢]وَجَعَلَ يَقْرَؤُهَا وَيُعِيدُهَا»[1]. وأما تضييق رزق الأتقياء فهو، مع ضيقه وقلته، يأتيهم من حيث لا يأملون ولا يرجون، وتقليله لطف بهم ورحمة ليتوفر حظهم في الآخرة ويخف حسابهم، ولتقل عوائقهم عن الاشتغال بمولاهم، ولا يشغلهم الرخاء والسعة عما خلقوا له من الطاعة والعبادة، ولهذا اختار الأنبياءُ والأولياءُ والصديقونَ الفقرَ على الغنى.

١١٠٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي من يتق به فيما نابه كفاه الله شر ما أهمه، وقد رأينا كثيرًا مِن الناس يتوكل على الله في بعض أمورهم وحوائجهم ولا يكفيهم الله تعالى همها؟

قلنا: محال أنه يتوكل على الله حق التوكل ولا يكفيه همه؛ بل ربما قلق وضجر واستبطأ قضاء حاجته بقلبه أو بلسانه أيضًا ففسد توكله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣]، أي نافذ حكمه، يبلغ ما يريده ولا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب، وبقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] أي جعل لكل شيء من الفقر والغنى والمرض والصحة والشدة والرخاء ونحو ذلك أجلًا ومنتهى ينتهي إليه لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

١١٠٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤] علقه بشكنا، مع أن عدتهن ذلك سواء وجد شكنا أم لا.

قلنا: المراد بالشك الجهل بمقدار عدة الآيسة والصغيرة، وإنما علقه به؛ لأنه لما نزل بيان عدة ذوات الأقراء في سورة البقرة قال بعض الصحابة ﷺ: قد بقي الكبار والصغار لا ندري كم عدتهن، فنزلت هذه الآية على هذا السبب، فلذلك جاءت مقيدة بالشك والجهل.

١١٠٨- **فإن قيل:** إذا كانت المطلقةُ طلاقًا بائنًا تجب لها النفقةُ عند بعض العلماء، فما فائدة قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، عند ذلك القائل؟

قلنا: فائدته أن لا يتوهم أنه إذا طالت مدةُ الحمل بعد الطلاق حتى مضت مدة عدة الحامل سقطت النفقة، فنفى هذا الوهم بقوله: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

---

(١) ضعيف: ابن ماجه (٤٢٢٠) وغيره بإسناد ضعيف، وهو في ضعيف الجامع (٦٣٧٢).

١١٠٩- **فإن قيل:** كيف قال هنا ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: المراد بقوله تعالى «مع» بعده؛ لأن الضدين لا يجتمعان.

١١١٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨]، فنسب العتوَّ إليها، وقال تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾، ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا﴾[الطلاق: ٨]، بلفظ الماضي؛ مع أن الحساب والعذاب المرتبين على العتو إنما هما في الآخرة لا في الدنيا؟

قلنا: معناه عتا أهلها، وإنما جيء به على لفظ الماضي تحقيقًا له وتقريرًا، لأن المنتظر من وعد الله تعالى ووعيده آتٍ لا محالة، وما هو كائن فكأنه قد حصل، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وما أشبهه.

* * *

سورة التحريم(١)

١١١١- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤] إن كان المرادُ به الفرد، فأي فرد هو؛ وأيضًا فإنه لا يناسب مقابلة الملائكة الذين هم جمع؛ وإن كان المراد به الجمع فهلا كان مكتوبًا في المصحف بالواو؟

قلنا: هو فرد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الفعل الصالح من الناس، تريد به الجنس كقولك: لا يفعله مَنْ صلح منهم، وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ [الحاقة: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧] ونظائره كثيرة.

الثاني: أنه يجوز أن يكون جمعًا، ولكنه كتب في المصحف بغير واو على اللفظ كما جاءت ألفاظ كثيرة في المصحف على اللفظ دون اصطلاح الخط.

١١١٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ولم يقل ظهراء، وهو خبر عن الجمع وهم الملائكة؟

قلنا: هو فرد وضع موضع الجمع كما سبق.

الثاني: اسم على وزن المصدر كالزميل والدبيب والصليل، فيستوي فيه الفرد والتثنية والجمع.

الثالث: أن فعيلًا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع بدليل قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ [ق: ١٧].

١١١٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ [التحريم: ٤] تعظيم للملائكة ومظاهرتهم،

---

(١) قال ابن عاشور: سميت «سورة التحريم» في كتب السنة وكتب التفسير. ووقع في رواية أبي ذر الهروي لصحيح البخاري تسميتها باسم «سورة اللم تحرم» بتشديد اللام وفي الإتقان وتسمى «سورة اللم تحرم» وفي تفسير الكواشي «أي بهمزة وصل وتشديد اللام مكسورة» وبفتح الميم وضم التاء محققة وتشديد الراء مكسورة بعدها ميم على حكاية جملة «لم تحرم» وجعلها بمنزلة الاسم وإدخال لام تعريف العهد على ذلك اللفظ وإدغام اللامين.

وقد تقدمت نصرة الله تعالى وجبريل وصالح المؤمنين، ونصرة الله سبحانه أعظم.

قلنا: مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله تعالى، فكأنه فَضَّل نصرته بهم على سائر وجوه نصرته لفضلهم وشرفهم، ولا شك أن نصرته بجميع الملائكة أعظم من نصرته بجبريل وحده أو بصالح المؤمنين.

١١١٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]، إلى آخر الآية، فأثبت الخيرية لهن باتصافهن بهذه الصفات، وإنما تثبت لهن الخيرية بهذه الصفات لو لم تكن تلك الصفات ثابتة في نساء النبي ﷺ وهي ثابتة فيهن؟

قلنا: المراد به خيرًا منكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه، مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكن وبينهن.

١١١٥- **فإن قيل:** كيف أخليت الصفات كلها عن الواو وأثبتت بين الثيبات والأبكار؟

قلنا: لأنهما صفتان متضادتان لا تجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات، فلم يكن بد من الواو، ومن جعلها واو الثمانية فقد سها؛ لأن واو الثمانية لا يفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه.

١١١٦- **فإن قيل:** هذه الصفات إنما ذكرت في معرض المدح، وأي مدح في كونهن ثيبات؟

قلنا: التثييب مدح من وجه، فإن الثيب أقبل للميل بالنقل، وأكثر تجربة وعقلاً، والبكارة مدح من وجه فإنها أطهر وأطيب وأكثر مراغبة وملاعبة.

١١١٧- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]؛ بعد قوله سبحانه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]؟

قلنا: قيل المراد بالأمر الأول الأمر بالعبادات والطاعات، وبالأمر الثاني الأمر بتعذيب أهل النار. وقيل: هو تأكيد.

١١١٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، ولم يقل توبة نصوحة؟

قلنا: لأن فعولاً مِن أوزان المبالغة الذي يستوي في لفظه الذكور والإناث؛ كقولهم: امرأة صبور وشكور ونحوهما.

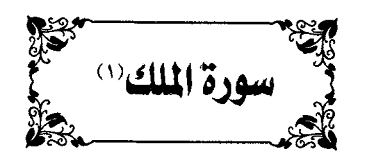
١١١٩- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ بعد قوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾[التحريم: ١٠].

قلنا: فائدته مدحهما والثناء عليهما بإضافتهما إليه إضافة التشريف والتخصيص، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾[الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾[الفجر: ٢٩]. وهو مبالغة في المعنى المقصود، وهو أن الإنسان لا ينفعه إلا صلاح نفسه لا صلاح غيره؛ وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الصلاح والقرب مِن الله تعالى.

١١٢٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[التحريم: ١٢]، ولم يقل سبحانه من القانتات؟

قلنا: معناه كانت من القوم القانتين، أي المطيعين لله تعالى، يعني رهطها وأهلها، فكأنه تعالى قال: وكانت من بنات الصالحين. وقيل: إن الله تعالى لما تقبلها في النذر وأعطاها مرتبة الذكور الذين كان لا يصلح النذر إلا بهم، عاملها معاملة الذكور في بعض الخطاب إشارة إلى ذلك، وقال تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[التحريم: ١٢] أو رعاية للفواصل.

* * *



سورة الملك(١)

١١٢١- **فإن قيل،** ما فائدة تقديم الموت على الحياة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ؟؟

قلنا، إنما قدم سبحانه الموت لأنه هو المخلوق أولًا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد به خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة، ولو سلم أن المراد به الحياة في الدنيا فالموت سابق عليها لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

١١٢٢- **فإن قيل،** كيف قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]؛ مع أن في خلقه سبحانه تفاوتًا عظيمًا، فإن الأضداد كلها من خلقه عز وجل وهي متفاوتة، والسموات أيضًا متفاوتة في الصغر والكبر والارتفاع والانخفاض وغير ذلك؟

قلنا، المراد بالتفاوت هنا الخلل والعيب والنقصان في مخلوقه تعالى الذي هو السموات، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، أي مِن شقوق وصدوع في السماء.

١١٢٣- **فإن قيل،** كيف قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦](٢)، والله سبحانه

---

(١) قال ابن عاشور: سماها النبي ﷺ «سورة تبارك الذي بيده الملك» في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفرت له وهي سورة: تبارك الذي بيده الملك**» قال الترمذي: هذا حديث حسن، فهذا تسمية للسورة بأول جملة وقعت فيها فتكون تسمية بجملة، كما سمي ثابت بن جابر «تأبط شرًّا». ولفظ «سورة» مضاف إلى تلك الجملة المحكية. اهـ. من التحرير والتنوير.

(٢) حاد هذا المفسر عن نهج أهل السنة في هذه المسألة ويكفي مخالفته لظاهر الآية ولقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ولقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ولقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧]، ولقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وكل آية فيها صعود دالة على ما ذكر، وكذا الآيات التي فيها تنزل، وقول النبي ﷺ للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. وحديث المعراج، وكذا كم هناك من =

وتعالى ليس في السماء ولا في غير السماء؛ بل هو سبحانه منزه عن كل مكان؟[1].

قلنا: من ملكوته في السماء؛ لأنها مسكن ملائكته، ومحل عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ، ومنها تنزل أقضيته وكتبه وأوامره ونواهيه.

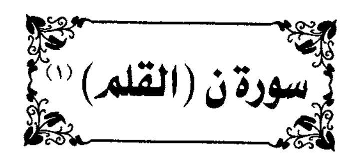
الثاني: أنهم كانوا يعتقدون التشبيهَ، وأنه سبحانه وتعالى في السماء، فخوطبوا على حسب اعتقادهم.

❊ ❊ ❊

= الآيات والأحاديث والآثار فراجع إن شئت كتاب العلو، عفا الله عن المصنف ولينتبه القارئ لمثل ذلك.

(١) في هذا السؤال نظر، فقد اجتمعت كلمات السلف على أن معنى في السماء أن: السماء تعني العلو، أي على السماء. انظر: شرح الواسطية (١/ ٢٢٥).





١١٢٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٨] أي ولا يقولون: إن شاء اللهُ فسمى الشرط استثناء؟

قلنا: إنما سماه استثناء لأنه في معناه، فإن معنى قولك لأخرجنّ إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد، وقال عكرمة: المراد به حقيقة الاستثناء: أي أنهم لا يستثنون حق المساكين، والجمهور على الأول.

١١٢٥- **فإن قيل:** كيف سمى أوسطهم الاستثناء تسبيحًا فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] أي لولا تستثنون؟

قلنا: إنما سماه تسبيحًا لاشتراكهما في معنى التعظيم؛ لأن الاستثناء تفويض إليه وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلًا إلا بمشيئته، والتسبيح تنزيه له عن السوء.

الثاني: أنه كان استثناؤهم قول سبحان الله.

الثالث: أن معناه لولا تنزهون أنفسكم وأموالكم عن حق الفقراء.

١١٢٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٣] ولا تكليف في الدار الآخرة؟؟؟

قلنا: لا يدعون إليه تكليفًا وتعبدًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركه في الدنيا.

١١٢٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٣] وهم إنما كانوا يدعون إلى الصلاة، فإن المراد بالآية دعاؤهم إلى الجماعات بأذان المؤذن، حين يقول: حي على الصلاة؟

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري «سورة ن والقلم» على حكاية اللفظين الواقعين في أولها أي سورة هذا اللفظ وترجمها الترمذي في جامعه وبعض المفسرين سورة «ن» بالاقتصار على الحرف المفرد الذي افتتحت به مثل ما سميت سورة «ص» وسورة «ق»، وفي بعض المصاحف سميت «سورة القلم» وكذلك رأيت تسميتها في مصحف مخطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس وهي مكية. قال ابن عطية: لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.

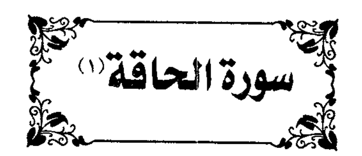
قلنا: عبر سبحانه عن الصلاة بالسجود لأنه من أركانها، بل هو أعظم الأركان وغايتها، كما عبر عنها بالركوع وبالقرآن.

١١٢٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[القلم: ٤٣] ، أي صحيحون، مع أن الصحةَ ليست شرطًا لوجوب الصلاة؟

قلنا: وجوبُ الخروجِ إلى الصلاة بالجماعة مشروطُ بالصحة وهو المراد.

* * *





سورة الحاقة(١)

١١٢٩- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الحاقة: ٦]، ولم يقل صرصرةً، كما قال تعالى: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، وهو صفة لمؤنث؛ لأنها الشديدة الصوت، أو الشديدة البرد؟

قلنا: لأن الصرصر وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها، فأشبه باب حائض وطامث وحامل، بخلاف عاتية فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به.

١١٣٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ [الحاقة: ٧]، أي في تلك الليالي والأيام، والنبي ﷺ ما رآهم ولا يراهم فيها؟

قلنا: «فيها» ظرف لقوله تعالى ﴿صَرْعَىٰ﴾، لا لقوله تعالى: ﴿فَتَرَى﴾، والرؤية هنا من رؤية العلم والاعتبار، فصار المعنى فتعلمهم صرعى في تلك الليالي والأيام بإعلامنا حتى كأنك تشاهدهم.

١١٣١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]، إلى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨]، والمراد بها هنا النفخة الأولى، وهي نفخة الصعق، بدليل ما ذكر بعدها مِن فساد العالم العلوي والسفلي، والعرض إنما يكون بعد النفخة الثانية، وبين النفختين مِن الزمان ما شاء الله تعالى فكيف قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨]؟

---

(١) قال ابن عاشور: سميت «سورة الحاقة» في عهد النبي ﷺ وروى أحمد بن حنبل أن عمر بن الخطاب قال: خرجت يومًا بمكة أتعرض لرسول الله قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا والله شاعر أي قلت في خاطري فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١]، قلت: كاهن، فقرأ: «﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾» [الحاقة: ٤٢، ٤٣] إلى آخر السورة فوقع الإسلام في قلبي كل موقع، وباسم «الحاقة» عنونت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير. ووجه تسميتها «سورة الحاقة» وقوع هذه الكلمة في أولها ولم تقع في غيرها من سور القرآن، وهي مكية بالاتفاق.

قلنا: وضع اليومَ موضع الوقت الواسع الذي يقع فيه النفختان وما بعدهما.

١١٣٢- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]؟

قلنا: معناه تيقنت. والظن يطلق بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

١١٣٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى في وصف أهل النار: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥، ٣٦]، وقال سبحانه، في موضع آخر: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] وفي موضع آخر: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، وفي موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٣]، وفي موضع آخر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤].

قلنا: معناه إلا من غسلين وما أشبهه، أو وضع الغسلين موضع كل طعام مؤذ كريه.

الثاني: أن العذابَ ألوانٌ والمعذبون طبقات؛ فمنهم أكلةُ الزقوم، ومنهم أكلةُ الغسلين، ومنهم أكلةُ الضريع، لكل باب منهم جزءُ مقسومٌ.

١١٣٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، يعني أن القرآن قول جبريل عليه السلام، مع أنه قول الله تعالى لا قول جبريل؟

قلنا: معناه، عند الأكثرين، أن المراد به النبي ﷺ، والمعنى أنه يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله، لا من تلقاء نفسه كما تزعمون.

١١٣٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، فوصف الفرد بالجمع؟

قلنا: قد سبق مثلُ هذا السؤال وجوابه في آخر سورة البقرة.

* * *

سورة المعارج[1]

١١٣٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩]، ويفسره ما بعده والإنسان في حال خلقه ما كان موصوفًا بهذه الصفات؟

قلنا: هلوعًا حال مقدرة. فالمعنى مقدرًا فيه الهلع كما في قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ [الفتح: ٢٧] وهم ليسوا محلقين حال الدخول.

١١٣٧- **فإن قيل:** كيف قال تعالى أولًا: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، ثم قال تعالى ثانيًا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]؛ فهل بينهما فرق؟

قلنا: المراد بالدوام المواظبة والملازمة أبدًا. وقيل: المراد به سكونهم فيها بحيث لا يلتفتون يمينًا ولا شمالًا؛ واختاره الزجاج، وقال: اشتقاقه من الدائم بمعنى الساكن، كما جاء في الحديث أنه ﷺ: «نَهَى عَنِ الْبَوْلِ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ»[2]. قلت: وقوله: «على» ينفي هذا المعنى؛ فإنه لا يقال: هو على صلاته ساكن؛ بل يقال: هو في صلاته ساكن. والمراد بالمحافظة عليها أداؤها على أكمل وجوهها، جامعة لجملة سننها وآدابها؛ فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة، والمحافظة إلى أحوالها.

* * *

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة في كتب السنة وفي صحيح البخاري وجامع الترمذي وفي تفسير الطبري وابن عطية وابن كثير «سورة سأل سائل» وكذلك رأيتها في بعض المصاحف المخطوطة بالخط الكوفي بالقيروان في القرن الخامس، وسميت في معظم المصاحف المشرقية والمغربية وفي معظم التفاسير «سورة المعارج» وذكر في الإتقان أنها تسمى «سورة الواقع» وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في أولها وأخصها بها جملة «سأل سائل»؛ لأنها لم يرد مثلها في غيرها من سور القرآن، إلا أنها غلب عليها اسم «سورة المعارج»؛ لأنه أخف، وهي مكية بالاتفاق.

(٢) البخاري (٢٣٢)، ومسلم (٤٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سورة نوح عليه السلام[1]

١١٣٨- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، فإن كان المراد به تأخيرهم عن الأجل المقدر لهم في الأزل فهو محال، لقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وإن كان المرادُ به تأخيرهم إلى مجيء الأجل المقدر لهم في الأزل، فما فائدة تخصيصهم بهذا وهم وغيرهم في ذلك سواء، على تقدير وجود الإيمان منهم وعدم وجوده؟

قلنا: معناه ويؤخركم عن العذاب إلى منتهى آجالكم على تقدير الإيمان، فلا يعذبكم في الدنيا، كما عذب غيركم من الأمم الكافرة فيها.

الثاني: أنه سبحانه قضى أنهم إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن لم يؤمنوا أهلكهم بالعذاب لتمام خمسمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى هذا الأجل.

١١٣٩- **فإن قيل:** كيف أمرهم بالاستغفارِ، والاستغفار إنما يصح مِن المؤمن دون الكافر؟

قلنا: معناه استغفروا ربكم من الشرك بالتوحيد.

١١٤٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، والحيوان ضد النبات، فكيف يطلق على الحيوان أنه نبات؟

قلنا: هو استعارة للإنشاء والإخراج من الأرض بواسطة آدم عليه السلام.

١١٤١- **فإن قيل:** كيف دعا نوحٌ عليه السلام على قومه بقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٤]؛ مع أنه أرسل ليهديهم ويرشدهم؟

قلنا: إنما دعا عليهم بذلك بعد ما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

---

(١) بهذا الاسم سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه بترجمة «سورة إنا أرسلنا نوحا». ولعل ذلك كان الشائع في كلام السلف ولم يترجم لها الترمذي في جامعه، وهي مكية بالاتفاق. اهـ. من التحرير والتنوير.

١١٤٢- فإن قيل: كيف قال نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] وصفهم بالفجور والكفر في حال ولادتهم وهم أطفال، وكيف علم أنهم لا يلدون إلا فاجرًا كفارًا؟

قلنا: إنهم لا يلدون إلا مَن يفجر ويكفر إذا بلغ، وإنما علم ذلك بإعلام الله تعالى، أو وصفهم بما يؤلون إليه من الفجور والكفر؛ وعلم ذلك بإعلام الله إياه.

* * *

سورة الجن[١]

١١٤٣- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن: ١٩]، ولم يقل سبحانه: رسول الله أو نبي الله، والمراد به النبي ﷺ؟

قلنا: لأنه ﷺ لم يكن في ذلك المقام مرسلًا إليهم[٢]؛ بل اتفق مرورُهُم به وجوازهم عليه؛ فلو قال تعالى: رسول الله أو نبي الله لأوهم ذلك قصد أداء الرسالة إليهم.

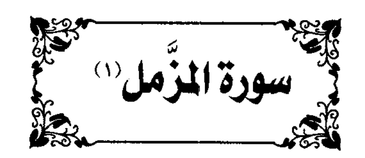
١١٤٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ [الجن: ٢٥]، مع أن الأمد اسم للغاية، والغاية تكون زمانًا قريبًا وزمانًا بعيدًا، ويؤيده قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]؟؟؟

قلنا: أراد بالقريب الحالَ، وبالمجعول له الأمدَ المؤجلَ؛ سواء كان الأجل قريبًا أو بعيدًا.

* * *

(١) قال ابن عاشور رحمه الله: سميت في كتب التفسير وفي المصاحف التي رأيناها ومنها الكوفي المكتوب بالقيروان في القرن الخامس «سورة الجن». وكذلك ترجمها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه وترجمها البخاري في كتاب التفسير «سورة قل أوحي إلي» واشتهر على ألسنة المكتبين والمتعلمين في الكتاتيب القرآنية باسم «قل أوحي» ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم ووجه التسميتين ظاهر وهي مكية بالاتفاق.

(٢) الخطأ واضح فقد قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١] وقالت الجن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١].



سورة المزمل[1]

١١٤٥- فإن قيل: ما معنى وصف القرآن بالثقل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل: ٥] ؟؟؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه كان يثقلُ نزول الوحي على النبيﷺ، حتى يعرق عرقًا شديدًا في اليوم الشاتي.

الثاني: أن العمل بما فيه من التكاليف ثقيل شاق.

الثالث: ثقيل في الميزان يوم القيامة.

الرابع: أنه ثقيل على المنافقين.

الخامس: أنه كلام له وزن ورجحان، كما يقال للرجل العاقل: رزين راجح.

السادس: أنه ليس بسفساف؛ لأن السفساف من الكلام يكون خفيفًا.

١١٤٦- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾[المزمل: ١٨]، ولم يقل سبحانه منفطرة به، والسماء مؤنثة؟

قلنا: هو على النسبة، أي ذات انفطار، وقيل: ذكر السماء على معنى السقف.

وقيل: معناه السماء شيء منفطر به. وقيل: السماء تذكر وتؤنث.

١١٤٧- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[المزمل: ٢٠]، ولم يقل تعالى أن لن تحصوهما، أي لن تعرفوا تحقيق مقادير ساعات الليل والنهار؟

قلنا: الضمير عائد إلى مصدر يقدر معناه: لن تحصوا تقديرهما.

---

(١) ليس لهذه السورة إلا اسم «سورة المزمل» عرفت بالإضافة لهذا اللفظ الواقع في أولها فيجوز أن يراد حكاية اللفظ ويجوز أن يراد به النبي ﷺ موصوفًا بالحال الذي نودي به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ اهـ. من التحرير والتنوير.

سورة المدثر(١)

١١٤٨- **فإن قيل:** ما فائدة قوله تعالى: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر: ١٠]؛ بعد قوله سبحانه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المدثر: ٩، ١٠] ؟؟؟

قلنا: قيل: معناه أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرًا، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا، وقيل: إنه تأكيد.

١١٤٩- **فإن قيل:** ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾[المدثر: ٢٨] ومعناهما واحد؟

قلنا: معناه لا تبقي للكفار لحمًا ولا تذر لهم عظمًا وقيل: معناه لا تبقيهم أحياء ولا تذرهم أمواتًا.

١١٥٠- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المدثر: ٣١]، وما سبق مِن وصفهم بالاستيقان وازدياد الإيمان دلّ على انتفاء الارتياب.

والجمل كلها متعلقة بعدد خزنة النار؛ والمعنى ليستيقن الذين أوتو الكتاب أن ما جاء به محمدﷺ حق؛ حيث أخبر عن عدد خزنة النار بمثل ما في التوراة، ويزداد الذين آمنوا من أهل الكتاب إيمانًا بالنبيﷺ والقرآن؛ حيث وجدوا ما أخبرهم به مطابقًا لما في كتابهم؟

قلنا: فائدته التأكيد والتعريض أيضًا بحال مَن عداهم مِن الشاكين، وهم الكفار والمنافقون؛ فمعناه: ولا يرتاب هؤلاء، كما ارتاب أولئك.

١١٥١- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[البقرة: ٢٦]، يعني حصر عدد الخزنة في تسعة عشر، وذلك ليس بمثل؟؟؟

قلنا: هو استعارة من المثل المضروب مما وقع غريبًا وبديعًا في الكلام استغرابًا

---

(١) قال ابن عاشور: تسمى في كتب التفسير «سورة المدثر» وكذلك سميت في المصاحف التي رأيناها ومنها كتب في القيروان في القرن الخامس وأريد بالمدثر النبي ﷺ موصوفًا بالحالة التي نودي بها كما سميت بعض السور بأسماء الأنبياء الذين ذكروا فيها.

منهم لهذا العدد واستبعادًا له، والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب، وأيّ حكمة قصد في جعل الخزنة تسعة عشر لا عشرين.

الثاني: أن المثل هنا بمعنى الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] والمعنى: ماذا أراد الله بهذا العدد صفة للخزنة.

١١٥٢- فإن قيل: كيف طابق قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، وهو سؤال للمجرمين، قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٤٠، ٤١]، وهو سؤال عنهم؛ وإنما المطابق يسألون المجرمين أو يتساءلون عن المجرمين ما سلكهم في سقر، أي يسأل أهل الجنة بعضهم بعضًا عن أهل النار؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ [المدثر: ٤٢] ليس بيانًا للتساؤل عنهم؛ وإنما هو حكاية قول المسؤولين عن المجرمين، فالمسؤولون من أهل الجنة ألقوا إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين، وذلك أن المؤمنين إذا أخرجهم اللهُ تعالى مِن النار بعد ما عذبهم بقدر ذنوبهم وأدخلهم الجنة يسألهم بعضُ أصحاب اليمين عن حال المجرمين، وسبب تخليدهم؛ فقال المسؤولون: قلنا لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] الآية؛ وهؤلاء المؤمنون بعد إخراجهم مِن النار وإدخالهم الجنة صاروا من أصحاب اليمين، وقيل: المراد بأصحاب اليمين الملائكة عليهم السلام. وقيل: الأطفال لأنهم لا يرتهنون بذنوب إذ لا ذنوبَ لهم.

❊ ❊ ❊

سورة القيامة(١)

١١٥٣- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]؛ والقارئ على النبي ﷺ إنما هو جبرائيل عليه السلام؟

قلنا: معناه فإذا جمعناه في صدرك؛ ويؤيده أول الآية: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧]، أي إن علينا جمعه وضمه في صدرك، فلا تعجل بقراءته قبل أن يتم حفظه. وقيل: إنما أضيفت القراءة إلى الله تعالى، لأن جبريل عليه السلام يقرؤه بأمره، كما تضاف الأفعال إلى الملوك والأمراء بمجرد الأمر؛ مع أن المباشر لها أعوانهم أو أتباعهم.

١١٥٤- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، والذي يوصف بالنظر الذي هو الإبصار والإدراك إنما هو العين دون الوجه؟(٢).

قلنا: قيل إن المرادَ بالوجوه هنا السعداء وأهل الوجاهة يوم القيامة، لا الوجه الذي هو العضو؛ ولا أرى هذا الجواب مطابقًا لقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤]؛ لأن العبوس والقطوب إنما يوصف به الوجه الذي هو العضو. ومما يؤيد أن المراد بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] الأعضاء المعروفة، قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

١١٥٥- **فإن قيل:** النطفة المني، فما فائدة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]؟

قلنا: النطفة استعملت هنا بمعنى القطرة، لأن النطفة تطلق على الماء القليل والكثير، ومنه الحديث: «حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ بَيْنَ النُّطْفَتَيْنِ لاَ يَخْشَى جَوَازًا»(٣). أراد بحر المشرق والمغرب.

---

(١) عنونت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة بـ«سورة القيامة» لوقوع القسم بيوم القيامة في أولها ولم يقسم به فيما نزل قبلها من السور، وقال الآلوسي: يقال لها: «سورة لا أقسم»، ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم، وهي مكية بالاتفاق .اهـ. من التحرير والتنوير.

(٢) كلام ليس له وجه.

(٣) تاريخ دمشق (١/ ٣٩٢) بإسناد ضعيف، قال صاحب النهاية في غريب الأثر (٥/ ٧٣): أراد بالنطفتين بحر المشرق وبحر المغرب يقال للماء الكثير والقليل: نطفة وهو بالقليل أخص، وقيل: أراد ماء الفرات وماء البحر الذي يلي جدة هكذا جاء في كتاب الهروي والزمخشري لا يخشى جورا أي لا يخشى في طريقه أحد يجور عليه ويظلمه.



سورة الإنسان[1]

١١٥٦- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، فوصف المفرد وهي النطفة بالجمع وهو الأمشاج لأنه جمع مشج، والأمشاج الأخلاط، والمراد أنه مخلوق من نطفة مختلطة من ماء الرجل والمرأة؟

قلنا: قال الزمخشري رحمة الله تعالى عليه: أمشاج لفظ مفرد لا جمع، كقولهم: برمة أعشار، وبيت أكباش، وبر أهدام. وقال غيره: الموصوف به أجزاء النطفة وأبعاضها.

١١٥٧- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، والابتلاء متأخر عن جعله سميعًا بصيرًا؟

قلنا: قال الفراء: فيه تقديم وتأخير تقديره فجعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه. وقال غيره: معناه ناقلين له من حال إلى حال نطفة ثم علقة ثم مضغة، فسمى ذلك ابتلاء استعارة.

١١٥٨- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]، والقوارير اسم لما يتخذ من الزُّجاج؟

قلنا: معناه أن تلك الأكواب مخلوقة من فضة، وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، وقوارير الجنة من فضة ويرى ما فيها من ورائها.

---

(١) قال ابن عاشور: سميت في زمن أصحاب رسول الله ﷺ «سورة هل أتى على الإنسان» روى البخاري في باب القراءة في الفجر من صحيحه عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر بـ «ألم السجدة» و«هل أتى على الإنسان»، واقتصر صاحب الإتقان على تسمية هذه السورة «سورة الإنسان» عند ذكر السور المكية والمدنية، ولم يذكرها في عداد السور التي لها أكثر من اسم، وتسمى «سورة الدهر» في كثير من المصاحف، وقال الخفاجي تسمى «سورة الأمشاج» لوقوع لفظ الأمشاج فيها ولم يقع في غيرها من القرآن، وذكر الطبرسي: أنها تسمى «سورة الأبرار» لأن فيها ذكر نعيم الأبرار وذكرهم بهذا اللفظ ولم أره لغيره، فهذه خمسة أسماء لهذه السورة.

١١٥٩- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ [الإنسان: ١٥]؟

قلنا: معناه تكونت، فهي من قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكذا قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

١١٦٠- **فإن قيل:** كيف شبه اللهُ تعالى الولدان باللؤلؤ المنثور دون المنظوم؟

قلنا: إنما شبههم سبحانه وتعالى باللؤلؤ المنثور؛ لأنه أراد تشبيههم باللؤلؤ الذي لم يثقب بعد؛ لأنه إذا ثقب نقصت مائيته وصفاؤه، واللؤلؤ الذي لم يثقب لا يكون إلا منثورًا. وقيل: إنما شبههم الله تعالى باللؤلؤ المنثور لأن اللؤلؤ المنثور على البساط أحسن منظرًا من المنظوم. وقيل: إنما شبههم باللؤلؤ المنثور لانتشارهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وتفريقهم في الخدمة بدليل قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الإنسان: ١٩]، ولو كانوا وقوفًا صفًا لشبهوا بالمنظوم.

١١٦١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، مع أن ذلك في الدنيا إنما هو عادة الإماء ومن في مرتبتهن؟

قلنا: القرآن أول مَنْ خوطب به العرب، وكان مِن عادة رجالهم ونسائهم مِن بيت المملكة التحلي بالذهب والفضة منفردين ومجتمعين.

الثاني: أن الاسم وإن كان مشتركًا بين فضة الدنيا والآخرة، ولكن شتان ما بينهما! قال النبي ﷺ: «**الْمِثْقَالُ مِنْ فِضَّةِ الآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[(١)]. وكذا الكلام في السندس والإستبرق وغيرهما مما أعده الله تعالى في الجنة.

١١٦٢- **فإن قيل:** أي شرف لتلك الدار يسقي الله تعالى عباده الشراب الطهور فيها؛ مع أنه تعالى في الدنيا سقاهم ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

قلنا: المراد به في الآخرة سقيهم بغير واسطة، وشتان ما بين الشرابين! والآنيتين أيضًا، والمنزلتين!.

١١٦٣- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، الضمير

---

(١) لم أقف عليه فيما لدي من مصادر.

لمشركي مكة بلا خلاف؛ فما معنى تقسيمهم إلى الآثم والكفور، وكلهم آثم وكلهم كفور؟

قلنا: المراد بالآثم عتبة بن ربيعة، فإنه كان ركابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفسوق؛ والمراد بالكفور الوليد بن المغيرة، فإنه كان متغاليًا في الكفر شديد الشكيمة فيه؛ مع أن كليهما آثم وكافر، والمراد به نهيه عن طاعتهم فيما كانوا يدعونه إليه من ترك الدعوة وموافقتهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلال.

١١٦٤- فإن قيل: ما معنى النهي عن طاعة أحدهما، وهَلاَّ نهى عن طاعتهما؟

قلنا: قال بعضهم: إن «أو» هنا بمعنى «الواو» كما في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

الثاني: أنه لو قال تعالى: ولا تطعهما جاز له أن يطيع أحدهما، وأما إذا قيل له: ولا تطع أحدهما كان منهيًّا عن طاعتهما بالضرورة.

١١٦٥- فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]، أي خلقهم، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما والأكثرون: المراد به أنه ضعيف عن الصبر عن النساء، فلذلك أباح الله تعالى له نكاح الأمة كما سبق قبل هذه الآية. وقال الزجاج: معناه أنه يغلبه هواه وشهوته فلذلك وصف بالضعف، وأما قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨] فمعناه ربطنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب. وقيل: المراد بالأسر العصعص، فإن الإنسانَ في القبر يصيرُ رفاتًا إلا عصعصه فإنه لا يتفتت. وقال مجاهد: المراد بالأسر مخرج البول والغائط، فإنه يسترخي، حتى يخرج منه الأذى، ثم ينقبض ويجتمع ويشتد بقدرة الله تعالى.

* * *

سورة المرسلات[1]

١١٦٦- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] ينفي وجود الاعتذار منهم؛ لأن الاعتذار إنما يكون بالنطق، فما فائدة نفي الاعتذار، بعد نفي النطق؟

قلنا: معناه أنهم لا ينطقون ابتداء بعذر مقبول وحجة صحيحة، ولا بعد أن يؤذن لهم في الاعتذار؛ فإن الأسير والجاني الخائف عادة قد لا ينطق لسانه بعذره وحجته ابتداء لفرط خوفه ودهشته، ولكن إذا أذن له في إظهار عذره وحجته انبسط وانطلق لسانه؛ فكانت الفائدة في الجملة.

الثاني: نفي هذا المعنى: أي لا ينطقون بعذر ابتداء ولا بعد الإذن.

١١٦٧- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] يدل على وجود الاعتذار منهم، فكيف التوفيق بينه وبين ما نحن فيه؟

قلنا: قيل المراد بتلك: الظالمون من المسلمين وبما نحن فيه الكافرون.

وآخر تلك الآية يضعف هذا الجواب، أي قوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

---

(١) قال ابن عاشور: لم ترد لها تسمية صريحة عن النبي ﷺ بأن يضاف لفظ سورة إلى جملتها الأولى وسميت في عهد الصحابة سورة «والمرسلات عرفًا» ففي حديث عبد الله بن مسعود في الصحيحين: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عرفًا فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ خرجت علينا حية.. الحديث، وفي الصحيح عن ابن عباس قال: قرأت سورة والمرسلات عرفًا فسمعتني أم الفضل – امرأة العباس – فبكت وقالت: بني، أذكرتني بقراءتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب، وسميت «سورة المرسلات» روى أبو داود عن ابن مسعود: كان النبي ﷺ يقرأ النظائر السورتين في ركعة «الرحمن» و«النجم» في ركعة، و«اقتربت» و «الحاقة» في ركعة، ثم قال: «عم يتساءلون» و«المرسلات» في ركعة، فجعل هذه الألفاظ بدلًا من قوله: السورتين وسماها المرسلات؛ لأن الواو التي في كلامه واو العطف مثل أخواتها في كلامه، واشتهرت في المصاحف باسم «المرسلات»، وكذلك في التفاسير وفي صحيح البخاري.





سورة النبأ[(١)]

١١٦٨- فإن قيل: كيف اتصل وارتبط قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾[النبأ: ٦] بما قبله؟

قلنا: لما كان النبأُ العظيمُ الذي يتساءلون عنه هو البعث والنشور وكانوا ينكرونه، قيل لهم: ألم يخلق من وعد بالبعث والنشور هذه المخلوقات العظيمة العجيبة الدالة على كمال قدرته على البعث.

١١٦٩- فإن قيل: لو كان النبأُ العظيمُ الذي يتساءلون عنه ما ذكرتم، لما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾؛ لأن كفار مكة لم يختلفوا في أمر البعث؛ بل اتفقوا على إنكاره؟

قلنا: كان فيهم من يقطع القول بإنكاره، وفيهم من يشك فيه ويتردد فثبت الاختلاف؛ لأن جهة الاختلاف لا تنحصر في الجزم بإثباته والجزم بنفيه.

الثاني: أن بعضهم صَدَّق به فآمن، وبعضهم كَذَّب به فبقي على كفره؛ فثبت الاختلافُ بالنفي والإثبات.

الثالث: أن الضمير في يتساءلون وفي «هم» عائد إلى الفريقين من المسلمين والمشركين؛ وكلهم كانوا يتساءلون عنه لعظم شأنه عندهم، فصدق به المسلمون فأثبتوه، وكذب به المشركون فنفوه.

١١٧٠- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[النبأ: ٣٩] هو جزاء

---

(١) سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة «سورة النبأ» لوقوع كلمة «النبأ» في أولها، وسميت في بعض المصاحف وفي صحيح البخاري وفي تفسير ابن عطية والكشاف «سورة عم يتساءلون» وفي تفسير القرطبي سماها «سورة عم» أي بدون زيادة «يتساءلون» تسمية لها بأول جملة فيها، وتسمى «سورة التساؤل» لوقوع «يتساءلون» في أولها. وتسمى «سورة المعصرات» لقوله: تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]. فهذه خمسة أسماء. واقتصر الإتقان على أربعة أسماء: «عم» و«النبأ» و«التساؤل» و«المعصرات»، وهي مكية بالاتفاق.اهـ. من التحرير والتنوير.

الشرط فأين الشرط؛ وشاء وحده لا يصلح شرطًا؛ لأنه لا يفيد بدون ذكر مفعوله، وإن كان المذكور هو الشرط فأين الجزاء؟

قلنا: معناه فَمَنْ شاء النجاة مِن اليوم الموصوف اتخذ إلى ربه مرجعًا بطاعته.

الثاني: أن معناه فَمَنْ شاء أن يتخذ إلى ربه مآبًا، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي فَمَنْ شاء الإيمان فليؤمن، ومَنْ شاء الكفر فليكفر.

❊ ❊ ❊



سورة النازعات(١)

١١٧١- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ [النازعات: ١، ٢]؛ ذكرها بلفظ التأنيث، وكذا ما بعده، والكل أوصاف الملائكة، والملائكة ليسوا إناثًا؟

قلنا: هو قسم بطوائف الملائكة وفرقها، والطوائف والفرق مؤنثة.

١١٧٢- **فإن قيل:** كيف أضاف الله تعالى الإبصار إلى القلوب في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨، ٩] أي ذليلة لمعاينة العذاب؛ والمراد بها الأعين بلا خلاف؟

قلنا: المراد أبصار أصحابها بدليل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ [النازعات: ١٠].

١١٧٣- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠]؛ مع أن

(١) قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: سميت في المصاحف وأكثر التفاسير «سورة النازعات» بإضافة سورة إلى النازعات بدون واو وجعل لفظ النازعات علمًا عليها؛ لأنه لم يذكر في غيرها. وعنونت في كتاب التفسير من صحيح البخاري في كثير من كتب المفسرين بسورة «والنازعات» بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها، وقال سعد الله الشهير بسعدي والخفاجي: إنها تسمى «سورة الساهرة» لوقوع لفظ «الساهرة» في أثنائها ولم يقع في غيرها من السور وقالا: تسمى «سورة الطامة» أي: لوقوع لفظ الطامة فيها ولم يقع في غيرها. ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم. ورأيت في مصحف مكتوب بخط تونسي عنون اسمها «سورة فالمدبرات» وهو غريب لوقوع لفظ المدبرات فيها ولم يقع في غيرها، وهي مكية بالاتفاق.

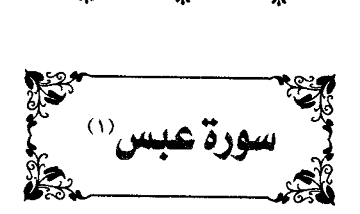
موسى عليه الصلاة والسلام أراه الآيات كلها؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ﴾ [طه: ٥٦]، وكل آية كبرى؟.

قلنا: الإخبار في هذه الآيةِ عن أول ملاقاته إياه، وإنما أراه في أول ملاقاته العصا واليد، فأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحاد معناهما. وقيل: أراد بالآية الكبرى العصا؛ لأنها كانت المقدمة، والأصل، والأخرى كالتبع لها؛ لأنه كان يتبعها بيده؛ فقيل له أدخل يدك في جيبك.

١١٧٤- فإن قيل: كيف أضاف اللهُ تعالى الليلَ إلى السماء، بقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ [النازعات: ٢٩] مع أن الليل إنما يكون في الأرض لا في السماء ؟

قلنا: إنما أضافه إليها لأنه أول ما يظهر عند غروب الشمس، إنما يظهر من أفق السماء من موضع الغروب ، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٩] فالمراد به ضوء الشمس بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] أي وضوئها فلا إشكال في إضافته إليها.

* * *



سورة عبس[1]

١١٧٥- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٢] ولم يقل ذكرها؟

قلنا: الضمير المؤنث لآيات القرآن أو لهذه السورة، والضمير في قوله تعالى ذكره

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة «سورة عبس»، وفي أحكام ابن العربي عنونها «سورة ابن أم مكتوم». ولم أر هذا لغيره، وقال الخفاجي: تسمى «سورة الصاخة». وقال العيني في شرح صحيح البخاري تسمى «سورة السفرة» وتسمى سورة «الأعمى»، وكل ذلك تسمية بألفاظ وقعت فيها لم تقع في غيرها من السور أو بصاحب القصة التي كانت سبب نزولها، ولم يذكرها صاحب الإتقان في السور التي لها أكثر من اسم وهو عبس، وهي مكية بالاتفاق.

راجع إلى القرآن.

وقيل: راجع إلى معنى التذكرة وهو الوعظ والتذكير لا إلى لفظها.

١١٧٦- فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١] روي أن عمر رضي الله عنه قرأ هذه الآيةَ وقال: كل هذا قد عرفنا فما الأب؟ ثم قال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا عمر أن لا تدري ما الأب، ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه، وهذا شبيه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته؟

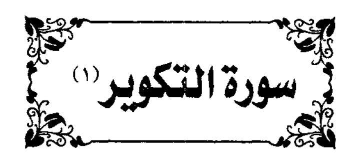
قلنا: لم يرد بقوله ما ذكرت، ولكن الصحابة رضي الله عنهم كانت أكثر هممهم عاكفة على العمل، وكان الاشتغال بعلم لا يعمل به تكلفًا عندهم، فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله تعالى للإنسان متاعًا له ولأنعامه فكأنه قال: عليك بما هو الأهم فالأهم، وهو الشكر على ما تبين لك، ولم يشكل مما عدد من نعمه تعالى، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص، واكتف بمعرفته منه جملة إلى أن يتبين لك في وقت آخر.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلتُ في كتاب الله بما لا علم لي به(١). وأكثر المفسرين قالوا: الأب كل ما ترعاه البهائمُ.

* * *

(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤/ ٤٧٤): وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد حدثنا العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١] فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم، وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق رضي الله عنه.





سورة التكوير(١)

١١٧٧- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] والسؤال إنما يحسن للقاتل لا للمقتول؟

قلنا: إنما سؤالها لتبكيت قاتلها وتوبيخه بما تقوله من الجواب، فإنها تقول: قتلت بغير ذنب، ونظيره في التبكيت والتوبيخ قوله تعالى، لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾ [المائدة: ١١٦]؛ حتى قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

١١٧٨- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] فأثبت العلم لنفس واحدة؛ مع أن كل نفس تعلم ما أحضرت يوم القيامة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]؟

قلنا: هذا مما أريد به عكس مدلوله، ومثله كثير في كلام الله تعالى، وكلام العرب كقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]؛ فإن «رُبَّ» هنا بمعنى «كم» للتكثير، وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] وقول الشاعر:

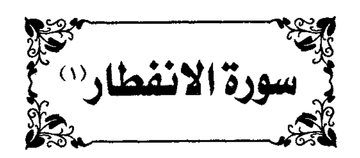
قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ ... كَأَنَّ أَثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفِرْصَادِ(٢)

---

(١) لم يثبت عن النبي ﷺ أنه سماها تسمية صريحة. وفي حديث الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت». وليس هذا صريحًا في التسمية؛ لأن صفة يوم القيامة في جميع هذه السور بل هي في الآيات الأول منها فتعين أن المعنى: فليقرأ هذه الآيات، وعنونت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي «سورة إذا الشمس كورت»، وكذلك عنونها الطبري وأكثر التفاسير يسمونها «سورة التكوير»، وكذلك تسميتها في المصاحف وهو اختصار لمدلول «كورت» وتسمى «سورة كورت» تسمية بحكاية لفظ وقع فيها. ولم يعدها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم، وهي مكية بالاتفاق.اهـ. من التحرير والتنوير.

(٢) القرن: هو الكفؤ في الشجاعة، الفرصاد: هو التوت، أو الأحمر منه خاصة.

من البسيط لعبيد بن الأبرص - والشاهد فيه مجيء «قد» للتكثير. وانظر الكتاب ٤/ ٢٢٤ والمقتضب ١/ ٤٣ والهمع ٢/ ٧٣ وابن يعيش ٨/ ١٤٧ والمعجم المفصل في شواهد النحو ١/ ٢٣٧).



سورة الانفطار[1]

١١٧٩- فإن قيل، لأيِّ فائدة تخصيص ذكر صفة الكرم دون سائر صفاته في قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] ؟

قلنا، قال بعضهم: إنما قال ذلك لطفًا بعبده وتلقينا له حجته وعذره ليقول: غرني كرم الكريم وقال الفضيل رحمه الله: لو سألني الله تعالى هذا السؤال لقلت: غرني ستورك المرخاة. وروي أنّ عليًّا كرم الله وجهه صاح بغلام له مرات فلم يلبه، ثم أقبل فقال: ما لك لم تجبني؟ فقال: لثقتي بحلمك وأمني عقوبتك، فاستحسن جوابه وأعتقه. ولهذا قالوا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه.

والحق أن الواجبَ على الإنسان أن لا يغتر بكرم الله تعالى وجوده في خلقه إياه وإسباغه النعمة الظاهرة والباطنة عليه فيعصيه ويكفر نعمته اغترارًا بتفضله الأول، فإن ذلك أمر منكر خارج عن حدّ الحكمة، ولهذا قال رسول الله ﷺ لما قرأها: «غرّه جهله»[2]، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: غره حمقه وجهله. وقال الحسن: غره والله

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة «سورة الانفطار» في المصاحف ومعظم التفاسير وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت**» قال الترمذي: حديث حسن غريب وقد عرفت ما فيه من الاحتمال في أول سورة التكوير وسميت في بعض التفاسير «سورة إذا السماء انفطرت»، وبهذا الاسم عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، ولم يعدها صاحب الإتقان مع السور ذات أكثر من اسم وهو «الانفطار» ووجه التسمية وقوع جملة «إذا السماء انفطرت» في أولها فعرفت بها وسميت في قليل من التفاسير «سورة انفطرت» وقيل: تسمى «سورة المنفطرة» أي السماء المنفطرة وهي مكية بالاتفاق.

(٢) ضعيف: قال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٤/ ١٦٧): رواه الثعلبي أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه واسمه الحسين بن محمد، ثنا أبو علي بن حنش المقري، ثنا أبو القاسم بن الفضل المقري، ثنا علي ابن الحسين المقدمي، وعلي بن هاشم قالا: ثنا كثير بن هشام، ثنا جعفر بن برقان، ثنا صالح بن مسمار قال: بلغني أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] قال: «غره جهله»، وعن الثعلبي رواه الواحدي في تفسيره الوسيط بسنده ومتنه. ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن: حدثنا كثير بن هشام، وذكره سواء إلا أنه قال: «غره حلمه».اهـ.

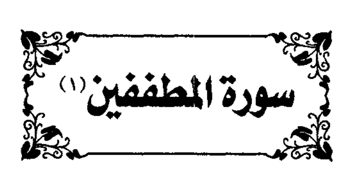
قلت: وهذا إسناد واه، صالح بن مسمار مقبول وأرسل الحديث.

شيطانه الخبيث الذي زَين له المعاصي، فقال له: افعل ما شئت فإن ربك كريم.

١١٨٠- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الانفطار: ١٩] والنفوس المقبولة الشفاعة تملك لمن شفعت فيه شيئًا وهو الشفاعة؟

قلنا: المنفي ثبوت النصرة بالملك والسلطنة والشفاعة ليست بطريق الملك والسلطنة فلا تدخل في النفي، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال مقاتل: المراد بالنفس الثانية الكافرة، والأصح أنه على العموم في النفسين.

* * *



سورة المطففين(١)

١١٨١- فإن قيل: هلا قال الله تعالى إذا اكتالوا أو اتزنوا على الناس يستوفون، كما قال سبحانه في مقابله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]؟

قلنا: لأن المطففين كانت عادتهم أنهم لا يأخذون ما يكال وما يوزن إلا بالمكيال، لأن استيفاء الزيادة بالمكيال كان أمكن لهم وأهون عليهم منه بالميزان، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فيهما.

١١٨٢- فإن قيل: كيف فسر سبحانه وتعالى سجينًا بكتاب مرقوم فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٨، ٩] وكذا فسر تعالى عليين به؛ مع أن سجينًا اسم للأرض السابعة، وهو فعيل من السجن، وعليين اسم للجنة أو لأعلى الأمكنة، أو للسماء السابعة، أو لسدرة المنتهى؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٩] وصف معنوي لكتاب الفجار ولكتاب الأبرار، لا تفسير لسجين ولعليين تقديره: وهو كتاب مرقوم.

---

(١) سميت هذه السورة في كتب السنة وفي بعض التفاسير «سورة ويل للمطففين» وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه والترمذي في جامعه وسميت في كثير من كتب التفسير والمصاحف «سورة المطففين» اختصارًا.اهـ. من التحرير والتنوير.



سورة الانشقاق[(١)]

١١٨٣- **فإن قيل:** أين جواب «إذا» في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه متروك لتكرر مثله في القرآن.

الثاني: أنه أذنت والواو فيها زائدة.

الثالث: أنه محذوف تقديره بعد قوله تعالى: ﴿وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢] بعثتم أو جوزيتم أو لاقيتم ما عملتم، ودل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

الرابع: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

* * *



سورة البروج[(٢)]

١١٨٤- **فإن قيل:** أين جوابُ القسم؟

قلنا: فيه وجوه:

---

(١) قال ابن عاشور: سميت في زمن الصحابة «سورة إذا السماء انشقت» ففي الموطأ عن أبي سلمة: أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. فضمير «فيها» عائد إلى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ بتأويل السورة، وبذلك عنونها البخاري، والترمذي، وكذلك سماها في الإتقان وسماها المفسرون وكتاب المصاحف: «سورة الانشقاق» باعتبار المعنى كما سميت السورة السابقة «سورة التطفيف» و«سورة انشقت» اختصارًا.

(٢) قال ابن عاشور: روى أحمد عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج. وهذا ظاهر في أنها تسمى «سورة السماء ذات البروج»؛ لأنه لم يحك لفظ القرآن إذ لم يذكر الواو، وأخرج أحمد أيضًا عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ في العشاء بالسماوات -أي: السماء ذات البروج، والسماء والطارق فمجمعها جمع سماء وهذا يدل على أن اسم السورتين: سورة السماء ذات البروج وسورة السماء والطارق وسميت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير «سورة البروج» وهي مكية باتفاق.

أحدها: أنه متروك.

الثاني: أنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾ [البروج: ٤]أي: لقد قتل، أي: لعن.

الثالث: أنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

الرابع: أنه محذوف تقديره: لتبعثن أو نحوه.

الخامس: أنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ [البروج: ١٠].

* * *

سورة الطارق[١]

١١٨٥- فإن قيل: أين جواب القسم؟

قلنا: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق: ٤] فـ«إنْ» بمعنى «ما»، ولَمَّا بالتشديد بمعنى إلا؛ فيكون المعنى: ما كل نفس إلا عليها حافظ، ولما بالتخفيف ما فيه زائدة وإن هي المخففة من الثقيلة، فيكون المعنى: إن كل نفس لعليها حافظ، والقسم يتلقى بمعنى إن (كذا).

١١٨٦- فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ [الطارق: ٥] بما قبله؟

قلنا: وجهه أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظًا أتبعه بوصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى؛ ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته ومجازاته فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، فلا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته.

١١٨٧- فإن قيل: ما فائدة الجمع بين فَمَهِّلْ وأَمْهِلْ ومعناهما واحد؟

قلنا: التأكيد، وإنما خولف بين اللفظين طلبًا للخفة.

---

(١) قال ابن عاشور: روى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والطارق. اهـ. فسماها أبو هريرة: «السماء والطارق»؛ لأن الأظهر أن الواو من قوله «والسماء والطارق» واو العطف؛ ولذلك لم يذكر لفظ الآية الأولى منها بل أخذ لها اسمًا من لفظ الآية كما قال في «السماء ذات البروج» وسميت في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف «سورة الطارق» لوقوع هذا اللفظ في أولها. وفي تفسير الطبري وأحكام ابن العربي ترجمت «والسماء والطارق».

سورة الأعلى[1]

١١٨٨- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩] مع أنه كان ﷺ مأمورًا بالذكرى نفعت أو لم تنفع؟

قلنا: معناه إذ نفعت. وقيل: معناه قد نفعت. وقيل: إن نفعت وإن لم تنفع، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وذكر الماوردي[2] أنها بمعنى «ما»، وكأنه أراد معنى ما الظرفية؛ و«إن» بمعنى ما الظرفية ليس بمعروف.

١١٨٩- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣] مع أن الحيوان لا يخلو عن الاتصاف بأحد هذين الوصفين؟؟؟

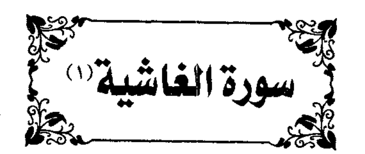
قلنا: معناه لا يموت موتًا يستريح به، ولا يحيا حياة ينتفع بها. وقال ابن جرير رحمة الله تعالى عليه: تصعد نفسه إلى حلقومه، ثم لا تفارقه فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

---

(١) هذه السورة وردت تسميتها في السنة سورة «سبح اسم ربك الأعلى» ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول فشكاه بعض من صلى خلفه إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**أفتان أنت يا معاذ؟ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى والضحى**» ا. هـ. وفي صحيح البخاري عن البراء ابن عازب قال: ما جاء رسول الله ﷺ المدينة حتى قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سور مثلها، وروى الترمذي عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيد ويوم الجمعة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ وسمتها عائشة «سبح». روى أبو داود والترمذي عنها: كان النبي يقرأ في الوتر في الركعة الأولى «سبح» الحديث. فهذا ظاهر في أنها أرادت التسمية؛ لأنها لم تأت بالجملة القرآنية كاملة وكذلك سماها البيضاوي وابن كثير؛ لأنها اختصت بالافتتاح بكلمة «سبح» بصيغة الأمر وسماها أكثر المفسرين، وكتاب المصاحف «سورة الأعلى» لوقوع صفة الأعلى فيها دون غيرها.اهـ. من التحرير والتنوير.

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي المتوفى سنة ٣٦٤هـ.



سورة الغاشية[١]

١١٩٠- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤]؛ مع أن جميع أبدانهم أيضًا تصلى النار؟

قلنا: الوجه[٢] يطلق ويراد به جميع البدن كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] وقيل: إن المراد بالوجوه هنا الأعيان والرؤساء، كما يقال: هؤلاء وجوه القوم، ويا وجه العرب، أي ويا وجيههم، ويؤيد هذا القول ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن المراد به الرهبان وأصحاب الصوامع.

١١٩١- **فإن قيل:** كيف ارتبط قولهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] بما قبله، وأيّ مناسبة بين السماء والإبل والجبال والأرض، حتى جمع بينها؟

قلنا: لما وصف الله تعالى الجنة بما وصف، عجب من ذلك الكفارُ، فذكرهم عجائبَ صنعه. وقال قتادة: لما ذكر ارتفاع سرر الجنة قالوا: كيف نصعدها؟ فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ [الغاشية: ١٧] نظر اعتبار، كيف ﴿خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] للنهوض بالأثقال وحملها إلى البلاد البعيدة، وجعلت تبرك حتى تحمل وتركب عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت، فليس في الدواب ما يحمل عليه وهو بارك ويطيق النهوض إلا هي؛ وسخرت لكل من قادها حتى الصبي الصغير، ولما جعلت سفائن

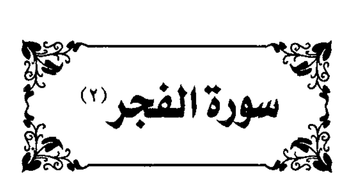
---

(١) سميت في المصاحف والتفاسير «سورة الغاشية». وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه لوقوع لفظ «الغاشية» في أولها، وثبت في السنة تسميتها ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ففي الموطأ أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: بم كان رسول الله يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ وهذا ظاهر في التسمية؛ لأن السائل سأل عما يقرأ مع سورة الجمعة فالمسؤول عنه السورة الثانية، وبذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه وربما سميت «سورة هل أتاك» بدون كلمة «حديث الغاشية» وبذلك عنونها ابن عطية في تفسيره، وهو اختصار، وهي مكية بالاتفاق ا.هـ. من التحرير والتنوير.

(٢) أخشى أن يكون قد أراد بذلك الوصول إلى تقرير مذهب من مذاهبه.. اللهم سلم.

البر أعطين الصبر على احتمال العطش عشرة أيام فصاعدًا وجعلت ترعى كل نبات في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم، وإنما لم يذكر الفيل والزرافة والكركند وغيرها مما هو أعظم من الجمل؛ لأن العرب لم يروا شيئًا من ذلك، ولا كانوا يعرفونه؛ ولأن الإبل كانت أنفس أموالهم وأكثرها لا تفارقهم ولا يفارقونها؛ وإنما جمع بينها وبين ما بعدها لأن نظر العرب قد انتظم هذه الأشياء في أوديتهم وبواديهم، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم وكثرة ملابستهم ومخالتهم، ومن فسر الإبل بالسحاب والماء قصد بذلك طلب المناسبة بطريق تشبيه الإبل بالسحاب في السير وفي النشط أيضًا، في بعض الأوقات؛ لا أنه أراد أن المراد من الإبل السحاب حقيقة، وقد جاء في أشعار العرب تشبيه السحاب بالإبل كثيرًا. وقد شبهه ابن دريد[(١)] أيضًا بالسحاب في قصديته، وقرأ أبي بن كعب وعائشة رضي الله عنهما ﴿ٱلْإِبِلِ﴾ بتشديد اللام. قال أبو عمرو وهو اسم للسحاب الذي يحمل الماء، والله أعلم.

* * *



سورة الفجر[(٢)]

١١٩٢- فإن قيل: كيف نكر الليالي العشر دون سائر ما أقسم به، وهلا عرفها بلام العهد وهي ليالي معلومة معهودة فإنها ليالي عشر ذي الحجة في قول الجمهور؟

قلنا: لأنها مخصوصة مِن بين جنس الليالي العشر بفضيلة ليست لغيرها فلم يجمع بينها وبين غيرها بلام الجنس، وإنما لم تعرف بلام العهد لأن التنكير أدل على التفخيم والتعظيم بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] ونظيره قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] فعرفه ثم قال: ﴿وَوَالِدٍ﴾ [البلد: ٣] فنكره، والمراد به

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد أحد أئمة اللغة والأدب توفى سنة ٣٢١هـ، وقيل: سنة ٣٢٣هـ.

(٢) لم يختلف في تسمية هذه السورة «سورة الفجر» بدون الواو في المصاحف والتفاسير وكتب السنة، وهي مكية باتفاق.اهـ. من التحرير والتنوير.

آدم وإبراهيم أو محمد صلى الله عليهم أجمعين، ولأن الأحسن أن تكون اللامات كلها متجانسة، ليكون الكلام أبعد عن الألغاز والتعمية، وهي في الباقي للجنس.

١١٩٣- **فإن قيل:** كيف ذم الله تعالى الإنسان على قوله: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، مع أنه صادق فيما قال: لأن الله تعالى أكرمه، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥]، كيف وأن هذا تحدث بالنعمة وهو مأمور به؟

قلنا: المراد به أن يقول ذلك مفتخرًا على غيره، ومتطاولًا به عليه، ومعتقدًا استحقاق ذلك على ربه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] ومستدلًّا به على علو منزلته في الدار الآخرة؛ وكل ذلك منهي عنه. وأما إذا قاله على وجه الشكر والتحدث بنعمة الله فليس بمذموم ولا منهي عنه.

١١٩٤- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى في الجملة الأولى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥] ولم يقل في الجملة الثانية فأهانه؟

قلنا: لأن بسط الرزق إكرام، لأنه إنعام وإفضال من غير سابقة؛ وقبضه ليس بإهانة؛ لأن ترك الإنعام والإفضال لا يكون إهانة، بل هو واسطة بين الإكرام والإهانة؛ فإن المولى قد يكرم عبده وقد يهينه، وقد لا يكرمه ولا يهينه، وتضييق الرزق ليس إلا عبارة عن ترك إعطاء القدر الزائد، ألا ترى أنه يحسن أن تقول زيد أكرمني إذا أهدى لك هدية، ولا يحسن أن تقول أهانني إذا لم يهد لك.

١١٩٥- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] والحركة والانتقال على الله محالان؛ لأنهما من خواص الكائن في جهة؟

قلنا: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وجاء أمر ربك لأن في القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالى؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقيل: معناه وجاء ظهور ربك لضرورة معرفته يوم القيامة.

ومعرفة الشيء بالضرورة تقوم مقام ظهوره ورؤيته فمعناه: زالت الشكوك وارتفعت الشبه كما ترتفع عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه.

* * *

سورة البلد[1]

١١٩٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ٣] ولم يقل سبحانه وتعالى وَمَن ولد؟

قلنا: لأن في «ما» من الإبهام ما ليس في مَنْ، فقصد به التفخيم والتعظيم، كأنه تعالى قال: وأي شيء عجيب غريب ولد، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦].

* * *



سورة الشمس[2]

١١٩٧- **فإن قيل:** كيف نكر الله تعالى النفس، دون سائر ما أقسم به، حيث قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧] ؟

قلنا: لأنه لا سبيل إلى لام الجنس، لأن نفوس الحيوانات غير الإنسان خارجة عن ذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، ولا سبيل إلى لام العهد، لأن المراد ليس نفسًا واحدة معهودة، وعلى قول من قال إن المراد منه نفس

(١) سميت هذه السورة في ترجمتها عن صحيح البخاري «سورة لا أقسم» وسميت في المصاحف وكتب التفسير «سورة البلد» وهو على حكاية اللفظ الواقع في أولها لإرادة البلد المعروف وهو مكة، وهي مكية، وحكى الزمخشري والقرطبي الاتفاق عليه واقتصر عليه معظم المفسرين اهـ من التحرير والتنوير.

(٢) سميت هذه السورة في المصاحف وفي معظم كتب التفسير «سورة الشمس» بدون واو، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه بدون واو في نسخ صحيحة من جامع الترمذي ومن عارضة الأحوذي لابن العربي، وعنونها البخاري سورة «والشمس وضحاها» بحكاية لفظ الآية، وكذلك سميت في بعض التفاسير وهو أولى أسمائها لئلا تلتبس على القارئ بسورة إذا الشمس كورت المسماة سورة التكوير، وهي مكية بالاتفاق.اهـ. من التحرير والتنوير.

آدم عليه السلام، فالتنكير للتفخيم والتعظيم، كما سبق في سورة الفجر.

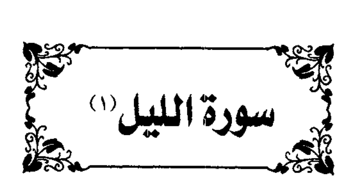
١١٩٨- فإن قيل: أين جواب القسم؟

قلنا: قال الزجاج وغيره: إنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وحذفت اللام لطول الكلام.

وقال ابن الأنباري: جوابه محذوف.

وقال الزمخشري: تقديره ليدمدمن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود، لتكذيبهم صالحًا عليه السلام، قال: وأما ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] فكلام تابع لما قبله على طريق الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء.

* * *



سورة الليل(١)

١١٩٩- فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ [الليل: ١٥] مع أن الشقي أيضًا يصلاها: أي يقاسي حرها وعذابها؟

قلنا: قال أبو عبيدة: الأشقى هنا بمعنى الشقي، والمراد به كل كافر، والعرب تستعمل أفعل في موضع فاعل ولا تريد به التفضيل، وقد سبق تقرير ذلك والشواهد عليه في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧] وقال الزجاج: هذه نار موصوفة معينة، فهو درك مخصوص ببعض الأشقياء، ورد عليه ذلك بقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ [الليل: ١٧]، والأتقى يجنب عذاب أنواع نار جهنم كلها، والمراد بالأتقى هنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه بإجماع المفسرين؛ ولهذا قال الزمخشري: إن الأشقى ليس بمعنى الشقي؛ بل هو على ظاهره؛ والمراد به أبو جهل أو أمية بن

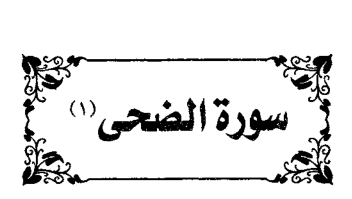
---

(١) سميت هذه السورة في معظم المصاحف وبعض كتب التفسير «سورة الليل» بدون واو، وسميت في معظم كتب التفسير «سورة والليل» بإثبات الواو، وعنونها البخاري والترمذي «سورة والليل إذا يغشى» وهي مكية في قول الجمهور، واقتصر عليه كثير من المفسرين ا. هـ. من التحرير والتنوير.

خلف، فالآية واردة للموازنة بين حالتي أعظم المؤمنين وأعظم المشركين، فبولغ في صفتيهما المتناقضتين، وجعل هذا مختصًّا بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له لوفور نصيبه منها وجاء قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧] على موازنة ذلك ومقابلته، مع أن كل تقي يجنبها.

قال بعض العلماء: هذه الآية تدل على أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الصحابة، لأنه وصفه بالأتقى، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وإذا كان أكرم عند الله كان أفضل.

* * *



سورة الضحى(١)

١٢٠٠- **فإن قيل:** كيف وصف ﷺ بالضال والنبي ﷺ معاذ الله أن يكون ضالًّا، أي كافرًا، لا قبل النبوة ولا بعدها؛ والضال أكثر ما ورد في القرآن بمعنى الكافر؟

قلنا: المراد به هنا أنه تعالى وجده ضالًّا عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداه إليها. هذا قول الجمهور.

الثاني: أنه ضل وهو صغير في شعاب مكة فرده الله تعالى إلى جده عبد المطلب.

الثالث: أن معناه ووجدك ناسيًا فهداك إلى الذكر؛ لأن الضلال جاء بمعنى النسيان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

١٢٠١- **فإن قيل:** لو كان الضلال بمعنى النسيان لما جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]؟

قلنا: لا ندعي أنه حيث ذكر كان بمعنى النسيان، فهو في تلك الآية. بمعنى الخطأ،

(١) سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير وفي جامع الترمذي «سورة الضحى» بدون الواو، وسميت في كثير من التفاسير وفي صحيح البخاري «سورة الضحى» بإثبات الواو، ولم يبلغنا عن الصحابة خبر صحيح في تسميتها، وهي مكية بالاتفاق. اهـ. من التحرير والتنوير.

وقيل بمعنى الغفلة.

الرابع: أن معناه: ووجدك جاهلًا فعلمك.

١٢٠٢- فإن قيل: كيف مَنَّ سبحانه عليه بإخراجه من الفقر إلى الغنى بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨] أي فقيرًا، والعائل الفقير سواء كان له عيال أو لم يكن؟

قلنا: قال ابن السائب، واختاره الفرّاء: أنه لم يكن غناه بكثرة المال، ولكن الله أرضاه بما آتاه، ولم يكن ذلك الرضا قبل النبوة، وذلك حقيقة الغنى، ويؤيده قوله ﷺ: «الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ»[1]. وقال غيره: المراد به أنه أغناه بمال خديجة عن مال أبي طالب، والمراد به الإغناء بتسهيل ما لابد منه وتيسيره، لا الإغناء بفضول المال الذي لا يجامع صفة الفقر.

* * *



سورة الانشراح[2]

١٢٠٣- فإن قيل: أيُّ فائدة في زيادة ذكر لك وعنك والكلام تام بدونهما؟

قلنا: فائدته الإبهام ثم الإيضاح، وهو نوع من أنواع البلاغة، فلما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ [الشرح: ١] فهم أن ثم مشروحًا له ثم قال: ﴿صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فأوضح ما علم مبهمًا بلفظ لك، وكذا الكلام في ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ﴾ [الشرح: ٢].

١٢٠٤- فإن قيل: قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] وكلمة «مع» للمصاحبة والقَرَان، فما معنى اقتران العسر واليسر؟

---

(١) البخاري (٥٩٦٥)، ومسلم (١٧٤١) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

(٢) قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: سميت في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري وجامع الترمذي «سورة ألم نشرح» وسميت في بعض التفاسير «سورة الشرح»، ومثله في بعض المصاحف المشرقية تسمية بمصدر الفعل الواقع فيها من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وفي بعض التفاسير تسميتها «سورة الانشراح» وهي مكية بالاتفاق.

قلنا: سبب نزول هذه الآية أن المشركين عَيَّروا رسولَ الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بالفقر والضائقة التي كانوا فيها، فوعدهم الله تعالى يسرًا قريبًا مِن زمان عسرهم؛ وأراد تأكيد الوعد لتسليتهم وتقوية قلوبهم، فجعل اليسر الموعود كالمقارن للعسر في سرعة مجيئه.

١٢٠٥- **فإن قيل:** ما معنى قول ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم وابن مسعود رضي الله عنه: «لن يغلب عسرٌ يسرين»، ويروى ذلك عن النبي ﷺ أيضًا؟[1].

قلنا: هذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء، وإن وعد الله لا يحمل إلا على أحسن ما يحتمله اللفظ وأكمله، وأما حقيقة القول فيه فهو أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تأكيدًا للأولى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[المرسلات: ٤٩] وما أشبهه، وكما في قولك: جاءني رجل جاءني رجل؛ وأنت تعني واحدًا في الجملتين، فعلى هذا يتحد العسر واليسر، أو يكون تعريف العسر لأنه حاضر معهود، وتنكير اليسر لأنه غائب مفقود؛ وللتفخيم والتعظيم، ويحتمل أن تكون الجملة الثانية وعدًا مستأنفًا فيتعدد اليسر حينئذٍ على ما قيل: ويؤيد أن الجملة الثانية للتأكيد أنه ليس في مصحف عبد الله بن مسعود إلا مرة واحدة.

١٢٠٦- **فإن قيل:** وإذا ثبت في قراءته غير مكرر، فكيف قال: والذي نفسي بيده لو

---

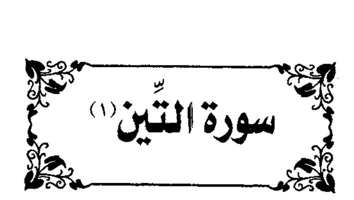
(١) الموطأ (٨٥٤) عن عمر موقوفًا بإسناد منقطع، وعزاه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه إلى ابن عيينة، قال الحافظ في الفتح: قَوْله: «وَلَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ» رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا مَوْصُولًا وَمُرْسَلًا، وَرُوِيَ أَيْضًا مَوْقُوفًا، أَمَّا الْمَرْفُوع فَأَخْرَجَهُ ابْن مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيث جَابِر بِإِسْنَادٍ ضَعِيف وَلَفْظه: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّ مَعَ الْيُسْر يُسْرًا أَنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْرًا وَلَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ»، وَأَخْرَجَ سَعِيد بْن مَنْصُور وَعَبْد الرَّزَّاق مِنْ حَدِيث ابْن مَسْعُود قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَوْ كَانَ الْعُسْر فِي جُحْر لَدَخَلَ عَلَيْهِ الْيُسْر حَتَّى يُخْرِجهُ، وَلَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]»، وَإِسْنَاده ضَعِيف، وَأَخْرَجَهُ عَبْد الرَّزَّاق وَالطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق الْحَسَن عَنْ النَّبِيّ ﷺ، وَأَخْرَجَهُ عَبْد بْن حُمَيْدٍ عَنْ ابْن مَسْعُود بِإِسْنَادٍ جَيِّد مِنْ طَرِيق قَتَادَةَ قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ بَشَّرَ أَصْحَابه بِهَذِهِ الْآيَة فَقَالَ: «لَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ إِنْ شَاءَ الله»، وَأَمَّا الْمَوْقُوف، فَأَخْرَجَهُ مَالِك عَنْ زَيْد بْن أَسْلَم عَنْ أَبِيه، عَنْ عُمَر أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَة يَقُول: مَهْمَا يَنْزِل بِامْرِئٍ مِنْ شِدَّة يَجْعَل الله لَهُ بَعْدهَا فَرَجًا، وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِب عُسْر يُسْرَيْنِ. وَقَالَ الْحَاكِم صَحَّ ذَلِكَ عَنْ عُمَر وَعَلِيّ، وَهُوَ فِي الْمُوَطَّأ عَنْ عُمَر لَكِنْ مِنْ طَرِيق مُنْقَطِع، وَأَخْرَجَهُ عَبْد بْن حُمَيْدٍ عَنْ ابْن مَسْعُود بِإِسْنَادٍ جَيِّد، وَأَخْرَجَهُ الْفَرَّاء بِإِسْنَادٍ ضَعِيف عَنْ ابْن عَبَّاس.اهـ.



كان العسرُ في جحر لطلبه اليسرُ حتى يدخل عليه، إنه لن يغلب عسرٌ يسرين؟

قلنا: كأنه نزل ما فيه من التفخيم والتعظيم بالتنكير منزلة التثنية؛ لأن المعنى يسرًا وأي يسر، وأما من فسره بيسرين فإنه قال: أحد اليسرين ما تيسر من الفتوح في زمن النبي ﷺ، والثاني ما تيسر بعده في زمن الخلفاء. وقيل: هما يسر الدنيا ويسر الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] وهما حسن الظفر وحسن الثواب.

* * *



سورة التِّين(١)

١٢٠٧- **فإن قيل:** كيف وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]؟

قلنا: قال الأكثرون: المراد بالإنسان هنا الجنس، وبِرَدِّهِ أسفل سافلين إدخاله النار، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلًا ظاهر الاتصال، ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] قائمًا مقام قوله تعالى فلا نردهم أسفل سافلين. وأما على قول من فسر أسفل سافلين بالهرم والخرف وقال السافلون هم الضعفاء والزمنى والأطفال والشيخ الهرم أسفل هؤلاء كلهم، فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعًا بمعنى لكن.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] أي غير مقطوع بالهرم والضعف الحاصل من الكبر، أي إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال شبابهم وقوتهم، فإنهم إذا عجزوا عن العمل كتب لهم ثواب ما كانوا يعملونه من الطاعات والحسنات إلى وقت موتهم، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: مَنْ قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل

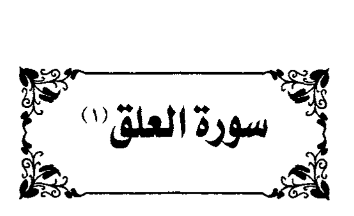
---

(١) سميت في معظم كتب التفسير ومعظم المصاحف «سورة والتين» بإثبات الواو تسمية بأول كلمة فيها، وسماها بعض المفسرين «سورة التين» بدون الواو؛ لأن فيها لفظ «التين» كما قالوا: «سورة البقرة» وبذلك عنونها الترمذي وبعض المصاحف.اهـ. من التحرير والتنوير.

العمر.

وقال بعضُ العلماء: الذين آمنوا وعملوا الصالحات في شبابهم وقوتهم فإنهم لا يردون إلى الخرف وأرذل العمر وإن عمروا طويلًا، وتمسك بظاهر قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* * *



سورة العلق(١)

١٢٠٨- فإن قيل: أين مفعول خلق الأول؟

قلنا: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن لا يقدر له مفعول؛ بل يكون المرادُ الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] في أحد الوجهين، وقولهم: فلان يعطي ويمنع ويصل ويقطع.

الثاني: أن يكون مفعوله مضمرًا تقديره: الذي خلق كل شيء، ثم أفرد الإنسان بالذكر تشريفًا له وتفضيلًا.

١٢٠٩- فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢] على الجمع ولم يقل: مِن علقة؟

---

(١) اشتهرت تسمية هذه السورة في عهد الصحابة والتابعين باسم «سورة اقرأ باسم ربك» فأخبرت عن السورة بـ «اقرأ باسم ربك» وروي ذلك عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وأبي رجاء العطاردي، ومجاهد، والزهري، وبذلك عنونها الترمذي، وسميت في المصاحف ومعظم التفاسير «سورة العلق» لوقوع لفظ «العلق» في أوائلها، وكذلك سميت في بعض كتب التفسير، وعنونها البخاري «اقرأ باسم ربك الذي خلق» وتسمى «سورة اقرأ»، وسماها الكواشي في التلخيص «سورة اقرأ والعلق»، وعنونها ابن عطية وأبو بكر بن العربي «سورة القلم»، وهذا اسم سميت به «سورة ن والقلم»، ولكن الذين جعلوا اسم هذه السورة «سورة القلم» يسمون الأخرى «سورة ن»، ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم وهي مكية باتفاق.اهـ. من التحرير والتنوير.

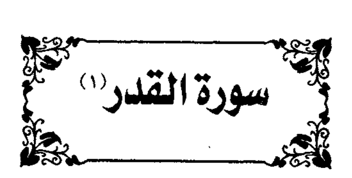
قلنا: لأن الإنسان في معنى الجمع بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٢، ٣] والجمع إنما خلق مِن جمع علقة لا مِن علقة.

١٢١٠- **فإن قيل:** هذا الجواب يرده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ [الحج: ٥]؟

قلنا: المراد فإنا خلقنا أباكم من تراب، ثم خلقنا كل واحد من أولاده مِن نطفة.

وقيل: إنما قال مِن علق رعاية للفاصلة الأولى وهي خلق.

* * *



سورة القدر(١)

١٢١١- **فإن قيل:** ما معنى قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ [القدر: ٤] وتنزلهم مِن الأمر لا معنى له؟

قلنا: مِن هنا بمعنى الباء، كما في قوله تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] وقوله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] أي بكلِّ أمر قضاه الله تعالى في تلك السنة من ليلة القدر إلى مثلها تنزل الملائكة به من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وقيل: إلى الأرض.

* * *

---

(١) سميت هذه السورة في المصاحف والتفسير وكتب السنة «سورة القدر» وسماها ابن عطية في تفسيره وأبو بكر الجصاص في أحكام القرآن «سورة ليلة القدر».اهـ. من التحرير والتنوير.

سورة البينة(١)

١٢١٢- **فإن قيل:** المراد بالرسول هنا محمد ﷺ بلا خلاف، فكيف قال تعالى: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا﴾ [البينة: ٢] وظاهره يدل على قراءة المكتوب من الكتاب وهو منتف في حقه ﷺ، لأنه كان أميًّا؟

قلنا: المراد يتلو ما في الصحف عن ظهر قلبه؛ لأنه هو المنقول عنه بالتواتر.

١٢١٣- **فإن قيل:** ما الفرقُ بين الصحف والكتب؛ حتى قال تعالى: ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ﴾ [البينة: ٢، ٣]؟

قلنا: الصحف القراطيس، وقوله تعالى: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، أي من الشرك الباطل، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣]، أي: مكتوبة مستقيمة ناطقة بالعدل والحق، يعني الآيات والأحكام.

١٢١٤- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، أي النبي ﷺ أو القرآن، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم ما زالوا متفرقين مختلفين يكفر كل فريق منهم الآخر قبل مجيء البينة وبعدها؟

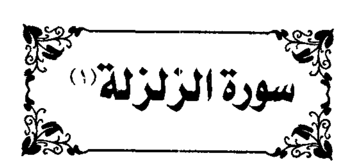
قلنا: المراد به تفرقهم عن تصديق النبي ﷺ والإيمان به قبل أن يبعث، فإنهم كانوا مجتمعين على ذلك متفقين عليه بأخبار التوراة والإنجيل، فلما بعث إليهم تفرقوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر. وقال بعض العلماء: المراد بالبينة ما في التوراة والإنجيل من الإيمان

---

(١) قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وردت تسمية هذه السورة في كلام النبي ﷺ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾» قال: وسماني لك؟ قال: «نعم» فبكى. فقوله: «أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾» واضح أنه أراد السورة كلها فسماها بأول جملة فيها، وسميت هذه السورة في معظم كتب التفسير وكتب السنة سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ بالاقتصار على أول كلمة منها، وهذا الاسم هو المشهور في تونس بين أبناء الكتاتيب، وسميت في أكثر المصاحف «سورة القيمة» وكذلك في بعض التفاسير، وسميت في بعض المصاحف: «سورة البينة» وذكر في الإتقان أنها سميت في مصحف أبي «سورة أهل الكتاب» أي لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وسميت سورة «البرية»، وسميت «سورة الانفكاك». فهذه ستة أسماء.

بنبوته ﷺ، ويؤيد هذا القول أن أهل الكتاب أفردوا بالذكر في هذا التفرق مع وجود التفرق من المشركين أيضًا بعدما جمعوا مع المشركين في أول السورة، فلا بد أن يكون مجيء البينة أمرًا يخصهم، ومجيء النبي ﷺ والقرآن العزيز لا يخصهم.

* * *



سورة الزلزلة[1]

١٢١٥- **فإن قيل:** قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[الزلزلة: ١] ما معنى إضافة الزلزال الذي هو المصدر إلى الأرض، وهلا قال زلزالًا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[الفجر: ٢١] وما أشبهه؟

قلنا: معناه الزلزال الذي تستوجبه في حكمة الله تعالى ومشيئته في ذلك اليوم، وهو الزلزال الذي ليس بعده زلزال، ونظيره قولك: أكرم التقي إكرامه، وأهن الفاسق إهانته، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة، ويجوز أن يكون المراد بالإضافة الاستغراق؛ معناه: زلزالها كله الذي هو ممكن لها.

١٢١٦- **فإن قيل:** كيف قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[الزلزلة: ٧] على العموم فيهما، وحسنات الكافر محبطة بالكفر، وسيئات المؤمن معفو عنها، مغفورة باجتناب الكبائر؛ فكيف تثبت رؤية كل عامل جزاء عمله؟

قلنا: معناه فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا من فريق السعداء، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا من فريق الأشقياء؛ لأنه جاء بعد قوله تعالى: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾[الزلزلة: ٦].

وذكر مقاتلُ أنها نزلت في رجلين مِن أهل المدينة كان أحدهما يستقل أن يعطي

---

(١) قال ابن عاشور: سميت في كثير من المصاحف ومن كتب التفسير «سورة الزلزال» وسميت في مصحف بخط كوفي قديم من مصاحف القيروان «زلزلت»، وكذلك سماها في الإتقان في السور المختلف في مكان نزولها، وكذلك تسميتها في تفسير ابن عطية، ولم يعدها في الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم فكأنه لم ير هذه ألقابًا لها بل جعلها حكاية بعض ألفاظها، ولكن تسميتها «سورة الزلزلة» تسمية بالمعنى لا بحكاية بعض كلماتها.

السائل الكسرة أو التمرة ويقول: إنما نؤجر على ما نعطيه ونحن نحبه، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر.

* * *



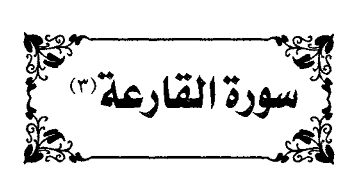
سورة العاديات[1]

١٢١٧- **فإن قيل:** كيف قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١]؛ مع أنه تعالى أخبر بهم في كل زمان، فما وجه تخصيص ذلك اليوم؟

قلنا: معناه أن ربهم سبحانه مجازيهم يومئذٍ على أعمالهم، فالعلم مجاز عن المجازاة[2]، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣].

معناه يجازيهم على ما فيها؛ لأن علمه شامل لما في قلوب كل العباد، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦].

* * *



سورة القارعة[3]

١٢١٨- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٨] أي رجحت سيئاته على حسناته: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] أي فمسكنه النار؛ وأكثر

(١) سميت في المصاحف القيروانية العتيقة والتونسية والمشرقية «سورة العاديات» بدون واو، وكذلك في بعض التفاسير فهي تسمية لما ذكر فيها دون حكاية لفظه، وسميت في بعض كتب التفسير «سورة والعاديات» بإثبات الواو. ا. هـ. من التحرير والتنوير.

(٢) كلام غريب وخطؤه واضح.

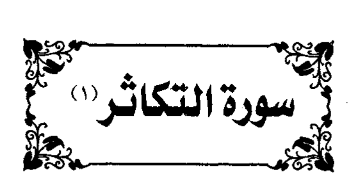
(٣) اتفقت المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة على تسمية هذه السورة «سورة القارعة» ولم يرو شيء في تسميتها من كلام الصحابة والتابعين واتفق على أنها مكية.اهـ. من التحرير والتنوير.

المؤمنين سيئاتهم راجحة على حسناته؟؟؟

قلنا: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾[القارعة: ٩] لا يدل على خلوده فيها، فيسكن المؤمن بقدر ما تقتضيه ذنوبه، ثم يخرج منها إلى الجنة.

وقيل: المراد بخفة الموازين خلوها من الحسنات بالكلية، وتلك موازين الكفار.

* * *



سورة التكاثر[1]

١٢١٩- **فإن قيل:** أين جواب ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾[التكاثر: ٥]؟؟؟

قلنا: هو محذوف تقديره: لو تعلمون الأمر يقينًا لشغلكم عن التكاثر والتفاخر، ثم ابتدأ تعالى بوعيد آخر فقال سبحانه: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾[التكاثر: ٦].

١٢٢٠- **فإن قيل:** كل أحد لا يخلو عن نيل نعيم في الدنيا ولو مرة واحدة، فما النعيم الذي يسأل عنه العبد؟

قلنا: فيه سبعة أقوال:

أحدها: أنه الأمن والصحة. الثاني: أنه الماء البارد.

الثالث: أنه خبز البُرِّ والماء العذب. الرابع: أنه مأكول ومشروب لذيذان.

الخامس: أنه الصحة والفراغ. السادس: أنه كل لذة من لذات الدنيا.

السابع: أنه دوام الغداء والعشاء.

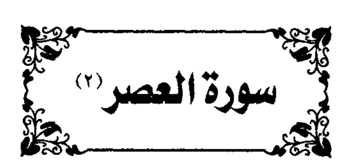
وقيل إن السؤال خاص للكفار، والصحيح أنه عام في كل إنسان وفي كل نعيم، فالكافر يسأل توبيخًا والمؤمن يسأل عن شكرها، ويؤيد هذا ما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ثَلَاثٌ لاَ أَسْأَلُ عَبْدِي عَنْ شُكْرِهِنَّ وَأَسْأَلُهُ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ: بَيْتٌ**

---

(١) سميت في معظم المصاحف ومعظم التفاسير «سورة التكاثر» وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وهي كذلك معنونة في بعض المصاحف العتيقة بالقيروان، وسميت في بعض المصاحف «سورة ألهاكم» وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه. اهـ. من التحرير والتنوير.

يُكِنُّهُ، وَمَا يُقِيمُ بِهِ صُلْبَهُ مِنَ الطَّعَامِ، وَمَا يُوَارِي بِهِ عَوْرَتَهُ مِنَ اللِّبَاسِ»[١].

* * *

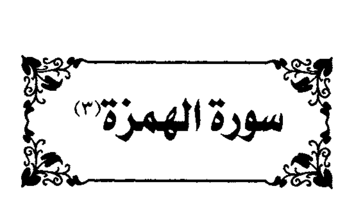


سورة العصر[٢]

١٢٢١- **فإن قيل:** الاستثناء الذي في السورة لا يدل على أنّ المؤمنين الموصوفين في ربح؛ مع أن الاستثناء إنما سيق لمدحهم بمضادة حالهم لحال من لم يتناوله الاستثناء؟

قلنا: الاستثناء وإن لم يدل بصريحه على أنهم في أعظم ربح؛ ولكن اتصافهم بتلك الصفات الأربعة الشريفة يدل على أنهم في أعظم ربح؛ مع أنا لو قدرنا أنهم ليسوا في ربح فالمضادة حاصلة أيضًا، لأنهم ليسوا في خسر، بمقتضى الاستثناء.

* * *



سورة الهمزة[٣]

١٢٢٢- **فإن قيل:** ما الفرق بين الهمزة واللمزة؟

قلنا: قيل إنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما، وإنما الثاني تأكيد للأول. وقيل: إنهما

---

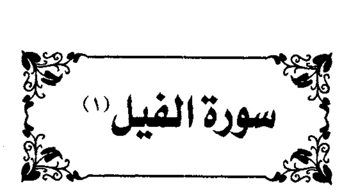
(١) إسناده ضعيف جدًا: الزهد لابن السري (٥٦٨) عن أبي معاوية عن جويبر عن الضحاك به مرسلًا وهذا إسناد واهٍ.

(٢) سميت «سورة العصر» في مصاحف كثيرة، وفي معظم كتب التفسير، وكذلك هي في مصحف عتيق بالخط الكوفي من المصاحف القيروانية في القرن الخامس، وسميت في بعض كتب التفسير وفي صحيح البخاري «سورة والعصر» بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها أي سورة هذه الكلمة. اهـ. من التحرير والتنوير.

(٣) سميت هذه السورة في المصاحف ومعظم التفاسير «سورة الهمزة» بلام التعريف وعنونها في صحيح البخاري وبعض التفاسير «سورة ويل لكل همزة» وذكر الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز أنها تسمى «سورة الحطمة» لوقوع هذه الكلمة فيها. اهـ. من التحرير والتنوير.

مختلفان فقيل الهمزة المغتاب، واللمزة العياب. وقيل: الهمزة العياب في الوجه واللمزة في القفا، وقيل: الهمزة الطعان في الناس، واللمزة الطعان في أنساب الناس. وقيل: الهمزة يكون بالعين، واللمزة باللسان. وقيل: عكسه. فهذه ستة أقوال.

* * *

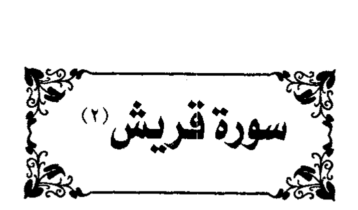


سورة الفيل[1]

١٢٢٣- **فإن قيل:** ما معنى الأبابيل، وهل هو واحد أو جمع؟

قلنا: معناها جماعات في تفرقة، أي حلقة حلقة. وقيل: التي يتبع بعضها بعضًا. وقيل: الكثيرة. وقيل: المختلفة الألوان. وقال الفراء وأبو عبيدة: لا واحد لها. وقيل: واحدها أبال وأبول وأبيل.

* * *



سورة قريش[2]

١٢٢٤- **فإن قيل:** بأيِّ شيء تتعلق اللام في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[قريش: ١]؟

---

(١) وردت تسميتها في كلام بعض السلف سورة «ألم تر» روى القرطبي في تفسير «سورة قريش» عن عمرو ابن ميمون قال: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرأ في الركعة الثانية «ألم تر» و«لإيلاف قريش». وكذلك عنونها البخاري وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير «سورة الفيل». اهـ. من التحرير والتنوير.

(٢) سميت هذه السورة في عهد السلف «سورة لإيلاف قريش» قال عمرو بن ميمون الأودي: صلى عمر ابن الخطاب المغرب فقرأ في الركعة الثانية: «ألم تر كيف» و«لإيلاف قريش» وهذا ظاهر في إرادة التسمية، وسميت في المصاحف وكتب التفسير «سورة قريش» لوقوع اسم قريش فيها ولم يقع في غيرها وبذلك عنونها البخاري في صحيحه. اهـ. من التحرير والتنوير.

قلنا: قيل إنها متعلقة بآخر السورة التي قبلها، أي فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، ويؤيد هذا أنهما في مصحف أُبيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سورة واحدة بلا فصل[1]. والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل الذي قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيهابوهم ويحترموهم، فينتظم لهم الأمر في رحلتهم ولا يجترئ أحد عليهم.

وقيل: معناه أهلكهم ليألف قريش رحلة الشتاء والصيف بهلاك من كان يخيفهم ويمنعهم.

وقيل: إنها متعلقة بما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣] إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. معناه أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدون لهذه النعمة الظاهرة.

وقيل: هي لام التعجب معناه اعجبوا لإيلاف قريش. وكانت لقريش في كل سنة رحلتان للتجارة التي بها معاشهم، رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام.

ثم قيل: الإيلاف هنا مصدر بمعنى الإلف تقول: آلفته إيلافًا بالمد، كما تقول ألفته إلفا بالقصر كلاهما متعد إلى مفعول واحد، فيكون لإيلاف قريش لإلف قريش، أي لحبهم الرحلتين. وقيل: آلف بالمد متعد إلى مفعولين، يقال: ألف زيد المكان وآلف زيد عمرًا المكان، فيكون معنى الآية لإيلاف الله تعالى قريشًا الرحلتين؛ فعلى هذا الوجه يكون المصدر مضافًا إلى المفعول، وعلى الوجه الأول يكون مضافًا إلى الفاعل.

وأمّا تكرار إضافة المصدر في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ﴾ [قريش: ١، ٢] فقيل: إن الثاني بدل من الأول. وقيل: إنه للتأكيد، كما تقول: أعطيتك المال لصيانة وجهك صيانة عن ذل السؤال.

* * *

---

(١) قال ابن عاشور: وجعلها أبي بن كعب مع سورة الفيل سورة واحدة، ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة التي كانوا يجعلونها علامة فصل بين السور وهو ظاهر خبر عمرو بن ميمون عن قراءة عمر بن الخطاب، والإجماع الواقع بعد ذلك نقض ذلك.

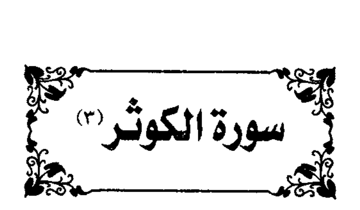


سورة الماعون[1]

١٢٢٥- **فإن قيل:** كيف توعَّد الله الساهي عن الصلاة، والحديث ينفي مؤاخذته، وهو قوله ﷺ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخطأُ وَالنِّسْيَانُ»؟[2].

قلنا: المراد بالسهو هنا، التغافل عنها، والتكاسل في أدائها، وقلة الالتفات إليها؛ وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشياطين من المسلمين؛ وليس المراد ما يتفق فيها من السهو بوسوسة الشيطان، أو حديث النفس مما لا صنع للعبد فيه ولا اختيار، وهو المراد في الحديث، وكان النبي ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلًا عن غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] ولم يقل في صلاتهم، وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم.

* * *



سورة الكوثر[3]

١٢٢٦- **فإن قيل:** ما الكوثر؟

---

(١) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة في كثير من المصاحف وكتب التفسير «سورة الماعون» لورود لفظ الماعون فيها دون غيرها، وسميت في بعض التفاسير «سورة أرأيت»، وكذلك في مصحف من مصاحف القيروان في القرن الخامس، وكذلك عنونها في صحيح البخاري، وعنونها ابن عطية بـ «سورة أرأيت الذي» وقال الكواشي في التلخيص: «سورة الماعون والدين وأرأيت»، وفي الإتقان تسمى: «سورة الدين»، وفي حاشيتي الخفاجي وسعدي تسمى «سورة التكذيب»، وقال البقاعي في «نظم الدرر» تسمى: «سورة اليتيم» وهذه ستة أسماء.

(٢) ابن ماجه (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن وصححه الألباني بشواهده في الإرواء (٨٢).

(٣) قال ابن عاشور: سميت هذه السورة في جميع المصاحف التي رأيناها وفي جميع التفاسير أيضًا «سورة الكوثر» وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه. وعنونها البخاري في صحيحه سورة «إنا أعطيناك الكوثر».

قلنا: فيه قولان:

أحدهما: وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما أنه الخير الكثير فوعل من الكثرة، كقولهم: رجل نوفل، أي كثير النوافل، ومنه قول الشاعر:

وأنـتَ كَثِيـرٌ يـا ابـنَ مَـرْوانَ طَيِّـبٌ ... وكـانَ أَبُـوكَ ابـن العَقَائِـلِ كَـوْثَرًا[(١)]

قيل لأعرابية رجع ابنها من سفر: كيف آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. ولقد أعطى النبي ﷺ خيرًا كثيرًا، فإنه آتاه الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ومنهم من فسر هذا الخير الكثير بالنبوة، ومنهم من فسره بالعلم والحكمة، ومنهم من فسره بالقرآن.

والقول الثاني: أن الكوثر اسم نهر في الجنة، وهو قول أكثر المفسرين وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الْكَوْثَرُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي فِي الجَنَّةِ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)]. وعنه ﷺ أيضًا، في الحديث أنه قال: «**بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا بِنَهْرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيل؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَضَرَبَ المَلَكُ بِيَدِهِ فَإِذَا طِينُهُ الْمِسْكُ الأَذْفَرُ**»[(٣)]. وروي عن صفته أنه أحلى من العسل وأشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، وحافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء، لا يظمأ من شرب منه أبدًا[(٤)].

* * *

(١) من الطويل - للكميت في ديوانه ١/ ٢٠٩ ولسان العرب ٥/ ١٣٣ كثر وتهذيب اللغة ١٠/ ١٧٨ وأساس البلاغة كثر والمخصص ٣/ ٣ والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٣/ ١٠٠).

(٢) مسلم (٦٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٦٠٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) في سنن الترمذي (٣٢٨٤) بإسناد صحيح بشواهده عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَر قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ**»، وكون آنيته عدد نجوم السماء فهذا ثابت في صحيح البخاري (٤٥٨٣) من حديث أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَ: سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قَالَتْ: نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ.



سورة الكافرون(١)

١٢٢٧- **فإن قيل:** كيف قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]؛ ولم يقل «من»، مع أنه القياس؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أنه إنما قال «ما» رعاية للمقابلة في قوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢].

الثاني: أن «ما» مصدرية، أي لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي. وقال الزمخشري: إنما قال «ما» لأن المراد الصفة؛ كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقال غيره: «ما» في الكل بمعنى الذي، والعائد محذوف.

١٢٢٨- **فإن قيل:** ما فائدة التكرار؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أنه للتأكيد وقطع أطماعهم فيما طلبوه منه.

الثاني: أن الجملتين الأوليين لنفي العبادة في الحال، والجملتين الأخريين لنفي العبادة في الاستقبال فلا تكرار فيه؛ وهذا قول ثعلب والزجاج. والخطاب لجماعة علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون. وقال الزمخشري: ما يرد الوجه الثاني، وذلك أنه قال لا أعبد أريد به العبادة في المستقبل؛ لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، فالجملتان الأوليان لنفي العبادة في المستقبل، والجملتان الأخريان لنفي العبادة في الماضي، فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون: ٤] أي ما عهدتم من عبادة الأصنام في الجاهلية. فكيف يرجى مني بعد

---

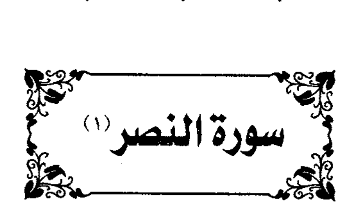
(١) قال ابن عاشور: عنونت هذه السورة في المصاحف التي بأيدينا قديمها وحديثها وفي معظم التفاسير «سورة الكافرون» بإضافة «سورة» إلى «الكافرون» وثبوت واو الرفع في الكافرون على حكاية لفظ القرآن الواقع في أولها، ووقع في الكشاف وتفسير ابن عطية وحرز الأماني «سورة الكافرين» بياء الخفض في لفظ «الكافرين» بإضافة سورة إليه أن المراد سورة ذكر الكافرين أو نداء الكافرين، وعنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه «سورة قل يا أيها الكافرون» قال في الكشاف والإتقان: وتسمى هي وسورة قل هو الله أحد بالمشقشقتين؛ لأنهما تشقشقان من الشرك أي تبرئان منه يقال: قشقش إذ أزال المرض.

الإسلام، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، أي ما عبدتم في وقت ما، ما أنا على عبادته، ويرد على قوله والجملتان الأخريان لنفي العبادة في الماضي أن اسم الفاعل المنون العامل عمل الفعل لا يكون إلا بمعنى الحال أو الاستقبال، وعابد هنا عامل في «ما» وكذلك عابدون، وجوابه أنه على الحكاية كما قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]، وأورد على هذا التقدير فقال.

١٢٢٩- **فإن قيل:** هَلَّا قال تعالى: ولا أنتم عابدون ما عبدت، بلفظ الماضي، كما قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون: ٤].

قلنا: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل بعثه، وهو ما كان يعبد الله تعالى قبل بعثه، بل بعد بعثه، ويرد على هذا التقدير: أن أعظم العبادة التوحيد، وكل الأنبياء كانوا موحدين بعقولهم قبل البعثة. وقال بعض العلماء: إنما جاء الكلام مكررًا لأنه ورد جوابًا لسؤالهم مناوبة، وكان سؤالهم مكررًا، فإنهم قالوا: يا محمد تعبد آلهتنا كذا مدة ونعبد إلهك كذا مدة، ثم تعبد آلهتنا كذا مدة ونعبد إلهك كذا مدة، فورد الجواب مكررًا ليطابق السؤال، وهذا قول حسن لطيف.

* * *



سورة النصر[1]

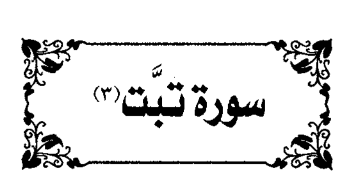
١٢٣٠- **فإن قيل:** أي مناسبة بين الأمر بالاستغفار وبين ما قبله، فإن مجيء الفتح والنصر يناسب الشكر والحمد لا الاستغفار والتوبة؟

---

(١) سميت هذه السورة في كلام السلف «سورة إذا جاء نصر الله والفتح»، روى البخاري: أن عائشة قالت: لما نزلت «سورة إذا جاء نصر الله والفتح». الحديث، وسميت في المصاحف وفي معظم التفاسير «سورة النصر» لذكر نصر الله فيها فسميت بالنصر المعهود عهدًا زكريًا، وهي معنونة في جامع الترمذي «سورة الفتح» لوقوع هذا اللفظ فيها فيكون هذا الاسم مشتركًا بينها وبين «إنا فتحنا لك فتحا مبينا»، وعن ابن مسعود أنها تسمى «سورة التوديع» في الإتقان لما فيها من الإيماء إلى وداعه ﷺ. اهـ. يعني من الإشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى، وهي مدنية بالاتفاق اهـ. من التحرير والتنوير.

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت هذه السورة علم النبي ﷺ أنه نعيت إليه نفسه[(١)]. وقال الحسن: أعلم النبي ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح والاستغفار والتوبة ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر من قوله: «**سبحانك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم**»[(٢)]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن هذه السورة تسمى سورة التوديع، وروي أن النبي ﷺ عاش بعد نزولها سنتين.

* * *



سورة تبَّت[(٣)]

١٢٣١ - فإن قيل: كيف ذكره الله تعالى بكنيته دون اسمه، مع أن ذلك إكرام واحترام؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه يجوز أنه لم يعرف له اسم ولم يشتهر إلا بكنيته، فذكره بما اشتهر به لزيادة تشهيره بدعوة السوء عليه.

الثاني: أنه نقل أنه كان اسمه عبد العزّى، وهو كان عبد الله لا عبد العزّى، فلو ذكره باسمه لكان خلاف الواقع.

الثالث: أنه ذكره بكنيته لموافقة حاله لكنيته، فإن مصيره إلى النَّار ذات اللَّهب، وإنما كنّي بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما.

---

(١) أحمد (٣٠٣٢)، والدارمي (٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن.

(٢) البخاري (٧٧٥)، ومسلم (١١١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها ولفظه: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ.

(٣) قال ابن عاشور رحمه الله: سميت هذه السورة في أكثر المصاحف «سورة تبت»، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وفي أكثر كتب التفسير تسمية لها بأول كلمة فيها، وسميت في بعض المصاحف وفي بعض التفاسير «سورة المسد» واقتصر في الإتقان على هذين، وسماها جمع من المفسرين «سورة أبي لهب» على تقدير: سورة ذكر أبي لهب. وعنونها أبو حيان في تفسيره «سورة اللهب» ولم أره لغيره، وعنونها ابن العربي في أحكام القرآن «سورة ما كان من أبي لهب» وهو عنوان وليس باسم وهي مكية بالاتفاق ا.هـ. من التحرير والتنوير.

سورة الإخلاص[1]

١٢٣٢- **فإن قيل:** فالمشهور في كلام العرب أن الأحد يستعمل بعد النفي، والواحد يستعمل بعد الإثبات، يقال: في الدار واحد، وما في الدار أحد، وجاءني واحد وما جاءني أحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ [التوبة: ٨٤] ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [الحاقة: ٤٧] فكيف جاء هنا أحد في الإثبات؟

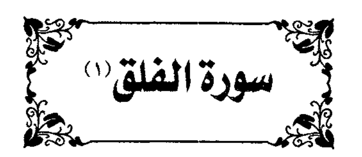
قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا فرق بين الواحد والأحد في المعنى، واختاره أبو عبيدة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، وقولهم أحد وعشرون وما أشبهه. وإذا كانا بمعنى واحد لا يختص أحدهما بمكان دون مكان، وإن غلب استعمال أحدهما في النفي والآخر في الإثبات. ويجوز أن يكون العدول عن الغالب هنا رعاية لمقابلة الصمد.

* * *

---

(١) قال ابن عاشور: المشهور في تسميتها في عهد النبي ﷺ وفيما جرى من لفظه، وفي أكثر ما روي عن الصحابة تسميتها «سورة قل هو الله أحد»، روى الترمذي عن أبي هريرة، وروى أحمد عن أبي مسعود الأنصاري، وعن أم كلثوم بنت عقبة: أن رسول الله ﷺ قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**»، وهو ظاهر في أن أراد تسميتها بتلك الجملة لأجل تأنيث الضمير من قوله: «**تعدل**»، فإنه على تأويلها بمعنى السورة، وقد روي عن جمع من الصحابة ما فيه تسميتها بذلك فذلك هو الاسم الوارد في السنة، ويؤخذ من حديث البخاري عن إبراهيم، عن أبي سعيد الخدري ما يدل على أن رسول الله ﷺ قال: «**الله الواحد الصمد**» ثلث القرآن فذكر ألفاظًا تخالف ما تقرأ به ومحمله على إرادة التسمية. وذكر القرطبي أن رجلاً لم يسمه قرأ كذلك والناس يستمعون وادعى أن ما قرأ به هو الصواب وقد ذمه القرطبي وسبه وسميت في أكثر المصاحف وفي معظم التفاسير وفي جامع الترمذي «سورة الإخلاص»، واشتهر هذا الاسم لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة؛ لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى أي: سلامة الاعتقاد من الإشراك بالله غيره في الإلهية.





سورة الفلق(١)

١٢٣٣- فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق: ٢] يتناول كل ما بعده، فما الفائدة في الإعادة؟

قلنا: خص شر هذه الأشياء الثلاثة بالذكر تعظيمًا لشرها، كما في عطف الخاص على العام تعظيمًا لشرفه وفضله، أو خصها بالذكر لخفاء شرها، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يشعر به؛ ولهذا قيل: شر الأعداء المداجي، وهو الذي يكيد الإنسان من حيث لا يعلم.

١٢٣٤- فإن قيل: كيف عرَّف سبحانه ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ ونكّر ما قبلها وما بعدها؟

قلنا: لأن كل نفاثة لها شر وليس كل غاسق وهو الليل له شر، وكذا ليس كل حاسد له شر؛ بل رُبَّ حسدٍ محمودٍ وهو الحسد في الخيرات، ومنه قوله ﷺ: «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ»(٢) الحديث. وقال أبو تمام(٣):

وما حاسدٌ في المَكْرماتِ بحاسِد

---

(١) قال ابن عاشور: سمى النبي ﷺ هذه السورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، روى النسائي عن عقبة بن عامر قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف فقال: «لن تقرأ شيئًا أبلغ عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾». قلت: وإسناده صحيح، وهذا ظاهر في أنه أراد سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؛ لأنه كان جوابًا على قول عقبة: أقرأني سورة هود.. إلخ؛ ولأنه عطف على قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يتم سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وعنونها البخاري في صحيحه «سورة قل أعوذ برب الفلق» بإضافة سورة إلى أول جملة منها وجاء في بعض كلام الصحابة تسميتها مع سورة الناس «المعوذتين». روى أبو دواد والترمذي وأحمد عن عقبة بن عامر قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات «بكسر الواو المشددة وبصيغة الجمع بتأويل الآيات المعوذات أي آيات السورتين» وفي رواية: «بالمعوذتين في دبر كل صلاة» ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تسمى المعوذة بالإفراد وقد سماها ابن عطية سورة المعوذة الأولى فإضافة «سورة» إلى «المعوذة» من إضافة المسمى إلى الاسم، ووصف السورة بذلك معجاز يجعلها كالذي يدل الخائف على المكان الذي يعصمه من مخيفه، أو كالذي يدخله المعاذ، وسميت في أكثر المصاحف ومعظم كتب التفسير «سورة الفلق».

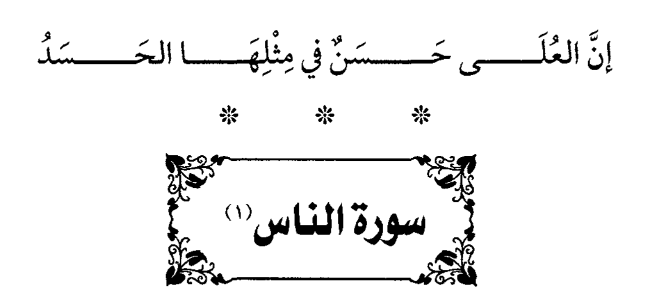
(٢) البخاري (٧١)، ومسلم (١٣٥٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) هو حبيب بن أوس الطائي أبو تمام ولد بجاسم من قرى حوران بسورية ت ٨٤٦م نشأ بمصر من آثاره فحول الشعراء، ديوان الحماسة نقائض جرير والأخطل انظر (معجم المؤلفين ٣/ ١٨٣).

وقال:

إنَّ العُلَى حَسَنٌ في مِثْلِهَا الحَسَدُ

* * *



سورة الناس(١)

١٢٣٥- **فإن قيل:** كيف خص الناس بالذكر، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، وهو ربُّ كل شيء ومالكه وإلهه؟

قلنا: إنّما خصهم بالذكر تشريفًا لهم، وتفضيلًا على غيرهم؛ لأنهم أهل العقل والتمييز.

الثاني: أنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم ذكر مع ذلك أنه ربهم ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم.

الثالث: أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي هو إلههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض العبيد إذا اعتراه خطب بسيده ومخدومه وولي أمره.

١٢٣٦- **فإن قيل:** هل قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] بيان للذي يوسوس على أن الشيطانَ الموسوس ضربان جنّي وإنسي، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] أو بيان للناس الذي أضيفت الوسوسة إلى صدورهم، والناس المذكور آخرًا بمعنى الإنس؟

قلنا: قال بعضُ أئمة التفسير: المراد المعنى الأول؛ كأنه قال: مِن شر الوسواس

---

(١) قال ابن عاشور: عنونها ابن عطية في المحرر الوجيز «سورة المعوذة الثانية» بإضافة «سورة» إلى «المعوذة» من إضافة الموصوف إلى الصفة، وعنونهما «أي هي وسورة الفلق» الترمذي: «المعوذتين»، وعنونها البخاري في صحيحه: «سورة قل أعوذ برب الناس»، وفي مصاحفنا القديمة والحديثة المغربية والمشرقية تسمية هذه السورة «سورة الناس» وكذلك أكثر كتب التفسير.

تم بحمد الله

وكتبه/أبو عبد الرحمن عادل شوشة

مصر – المنصورة

الجنّي، ومن شرّ الوسواس الإنسي، فهو استعاذة بالله تعالى من شر الموسوسين من الجنسين، وهو اختيار الزّجّاج، وفي هذا الوجه إطلاق لفظ الخناس على الإنسي، والنقل أنه اسم للجني، وقال بعضهم: المراد المعنى الثاني، كأنه قال: من شر الوسواس الجني الذي يوسوس في صدور الناس، من جنهم وإنسهم؛ فسمى الجن ناسًا كما سماهم نفرًا ورجالًا، في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الجن: ١]، وقوله تعالى: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الجن: ٦] . فهو استعاذة بالله من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الجن، كما يوسوس في صدور الإنس، وهو اختيار الفراء، والمراد من الجنة هنا، الشياطين من الجن على الوجه الأول، ومطلق الجن على الوجه الثاني، لأن الشيطان منهم هو الذي يوسوس لا غيره؛ ومطلقهم يوسوس إليه. واختار الزمخشري الوجه الأول. وقال: ما أحق أن اسم الناس ينطلق على الجنّ؛ لأن الجن سموا جنًّا لاجتنانهم، أي: لاستتارهم، والناس سموا أناسًا لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار، كما سموا بشرًا لظهورهم من البشرة، ولو صح هذا الإطلاق لم يكن هذا المجمل مناسبًا لفصاحة القرآن. قال: وأجود منه أن يراد بالناس الأول الناسي، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[القمر: ٦] وكما قرئ «**من حيث أفاض الناسي**» ثم بيّن بالجنّة والنّاس؛ لأن الثقلين هما الجنسان الموصوفان بنسيان حقوق الله تعالى، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

